العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

تحقيق

الدكتور مفيد محمد قميحة

مكتبة المعارف

الرياض

ابن عبد ربه

دار الكتب العلمية

العِقْدُ الفَرِيد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

مُفيد محمّد قميحة

الجُزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ ـ ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء ـ بناية ملكارت سنتر

بسم الله الرحمن الرحيم

[ربِّ يسِّر وأعِن

قال أبو عمرو أحمدُ بنُ عَبْدِ ربِّه الأندلسيُّ، رحمه الله]:

الحمد لله الأوَّلِ بلا ابتداء، الآخرِ بلا انْتِهاء؛ المُنْفرِدِ بقُدْرته، المُتَعالِي في سُلْطانه؛ الذي لا تَحْويه الجِهات ولا تَنْعَته الصِّفات؛ ولا تُدْرِكه العُيون، ولا تَبْلُغه الظُّنُّون؛ البَادِيء بالإحسان، العائِد بالامْتِنان؛ الدالِّ على بَقائه بفناء خَلْقِه، وعلى قُدْرته بعَجْز كلِّ شيء سواه؛ المُغتفِرِ إساءةَ المُذْنِب بعَفْوه، وجَهْلَ المُسِيء بحِلْمه؛ الذي جَعل مَعْرِفَته اضْطِراراً، وعبادتَه اختياراً؛ وخَلَق الخَلْق مِن [بين] ناطِق مُعْتَرِف بوَحْدانيّته، وصَامِتٍ مُتَخَشِّعٍ لرُبُوبيّته؛ لا يَخْرُج شيء عن قُدْرَته، ولا يَعْزُب[١] عن رُؤْيته؛ الذي قَرَن بالفضل رَحْمَتَه، وبالعَدْل عَذابَه؛ فالناسُ مَدِينُون بين فَضْله وعَدْله، آذِنُون بالزَّوال، آخِذون في الانتِقال؛ من دار بَلاء، إلى دار جزاء.

أَحْمَدُهُ على حِلْمه بعد عِلْمه، وعلى عَفْوه بعد قُدْرته؛ فإنّه رَضِي الحمدَ ثَمَناً لجزيل نَعْمائه، وجَلِيل آلائِه[٢]؛ وجعله مِفْتاح رَحْمته، وكِفاءَ نِعْمته، وآخِرَ دَعوى أهلِ جنّته، بقوله جلَّ وعزّ: ﴿وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمين﴾[٣]

---

(١) يعزب: يغيب.

(٢) آلائه: نعمه.

(٣) سورة يونس الآية ١٠.

وصلّى الله على [سيّدنا محمد] النبيّ المكرَّم، الشافع المقرَّب، الذي بُعِث آخِراً وآصطُفِيَ أوّلاً، وجعَلَنا مِن أهل طاعته، وعُتَقاء شفاعته.

وبعد: فإنَّ أهلَ كلِّ طبقة، وجَهابِذَة[1] كلِّ أُمَّة؛ قد تكلّموا في الأَدَب وتَفَلسَفوا في العلوم على كلّ لِسان، ومع كلّ زمان؛ وإنّ كلّ متكلّم منهم قد استفرغ غايتَه وبذَل مجهوده في اختِصار بَديعِ مَعاني المُتقدِّمين، واختيار جواهر ألفاظ السالِفين؛ وأكثروا في ذلك حتى احتاج المُخْتَصَر منها إلى اختصار، والمُتخَيَّر إلى آخْتِيار.

ثم إني رأيتُ آخِرَ كلِّ طَبقة، وواضِعي كلِّ حكْمة ومؤلِّفي كل أدَب، أعذبَ ألفاظاً وأسهلَ بِنْيةً وأحْكمَ مَذْهباً وأوضحَ طريقةً من الأوّل، لأنه ناكِصٌ مُتَعقِّب[2]، والأوّل باديء مُتقدِّم.

فَلْيَنْظُر الناظرُ إلى الأوضاعِ المُحْكَمة والكُتب المُتَرجَمة بعَيْن إنْصاف، ثم يَجْعَل عقله حَكماً عادِلاً [وفَيْصلاً] قاطِعاً؛ فعِنْد ذلك يعلم أنها شَجَرة باسِقة الفَرْع، طَيِّبَة المَنْبت، زَكِيَّة التُّربة، يانِعة الثَّمَرَة. فمن أَخَذ بنَصيبه منها كان على إرْثٍ من النُّبوَّة، ومِنْهاجٍ من الحِكمة؛ لا يَسْتوحِش صاحبُه، ولا يَضِلّ من تَمَسَّك به.

وقد ألّفتُ هذا الكتابَ وتخيَّرت جواهرَه من مُتَخَيَّر جواهِر الآداب ومَحْصول جوامع البَيان، فكان جَوْهَر الجَوْهَر ولُباب الّلباب؛ وإنّما لي فيه تأليفُ [الأخبار، وفضل] الاختيار، وحُسْن الاختِصار، وفَرْش في صَدْر كلّ كِتاب؛ وما سِوَاه فمأخوذ من أفواه العُلَماء، ومأثورٌ عن الْحُكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعبُ من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وافِدُ عَقْله[3]. وقال الشاعر:

قد عَرَفْناك بآختيارِك إذ كا   نَ دليلاً على الّلبيب آختِيارُهْ

(١) الجهابذة: جمع جهبذ، وهو الخبير بالأمور المميّز بين جيدها ورديئها.

(٢) متعقب: متأخر. (٣) وافد عقله: أي صادر عنه ودليلٌ عليه.

وقال أفْلاَطون: عُقُول الناس مُدوَّنة في أطراف أقلامهم، وظاهرة في حُسْن اختيارهم.

فتطلَّبتُ نظائرَ الكلام وأشكالَ المعاني وجواهرَ الحِكَم وضُروبَ الأدب ونوادرَ الأمثال، ثم قَرَنْتُ كلَّ جِنْس منها إلى جِنْسه، فجعلته باباً على حِدَته؛ ليَسْتَدلّ الطالبُ للخَبَر على مَوْضعه من الكتاب، ونظيرِه في كلِّ باب.

وقصدتُ مِن جُمْلة الأخبار وفُنون الآثار أشرفَها جَوْهراً، وأظهرَها رَوْنقاً، وألطفَها معنًى، وأجْزلَها لَفْظاً، وأحسنَها ديباجة، وأكثرَها طلاوَةً وحلاوة؛ آخذاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه﴾ (١).

وقال يحيي بن خالِد: الناس يَكتُبون أحسنَ ما يَسْمعون، ويَحفْظون أحسنَ ما يكتبون: ويتحدَّثون بأَحْسنِ ما يَحفْظون.

وقال ابن سِيرين: العِلم أكْثَر من أن يُحاط به فخُذوا من كلِّ شيء أحسنَه.
وفيما بين ذلك سَقَط الرأي، وزَلَل القَوْل؛ ولكلِّ عالِمٍ هَفوَة [ولكلِّ جَوادٍ كَبْوَة]، ولكل صارِمٍ (٢) نَبْوَة.
وفي بعض الكتب: انفرد الله تعالى بالكمال، ولم يَبرَأ أحدٌ من النُّقْصان.
وقيل للعَتّابي: هل تَعْلم أحداً لا عَيْبَ فيه؟ قال: إنّ الذي لا عيبَ فيه لا يموت [أبداً]، ولا سَبيل إلى السّلامة من ألسنة العامّة.

وقال العَتّابي: من قَرَضَ شِعْراً أو وَضَع كِتاباً فقد آستَهدف للخُصوم وآستشرف للألْسُن، إلا عند من نَظر فيه بعَيْن العَدْل، وحَكَم بغَيْر الهوى، وقَلِيلٌ ما هُم.

وحذفتُ الأسانيدَ من أكثر الأخبار طَلَباً للاستِخفاف والإيجاز، وهرباً من

(١) سورة الزمر الآية ١٨.

(٢) نبا السيف عن الضريبة نبوة: لم يصبها.

التثْقيل والتَّطْويل؛ لأنها أَخْبارٌ مُمْتِعة وحِكَمٌ ونَوادر، لا ينفعها الإسْناد باتّصالِه، ولا يَضرّها ما حُذِف منها.

وقد كان بعضُهم يَحْذِف أسانيدَ الحديث من سنّةٍ مُتَّبَعة، وشَريعةٍ مَفْروضة؛ فكيف لا نحذِفه من نادِرَةٍ شاردة، ومَثَل سائر، وخبرٍ مُسْتَطرَفٍ، [وحديثٍ يَذهَب نورُه إذاطال وكَثُر].

سأل حَفْصُ بنُ غِيَاث الأَعْمشَ عن إسناد حديث. فأخذ بحَلْقه وأَسْنَدَه إلى حائط وقال: هذا إسنادُه!

وحدّث ابنُ السَّمّاك بِحَديث، فقيل له: ما إسنادُه؟ فقال: هو من المُرْسَلات عُرْفاً[1].

[ورَوَى الأصمعِيّ خبراً، فَسُئِل عن إسناده. فقال: هو من الآيات المُحْكَمات التي لا تحتاج إلى دليل وحُجَّة].

وحَدّث الحسنُ البَصْريُّ بحديث، فقيل له: يا أبا سَعيد، عَمّن؟ قال: وما تَصْنع بعَمّن يا بنَ أخي؟ أمّا أنت فنالتْك موعظتُه، وقامتْ عليك حُجَّته.

وقد نظرتُ في بعض الكُتُب المَوْضوعة فوجدتها غَيرَ متصرّفة في فُنون الأخبار، ولا جامعةٍ لجمل الآثار؛ فجعلتُ هذا الكتابَ كافياً [شافياً] جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامّة والخاصّة. وتَدُور على أَلْسِنة المُلوك والسُّوقة. وحَلَّيت كلّ كِتاب منها بشواهدَ من الشِّعر، تُجانِس الاخْبار في مَعانيها، وتُوافِقُها في مَذَاهِبها؛ وقَرَنْتُ بها غرائبَ من شِعري، لِيَعْلَمَ الناظرُ فِي كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته[2]، وبَلَدِنا على انقطاعه، حظّاً من المنظوم والمَنْثور.

---

(١) المرسلات عرفا: قيل الرياح المرسلات، وعرفاً: يتبع بعضها بعضاً.

(٢) قاصيته: بعده.

وسمّيته كتابَ (العقد الفريد) لِمَا فيه من مُختلف جَواهر الكلام، مع دقّة السَّلْك وحُسْن النِّظام؛ وجَزّأته على خمسةٍ وعِشْرينَ كتاباً، كل كتاب منها جُزآن، فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً [و] قد انفرد كلٌّ كتاب منها بآسمِ جَوْهرة من جواهر العِقْد، فأوّلها:

كتاب اللؤلؤة في السلطان.

ثم كتاب الفَريدة في الحُروب [ومَدار أمرها].

ثم كتاب الزَّبَرْ جدة في الأجواد والأصفاد.

ثم كتاب الجُمَانة في الوُفود.

ثم كتاب المَرْجانة في مُخاطبة الملوك.

ثم كتاب الياقوتة في العِلْم والأدب.

ثم كتاب الجوهرة في الأمثال.

ثم كتاب الزُّمُرُّدة في المواعظ والزُّهد.

ثم كتاب الدُّرّة في التعازي والمَراثي.

ثم كتاب اليَتيمة في النسب [وفَضائل العَرب].

ثم كتاب المَسْجَدة في كلام الأعراب.

ثم كتاب المُجَنِّبة في الأَجْوبة.

ثم كتاب الواسطة في الخُطَب.

ثم كتاب المُجَنِّبة الثانية في التَّوْقيعات والفُصول والصُّدور وأخبار الكتَبة.

ثم كتاب المَسْجدة الثانية في الخُلفاء وتَواريخهم وأيامهم.

ثم كتاب اليَتيمة الثانية في أخبار زياد والحجّاج [والطالبيِّين والبرامكة].

ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم.

ثم كتاب الزُّمرّدة الثانية في فضائل الشِّعر ومَقاطعه ومَخارجه.

ثم كتاب الجوهرة الثانية في أَعاريض الشِّعر وعِلَل القوافي.

ثم كتاب الياقوتة الثانية في [علم][1] الألحان واختلاف الناس فيه .

ثم كتاب المَرجانة الثانية في النّساء وصِفاتهنّ .

ثم كتاب الجُمَانة الثانية في المُتنبّئين والمَمْرورين والبُخَلاء والطُّفيليّين .

ثم كتاب الزَّبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان [وتفاضل البلدان] .

ثم كتاب الفَريدة الثانية في الطَّعام والشراب .

ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في [النُّتف والهدايا و] الفُكاهات والمُلَح .

---

(١) هذه الكلمة التي بين مربعين ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها أخذاً عن عنوان هذا الباب في موضعه من الكتاب .

كتاب اللؤلؤة في السلطان

فرش الكتاب:

السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقِوام الحُدود والقطب الذي عليه مدار [الدين و] الدنيا. وهو حِمَى الله في بلاده وظِلّه الممدود على عباده، به يَمتنع حريمُهم، ويَنتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم[١]، ويأمن خائفهم.

للحكماء:

قالت الحكماء: إمام عادل، خير من مَطر وابل[٢]. وإمام غَشوم، خير من فِتنة تدوم. ولَمَا يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يَزَع بالقرآن[٣].

وقال وهب بن مُنَبِّه: فيما أنزل الله على نبيه داودَ عليه السلام: إني أنا الله مالك الملوك، قُلوب الملوك بيدي. فمن كان لي على طاعة جَعلت الملوك عليهم رحمة، ومن كان لي على مَعصية جعلت الملوك عليهم نقمة.

فحق على من قلّده الله أزمَّةَ حُكمه، وملّكه أمورَ خَلْقه، وآختصه بإحسانه، ومَكَّن له في سلطانه، أن يكون من الآهتمام بمصالح رعيّته، والاعتناء بمرافق أهل طاعته، بحيث وضعه اللهُ من الكرامة، وأجْرَى عليه من أسباب السعادة.

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْض أقامُوا الصَّلاة وآتوا الزّكاةَ وأَمَرُوا بالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَن الْمُنْكر وللهِ عاقِبَةُ الأمور﴾[٤].

(١) ينقمع: يرتدع. (٢) الوابل: المطر المنهمر.
(٣) يزع: يمنع المحارم. (٤) سورة الحجّ الآية ٤١.

للنبي ﷺ:

وقال النبي ﷺ: «عدل ساعةٍ في حُكومة خيرٌ من عبادةِ ستين سنة». وقال ﷺ. كلّكم راعٍ، وكلّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته.

وقال الشاعر:

فكُلّكُمُ رَاعٍ ونَحْنُ رَعِيّةٌ ... وكلٌّ يُلاقِي رَبَّهُ فيُحاسِبُهْ

ومن شأن الرعيّة قلة الرضى عن الأئمة، وتَحَجُّرُ العُذْر عليهم[1]، وإلزامُ اللائمة لهم ورب مَلومٍ لا ذنب له. ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة إذ كان رضى جملتها، وموافقةُ جماعتها من المُعجز الذي لا يُدْرَك والمُمتنِع الذي لا يُملك.

ولكلٍّ حِصتُه من العدل، ومنزلتُه من الحكم. فمن حقّ الإمام على رعيته أن يقضَي عليهم بالأغلب من فعله والأعمِّ من حكمه، ومن حق الرعيّة على إمامها حُسنُ القبول لظاهر طاعتها وإضرابُه صفحاً عن مكاشفتها، كما قال زياد لما قَدِم العراق والياً عليها: أيها الناس، قد كانت بين وبينكم إحَن[2]، فجعلت ذلك دَبْرَ[3] أذني وتحت قدمي، فمن كان مُحسناً فليزددْ في إحسانه، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته. إني لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السِّل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتِك له سِتراً حتى يُبدي صفحتَه لي[4].

لابن عمر:

وقال عبد الله بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فله الوزْرُ وعليك الصبر.

لكعب الأحبار:

وقال كعب الأحبار: مَثل الإسلام والسلطان والناس: مَثل الفُسطاط والعمود

---

(١) التحجُّر: التضييق.

(٢) الإحن: الحزازات والعداوات.

(٣) دبر: خلف.

(٤) صفحته: طويته.

والأوتاد. فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأوتاد الناس. ولا يصلح بعضها إلا ببعض.

وقال الأفوه الأوديّ:

لا يَصْلُح الناسُ فوْضَى لاسَـرَاة لهم ... ولا سَـرَاة إذا جُهَّالُهم سـادُوا[1]

والبَيْـتُ لا يُبْتَنَـى إلا لـه عَمَـدٌ ... ولا عِماَدَ إذا لم تُـرْسَ أَوْتَـادُ

وإنْ تَجَمَّـع أوتـادٌ وأعْمِـدةٌ ... يوماً فقدْ بَلَغُوا الأمْرَ الذي كـادُوا

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يأيُّها الذينَ آمَنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرَّسُول وأُولِي الأَمْر مِنْكُمْ﴾[2].

وقال أبو هُريرة: لما نَزلت هذه الآية أُمرنا بطاعة الأئمة. وطاعتُهم من طاعة الله، وعصيانُهم من عصيان الله.

للنبي ﷺ:

وقال النبي ﷺ: «مَن فارق الجماعة أو خَلع يداً من طاعة مات مِيتةً جاهليّة».

وقال ﷺ: «الدينُ النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأُولي الأَمر منكـم».

فنُصْح الإمام ولزومُ طاعته فرضٌ واجب وأمرٌ لازم، ولا يتم إيمانٌ إلاّ به، ولا يثبت إسلام إلا عليه.

مما وصى به العباس ابنه حين قدمه عمر:

الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال لي أبي: أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب - يَستفهمك ويقدِّمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ. وإني

---

(١) السراة: السادة والقادة. (٢) سورة النساء الآية ٥٩.

مُوصيك بخلال أربع: لا تُفْشِيَنَّ له سرّاً، ولا يُجَرِّبَنَّ عليك كذباً، ولا تَطْوِ عنه نصيحة، ولا تغْتابَنَّ عنده أحدا.

قال الشعبي: فقلت لآبن عباس: كل واحدة خير من ألف. قال: إي والله، ومن عشرة آلاف.

لرجل من الهند ينصح ملكاً:

وفي كتاب للهند[1]: أنّ رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال: أيها الملك، إنّ نصيحتك واجبة في الصغير الحقير والكبير الخطير، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك، واحتمالِك ما يَشُقّ[2] موقعُه [من الأسماع والقلوب][3] في جَنْب صلاح العامة وتلافي الخاصة، لكان خُرْقاً مني[4] أن أقول؛ ولكنا إذا رجعنا إلى أنّ بقاءنا موصول ببقائك، وأنفُسَنا متعلقة بنفسك، لم نجد بدّاً من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلني ذلك، فإنه يقال: مَن كَتم السلطانَ نصيحتَه، والأطباء مرضَه، والإخوانَ بَثّه[5]، فقد أخلّ بنفسه؛ وأنا أعلم أنّ كل كلام يكرهه سامعُه لا يتشجّع عليه قائلُه، إلا أن يثق بعقل المَقُول؛ فإنه إذا كان عاقلاً آحتمل ذلك؛ لأنه ما كان فيه من نَفْع فهو للسامع دون القائل. وإنّك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي وتصرُّفٍ في العلم، ويُشجعني ذلك على أن أخبرك بما تكره، واثقاً بمعرفتك نصيحتي لك وإيثاري إيّاك على نفسي.

ابن عتبة ينصح الوليد:

وقال عمرو بن عُتبة للوليد حين تغيّر الناسُ عليه: يا أمير المؤمنين، إنه يُنطقني الأُنسُ بك، وتُسكتني الهيبة لك، وأراك تأمن أشياءَ أخافها عليك، أفأسكتُ مُطيعاً أم أقولُ مشفقاً؟ قال: كلٌّ مقبول منك، ولله فينا عِلمُ غيب نحن صائرون إليه. فقُتل بعد ذلك بأيام.

---

(١) يقصد كليلة ودمنة، لابن المقفع، وكذلك شأنه في أكثر ما يقول: « كتاب الهند ».

(٢) يشق: يضني ويتعب.

(٣) التكملة من عيون الأخبار لابن قتيبة.

(٤) الخرق: الجهل والطيش.

(٥) البث: نشر الحديث والافصاح عنه.

لابن صفوان في خالصة السلطان:

وقال خالد بن صَفوان: مَن صحب السلطانَ بالصحّة والنصيحة أكثرُ عَدُوّاً ممن صحبه بالغش والخيانة؛ لأنه يَجتمع على الناصح عدوُّ السلطان وصديقُه بالعداوة والحسد، فصديقُ السلطان يُنافسه في مَرتبته، وعدوُّه يُبغضه لنصيحته.

ما يصحب به السلطان

لابن المقفع في خادم السلطان:

قال ابن المقفع: ينبغي لمن خَدم السلطان ألا يغتر به إذا رضي ولا يتغيّر له إذا سَخط، ولا يَستثقل ما حمّله، ولا يُلحف في مسألته. وقال أيضاً: لا تكن صُحبتُك للسلطان إلا بعد رياضة[1] منك لنفسك على طاعتهم. فإن كنتَ حافظاً إذا ولّوك، حَذِراً إذا قرّبوك، أميناً إذا ائتمنوك ذليلاً إذا صَرَموك[2]، راضياً إذا أسخطوك، تعلِّمهم وكأنك متعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنك متأدب بهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر. وإلا فالبعدَ منهم كلَّ البعد، والحذرَ منهم كل الحذر.

وقال المأمون: الملوك تتحمّل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القَدحَ في الملك، وإفشاءَ السر، والتعرُّضَ للحَرَم.

وقال ابن المقفع: إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له في كل كلمة؛ فإنّ ذلك يُوجب الوحشةَ ويُلزم الانقباض[3].

وقال الأصمعي: توصلتُ بالمُلَح وأدركتُ بالغريب[4].

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك: إنما السلطان سوق، فما نفق عنده حُمِل إليه.

---

(١) رياضة النفس: تدريبها.

(٢) الصرم: الهجر والقطيعة.

(٣) الانقباض: التجهُّم والتبرُّم.

(٤) الملح: نوادر الظرف والأدب.

وصاة أبي سفيان وزوجه لابنهما معاوية حين عمل لعمر:

ولما قَدِم معاوية من الشام، وكان عمر قد استعمله عليها، دخل على أمه هِند؛ فقالت له: يا بُنيّ، إنه قلما ولدت حُرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فآعمل بما وافقه أحببتَ ذلك أم كرهتَه. ثم دخل على أبيه أبي سفيان؛ فقال له: يا بنيّ، إنّ هؤلاء الرهط[1] من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفَعَهم سَبَقُهُم وقصّر بنا تأخُّرنا، فصِرنا أتباعاً وصاروا قادة؛ وقد قلّدوك جسيماً من أمرهم؛ فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمدٍ لم تبلغه، ولو قد بلغتَه لتنفَّسْتَ[2] فيه.

قال معاوية: فعجبت من آتفاقهما في المعنى على آختلافهما في اللفظ.

لابرويز ينصح صاحب بيت ماله:

وقال أبْرَويز لصاحب بيت المال: إني لا أعذرك في خيانة درهم، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف؛ لأنك إنما تَحقن بذلك دمك وتُقيم أمانتك، فإنك إن خُنت قليلاً خنت كثيراً. واحترس من خصلتين: النُّقصان فيما تأخذ، والزيادةِ فيما تعطي؛ وآعلم أني لم أجعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والعُدَّة على العدوّ، إلا وأنت عندي آمَنُ من موضعه الذي هو فيه، وخواتمه التي هي عليه، فحقّق ظني باختياري إياك أحقق ظنَّك في رجائك إياي؛ ولا تتعوَّض بخير شرّاً، ولا برفعة ضعة، ولا بسلامة ندامة، [ولا بأمانة خيانة][3].

ليزيد بن معاوية ينصح سلماً حين ولاه خراسان:

ولما ولّى يزيد بن معاوية سَلَمَ بن زياد خُراسانَ قال له: إنّ أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتُك صغيراً؛ فلا تتكلنّ على عُذر مني فقد اتكلتُ على كفاية منك. وإياك مني قبل أن أقول إياي منك؛ فإن الظن إذا أَخلف مني فيك أخلف منك فيّ؛ وأنت في أدنَى حظك فاطلُب أقصاه، وقد أتعبك أبوك فلا تريحنَ نفسك.

---

(١) الرهط: الجماعة.　(٢) تنفست فيه: أي استرحت عنده.

(٣) التكملة من عيون الأخبار.

لعمر بن الخطاب ومعاوية حين قدم عليه الشام:

قال يزيد: حدّثني أبي أنّ عمر بن الخطاب لما قَدِم الشام قدم على حِمار ومعه عبدُ الرحمن بن عوف على حمار، فتلقَّاهما معاوية في موكب ثقيل، فجاوزَ عمرَ معاوية حتى أُخبر به، فرجع إليه. فلما قرُب منه نزل إليه، فأعرض عنه، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبتَ الرجل. فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية، أنت صاحبُ الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنا في بلدٍ لا نَمتنع فيها من جواسيس العدوّ ولا بُدّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان؛ فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه آنتهيت. فقال: لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأيُ أريب[1]؛ وإن كان باطلاً خُدعة أديب، وما آمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحَسَنٌ ما صَدَر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال: لِحُسن موارده جَشَّمناه ما جشّمناه[2].

الربيع الحارثي في حضرة ابن الخطاب:

وقال الربيع بن زياد الحارثيّ: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البَحْرين. فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقُدوم عليه هو وعُمّاله وأن يستخلفوا مَن هو مِن ثقاتهم حتى يرجعوا. فلما قدِمْنا أتيتُ يرفأ[3]، فقلت: يا يرفأ، ابنُ سبيلٍ مُسترشد، أَخبرني أيّ الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرى فيها عُمّاله؟ فأومأ إلى الخشونة. فأخذت خُفَّين مطارَقين[4]، ولبست جُبة صوف، ولُثت رأسي. بعمامة دَكْناء. ثم دخلنا على عمر، فصفَّنا بين يديه وصعّد فينا نظره وصَوَّب[5]، فلم تأخذ عينُه أحداً غيري، فدعاني؛ فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي. قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين. قال: فكم تُرزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل

---

(١) رأي أريب: رأي فيه الصواب والعقل.

(٢) جشمناه: حمّلناه.

(٣) يرفأ: غلام عمر بن الخطاب.

(٤) مطارقين: أي أطبقت نعل على نعل ثم خرزتا.

(٥) صوّب: أمعن النظر ووجّهه.

يوم. قال: كثير! فما تصنع بها؟ قلت: أتقوّت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لي، فما فَضَل منها فَعلى فقراء المسلمين. فقال: لا بأس، آرجع إلى موضعك؛ فرجعت إلى موضعي من الصف. ثم صعّد فينا وصوّب، فلم تقع عينه إلا عليّ، فدعاني؛ فقال: كم سِنُوك؟ فقلت: ثلاث وأربعون سنة قال: الآن حين استحكَمْت. ثم دعا بالطعام، وأصحابي حديثُو عهد بلين العيش وقد تجوّعت له، فأُتيَ بخبز يابس وأكسار بعير[1]، فجعل أصحابي يعافون ذلك، وجعلت آكل فأُجيد الأكل. فنظرتُ فإذا به يلحظني من بينهم، ثم سبقتْ مني كلمة تمنيت أني سُخْت في الأرض ولم ألفِظ بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدتَ إلى طعام هو ألْيَنُ من هذا. فزجرني وقال: كيف قلتَ؟ قلت: أقول: لو نظرتَ يا أمير المؤمنين إلى قُوتِك من الطحين فيُخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتُؤْتى بالخبز ليّناً وباللحم غريضاً. فسكَّن من غَربه وقال: هذا قصدتَ؟ قلت: نعم. قال: يا ربيع، إنا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صلائق وسبائك وصِناب، ولكني رأيت الله تعالى نَعى على قوم شهواتِهم فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ في حَياتِكُمُ الدُّنْيا وآسْتَمْتَعْتم بها﴾[2] ثم أمر أبا موسى أن يُقِرّني وأن يَستبدل بأصحابي!

ابن عبد ربه يفسر غريب الخبر:

قوله «لثتها على رأسي». يقال: رجل ألوث، إذا كان شديداً، وذلك من اللّوث؛ ورجل ألوث، إذا كان أهوج، مأخوذ من اللّوثة. يقال: (لثت عمامة على رأسي) يقول: أدرتها بعضها على بعض على غير استواء.

وقوله «صلائق» هي شيء يعمل من اللحم، فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى، يقال: صلقت اللحم، إذا طبخته، وصلقته إذا شويته.

وقوله «غريضاً» يقول طرياً. يقال: لحم غريض، تراد به الطراوة قال العتابي:

---

(١) في أكثر الأصول: وأكسارٍ بغير آدام.

(٢) سورة الأحقاف الآية ٢٠.

إذا مـــا فـــاتني لحم غـــريـــض ضربت ذراع بكـري فـاشتـويـتُ

و« سبائك » يريد الحُوَّارى من الخبز، وذلك أنه يُسبك فيؤخذ خالصه، والعرب تسمي الرقاق: السبائك.

و« الصناب » طعام يؤخذ من الزبيب والخردل، ومنه قيل للفرس: صِنابي إذا كان في لونه حمرة. قال جرير:

تُكَلِّفُني مَعـــايشَ آل زَيْـــدٍ ومَـنْ لِـي بـالمُرَقَّـق والصِّنـاب

وقوله: « أكسار بعير » فالكِسْر والقصَل والجزْل: العظم يفصل ما عليه من اللحم. وقوله « نعى على قوم شهواتهم » أي عابهم بها ووبّخهم.

زياد أول من استن ترك السلام على قادم عند السلطان:

ومما يُصحب به السلطان: ألا يُسَلَّم على قادم بين يديه، وإنما استَنَّ ذلك زياد بن أبيه؛ وذلك أن عبد الله بن عباس قَدِم على معاوية وعنده زياد؛ فرحّب به معاوية وألطفه وقرَّب مجلسَه ولم يكلِّمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة! كأنك أردتَ أن تُحدث بيننا وبينك هجرا. قال: لا، ولكنه لا يُسَلَّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. فقال له ابن عباس: ما تَرك الناسُ التحية بينهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كُفَّ عنه يا بن عباس، فإنك لا تشاء أن تغْلِب إلا غَلَبْت.

ترك أبي مسلم السلام على المنصور بحضرة السفاح:

دخل أبو مسلم على أبي العباس وعنده المنصور. فسلم على أبي العباس. فقال له: يا أبا مسلم؛ هذا أبو جعفر! فقال له: يا أمير المؤمنين. هذا موضع لا يُقضَى فيه إلا حقك!

معاوية وابن العاص بين يدي عمر حين مقدمهما من الشام ومصر:

أبو حاتم عن العتبي قال: قَدِم معاوية من الشام، وعمروُ بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب؛ فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما، إلى أن آعترض عمروٌ في حديث معاوية، فقال له معاوية: أَعَمَلي تَعيب وإليّ تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك! قال عمرو: فعلمتُ أنه بعملي أبصر مني بعمله، وأنّ عمر لا يدع أولَ هذا الحديث حتى يصير إلى آخره؛ فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعتُ يدي فلطمتُ معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفهَ منك! قُم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبي أمرني ألاّ أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان. فلما أتاه ألقى له وسادة وقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية. فقال: لهذا بعثت إليّ؟ أخوه وابن عمه؛ وقد أتى غيرَ كبير، وقد وهبتُ ذلك له.

لبعضهم في تلمس الحيلة لنصيحة السلطان:

وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحةً وإن آستثقلها، وليكن كلامه له كلامَ رفق لا كلام خُرق، حتى يُخبره بعيبه من غير أن يُواجهه بذلك ولكن يضرب له الأمثال، ويُخبره بعيب غيره ليعرف عيبَ نفسه.

وقالوا: من تعرّض للسلطان آزدراه، ومن تطامن له تخطّاه[1]. فشبهوا السلطانَ في ذلك بالريح الشديد التي لا تَضُر بما لانَ وتمايلَ معها من الحشيش والشجر، وما آستهدف لها قصمتهْ[2]. قال الشاعر:

إن الرّياح إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَـتْ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يَعْبَأْنَ بالـرَّتَـمِ[3]

لشبيب في مسايرة السلطان:

وقال شبيب بن شيبة: ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد

---

(١) تطامن له: تطاول واستشرف. (٢) قصمته: قطعته.

(٣) النبع: من شجر الجبال تتخذ منه القسيّ، وربما افتدح به، والرتم: نبات من أدق الشجر كأنّه من دقته يشبّه بالرتم، وهي الخيوط.

الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

وزير للهند بين الملك والملكة:

وقرأت في كتاب للهند أنه أُهدي لملك ثياب وحَلي، فدعا بامرأتين له، وخيَّر أحظاهما عنده بين اللباس والحلي. وكان وزيره حاضراً فنظرت المرأة كالمشيرة له، فغمزها باللباس تغضينا[1] بعينه، فلحظه الملك. فاختارت الحِلْية لئلا يفطن للغمزة وصار اللباس للأخرى. فأقام الوزير أربعين سنة كاسراً عينه لئلا تَقَرَّ في نفس الملك، وليظن أنها عادة وخِلْقة.

اختيار السلطان لأهل عمله

لابن هبيرة يوصي مسلم بن سعيد حين وجهه إلى خراسان:

لما وجّه عُمر بن هُبيرة مُسلم بن سعيد إلى خُراسان قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلْقى الناس: إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء؛ وصاحب شرطتك، فإنه سوطُك وسيفك: حيث وضعتَها فأنت وضعتَها؛ وعُمّال القَدْر[2] قال: وما عمال القدر؟ قال: أن تختار من كل مورة[3] رجالاً لعملك، فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطئوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

اختيار ابن أرطاة بين إياس والقاسم:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أن آجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشنيّ فولِّ القضاء أنفذهما؛ فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الرجل، سَلْ عني وعن القاسم فقيهيَ البصرة: الحسنَ وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتي

---

(١) تغضيناً: إطباقاً وكسراً. (٢) عمال القدر: ذوو الشرف والحسب.

(٣) الكورة: المدينة والبقعة.

الحسنَ وابنَ سيرين وكان إياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عني ولا عنه ؛ فوالله الذي لا إله إلا هو إنّ إياس بن معاوية أفقهُ مني وأعلم بالقضاء ؛ فإن كنت كاذباً فما ينبغي أن توليني ، وإن كنتُ صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي . فقال له إياس : إنك جئتَ برجل فوقفته على شفير[1] جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال له عدي : أما إذ فهمتَها فأنت لها . فاستقضاه .

بين عدي وإياس في القراء :

وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية : دُلَّني على قوم من القُرّاء أوَلِّهم . فقال له : القرّاء ضربان : فضرب يعملون للآخرة ولا يعملون لك . وضرب يعملون للدنيا . فما ظنك بهم إذا أمكنْتَهم منها ؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يَسْتَحْيُون لأحسابهم فوَلِّهم .

أبو قلابة والقضاء :

أيوب السِّخْتِياني ، قال : طُلب أبو قِلاَبة لقضاء البصرة ، فهرب إلى الشام فأقام حيناً ثم رجع . قال أيوب : فقلت له : لو أنك وَليتَ القضاء وعدلت كان لك أجران . قال : يا أيوب ، إذا وقع السابح في البحر فكم عسى أن يسبح .

تولية عبد الملك الشعبي على قضاء البصرة :

وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه : دلّوني على رجل أستعمله . فقال له رَوْح ابن زنْباع : أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم ، وإن تركتموه لم يأتكم ، ليس بالمُلحف طلباً ، ولا بالمُمعِن هرباً : عامر الشَّعبي ؛ فولاه قضاء البصرة .

عمر بن عبد العزيز يسأل أبا مجلز عمّن يوليه خراسان :

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مِجْلز[2] عن رجل يولِّيه خراسان . فقال له : ما

---

(١) الشفير : الحافة .

(٢) في الأصول « أبا مخلد » والتصويب من الطبري .

تقول في فلان؟ قال: مَصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، يحدس أخاه وينافس أباه ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافىء الأكفاء ويعادي الأعداء ويفعل ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

عمر ورجل طلب عملاً:

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلاً، فبدر الرجل يطلب منه العمل فقال عمر: والله لقد أردتك لذلك، ولكن مَن طلبَ هذا الأمر لم يُعَنْ عليه.

وطلب رجلٌ من النبي ﷺ أن يستعمله. فقال: «إنا لا نستعمل على عملنا من يريده».

وطلب العباس عم النبي ﷺ إلى النبي ولاية. فقال: «ياعم، نفسٌ تحييها خير من ولاية لا تحصيها».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: فِرّ من الشرف يَتبعك الشرف؛ واحرص على الموت تُوهبْ لك الحياة.

وتقول النصارى: لا يُختار للجَثْلقة[1] إلا زاهداً فيها غيرَ طالب لها.

توليه ابن هبيرة لإياس:

وقال إياس بن معاوية: أرسل إليَّ ابنُ هبيرة فأتيتُه، فساكتَني فسكتّ، فلما أطلت قال: هيه. قلت: سل عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرَف. قال: إني أريد أن أستعين بك على عملي. قلت: إن فِيّ خلالاً[2] ثلاثاً لا أصلح معها للعمل. قال: ما هي؟ قلت: أنا دَميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عَيّ[3]. قال: أما دَمامتك فإني لا أُريد أن أُحاسن الناس

---

(١) الجثلقة: رياسة النصارى. (٢) الخلال: الصفات والمزايا.

(٣) الحديد: من الحدّة في الطبع، والعي: عدم القدرة على الافصاح والتعبير.

بك. وأما العيّ فإني أراك تُعرب عن نفسك، وأما الحدّة فإن السوط يقوّمك. [قُم قد ولّيتُك] قال: فولاّني وأعطاني مائة درهم، فهي أوّل مال تموّلتُه.

وقال الأصمعي: ولِيَ سليمان بن حَبيب المحاربي قضاءَ دمشق لعبد الملك والوليد وسليمانَ وعمرَ بن عبد العزيز ويزيدَ وهشام.

وأراد عمرُ بن عبد العزيز مكحولاً على القضاء فأبى عليه. قال له: وما يمنعك قال مكحول: قال رسول الله ﷺ: « لا يَقْضِي بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى ».

توليه ابن الخطاب للمغيرة مكان ابن أبي وقاص على الكوفة:

ولما قَدِم رجالُ الكوفة على عمرَ بن الخطاب يشكون سعدَ بن أبي وقّاص، قال: مَن يَعذِرني من أهل الكوفة، إن وليتُ عليهم التقيّ ضعّفوه، وإن وليت عليهم القويّ فَجَّروه[1]؟ فقال له المغيرة: يا أمير المؤمنين، إن التقيّ الضعيف له تقواه وعليك ضعفُه، والقويّ الفاجر لك قوّتُه وعليه فجورُه. قال: صدقت، فأنت القويُّ الفاجر فاْخرج إليهم. فلم يزل عليهم أيامَ عمرَ وصدراً من أيام عثمان وأيام معاوية، حتى مات المغيرة[2].

حسن السياسة وإقامة المملكة

للحجاج يصف سيرته للوليد:

كتب الوليدَ ن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظتُ رأيي وأنمتُ هواي، فأدنيت السيّدَ المُطاع في قومه، ووليت المجرِّب[3] الحازمَ في أمره، وقلّدت الخراجَ الموفِّر لأمانته، وقَسمت لكل خَصم من

(١) فجّروه: اتهموه بالفجر.
(٢) الخبر في شرح نهج البلاغة، ومحاضرات الادباء.
(٣) المجرّب: أي صاحب التجربة والخبره، وفي عيون الأخبار « الحَرْبَ »، وهو الشديد القوي.

نفسي قسماً أعطيه حظّاً من لطيف عنايتي ونظري؛ وصرفتُ السيفَ إلى النَّطِف[1] المسيء، والثوابَ إلى المحسن البريء؛ فخاف المريبُ صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

لأردشير يوصي ابنه:

وقال أردشير لآبنه: يا بني، إنّ المُلْك والعَدل أَخَوان لا غِنى بأحدهما عن صاحبه فالمُلْك أسٌّ والعدل حارس، وما لم يكن أسٌّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. يا بُنيّ آجعل حديثَك مع أهل المراتب، وعطيتَك لأهل الجهاد، وبشْرَك لأهل الدين، وسرَّك لمن عَنَاه ما عناك من ذوي العقول[2].

للحكماء في واجب السلطان:

وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان العدلُ في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه؛ فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها. وينبغي لمن كان سلطاناً أن يُقيم على نفسه حُجة الرعية. ومن كان رعية أن يقيم على نفسه حجة السلطان. وليكن حكمه على غيره بمثل حكمه على نفسه؛ فإنما يعرف حقوقَ الأشياء من عَرف مبلغ حدودها ومواقعَ أقدارها. ولا يكون أحد سلطاناً حتى يكون قبلَ ذلك رعيّة.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلُح له منكم إلا من كان له سيف مَسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب.

لبعض الملوك يصف سياسه:

ووصف بعض الملوك سياسته فقال: لم أهزل في وعد ولا وعيد، ولا أمرٍ ولا نهي

(١) النّطف: المتهم المريب.

(٢) انظر عيون الأخبار (١ ـ ١٣٠) ومحاضرات الأدباء (١ ـ ١٠٤) فبين الخبر هنا وهناك اختلاف في بعض الألفاظ.

ولا عاقبت للغضب. واستكفيت[١]، وأثَبْتُ[٢] على الغَناء لا للهوى. وأودعت القلوب هيبة لم يَشبْها مقت[٣]، ووداً لم تَشُبْه جرأة. وعَمَمت بالقُوت، ومنعتُ الفضول.

لأعرابي في وصف أمير:

وذكر أعرابي أميراً فقال: كان إذا وَلِي لم يُطابق بين جفونه، وأرسل العيون على عيونه[٤]؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم؛ فالمحسن راج والمسيء خائف.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلُح لهذا الأمر إلا اللينُ في غير ضعف، القويُّ في غير عُنف.

بين الوليد بن عبد الملك وأبيه في السياسة:

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت، ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودَّتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع[٥].

لأرسطوطاليس يوصي الإسكندر:

وكتب أرسطو طاليس إلى الإسكندر: أملك الرعية بالإحسان إليها تظفْر بالمحبة منها، فإنّ طَلَبَك ذلك منها بإحسانك أدومُ بقاءً منه باعتسافك[٦]. واعلم أنك إنما تملك الأبدانَ فاْجمع لها القلوب بالمحبة؛ واعلم أن الرعية إذا قَدَرت أن تقول قدَرتْ أن تفعل؛ فاْجهد ألاّ تقولَ تسلم من أن تفعل.

وقال أردشير لأصحابه: إني إنما أملك الأجساد لا النيّات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

---

(١) استكفيت: ولّيت الأكفاء. (٢) أثبت: أجزت وكافأت.

(٣) المقت: البغض. (٤) العيون: الجواسيس.

(٥) الصنائع: أي الرجال الذين اتخذهم السلطان لنفسه وكلّفهم ببعض المهام.

(٦) الاعتساف: الجور والظلم.

وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا أدَمَ[١] قريش وابنَ كريمها، من يضحك في الغَضب، ولا ينام إلا على الرضى، ويتناول ما فوقه من تحته[٢].

لمعاوية في سياسته:

وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سَوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني؛ ولو أنّ بيني وبين الناس شعرةً ما انقطعت. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتُها، وإذا أرخوها مددتها.

لعمرو بن العاص في معاوية وسياسته:

وقال عمرو بن العاص: رأيتُ معاوية في بعض أيامنا بصفّين خرج في عدّة لم أره خرج في مثلها، فوقف في قَلْب عسكره فجعل يَلْحظ مَيمنتَه فيرى الخَلل، فيبدُر إليه من يَسُدّه. ثم يفعل ذلك بميسرته، فتُغنيه اللحظة عن الإشارة. فدخله زَهْوٌ مما رأى، فقال: يا بن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين لقد رأيتُ من يسوس الناسَ بالدين والدنيا فما رأيت أحداً أُوتي له من طاعة رعيّته ما أُوتي لك من هؤلاء. فقال: أفتدري متى يَفسُد هذا وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا. قال: في يوم واحد. قال: فأكثرتُ التعجب. قال: إي والله وفي بعض يوم. قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كُذِبوا في الوعد والوعيد، وأُعطو على الهوى لا على الغناء: فسدَ جميعُ ما ترى.

لابن عباس يوصي الحسن:

وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي إذ ولاه الناس أمْرهم بعد علي رضي الله عنه: أنْ شمِّرْ للحرب[٣]، وجاهد عدوّك، وآشتر من الظَّنين[٤] دينه بما لا يثْلِم[٥]

(١) الأدم: الأسوة والسيد.
(٢) يصف حسن تأتيه للأمر وقدرته على الصعاب ويّسيرها وتذليلها.
(٣) شمَّر: استعد.
(٤) الظَّنين: المتّهم في دينه.
(٥) يثلم: ينقص ويعيب.

دينك، ووَلِّ أهل البيوتات تستصلحْ به عشائرهم.

للحكماء في السياسة:

وقالت الحكماء: أسْوَسُ الناس لرعيته من قاد أبدانها بُقلوبها، وقلوبَها بخواطرها. وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة.

لأبرويز يوصي ابنه شيرويه:

وقال أبرويز لابنه شِيرَوَيْهِ: لا توسّعن على جُندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيِّقنّ عليهم ضِيقاً يضجون به منك؛ ولكن أعطهم عطاءً قَصْداً، وآمنعهم منعاً جميلاً، وابسُط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء.

بين المنصور وقواده:

ونحو هذا قولُ المنصور لبعض قُوّاده. صدَق الذي قال: أَجِعْ كلبَك يَتْبعْك، وسَمِّنْه يأكلك. فقال له أبو العباس الطُّوسيّ: يا أمير المؤمنين، أما تخشى إن أجعته أن يُلَوّح له غيرُك برغيف فيتبعَه ويدعَك.

لأبرويز ينصح ابنه شيرويه:

وكتب أبرويز إلى ابنه شِيرويه من الحبس: آعلم أنّ كلمةً منك تَسفك دماء وأخرى تَحقن دماء، وأنّ سخطكَ سيفٌ مسلول على من سَخطْتَ عليه، وأن رضاك بَرَكةٌ مُستفيضة على مَن رَضِيت عنه، وأنّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك. فاحترس في غضبك من قولك أن يُخطىء. ومن لونك أن يتغيَّر، ومن جَسدك أن يخِفَّ؛ فإن الملوك تُعاقب حَزْماً وتعفو حِلْماً. وآعلم أنك تجلَّ عن الغضب، وأن مُلكك يصغُر عن رضاك، فقدِّر لسُخطك من العقاب كما تُقدر لرضاك من الثواب[1].

---

(١) الخبر في عيون الأخبار على اختلافٍ وزيادة.

من خطبة لسعيد ابن سويد:

وخطب سعيد بن سُويد بحمص، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناسُ إنّ للإسلام حائطاً مَنيعاً، وباباً وثيقاً. فحائط الإسلام الحق وبابه العدل، ولا يزال الإسلام مَنيعاً ما آشتدّ السلطان، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكن قضاءٌ بالحق وأخذٌ بالعدل.

لابن الحكم في الحاقد على السلطان:

وقال عبد الله بن الحكم إنه قد يضطغن على السلطان رجلان: رجل أحسن في مُحْسِنِينَ فأثيبوا وحرم، ورجلٌ أساء في مسيئين فعُوقب وعُفِي عنهم؛ فينبغي للسلطان أن يحترس منهما.

لأبرويز يوصي ابنه شيرويه:

وفي التاج: كتب أبرويز لابنه شِيرويه يُوصيه: ليكن مَن تختاره لولايتك آمرءًا كان في ضَعة فرفعته، أو ذا شرف كان مهمَلاً فآصطنعته. ولا تجعله امرءًا أصبتَه بُقعوبة فآتضع لها، ولا آمرءًا اطاعك بعد ما أذللته. ولا أحداً ممن يقع بقلبك أن إزالة سُلطانك أحبُّ إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضَرَعاً غَمْراً[1] كثيراً اعجابُهُ بنفسه، قليلاً تجربتُه في غيره. ولا كبيراً مُدْبراً قد أخذ الدهرُ من عقله كما أخذت السنّ من جسمه.

بسط المعدلة وردّ المظالم

إنصاف المأمون أمة من ابنه:

الشَّيباني قال: حدّثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة بن حُميد قال: إني لواقفٌ على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من

(١) الضرع: الضعيف، والغمر: من لا تجربة له.

تقدم إليه ـ وقد همَّ بالقيام ـ آمرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحي ابن أكثم، فقال لها يحي: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك. فقالت:

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى لَـهُ الرّشَـدُ   ويا إمـامـاً بـه قـدْ أشْـرَقَ البَلَـدُ
تَشْكو إلَيكَ عَميدَ القَـوْمِ أرْمَلَـةٌ   عَدّي عَليها فلَمْ يُتْرَكْ لَهَا سَبَـدُ[١]
وابْتُزَّ مِنّي ضِيَاعِـي بَعْـدَ مَنْعَتِهـا   ظُلْماً وفُرِّقَ مِني الأهْـلُ والوَلَـدُ[٢]

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دُون ما قُلْتِ زَالَ الصَّبْرُ والْجَلَدُ   عني وأقْرِحَ مِنّي القَلْبُ والكبـدُ[٣]
هٰذَا أَذَانُ صَلاةِ العَصْرِ فانْصَـرِفي   وأحْضِري الخَصْمَ في اليَوْمِ الَّذي أعِدُ
والمَجْلِسُ السَّبْتُ إنْ يُقْضَ الجُلُوسُ لَنَا   نُنْصِفْكِ مِنْهُ وإلاَّ المَجْلِسُ الأحَـدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدّم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته. فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟ فقالت: الواقفُ على رأسك يا أمير المؤمنين. وأومأت إلى العباس آبنِه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خُذ بيده فأجلسه معها مجلسَ الخصوم. فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فآخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يُوغِر لها ضيعتها[٤] ويُحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

الحكم على هشام في خصومة بينه وبين إبراهيم بن محمد:

العتبي قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد ابن

---

(١) السبد: الشعر، ويكنى به عن الابل.
(٢) ابتز: سلب ظلماً.
(٣) أقرحه: أغمّه.
(٤) يوغر لها ضيعتها: يسقط عنها الخراج.

طلحة وصاحب حَرَس هشام، حتى قعدا بين يديه، فقال: إن أمير المؤمنين جرَّاني[1] في خُصومة بينه وبين إبراهيم. فقال القاضي: شاهديك على الجراية. قال أتُراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل، وليس بيني وبينه إلا هذه السُّترة؟ قال: بلى، ولكنه لا يثُبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة. قال: فقام الحرسيّ فدخل إلى هشام فأخبره، فلم نلبْث أن قَعقعت الأبواب[2] وخرج الحرسي فقال: هذا أمير المؤمنين. وخرج هشام، فلما نظر إليه القاضي قام، فأشار إليه وبسط له مُصلى، فقعد عليه وإبراهيم بين يديه، وكنا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفى عنّا بعضه. قال: فتكلما وأحضرا البيّنة. فقضى القاضي على هشام. فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق[3]، فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك. فقال له هشام: لقد هممتُ أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك. قال: أمَا والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق. فقال هشام: ٱسترها عليّ! قال: لا سَتر الله عليَّ إذاً ذنبي يوم القيامة إن سترتُها. قال: فإني مُعطيك عليها مائة ألف. قال إبراهيم: فسترتُها عليه حياتَه ثمناً لما أخذتُ منه، وأذعتها بعد مماته تزييناً له.

الحجاج وسليك ابن سلكة:

قال: وورد على الحجاج بن يوسف سُليكُ بن سُلَكة[4] فقال: أصلح الله الأمير، أَرْعِني سمعَك[5]، واغضُض عني بصرك، واكفُف عني غربك[6]؛ فإن سمعتَ خطأ أو زللا دونك والعقوبة. قال: قل. فقال: عصى عاص من عُرض العشيرة؛ فَحُلِّق على اسمي[7] وهُدِم منزلي، وحُرِمْتُ عطائي. قال: هيهات! أوَ ما سمعت قول الشاعر:

---

(١) جرّاني: وكّلني، والجراية: الوكالة.
(٢) قعقعت: أحدثت أصواتاً.

(٣) الخرق: الجهل والطيش.

(٤) لعله فرعون بن عبد الرحمن المعروف بابن سلكه الذي عاصر الحجاج، إذ أنّ سليك بن سلكه قتل في الجاهلية.

(٥) أرعني سمعك: أي استمع مقولتي بصبر وأناة.
(٦) الغرب: حدّ السيف.

(٧) حلق على اسمي: أي ضرب عليه بحلقة من المداد لمنع العطاء عنه.

جـانِيـكَ مَـنْ يَجْني عَلَيْـكَ وقَـدْ ... تُعْـدِي الصِّحـاحَ مَبـاركُ الجُرْب
ولَـرُبَّ مـأخـوذٍ بـذَنْـب عَشِيرهِ ... ونَجا المُقـارفُ صـاحِـبُ الذَّنْـب

قال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل قال غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها العَزيزُ إنّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكانَهُ إنَّا نَرَاكَ مِن الْمُحسنِينَ قَال مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلا مَنْ وجَدْنَا مَتاعَنا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُونَ﴾ [١]. فقال الحجاج: عليّ بيزيد بن أبي مسلم. فمثل بين يديه، فقال: افكُكْ لهذا عن اسمه، واصْكُكْ له بعطائه، وآبن له منزلَه، ومُرْ منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.

وقال معاوية: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلا الله.

لعمر بن عبد العزيز يوصي عاملاً:

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعضُ عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتبَ إليه: حَصِّنْها بالعدل ونَقِّ طُرُقَها من الظلم.

للمهدي يوصي ابن أبي الجهم:

وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم - وهو والي أرض فارس: يا ربيع، آثِر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفُق بالرعية، وآعلم أن أعدل الناس من أنصَفَ من نفسه [٢]، وأجْوَرَهم من ظلم الناس لغيره.

بين ابن عامر وابن أصبغ:

وقال ابن أبي الزناد: عن هشام بن عُروة قال: استعمل ابن عامر عمرو بن أصبغ على الأهواز، فلما عزله قال له: ما جئتَ به؟ قال له ما معي إلا مائة درهم وأثواب.

---

(١) سورة يوسف الآية ٧٨ و ٧٩.

(٢) أنصف من نفسه: أي أمكن العدل منها.

قال: كيف ذلك؟ قال: أرسلتني إلى بلدٍ أهلُه رجلان: رجل مُسلم له ما لي وعليه ما عليّ، ورجل له ذمةُ الله ورسوله، فوالله ما دريتُ أين أضع يدي. قال: فأعطاه عشرين ألفاً. وقال جعفر بن يحيى: الخراج عمود الملك، وما استُغْزر بمثل العدل، ولا استُنْزرَ بمثل الظلم[1].

وقال النبي ﷺ: «الظلمُ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ».

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قال الحكماء: الناس تَبعٌ لإمامهم في الخير والشر.

وقال أبو حازم الأعرج: الإمام سُوق، فما نَفَقَ عنده جُلِبَ إليه.

عمر بن الخطاب وتاج كسرى وسواريه:

ولما أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسِوَارَيْه. قال: إن الذي أدّى هذا لأمين. قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، يُؤَدُّون إليك ما أدّيتَ إلى الله تعالى، فإن رتعت رتعوا[2].

ومن أمثالهم في هذا قولهم: إذا صلحت العَيْن صلحت سواقيها.

الأصمعي قال: يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء.

بين مروان ووكيله:

اطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغُوطة، فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إني لأظنك تَخونني. قال: أتظن ذلك ولا تستيقنه. قال: وتفعله؟ قال: نعم والله، إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله؛ فَلَعَن الله شر الثلاثة.

---

(١) استنزر: استقل.

(٢) رتعت: تنادمت عن حقوق الله.

قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه

للحكماء في الملك والوزراء:

قالت الحكماء: لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودّة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف. ثم على الملوك بعدُ ألاّ يتركوا مُحسناً ولا مسيئاً مّا دونِ جزاء؛ فإنهم إذا تركوا ذلك، تهاون المحسن، وآجترأ المسيء، وفسد الأمر، وبطل العمل.

للأحنف في فساد البطانة:

وقال الأحنف بن قيس: من فسدت بطانتُه[1] كان كمن غَصّ بالماء، ومن غص بالماء فلا مَساغ له، ومن خانه ثِقاته فقد أُتِي من مأمنه[2].

وقال العباس بن الأحنف:

قلْبي إلى مـا ضَـرّنـي داعِـي ... يُكْثِـرُ أحـزَانِـي وأوْجـاعِـي
كيْفَ احتِرَاسي مِنْ عَـدُوّي إذا ... كـانَ عَـدُوِّي بَينَ أضلاعِـي

وقال آخر:

كنتُ من كُرْبَتِـي أَفِـرُّ إليْهِـمْ ... فهُـمُ كُـرْبتِـي فـأَيْـنَ الفِـرارُ

لعدي بن زيد:

وأول من سبق إلى هذا المعنى عديّ بن زيد في قوله للنعمان بن المنذر:

لَـوْ بغَيْـرِ الْمَـاءِ حَلْقِـي شَـرِقٌ ... كُنْتُ كالغَصّان بالماءِ اعْتِصاري[3]

وقال آخر:

إلَى الماءِ يَسْعَـى مَـنْ يَغَـصُّ بـريقِـه ... فقُلْ أَيْنَ يسعَى مَـنْ يغَـصُّ بمَـاء

(١) البطانة: الحاشية المقرّبة. (٢) أتي من مأمنه: أي تمكّن منه الذي يريد به الايقاع.

(٣) الاعتصار: أن يترشّف الماء قليلاً قليلاً.

لابن العاص في العدل:

وقال عمرو بن العاص: لا سُلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل.

وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه.

قالوا: ليس شيء أضر بالسلطان من صاحبٍ يُحسِنُ القول ولا يحسن الفعل ولا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع حُسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة.

قالوا: إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراءَ سَوْء آمتنع خيره من الناس ولم يستطع أحد أن ينتفع منه بمنفعة. وشبهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التمساح، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله وإن كان محتاجاً إليه.

صفة الإمام العادل

كتاب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز في وصف الإمام العادل:

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما وليَ الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله:

آعلم يا أمير المؤمنين أن الله جَعَلَ الإمامَ العادلَ قِوامَ كلِّ مائل[1]، وقَصْدَ كل جائر، وصلاحَ كل فاسد، وقُوةَ كل ضعيف، ونَصَفَةَ كل مظلوم، ومَفْزَعَ كل ملهوف[2]. والإمامُ العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيبَ المرعى، ويذودها عن مراتع الهَلَكة، ويحميها من السباع، ويكُنُّها من أذى الحرّ والقُرّ[3]. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على

(١) قوام: اعتدال وصلاح واستقامة.

(٢) المفزع: الملجأ. (٣) القرّ: البرد.

ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كُرها ووضعته كرهاً، وربّته طفلاً، تَسهر بسهره، وتسكُن بسكونه، تُرضعه تارة وتَفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، وصيُّ اليتامى، وخازن المساكين، يربِّي صغيرهم، ويَمُون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوارح: تصلح الجوارحُ بصلاحه وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يَسْمَعُ كلامَ الله ويُسْمِعُهم، وينظر إلى الله ويُريهم، وينقاد إلى الله ويقُودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه مالَه وعياله، فبدّد المال، وشرّد العيال، فأفقر أهلَه وفرّق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده، فكيف إذا قتلهم من يَقْتَصُّ لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده، وقلةَ أشياعِك عنده وأنصارك عليه؛ فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثَواؤك، ويفارقك أحِبَّاؤك، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتَزَوَّدْ له ما يَصْحَبك ﴿يَوْم يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وأُمِّهِ وأَبِيهِ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ﴾[١].

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿إِذَا بُعثِرَ مَا في الْقبُور، وحُصِّلَ مَا في الصُّدُور﴾[٢] فالأسرار ظاهرة، والكتاب ﴿لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾[٣].

فالآن يا أمير المؤمنين، وأنت في مَهَل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا

---

(١) سورة عبس الآية ٣٤ و ٣٥ و ٣٦.

(٢) سورة العاديات الآية ٩ و ١٠.　　(٣) سورة الكهف الآية ٤٩.

تسلّط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقُبون في مؤمن إلاًّ[1] ولا ذِمَّة، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ معَ أوزارك، وتحمل أثقالَكَ وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرَّنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظرنّ إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قُدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوفٌ بين يَدَي الله تعالى في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد ﴿عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلحَيّ القَيُومِ﴾[2].

إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعِظَتي ما بلغه أولُو النُّهى من قبلي، فلم آلك[3] شفقةً ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يَرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

هيبة الإمام في تواضعه

لابن السماك:

قال ابن السماء لعيسى بن موسى: تواضُعُك في شرفك أكبر من شرفك!

وقال عبد الملك بن مروان: أفضل الرجال من تواضَعَ عن رفعة، وزَهِد عن قُدرة، وأنصف عن قُوّة.

النجاشي وقد ولد له ولد:

ذكر عن النجاشي أمير الحبشة أنه أصبح يوماً جالساً على الأرض والتاج على رأسه، فأعْظَم ذلك أساقِفتُه؛ فقال لهم: إني وجدتُ فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام، يقول له: إذا أنعمتُ على عبدي نعمةً فتواضع إليَّ أتممتُها عليه، وإني وُلِدَ لي الليلةَ غلام، فتواضعت لذلك شكراً لله تعالى.

---

(١) الإلّ: العهد والحلف. (٢) سورة طه الآية ١١١.

(٣) آلك: أقصِّر.

لبعض الشعراء في التواضع:

وقال ابن قتيبة: لم يُقَلْ بيتٌ أبدعُ من قول الشاعر لبعض خلفاء بني أمية:

يُغْضِي حياءً ويُغْضَى من مهابتهِ ... فَلاَ يُكلَّمُ إلاّ حين يَبْتسمُ[1]

وأحسن منه عندي قول الآخر:

فَتًى زادهُ عِزُّ المهابَةِ ذِلَّةً ... فَكلُّ عَزيز عِندهُ مُتَواضع

وقال أبو العتاهية:

يا مَنْ تَشرّف بالدُّنيا وزينتِها ... ليس التّشرُّف رَفْعَ الطِّين بالطين[2]

إذا أردت شَريفَ النّاس كلِّهِم ... فانظُرْ إلى مَلكٍ في زيٍّ مِسْكين

ذَاك الّذي عَظُمت والله نِعْمتُه ... وذاك يَصْلحُ للدُّنيا وللدِّين

وقال الحسن بن هانيء في هيبة السلطان مع محبة الرعية:

إمامٌ عليه هَيبةٌ ومَحَبةٌ ... ألا بأبي ذاك الحْبيبُ الْمُحَبَّبُ

وقال آخر في الهيبة وإن لم تكن في طريق السلطان:

بنَفْسي من لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنانه ... على كبدِي كانتْ شفاءً أناملُهْ

ومَنْ هابَني في كُلِّ شَيءٍ وهِبْتُهُ ... فلاَ هو يُعْطِيني ولا أنا سائِلُهْ

ولابن هرمة في المنصور:

له لحظاتٌ عن حِفافيْ سريره ... إذا كرّها فيها عقابٌ ونائلُ[3]

كريمٌ له وجهان وجهٌ لدى الرضى ... أسيلٌ ووجهٌ في الكريهة باسلُ[4]

فأُم الذي آمنتَ آمنةُ الرَّدي ... وأم الذي أو عدت بالثُّكل ثاكلُ

وليس بمُعطي العفو من غير قدرةٍ ... ويعفو إذا ما مكّنته المقاتلُ

وقال آخر في الهيبة:

أهاشمُ يا فتَى دينٍ ودُنيا ... ومن هو في اللّباب مِن اللباب[5]

---

(١) البيت للفرزدق في زين العابدين علي بن الحسين.

(٢) في الديوان «يا من تشرّف بالدنيا وطينتها».

(٣) حفافي سريره: جانباه.

(٤) الأسيل: الرقيق الناعم، والباسل: الشجاع.

(٥) اللباب: الخالص من كلّ شيء.

أهابُكَ أن أبُوح بذَات نفْسي وتَرْكي للعِتاب مِنَ العتاب

وقال أشجع بن عمرو في هيبة السلطان:

منعتْ مهابتُك النُّفوسَ حَديثَها بالشَّيءِ تَكرهه وإنْ لم تَعلمِ
ومن الولاةِ مُفَخَّمٌ لا يُتَّقى والسَّيْفُ تقطرُ شفرتاهْ منَ الدّمِ

وقال أيضاً لهرون الرشيد:

وعلى عدُوِّكَ يا بْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدان: ضَوءُ الصُّبْحِ والإظْلامُ
فإذا تَنبَّه رُعْتَه، وإذا غفا سَلَّتْ عليه سُيوفَك الأحْلامُ[1]

وقال الحسن بن هانيء في الهيبة فأفرط:

مَلِك تَصَوّرَ في القُلُوب مِثالُه فكأنّه لَمْ يَخْلُ منه مكانُ
ما تَنْطوي عنه القلوب بفَجرةٍ إلاّ يُكلّمه بها اللّحظانُ[2]
حتى الّذي في الرِّحْم لم يك صُورَةً لفُؤَاده من خَوفْه خَفقَانُ

فمجاز هذا البيت في إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئاً أو أحبّه أحبه بسمعه وبصره وشَعره وبَشَره ولحمه ودمه وجميع أعضائه، فالنُّطف التي في الأصلاب داخلة في هذه الجملة.

قال الشاعر:

ألاَ تَرْثي لِمُكْتَئِب يُحِبُّك لَحمُهُ وَدَمُهْ

وقال المكفوف في آل محمد:

أحِبُّكُمُ حُبّاً على اللهِ أجْرُهُ تَضَمّنه الأحْشاءُ واللحم والدمُ

ومثل هذا قول الحسن بن هانيء:

وأخَفْتَ أهْلَ الشرْكِ حتى إنّهُ لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لمْ تُخْلَقِ

---

(١) رعته: أخفته، وسلّت: شهرت.

(٢) الفجرة: المرّة من الفجر، وهو الانبعاث في المعاصي، واللحظان: النظر بمؤخر العين.

فإذا خافه أهل الشرك خافتْه النطف التي في أصلابهم، على المجاز الذي ذكرناه.

ومجاز آخر: أنّ النطف التي أخذ الله ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هي لا بد فاعلةٌ من قبل أن تفعله، كما جاء في الأثر: إن الله عز وجل عَرَضَ على آدم ذريتَه فقال: هؤلاء أهل الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء أهلُ النار وبعمل أهل النار يعملون.

شعر للمؤلف في الهيبة:

وها أنا أقول في الهيبة:

يا من يُجَرِّد مِنْ بَصيرتِهِ ... تحت الحوادث صارمَ العَزْمِ
رُعِت العدُوّ فما مَثَلْتَ له ... إلا تَفَزَّعَ منك في الحُلْمِ
أضْحَى لك التَّدبيرُ مُطَّرداً ... مِثْل اطِّراد الفِعْل للإسْمِ
رَفَع الحسودُ إليكَ ناظِرَهُ ... فرآكَ مُطَّلعاً مع النَّجمِ

للأخطل في معاوية:

أبو حاتم سهل بن محمد قال: أنشدني العتبي للأخطل في معاوية:

تَسْمو العيونُ إلى إمامٍ عادلٍ ... مُعْطَى المَهابةِ نافِعٍ ضَرَّار
وترى عليه إذا العيونُ لَمحْنَهُ ... سِيما الحليم وهَيْبَةَ الجبَّارِ

حسن السيرة والرفق بالرعية

مما جاء في الكتاب والسنة في معنى هذا العنوان:

قال الله تعالى لنبيه ﷺ فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: ﴿ولَوْ كُنتَ فَظّاً غليظَ القلب لآنفَضّوا مِن حوْلِكَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩

وقال النبي ﷺ : « مَنْ أُعطِيَ حظَّه مِنَ الرِّفقِ فقد أُعْطِيَ حَظّه مِنَ الخير كله ، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير كله » .

مشورة سالم وابن كعب على عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة:

ولما آستُخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب . فقال لهما : أشيرا عليّ . فقال له سالم : اجعل الناسَ أباً وأخاً وابناً ، فَبرّ أباك ، وآحفظ أخاك ، وارحم ابنك . وقال محمد بن كعب : أَحْبب للناس ما تحب لنفسكَ واكره لهم ما تكره لنفسك ، واعلم أنك أولُ خليفة يموت .

بين عمر بن عبد العزيز وابنه في الرفق:

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت ، مالك لا تَنْفُذُ في الأمور ، فوالله لا أبالي في الحق لو غَلَت بي وبك القُدور . قال له عمر: لا تعجل يا بُني ، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكونَ فتنة .

من عمر إلى ابن أرطاة في الرفق:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدِيَّ بن أَرْطَأة : أما بعد ، فإن أمكنتك القُدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، وآعلم أن مالك عند الله مثلُ ما للرعية عندك .

مما وصى المنصور به ابنه:

وقال المنصور لولده عبد الله المهدي : لا تُبْرم (١) أمراً حتى تفكر فيه ؛ فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناتِه وسيآته ؛ واعلم أن الخليفة لا يُصلحه إلا التقوى ، والسلطانَ لا تصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل وأوْلى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنْقَصَ الناس عقلاً من ظَلَمَ مَن هو دونه .

---

(١) تبرم: تعقد وتنفّذ .

وصية خالد القسري لبلال:

وقال خالدُ بن عبد الله القسريّ لبلال بن أبي بُردة: لا يَحملنَّك فضلُ المقدرة على شدَّة السطوَة، ولا تطلُب من رعيّتك إلا ما تبذُله لها؛ فـ﴿إنّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتقَوْا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾[١].

وقال أبو عبد الله كاتبُ المهديّ: ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى قرين[٢] يحجُزه، وحياء يكفّه، وعقلٍ يعقله[٣]، وإلى تجربة طويلة، وعين حفيظة، وأعراق تسري إليه، وأخلاق تُسهِّل الأمور عليه؛ وإلى جليس شفيق، وصاحب رقيق، وإلى عين تُبصر العواقب، وقلبٍ يخاف الغير. ومن لم يعرف لؤم الكِبْر لم يَسلم من فَلَتات اللسان، ولم يتعاظم ذنباً وإن عظم، ولا ثناء وإن سُمح[٤].

وكتب أردشير إلى رعيّته: من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين، والأساورَة الذين هم حفظة البَيْضة[٥]، والكتّاب الذين هم زينة المملكة، وذوي الحرْث الذين هم عماد البلاد: السلام عليكم، فإنا بحمد الله إليكم سالمون؛ فقد وضعنا عن رعيّتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتَها الموضوعة عليها[٦]، ونحن مع ذلك كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحِقدَ فيدهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملكم القحط؛ وتزوّجوا في الأقارب فإنه أمس للرحم وأثبت للنسب، ولا تَعدُّوا هذه الدنيا شيئاً؛ فإنها لا تُبقِي على أحد، ولا ترفضوها فإن الآخرة لا تُدْرَك إلا بها.

وصية مروان ابن الحكم لعبد العزيز ابنه حين ولاه مصر:

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام آستعمل عبد العزيز ابنَه على

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٨.
(٢) القرين: من القرن، وهو القيد، أو هو الصاحب.
(٣) يعقله: يربطه ويمنعه.
(٤) سمح: كان سمحاً ليناً وسهلاً.
(٥) الأساورة: الأسود أو الشجعان وحفظة البيضة: حفظة الحمى والذّمار.
(٦) الاتاوة: الضرائب.

مصر، وقال له حين ودّعه: أرسل حكيماً ولا تُوصِه. أي بُنيّ، انظر إلى عُمّالك، فإن كان لهم عندك حقّ غُدْوَةً فلا تؤخرهم إلى عشية، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدّقوك في الحق. واستشر جلساءك وأهل العلم؛ فإن لم يَسْتبنْ لك فاكتب إليّ يأتِك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخِذْه به عند سَوْرَة الغضب[1]، واحبس عنه عقوبتك حتى يَسكن غضبُك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفىء الجمرة، فإن أولَ مَنْ جَعَل السجنَ كان حليماً ذا أناة[2]. ثم انظر إلى ذوي الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك؛ ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير آسترسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

من معاوية إلى زياد في رجل فر إليه:

قال أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غلبني أميرُ المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجَه، فخشي أن أعاقبه ففرّ إليه وآستجار به فأمنه؛ فكتبت إليه: إن هذا أدب سوًّأ منْ قِبلي. فكتب إليّ: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلنْ جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نستبد جميعاً فنحمل الناس على المهالك. ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جدُّه هزلَه: وغلب رأيُه هواه، وجعل له الفكر صاحباً يُحسِّنُ له العواقب، وأعرب عن ضميره فعلُه، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبُه عن كيده.

(١) سورة الغضب: حدّته وشدّته.

(٢) الأناة: الصبر والروية.

وصية عبد الملك لولي عهده الوليد:

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد وكان ولي عهده: يا بُنيّ، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان: حزمٌ وتوان.

لبعضهم في اليسير من الزلل:

وقالوا: ينبغي للعاقل ألاّ يستصغر شيئاً من الخطأ والزلل، فانه متى ما آستصغر الصغير يوشك أن يقع في الكبير؛ فقد رأينا الملك يُؤْتَى من العدوّ المحتقَر، ورأينا الصحة تُؤْتى من الدواء اليسير، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

في الذم يكون من الرعية:

وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لأحد ثلاثة: كريم قُصِّر به عن قدره فاحتمل لذلك ضِغْنا، أو لئيم بُلِغَ به ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرا[1]، أو رجل مُنِعَ حظَّه من الإنصاف فشكا تفريطا.

من كلام للهند في الملوك:

وفي كتاب الهند: خير الملوك من أشبه النسر حوله الجيَف لا من أشبه الجيف حولها النسور.

وقيل لملك سُلِب مُلكَه: ما الذي سلبك ملكك؟ قال: دَفْعُ شغلِ اليوم إلى غد، والتماسُ عُدَّةٍ بتضييع عُدَد، واستكفاءُ كلِّ مخدوع عن عقله. والمخدوعُ عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه، وأثيبَ ثوابا لا يستوجبه.

لابن أبي طالب في الفرص:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرَص فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثراً بعد عَيْن.

---

(١) البطر: جحود النعمة.

شي عن عمر ولعائشة فيه:

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزمَ الخلفاء، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا ذُكر عُمر تقول: كان والله أَحْوَزِيًا[1] نسيجَ وَحدْه، قد أعدّ للأمور أقرانَها[2].

وقال المُغيرة بن شُعبة: ما رأيتُ أحداً هوْ أحزم من عمر: كان والله له فضل يمنعه أن يَخدع، وعقل يمنعه أن يُخدع.

وقال عمر: لست بخَبّ والخَبُّ لا يَخدعني[3].

عمر وعامل البحرين:

ومر عمر ببنيان يُبنى، بآجرّ وجَـصّ، فقـال: لمن هـذا؟ قيـل: لعـاملـك على البحرين. فقال: أبَتِ الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها[4]، فأرسل إليه فشاطره ماله.

عمر وابن أبي وقاص:

وكان سعد بن وقاص يقال له المُستجاب، لقول النبي ﷺ: «اتقوا دعوة سعد». فلما شاطره عمر ماله، قال له سعد: لقد هممتُ. قال له عمر: بأن تدعو عليّ. قال: نعم. قال إذاً لا تجدُني بدعاء ربي شقياً.

ابن أبي وقاص وشاعر هجاه:

وهجا رجل من الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية، فقال:

ألم تَـرَ أنّ اللهَ أظْهـر دِينَـه ... وسَعْدٌ بباب القـادسيَّـة مُعْصِـمُ[5]
فـأبنـا وقـدْ آمَـتْ نِسـاءٌ كثيرةٌ ... ونسـوةُ سَعْـدٍ ليس فيهـنّ أيّـم[6]

فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه. فقطعت يده وبُكِم لسانه.

(١) الأحوزي: الحسن السياق للأمور. (٢) اقرانها: أي أكفاءها.
(٣) الخبّ: المخادع. (٤) أي إلاَّ أن تظهر وتعرف.
(٥) معصم: معتصم. (٦) آمت: فقدت أزواجها.

عمر وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة والحارث:

ولما عَزَلَ عمرُ أبا موسى الأشعريّ عن البصرة وشاطره ماله وعزل أبا هُريرة عن البحرين وشاطره ماله، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله، دعا أبا موسى فقال له: ما جاريتان بلغني أنهما عندك، إحداهما تُدْعَى عقيلة والأخرى من بنات الملوك؟ قال: أما عقيلة فجارية بيني وبين الناس، وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردتُ بها غَلاء الفِداء. قال: فما جَفنتان تعملان عندك؟ قال: رزقي شاةٌ في كل يوم، فيُعمل نِصفُها غُدوة ونصفها عشية. قال: فما مِكيالان بلغني أنهما عندك؟ قال: أمّا أحدهما فأوفّي أهلي به ودَيْني، وأمّا الآخر فيتعامل الناس به. قال: آدفع لنا عقيلة، والله إنك لمؤمن لا تُغلّ أو فاجرٌ مُبلّ[1]؛ ارجع إلى عملك عاقصاً بقَرْنك مُكْتَسِعاً بذَنَبك[2]؛ والله إن بلغني عنك أمرٌ لم أُعِدك.

ثم دعا أبا هريرة فقال له: هل علمت من حين أني آستعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك آبتعتَ أفراساً بألف دينار وستمائة دينار؟ قال: كانت لنا أفراس تناتجت. وعطايا تلاحقت. قال قد حَسَبتُ لك رزقَك ومؤونتك وهذا فضلٌ فأدِّه. قال: ليس لك ذلك. قال: بلى والله وأوجع ظهرَك! ثم قام إليه بالدِّرَّة فضربه حتى أدماه، ثم قال: إيت بها. قال: احتسبتها عند الله. قال: ذلك لو أخذتَها من حلال وأديتها طائعاً، أجئت من أقصى حَجْر بالبحرين يجبي[3] الناس لك لا لله ولا للمسلمين؟ ما رجعت بك أُمَيْمَةُ إلا لرعيَةِ الحُمُر. وأميمة أم أبي هريرة.

وفي حديث أبي هريرة قال: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي: يا عدوّ الله وعدوّ كتابه، سرقتَ مال الله؟ قال: فقلت: ما أنا عدوّ الله ولا عدوّ كتابه، ولكني عدوّ مَن عاداهما، وما سرقتُ مال الله. قال: فمن أين آجتمعت لك عشر آلاف؟ قلت:

---

(١) لا تُغل: لا تخون، والمبلّ الخبيث الداهية أو الغالب بحجته.

(٢) القرن: من الشعر، وعقصه: عقده والاكتساع بالذَّنَب: إدخاله بين الأرجل وأراد بالعبارتين: الذلة والمهانة.

(٣) يجبي: من الجباية أي جمع الضرائب.

خيل تناتجت، وعطايا تلاحقت، وسهام تتابعت. قال: فقبضها مني، فلما صليتُ الصبح آستغفرت لأمير المؤمنين. فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل؟ قلت لا. قال: قد عمل من هو خير منك يوسف صلواتُ الله عليه. قلت: يوسف نبيّ وأنا ابن أميمة، أخشى أن يُشْتم عِرضي، ويُضْرَبَ ظهري، ويُنْزَعَ مالي.

قال: ثم دعا عمرُ الحارثَ بن وهب، فقال: ما قِلاصٌ وأعْبُدٌ بعتَها بمائتي دينار؟ قال: خرجتُ بنفقةٍ معي فتَجَرْتُ فيها. فقال: أما والله ما بعثناكم لِتَتَّجروا في أموال المسلمين، أدِّها. فقال: أما والله لا عَمِلْتُ عملاً بعدها! قال: آنتظر حتى أستعملك!

بين عمر بن الخطاب وابن العاص:

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلامٌ عليك، أما بعد. فإنه بلغني أنه فَشت لك فاشيةٌ[1] من خَيل وإبل وغنم وبقر وعَبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مالَ لك. فاكتب إليّ من أين أصْلُ هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فَشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي. وإني أعْلمُ أمير المؤمنين أني بأرضِ السِّعْر فيه رخيص، وأني أعالج من الحِرفة والزراعة ما يُعالج أهله، وفي رزق أمير المؤمنين سَعة. والله لو رأيت خيانتَك حلالاً ما خنتك؛ فأقصِر أيها الرجل، فإن لنا أحساباً هي خيرٌ من العمل لك، إن رجعنا إليها عِشنا بها. ولعمري إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له [وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خيرٌ مني][2] فأنّى كان ذلك ولم يُفْتَح قُفلُك ولم نَشْرَكْكَ في عملك؟

---

(١) فشت: كثرت.

(٢) التكملة من شرح نهج البلاغة (١ ـ ٨).

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تُسطر ونَسقك الكلام في غير مَرجع، وما يغني عنك أن تزكّي نفسَك. وقد بعثت إليك محمد بن مَسلمة فشاطرْه مالَك؛ فإنكم أيها الرّهط الأمراء جلستم على عيران المال، لم يُعوزكم عُذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهِّدون لأنفسكم. أما إنكم تجمعون العارَ وتورِّثون النار. والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيراً. فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئاً. فقال له عمرو: أتحرّمون طعامَنا؟ فقال: لو قَدّمت إليّ طعامَ الضيف أكلتُه، ولكنك قدّمت إليّ طعاماً هو تقدمة شر. والله لا أشرب عندك ماء. فاكتبْ لي كل شيء هو لك ولا تكتمْه. فشاطرَه ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه، فأخذ إحداهما وترك الأخرى! فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن مسلمة، قَبح اللهُ زماناً عمرو بنُ العاص لعمرَ بن الخطاب فيه عامل. والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمةً من الحطب وعلى آبنه مثلُها، وما منهما إلا في نَمِرَةٍ[1] لا تبلغ رُسْغَيْهِ؛ والله ما كان العاص بن وائل يَرضى أن يلبس الديباج مزوّراً[2] بالذهب.

قال له محمد: اسكت، والله إن عمر لخيرٌ منك، وأما أبوك وأبوه ففي النار، والله لولا الزمان الذي سبقك به لألْفيت مُقْتعد شاة يسرك غَزْرُها[3] ويسوءك بَكْؤُها[4]. فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله. فلم يخبر بها عمر.

وأبو سفيان في مال وأدهم:

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: بعث معاويةُ إلى عمر بن الخطاب وهو على الشام بمالٍ وأدهم، وكتب إلى أبيه أبي سُفيان أن يدفع ذلك إلى عمر - يعني بالأدهم القيد - وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى

(١) النمرة: بردة من صوف تلبسها الأعراب. (٢) مزوّراً: مزيناً.
(٣) غزرها: درّها. (٤) بكؤها: قلة لبنها.

المسلمين مقيدين بقيود حديد ـ أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين ـ وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد . قال جرير : . . . أو لجدل الأداهم[1] .

فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم . قال: فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر وآحتبس المال لنفسه . فلما قرأ عمر الكتاب، قال: فأين المال يا أبا سفيان؟ قال: كان علينا دَين ومَعونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به . فقال عمر: آطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال . قال: فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال . فأمر عمر بإطلاقه من الأدهم . قال: فلما قدم الرسول على معاوية قال له: رأيتَ أمير المؤمنين أعْجبَ بالأدهم؟ قال: نعم، وطَرح فيه أباك . قال: ولِمَ؟ قال: جاءه بالأدهم وحَبَس المال؛ قال: إي والله، والخطّاب لو كان لطرحه فيه!

عمر وأبو سفيان في مال حاول إخفاءه:

زار أبو سفيان معاوية بالشام، فلما رجع من عنده دخل على عمر فقال: أَجزْنا أبا سفيان . قال: ما أصبْنَا شيئاً فنُجيزك به . فأخذ عمر خاتمة فبعث به إلى هِند، وقال للرسول: قل لها: يقول لك أبو سفيان: انظري إلى الخُرْجَيْن اللذين جئتُ بهما فأحضريهما . فما لبث عمر أن أُتِيَ بخرجين فيهما عشرةُ آلاف درهم، فطرحهما عمر في بيت المال . فلما وليَ عثمان ردّهما عليه . فقال أبو سفيان: ما كنت لآخذ مالاً عابه عليّ عمر .

عمر وعتبة في مال وجده معه:

ولما ولّى عمر بن الخطاب عتبة بن أبي سفيان الطائفَ وصدقاتِها ثم عزله، تلقّاه في بعض الطريق، فوجد معه ثلاثين ألفاً، فقال: أنى لك هذا؟ قال: والله ما هو لك

---

(١) البيت:

هـو القين وابن القين لا قين مثلـه ... لبطـح المسـاحـي أو لجدل الأداهـم

ولا للمسلمين، ولكنه مال خرجتُ به لضيعةٍ أشتريها. فقال عمر: عامِلُنا وجدنا معه مالاً، ما سبيلُه إلا بيت المال. ورفعه؛ فلما ولِيَ عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال، فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجهاً؟ قال: والله إن بنا إليه لحاجة، ولكن لا تَرُدَّ علي من قبلَك فيَرُدَّ عليك مَن بعدك.

عمر وأبو سفيان في رجل دعا بدعاء الجاهلية:

القَحْذمي[1] قال: ضَرب عمر رجلاً بالدرّة، فنادى: يا لَقُصيّ! فقال أبو سفيان: يا بن أخي، لو قبل اليوم تنادي قصياً لأتتك منها الغطاريف[2]. فقال له عمر: اسكت لا أبالك. قال أبو سفيان: ها، ووضع سبّابته على فيه.

كتاب يزيد إلى مروان يأمره بالبيعة:

خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفرط كماله - إلى مروان بن محمد - وبلغه عنه تلكؤٌ في بيعته -: أما بعد، فإني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. فأتته بيعته.

أبو غسان وأهل مرو حين منعوا المال:

ولما منع أهلُ مَرو أبا غسان الماء وزجَّته[3] إلى الصحارى، كتب إليهم أبو غسان: إلى بني الأستاه من أهل مرو؛ ليُمسيني الماء أو لتُصَبِّحنكم الخيل. فما أمسى حتى أتاه الماء. فقال: الصدق يُنبيء عنك لا الوعيد.

كتاب ابن طاهر إلى الحسن التغلبي:

وكتب عبد الله بن طاهر الخراسانيّ إلى الحسن بن عمر التغلبيّ: أما بعد، فقد بلغني ما كان مِن قَطْع الفَسَقَة الطريق ما بلغ، فلا الطريقَ تَحمِي، ولا اللصوص

---

(١) هو الوليد بن هشام القحذمي.
(٢) زجّته: أبعدته لإخفائه.
(٣) الغطاريف: السادة الأشراف.

تَكفِي، ولا الرعيةَ تُرْضِي، وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لمُفسح الأمل. وآيم الله لتَكفيني مَن قِبَلك أو لأوجِّهَن إليك رجالاً لا تعرف مُرَّةَ من جَهم ولا عَديّ من رُهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتاب الحجاج إلى قتيبة في أمر وكيع:

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيعَ ابن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصاً بسِجسْتان، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابي هذا: فاهدم بناءه، واحْلُلْ لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله. وولى الضَّبِّيَّ عمَّ مسعود بن الخطاب.

كتاب الحجاج إلى قوم يفسدون في الأرض:

وبلغ الحجاجَ أن قوماً من الأعراب يُفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد، فإنكم قد استخفّتكم الفتنة، فلا عن حق تُقاتلون. ولا عن منكر تَنْهَوْن، وإني أهمُّ أن تَرِدَ عليكم مني خيلٌ تَنسِف الطارفَ والتالد[1]، وتدَعُ النساءَ أيامى والأبناء يتامى والديار خراباً! فلما أتاهم كتابه كفّوا عن الطريق.

التعرّض للسلطان والردّ عليه

قالت الحكماء: من تعرّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له[2] تخطاه. وشبهوه في ذلك بالريح العاصفة التي لا تضر بما لان لها من الشجر ومال معها من الحشيش. وما آستهدف لها من الدوح العِظام قَصَفَتْه. قال الشاعر:

إنّ الرياح إذا ما أعْصفتْ قصفَتْ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يعْبأن بالرَّتَم[3]

وقال حبيب بن أوس، وهو أحسن ما قيل في السلطان:

---

(١) الطارف والتليد: المال المحدث والموروث.

(٢) تطامن له: انخفض. (٣) سبقت هذه العبارة في صفحة سابقة مع تغيير يسير.

هو السَّيْل إن واجهْتَه انْقَدتَ طَوْعَه وتَقتاده مِن جانبَيه فيَتبَعُ

وقال آخر:

هو السَّيف إن لاينتهُ لان مَتْنُه وحَدَّاهُ إن خاشنْتَهُ خَشِنان

بين معاوية وأبي الجهم:

وقال معاوية لأبي الجهم العدويّ: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلتُ في عُرس أمِّك يا أمير المؤمنين. قال: عند أيِّ أزواجها؟ قال: عند حفص بن المُغيرة. قال: يا أبا الجهم، إيّاك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيّ ويأخذ أخذَ الأسد.

وأبو الجهم هو القائل في معاوية:

ونُغْضِبه لنَخْبُرَ حالتَيه فنخبُر منهما كرَماً ولِينَا

نَميلُ على جَوانبه كأنّا نَميلُ إذا نَميل على أبينا

معاوية وعقيبة الأسدي:

وقدم عُقَيبة الأسدي على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

مُعَاويَ إنَّنا بشرٌ فأَسْجِحْ فلسنا بالجبال ولا الحديدِ[1]

أكَلتُمْ أرضَنا فجرَدْتموها فهل مِن قائِمٍ أو مِن حصِيدِ

أتَطْمَع بالخُلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك مِنْ خُلُودِ

فهبْنا أمةً هلكت ضَياعاً يَزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

فدعا به معاوية فقال: ما جرّأك عليّ؟ قال: نَصَحْتُك إذا غَشوك، وصدَّقْتُك إذ كذَبُوك. فقال: ما أظنك إلا صادقاً، وقضى حوائجه.

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله. فقام إليه رجل من عُرض الناس فقال:

---

(١) فأسجح: فأحسن.

أذكرك الله الذي ذكّرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا رويّة: سمعاً وطاعة لمن ذكَّر بالله، وأعوذ بالله أن اذكَّر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم لـ﴿قد ضَلَلتُ إذاً وما أنا من المهتدين﴾[1]. وأما أنت، فوالله ما الله أردتَ بها، ولكن ليقال: قال فعوقبَ فصبر! وأهْونْ بها لو كانت، وأنا أحذِّركم أيها الناس أختها؛ فإن الموعظة علينا نزلت، ومنا أخِذَت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

الرشيد ومعترض عليه في خطبته:

وقام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة، فقال: ﴿كبُرَ مَقْتاً عندَ الله أن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُون﴾[2] فأمر به فضُرِب مائة سوط، فكان يئنّ الليل كله ويقول: الموت! الموت. فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحلّه، فأحلّه.

الوليد ومعترض عليه في خطبته:

المدائني قال: جلس الوليد بن عبد الملك على المِنبر يومَ الجمعة حتى اصفرّت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوقت لا ينتظرك، وإنّ الرب لا يَعذِرُك. قال: صدقت، ومَن قال مثلَ مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مَقامك. من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضربُ عنقَه؟

مخاطر بين معاوية وزياد:

الرياشيّ عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يدَه على كَفَله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عَجيزتَك بعجيزةِ أمِّك هند! ففعل ذلك. فلما انفتل معاوية عن صلاته قال:

يا بن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أَمْيَل؛ فخذْ ما جعلوا لك. فأخذه.

---

(١) سورة الانعام. الآية ٥٦.

(٢) سورة الصف الآية ٣.

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها الأمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد: هذا يُخْبرك - وأشار إلى صاحب الشُّرْطة - فقدّمه فضَرَب عُنقَه. فلما بلغ ذلك معاوية قال: ما قتله غيري، ولو أدبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانية.

وخاطر رجلٌ أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: أيها الأمير، أمك؟ ففعل. فقال له: النابغةُ بنتُ عبد الله، أصابتها رماحُ العرب فبيعتْ فبعُكاظ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل، فولدت فأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه.

بين معاوية وخريم:

دخل خُريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان: فنظر معاوية إلى ساقَيه فقال: أيّ ساقين! لو أنهما على جارية! فقال له خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين! قال: واحدة بأخرى والبادىء أظلم.

تحلّم السلطان

على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

أبو جعفر مع مالك وابن طاوس:

زياد عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إليّ وإلى ابن طاوس؛ فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضّدت، وبين يديه أنطاع قد بُسِطت، وجلاوزة[1] بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن آجلسا، فجلسنا. فأطرق عنا طويلا، ثم رفع رأسه والتفت إلى آبن طاوس فقال له: حدّثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت ابي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً

---

(١) الجلاوزة: الشرطة.

يوم القيامة رجلٌ أشرَكَه الله في حكمه فأدخل عليه الجَوْرَ في عدله » . فأمسك ساعة ؛ قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمِه . ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عِظني يا بن طاوس قال: نعم يا أمير المؤمنين، [إنّ] الله تعالى يقول ﴿ألم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعَادٍ. إرَمَ ذَاتِ العِمادِ. التي لم يُخْلَق مِثْلُهَا في البلادِ. وثَمودَ الذينَ جابُوا الصَّخْرَ بالوادِ. وفِرْعَونَ ذِي الأوْتادِ. الذين طَغَوْا في البلادِ. فأَكْثَرُوا فيها الفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّك سَوْطَ عَذَاب. إنّ رَبَّكَ لَبالمِرْصَادِ﴾[1] قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. فأمسك ساعة حتى اسوَدْ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا بن طاوس ناولني هذه الدواة. فأَمْسَكَ عنه. ثم قال: ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه ؛ فقال: ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال: أخشى أن تكتُب بها معصية لله فأكونَ شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قُوما عني. قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.

قال مالك: فما زلتُ أعرفُ لابن طاوس فضلَه.

أبو هريرة ومروان حين أبطأ بالجمعة:

أبو بكر بن أبي شيبة قال: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة فقال له: أتظل عند آبنة فلان تُرَوِّحُك بالمَرَاوح وتَسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحرّ؟ لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: آسمعوا من أميركم.

بين أبي جعفر وابن أبي ذئب:

فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: حدّثني رجل من أهل المدينة كان ينزل بشقّ بني زُرَيْق، قال: سمعت محمد بن إبراهيم يحدّث قال: سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من

---

(١) سورة الفجر الآيات ٦ ـ ١٤ .

قريش؛ فقالوا لأبي جعفر: آجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب. فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال: أشرار من أهل بيتِ أشرار. قالوا: اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد. وكان عامله على المدينة. قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ بالإحنة[1] ويقضي بالهوى. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، والله لو سألتَه عنْ نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشّر، قال: ما تقول فيّ؟ قال: أَعْفِني. قال: لا بدّ أن تقول. قال: لا تعدلُ في الرعية، ولا تقسم بالسويّة. قال: فتغيْر وجهُ أبي جعفر. فقال ابراهيم بن يحي بن محمد بن علي صاحب الموصل: طَهِّرْني بدمه يا أمير المؤمنين. قال: آقعد يا بنيّ، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طَهور. قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلامَ فقال: يا أمير المؤمنين، دعنا مما نحن فيه؛ بلغني أنّ لك ابناً صالحاً بالعراق، يعني المهدي قال: أما إنك قلت ذلك، إنه الصّوام القوّام البعيد ما بين الطرفين[2] قال: ثم قام ابنُ أبي ذئب فخرج، فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمُستوثَق العقل، ولقد قال بذات نفسه.

قال الاصمعي: ابن أَبي ذئب، من بني عامر بن لؤي، من أَنفُسهم.

المأمون والحارث بن مسكين:

قال: ودخل الحارثُ بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد، وذكر قوله فلم يُعجب المأمون. فقال: لقد تَيَّست فيها وتَيَّس مالك. قال الحارثُ بن مسكين: فالسامعْ يا أمير المؤمنين من التَّيسين أتْيَس؛ فتغيَّر وجه المأمون. وقام الحارثُ بن مسكين فخرج وتندّم على ما كان من قوله، فلم يستقرّ في منزله حتى أتاه رسولُ المأمون، فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه؛ ثم أقبل حتى دخل عليه، فقرّبه المأمونُ من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله قد أمر مَن هو خير منك بالإلانَة القول لمن هو شرٌّ مني، فقال

---

(١) الإحنة: العداوة والبغضاء.

(٢) بعد الطرفين: كناية عن شرف النسب.

لنبيه موسى ﷺ إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1] قال: يا أمير المؤمنين، أبوء[2] بالذنب، وأستغفرُ الرب. قال: عفا الله عنك، آنصرفْ إذا شئتْ.

المنصور وأبو سفيان الثوري:

وأرسل أبو جعفر إلى سُفيان الثَّوريّ، فلما دخل عليه قال: عِظني ابا عبد الله. قال: وما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ فأعظك فيما جهلْتَ؟ فما وجد له المنصور جوابا.

أبو النضر وعامل للخليفة:

ودخل أبو النضر سالم مولي عمر بن عبد الله على عامل للخليفة، فقال له أبا النضر، إنّا تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بداً من إنفاذها، فما ترى؟ قال له أبو النضر؛ قد أتاك كتاب من الله تعالى قبل كتاب الخليفة؛ فأيُّهما اتبعتَ كنتَ من أهله.

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشَّعبيّ. أنّ زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغِفاريّ، وكان على الصائفة[3]: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تَقسم بين الناس ذهباً ولا فضة [واقسم ما سوى ذلك] فكتب إليه: «إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين. واللهِ لو أن السموات والأرض كانتا رَتقاً[4] على عبد فآتقى اللهَ لجعل له منها مخرجا» ثم نادى في الناس فقسّم فيهم ما اجتمع له من الفيء.

ابن هبيرة والحسن البصري والشعبي:

ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابنُ هبيرة وإلى الشعبي فقال له: ما ترى أبا سعيدٍ في كُتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعضُ ما فيها، فإن أنفذنها

---

(١) سورة طه الآية ٤٤.
(٢) أبوء: أتحمل وأعترف.
(٣) الصائفة: الغزاة في الصيف.
(٤) التكملة في البيان والتبيين.

وافقتْ سخطَ الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمي؟ فقال له الحسن: هذا عندك، الشعبيّ فقيه الحجاز. فسأله فَرَقّق له الشعبيّ وقال له: قارب وسدّد، فإنما أنت عبد مأمور، ثم التفت ابنُ هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: يا ابن هُبيرة، خَفِ الله في يزيدَ ولا تخف يزيد في الله. يا بن هبيرة، إن الله مانِعُكَ من يزيد وإن يزيدَ لا يمنعُك من الله. يا بن هبيرة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فانظر ما كتبَ إليك فيه يزيدُ فآعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتابَ الله تعالى فأنفذه، وما خالف كتابَ الله فلا تُنفذه؛ فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه. فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال: هذا الشيخ صَدَقَني وربّ الكعبة. وأمر للحسن بأربعة آلاف، وللشعبي بألفين؛ فقال الشعبي: رققنا فرقق لنا. فأما الحسن فأرسل إلى المساكين، فلما اجتمعوا فرّقها، وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها.

معاوية والأحنف في استخلاف يزيد:

ونظير هذا: قولُ الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره في آستخلاف يزيد. فسكت عنه، فقال: مالك لا تقول؟ فقال: إن صدَقناك أسخطناك، وإن كذَبناك أسخطنا الله، فسُخْطُ أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله! فقال له: صدقت.

كتاب أبي الدرداء إلى معاوية:

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية: أما بعد. فإنه مَن يلتمس رضا الله بسُخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومَن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس.

كتاب عائشة إلى معاوية:

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد فإنه من يعمل بمساخط الله يصرْ حامدُه من الناس ذاماً له. والسلام.

هشام وناصح نصحه بأربع:

أبو الحسن المدائني قال: خرج الزّهري يوماً من عند هشام بأربع، قيل له: وما هن؟ قال: دخل رجل على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك واستقامة رعيتك. فقال: هاتهن. فقال: لا تَعِدَنّ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها. قال: هذه واحدة فهات الثانية. قال لا يَغُرّنك المرتقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنْحَدَرُ وعْرا. قال: هات الثالثة. قال: واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب. قال: هات الرابعة. قال: واعلم أن الأمور بَغَتَاتٌ فكن على حذر.

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم! فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاسْتَوْص به خيرا.

عبد الملك والحارث في ابن الزبير:

وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: ما كان يقول الكذّاب في كذا وكذا؟ - يعني ابن الزبير -؛ فقال: ما كان كذابا. فقال له يحي بن الحكم: من أمّك يا حار؟ قال: هي التي تعلم. قال له عبد الملك: اسكت فهي أنجب من أمّك.

الوليد ابن عبد الملك والزهري:

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدّثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال يحدّثوننا أن الله إذا آسترعى عبداً رعيةً كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرم على الله أم خليفةٌ غيرُ نبيّ؟ قال بل نبيّ خليفة. قال: فإن الله يقول لنبيه داود: ﴿يَا دَاوُدُ إنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلأَرْض فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بالَحقِّ ولا تَتّبع الْهَوَى فَيُضِلّكَ عَنْ سَبيل ٱللهِ، إنّ ٱلّذِينَ يَضِلّون عَنْ سَبيل اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

بَمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾[1] فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة؛ فما ظنك بخليفة غير نبيّ؟ قال: إن الناس ليُغْروننا عن ديننا.

بين ابن يسار وعبد الملك:

الأصمعي عن إسحاق بن يحي عن عطاء بن يسار قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: «وددتُ أني خرجت من هذا الأمر كفافا[2] لا عليّ ولا لي». فقال: كذبت. فقلت: أوَ كُذِّبْتُ! فما أفلتَّ منه إلا بجُرَيْعَةِ الذَّقَن[3].

المشورة

قال النبي ﷺ: «ماندم من استشار، ولا شقي من استخار».

من كلام الله تعالى:

وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه في الرأي، فقال: ﴿وَشَاوِرهُمْ فِي الْأَمْرِ؛ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[4].

عثمان وثقيف لما همت بالارتداد:

ولما هَمَّتْ ثقيف بالارتداد بعد موت النبي ﷺ استشاروا عثمانْ بن أبي العاصي، وكان مطاعا فيهم؛ فقال لهم لا تكونوا آخر العرب إسلاما وأولهم ارتداداً؛ فنفعهم الله برأيه.

لبعض الحكماء فيما ينفع ويضر:

وسئل بعضُ الحكماء: أيُّ الأمور أشدّ تأييداً للفتى وأيها أشد إضراراً به؟ فقال: أشدها تأييدا له ثلاثة أشياء: مُشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحُسن التثبُّت.

(١) سورة ص الآية ١٧. (٢) الكفاف: اليسير الذي يكفي العيش.

(٣) مثل يضرب لمن نجا من التلف وقد أشرف عليه أي أن الموت قرب منه كقرب الجريعة من الذقن.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

وأشدها إضرارا به ثلاثة أشياء: الاستبداد، والتهاون، والعجلة.

بين حكيم وحكيم:

وأشار حكيم على حكيم برأي فقبله منه. فقال له: لقد قلتَ بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حُلوَ كلامه بمرِّه، وسهله بوَعْره، ويحرّك الإشفاقُ منه ما هو ساكنٌ من غيره، وقد وعيتُ النصح وقبلتُه؛ إذ كان مصدره مِن عند مَن لا يُشَكُّ في مودّته وصفاء غيبه ونُصْح جيبه. وما زلتَ بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحا، ومناراً بيِّنا.

للراسبي في الرأي الفطير:

وكان عبد الله بن وهب الراسبيّ يقول: إياكم والرأيَ الفطيرَ.[1] وكان يستعيذ بالله من الرأي الدّبريِّ[2] الخَمير.

لعلي في رأي الشيخ:

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأيُ الشيخ أحسن من مشهد الغلام.

لابن هبيرة يوصي ابنه:

وأوصى ابنُ هُبيرة ولده فقال: لا تكن أول مُشير، وإياك والهوى والرأي الفطير. ولا تشيرَنّ على مستبد [ولا على وغد ولا على مسكون ولا على لجوج، وخف الله في موافقة هوى المستشير][3]، فإن التماس موافقته لؤم، والاستماع منه خيانة.

---

(١) الرأي الفطير: الرأي المعجّل به دون الإعمال والتبصر.

(٢) الرأي الدبريّ: الذي يسنح بعد فوات الفرصه.

(٣) التكملة من البيان والتبيين للجاحظ.

لعامر بن الظرب:

وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول: دعوا الرأي يغبّ حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير. يريد الأناة في الرأي والتثبّت فيه.

ومن أمثالهم في هذا قولهم: لا رأي لمن لا يُطاع.

للمهلب في الرأي:

وكان المهلَّب يقول: إن من البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

لعبسّيٍ في الحزم:

العتبي قال: قيل لرجل من عَبس: ما أكثر صوابَكم؟ قال: نحن ألف رجل وفينا حازمٌ واحد، فنحن نشاوره، فكأنّا ألفُ حازم.

قال الشاعر:

الرأي كـالليـل مُسـودٌّ جـوانبُــه ... والليـل لا يَنْجَلِـي إلاّ بـإصبـاح
فاْضُممْ مصابيحَ آراءِ الرجـال إلى ... مصباحِ رأيك تَزْدَدْ ضوءَ مِصبْـاح

عبد الله بن عبد الأعلى بعد سخط الخليفة عليه:

العتبي قال: أخبرني من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخلٍ على الخليفة وآخرُ خارج من عنده. قال: ثم رأيته وإنه ليُتَّقَي كما يُتّقَى البعيرُ الأجرب، فقال لي: يا أخا العراق، اتّهمنا القومُ في سريرتنا، ولم يقبلوا منا علانَيتَنا، ومِن ورائهم وورائنا حكَمٌ عَدْل.

لسبيع في أهل اليمامة:

ومن أحسن ما قيل فيمن أشِير عليه فلم يقبل، قولُ سُبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع

خالد بهم: يا بَني حَنيفة، بُعْداً لكم كما بَعِدَتْ عاد وثمود.[1] أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه، كأنّي أسمع جَرْسَه وأُبصر غَيْبَهُ، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة. وإنّي لمّا رأيتكم تتهمون النَّصِيح وتُسَفِّهون الحليم، استشعرتُ منكم اليأس وخِفتُ عليكم البلاء. والله ما منعكم الله التوبة ولا أخَذكم على غِرّة،[2] ولقد أمهلكم حتى مَلّ الواعظُ ووهن الموعوظ، وكنتم كأنما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذيبي التصديق، ومن نصيحتي الندامة؛ وأصبح في يدي من هلاككم البكاء، ومن ذُلّكم الجزع. وأصبح ما فات غيرَ مردود، وما بقي غيرَ مأمون.

وقال القُطاميّ في هذا المعنى:

ومَعْصيـــةُ الشَّفيـــق عليـــك ممّا ... يـزيـــدك مـــرّةً مِنـــه اسْتِماعـــا
وخير الأمـر مـا استقبلـتَ منـــه ... وليس بـــأن تَتَبَّعـــه اتِّبـــاعـــا
كـذاك ومـا رأيـــت النـــاسَ إلا ... إلى مـــا جـــرّ غـــاويهم سراعـــا
تـراهـم يغمـزون مـن استركّـــوا ... ويجتنبون مـن صـدق المِصَـاعـا[3]

وكان يقال: لا تستشر معلما ولا حائكا ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء.

وأنشد في المعلمين:

وكيف يُرجَّى العقلُ والرأي عند منْ ... يروح إلى أنثـى ويغـدو إلى طفـل

وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها.

وكان يقال: لا رأي لحاقن ولا حازق: وهو الذي ضغطه الخف. ولا الحاقب وهو الذي يجد رزاً في بطنه.

ويُنشد في الرأي بعد فوته:

وعاجـز الرأي مضيـاعٌ لفـرصتـه ... حتى إذا فات أمرٌ عاتـب القدرا

(١) بعداً لكم: أي الهلاك لكم. (٢) الغرّة: الغفلة.

(٣) المصاع: المقاتلة والمجالدة بالسيف.

شعر للمؤلف:

ومن قولنا في هذا المعنى:

فَلَئِنْ سَمعتَ نصيحتي وعَصيتها ... مَا كُنتُ أولَ ناصِحٍ مَعْصِيِّ

وقال حبيب في بني تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم:

لَمْ يألُكم مالكٌ صَفحاً ومَغْفرةً ... لوْ كانَ ينْفخ قيْنُ الحَيّ في فَحم[1]

حفظ الأسرار

قالت الحكماء: صدرك أوْسَعُ لسرْك من صدر غيرك.

وقالوا: سرّك من دمك. يعنون أنه ربّما كان في إفشائه سَفْكُ دَمك.

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

ولا تُفْش سِرَّك إلاّ إليك ... فإنّ لكُلِّ نَصيحٍ نَصيحَا

وإنّي رَأَيْتُ غُواةَ الرجَال ... لا يَتْركونَ أَديماً صَحِيحَا[2]

وقالت الحكماء: ما كنتَ كاتِمَه من عَدُوِّكَ فلا تُطلع عليه صديقك.

وقال عمرو بن العاص: ما استودعتُ رجلا سراً فأفشاه فلُمْتُه؛ لأني كنت أضيقَ صدراً منه حين استودعتُه إياه حين أفشاه.

وقال الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذي يُستْودع السرّ أضيقُ

لبعض الأعراب:

قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المُخْبر وأحلف للمستخبر.

---

(١) يألكم: يقصّر عنكم، والقين: الحداد.

(٢) الأديم: الجلد، يريد أنّ الغواة يمزّقون أعراض الناس.

وقيل لآخر: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما قلبي له إلا قبر.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدْح في الملوك، وإفشاء السر، والتعرّض للحُرَم.

وقال الوليد بن عُتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثا، أفلا أحدثك به؟ قال لا، يا بني، إنه من كتم سره كان الخيار له، [ومن أفشاه كان الخيار عليه[1]] فلا تكن مملوكا بعد أن كنتَ مالكا.

ملك من ملوك العجم استشار وزيريه:

وفي التاج أنّ بعض ملوك العجم استشار وزيريه، فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يَستشير منّا أحداً إلا خالياً به؛ فإنه أَمْوَتُ للسر، وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وأعفَى لبعضنا من غائلة بعض؛[2] فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحدٍ أَوْثَقُ من إفشائه إلى اثنين، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة؛ لأن الواحد رَهنٌ بما أفشِيَ إليه، والثاني مطلِقٌ عنه ذلك الرهنَ. والثالث عِلاوة فيه. فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يُظهره رغبة ورهبة، وإن كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المَعاريض. فإن عاقَبَهما عاقَبَ اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانةِ مجرم، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخَر ولا حُجة معه.

لعمر بن ابي ربيعة في السر:

ومن أحسن ما قالت الشعراء في السر قولُ عمر بن أبي ربيعة:

فقالَتْ وأَرْخَتْ جانِبَ السِتْـر: إنما ... معي فتَحَدَّثْ غَيْرَ ذِي رقْبَةٍ أَهْلِـي

فقُلْتُ لها: مـا بي لهم مـن تَـرَقُّـبِ ... ولٰكِنَّ سِـرِّي ليس يَحْمِلـه مِثْلِـي

(١) التكملة من عيون الأخبار.

(٢) الغائلة: المهلكة والشرّ والحقد.

وقال أبو مِحْجن الثقفي:

لا تسألي الناسَ عن مالي وكَثْـرتـه   وسائِلي الناسَ عن بَأْسِي وعن خُلُقِي
قَدْ أَطْعَن الطَّعْنَةَ النَّجْلاء عَنْ عُرُضٍ   وأَكْتُمُ السِّرّ فيه ضَرْبَـةُ العُنُـق[1]

وقال الحطيئة يهجو:

أَغِـرْبَـالاً إِذَا اسْتُـودِعْـت سِـراً   وكـانُـونـاً على المتحَـدِّثِينَـا

الإذن

بين زياد وحاجبه:

قال زيادٌ لحاجبه عَجْلان: كيـف تـأْذَنُ للنـاس؟ قـال: على البيـوتـات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب. قال: فمن تُؤخّر؟ قال: مَن لا يَعْبَأ اللهُ بهم. قال: ومَن هم؟ قال: الذين يلبَسون كُسوةَ الشتاء في الصيف وكسوةَ الصيف في الشتاء.

لسعيد بن عتبة في بعده عن الآذن:

وكان سعيد بن عُتبة بن حُصين إذا حضر باب أحدٍ من السلاطين جلس جانباً؛ فقيل له: إنك لتَتَباعد من الآذِن جُهْدَك؛ قال: لأَنْ أُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب. ثم قال[2]:

وإنّ مَسيري في البلاد ومَنْـــزلي   هـو المنـزلُ الأقْصى إذا لم أُقـرَّب
ولست وإن أُدْنيتُ يـومـاً ببـائـعٍ   خَلاقـي ولا ديني ابْتغـاءَ التَّحبُّـب
وقـد عـدّهُ قـومٌ تجارةَ رابـحٍ   ويمنعني مـــن ذاك دِيني ومَنْصِبِي

وقال آخر:

رأيـتُ أُنـاسـاً يُسرعـون تَبـادراً   إذا فتـح البـوابُ بـابـك إصْبَعَـا
ونحن جلـوسٌ سـاكنـون رزانـــةً   وحِلماً إلى أنْ يُفتحَ الباب أجمعـا[3]

(١) النجلاء: الواسعة.   (٢) الشعر: للبعيث بن حريث، «انظر الحماسة».
(٣) الشعر للحصين بن المنذر «انظر البيان والتبيين».

بين معاوية وابن الأشعث في الدخول على الملوك:

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأَذِن للأحنف، ثم أذن لآبن الأشعث، فأسرع في مِشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غَمّه ذلك وأحْنَقَه، فالتفت إليه فقال: والله إني ما اذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلي أمورَكم نلي آدابَكم، ولا يزيد مَتزَيّدٌ في خطوِه إلا لنقص يجده من نفسه.

وقال همام الرقاشي[1]:

أَبْلِغْ أبا مِسمَعٍ عنّي مغلغلةً ... وفي العتاب حَياةٌ بين أقوام
قدّمْت قَبلي رجالاً ما يكون لهم ... في الحقّ أنْ يلِجُوا الأبْواب قدّامي
لَوْ عُدّ قبرٌ وقبرٌ كنت أقربَهم ... قُربى وأبعدَهُم مِن مَنزل الذّام
حتى جَعلتُ إذا ما حاجةٌ عَرَضتْ ... بباب قصْرِكَ أدْلُوها بأَقْوام[2]

لمعاوية في آذنه:

قيل لمعاوية: إن آذِنَك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس. قال: وما عليه؟ إنّ المعرفة لتنفع في الكلب العقور والجمل الصَّئول[3]؛ فكيف في رجل حَسيبٍ ذي كرم ودين؟

للحكماء في الوصول إلى المراد:

وقالت الحكماء: لا يُواظب أحد على باب السلطان فيُلقِي عن نفسِه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.

وقالوا: من أدمن قَرْع الباب يوشك أن يُفْتَحَ له.

(١) في نسبة هذه الأبيات خلافٌ كبير بين ابن قتيبة والجاحظ وصاحب تاج العروس.
(٢) أدلوها باقوام: أستشفع بهم.
(٣) الصئول: المؤذي للناس.

وقال الشاعر[1]:

كم من فتًى قصَّرت في الرزق خُطوتهُ — أصبتُـه بسهـام الرزق قـد فَلَجَـا
إنّ الأمور إذا انسدّت مسـالكهـا — فالصبر يفتق منها كلّ ما ارتتجـا[2]
لا تيأسـنّ وإن طـالـت مطـالبـةٌ — إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فـرجـا
أخلِقْ بذي الصبْر أنْ يحظى بحاجَتـه — ومُدْمن القَرع لْلأبواب أن يَلجـا[3]

بين رجل وروح:

ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم واقفاً في الشمس عند باب المنصور؛ فقال له: لقد طال وقوفك في الشمس. فقال: ذلك ليطولَ جلوسي في الظل.

بين رجل والحسن بن عبد الحميد:

ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يُزاحم الناسَ على باب محمد بن سليمان، فقال: أمثلك يَرضى بهذا! فقال:

أُهِينُ لهن نفسي لأكْـرمهـا بهم — ولا يُكـرم النَّفسَ الذي لا يُهينُهـا

من كلام للهند:

وفي كتاب للهند: إن السلطان لا يقرّب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبُعدهم، ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم، فيُقرِّب البعيد لنفعه، ويُبعد القريبَ لضُرِّه. وشَبّهوا ذلك بالجُرَذِ الذي هو في البيت مجاور، فمن أجْل ضرِّه نُفي، والبازي الذي هو وحشيّ، فمن أجل نفعِه اْقتُني.

بين النبي ﷺ ومستأذن:

استأذن رجل على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرُج إلى هذا فعَلّمه الاَستئذان وقلْ له يقول: السلام عليكم، أأدخل»؟

(١) ينسب هذا الشعرلبشار بن برد، ولمحمد بن بشير على خلافٍ في ذلك.

(٢) أرتج: أقفل. (٣) أخلق: أحسن وأحرى وأجدر، ويلج: يدخل.

وقال النبي ﷺ: « الاستئذان ثلاث، فإن أُذِن لك وإلا فارْجع ».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه. الأولى إذْن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزمة، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع.

الحجاب

زياد وحاجبه:

قال زياد لحاجبه: يا عجلان، إني وليتك حِجَابتي وعزلتك عن أربع: هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح، لا تحجبه عني فلا سُلطان لك عليه، وطارق الليل لا تحجبْه، فشر ما جاء به، ولو كان خيراً، ما جاء به تلك الساعة؛ ورسول الثغر[1] فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عملَ سنة، فأدْخِلْه عليّ وإن كنتُ في لحافي، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينُه فَسَد.

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين فحجبه؛ فقال له رجل وأراد أن يُغريه: يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مُضَريّ فيحجُبَك، فقال أبو سفيان: لا عدِمْتُ مِن قومي من أقف ببابه فيحجبني.

أبو الدرداء بباب معاوية:

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه؛ فقال: من يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ ويقعد، ومن يجد باباً مُغلقاً يجد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن دَعا أُجيبَ وإن سأل أُعْطِي.

قال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم فتحصّنوا — من كلِّ طالب حاجةٍ أو راغب
غالَوْا بأبْواب الحديد لِعزِّها — وتنوّقوا في قُبْح وجه الحَاجب[2]

(١) الثغر: الفرجة في الجبل أو غيره مقابل الأعداء.

(٢) غالوا: أكثروا المغالاة، وتنوّقوا: أي بالغوا.

فـإذا تَلطَّـف للـدُّخُـول عليهـم ... راجٍ تَلقّـوْه بـوعـدٍ كـاذِبِ
فاطلُب إلى ملك الملوك ولا تكـن ... بَادِي الضراعَة طالباً مِـنْ طـالـب

بين سعيد بن مسلم وأبي هفان في الحجاب:

سعيد بن مسلم، قال: كنت والياً بإرمينية، فغبر[1] أبو هفان أياماً ببابي. فلما وصل إليّ مَثَل قائماً بين السماطين وقال: والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سَفّ التراب يُقيم من أوَدِ[2] أصلابهم لجعلوه مُسْكَةً لأرماقهم إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشي. أما والله إني لبعيد الوثبة، بطيءُ العطفة. إنه والله لا يثنيني عنك إلا ما يصرفك عني، ولأَنْ أكون مُقِلاً مُقَرّباً أحَبُّ إليّ من أن أكون مُكْثِراً مبعداً؛ والله ما نسأل عملاً لا نضبطه، ولا مالاً إلا ونحن أكثرُ منه؛ وهذا الأمر الذي قد صار إليك وفي يديك قد كان في يدي غيرك، فأمسوا والله حديثاً، إنْ خيراً فخير إن شراً فشر. فتحببْ إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب، فإن حُبّ عبادِ الله موصولٌ بحب الله، وبُغضَهم موصولٌ ببغضه، لأنهم شهداء الله على خلقه، ورقباؤه على من اعْوَجَّ عن سبيله.

بين أبي مسهر وابن عبد كان:

أبو مسهر قال: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان فحجبني، فكتبت إليه:

إنّـي أتيتـك للتَّسليم أمس فلمْ ... تأذَنْ عليك لي الأسْتارُ والحُجُبُ
وقـد علمـتَ بـأنّـي لم أردَّ ولا ... واللهِ مـا رُدّ إلا العِلْـمُ والأدبُ

فأجابني ابن عبدكان، فقال:

لو كنت كافأتَ بالحُسنى لقلت كما ... قال ابنُ أَوْسٍ وفيما قَـالـه أدب[3]
«ليس الْحِجابُ بمُقصٍ عنكَ لي أمَلاً ... إنّ السماءَ تُـرجَّـى حِين تحْتَجِبُ»

---

(١) غبر: مكث وبقي. (٢) الأود: الاعوجاج.
(٣) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

ابن منصور ورجل من خاصته حجب عنه:

وقف بباب محمد بن منصور رجلٌ من خاصته فَحُجب عنه؛ فكتب إليه:

على أي باب أطْلب الإذنَ بعدما ... حُجبتَ عَن الباب الذي أنا حاجبُهْ

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن، فقيل له: تكون لك عودة، فقال:

لئنْ عدتُ بعد اليوم إنّي لظالمٌ ... سأصْرفُ وجهي حَيثُ تُبغي المكارمُ

متى يَظفر الغادِي إليك بحاجةٍ ... ونِصفُك محجوبٌ ونصفك نائمُ؟

ونظير هذا المعنى للعتابي حيث يقول:

قدْ أتيْناك للسّلام مراراً ... غيرَ من منّا بذاك المزار

فإذا أنت في استِتارك بالّليـ ... ـل على مثل حالنا بالنهار

أبو دلف ورجل حجب عنه:

وقف رجل بباب أبي دُلَف، فقام به حينا لا يصل إليه، فتلطّف في رقعة وأوصلها إليه، وكتب فيها:

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيم؟

فأجابه:

إذا كان الكريمُ قليلَ مالٍ ... ولم يعذرْ تعلَّل بالحجاب

وأبوابُ الملوكِ مُحَجّباتٌ ... فلا تَسْتعْظمنْ حُجَّابَ بابي

وقال حبيب الطائي في الحَجاب:

سأترُك هذا الباب ما دامَ إذنهُ ... على ما أرى، حتى يلين قليلا

فما خاب من لم يأته متعمّداً ... ولا فاز مَن قدْ نالَ مِنه وصولا

ولا جُعلتْ أرزاقنا بَيد أمرئٍ ... حمى بابه من أن يُنال دُخُولاَ

إذا لم نجد للإذن عندك مَوْضعاً ... وَجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

وأنشد أبو بكر العطار:

مالك قد حُلت عن وَفائكَ واستبدلتَ يا عمروُ شيمةً كدِرَهْ
لسْتُم ترجَّوْن للحساب ولا يومَ تكونُ السماءُ منْفطرهْ[1]
قد كان وجهي لديك معرفةً فاليوم أضْحَى باباً من النكِرَهْ

وقال غيره:

أتيتكَ للتسليم؛ لا أنني امرؤٌ أَرَدْتُ بإتيانِيكَ أسبابَ نائِلكْ
فألفيت بواباً ببابكَ مُغْرَماً بهدِم الذي وطَدتَهُ من فضائِلك[2]
وقد قال قومٌ: حاجبُ المرء عاملٌ على عرضِه؛ فاحذَرْ خيانةَ عاملكْ

وقال الحسن بن هانيء:

أيها الراكب المُغِذّ[3] إلى الفضـ ـل ترفّقْ فدونَ فضلِ حِجابُ
ونعَمْ هَبْكَ قد وصلت إلى الفضْـ ـل فهل في يديكَ إلا الترابُ!

وقال آخر ـ وهو محمود البغدادي:

حِجابكَ من مَهابته عسيرٌ وخيرك في اليدين غدا يسيرًا
خرجتُ كما دخلتُ إليكَ إلاّ تُراباً صارَ في خُفّي كثيرًا

وقال العتابي:

حِجابُك ليس يشبهه حِجابُ وخيرك دون مَطلِبه السّحابُ
ونومكَ نومُ من ورد المنايا فليس له إلى الدنيا إيابُ

وقال غيره:

أنا بالباب واقفٌ منذ أصبحـ ـتُ على السّرْج مُمسِكاً بعناني
وبعين البَوّاب كلُّ الذي بي ويراني كأنّهُ لا يراني

---

(١) منفطرة: متشققة. (٢) وطّدته: دعمته وأرسيت قواعده.
(٣) المغذّ: المسرع.

وقال غيره:

إذا ما أتيناهُ في حاجةٍ   رَفعنا الرقاع له بالقَصبْ
لَهُ حاجبٌ دُونهُ حاجبٌ   وحاجبُ حاجبه مُحتَجِبْ[1]

بين أبي بشير وبعض كتاب العسكر:

قال أبو بشير[2]: حجبني بعض كتاب العسكر، فكتبت إليه: إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجابُ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة، وأرغب بك عن هذه الخليقة. وكل من قام في منزلك، عظم قدرهُ أو صَغُر. وحاولَ حِجَابَ الخليفة، أمْكَنه؛ فتأمَّلْ هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها في أقبح صورة وأدنى منزلة.

لابن عبد ربه:

وقد قلت في ذلك:

إذا كنت تأتي المرءَ تعظم حقّهُ   ويجهل منك الحقّ فالهجر أوسعُ
وفي النّاس أبدالٌ وفي الهجر راحةٌ   وفي النّاس عمّن لا يُواتيك مقنع
وإنّ امْرءًا يَرضى الهوان لِنفسه   حَريٌّ بجدع الأنف والأنف أشنعُ[3]

وقال آخر:

يا أبا مُوسَى وأنْت فتًى   ماجدٌ حُلْوٌ ضَرَائِبُهُ[4]
كن على منهاج مَعرفةٍ   إنّ وجه المرءِ حاجبهُ
فبه تبدو محاسنه   وبه تبدو معايبهُ

---

(١) كذا في نهاية الأرب، والبيت هناك منسوب للعماني.
(٢) هو أبو بشير رازم مولى خالد بن عبد الله القسري وفي الأصول أبو اليسير.
(٣) جدع الأنف: قطعه وإرغام صاحبه.
(٤) ضَرَائِبُهُ: سجاياه.

وأنشد حُسين الجمل، وبَكَر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سَعْوة وحَمدَويه:

ولَعمري لئنْ حُجبْنا عَن الشَّيـ ـخ فلا عن وجهِ هناك وجيهِ
لا ولا عن طعامه التافِه النَّزْ ر الذي حولهُ لطامُ بَنيه[1]
بل حُجبنا به عن الخسْف والمسـ ـخ وذاكَ التَّبْريق والتَّمويهِ
فَجزَى اللهُ حاجباً لك فظّاً كلَّ خيْرٍ عنّا إذا يَجْزيهِ
إنّ ذَبْحي نَذالةً قد تأتّي مِنْ صباحي بقُبح تِلك الْوُجُوهِ

وقال أحمد بن محمد البغدادي في الحسن بن وهب الكاتب:

ومُسْتنبِ عن الحسن بن وهب وعَمّا فيه مِنْ كرمٍ وخير[2]
أتاني كيْ أُخبّره بعلْمي فقلتُ له سقطتَ على خبير
هوَ الرّجلُ المهذّبُ غير أنيّ أراهُ كَثيرَ إرْخاءِ السُّتُورِ
وأكْثرُ ما يُغنّيهِ فتاهُ حُسَيْن حِينَ يَخلو بالسُّرُور
«ولولا الريحُ أُسمع أهْلُ حَجْرٍ صليلَ البيْض تُقرع بالذُّكور»[3]

ومن قولنا في هذا المعنى:

ما بالُ بابكَ محروساً ببوَّاب يَحْميه منْ طارقٍ يأتي ومُنتاب[4]
لا يحتجب وجهكَ الممقوتُ عَنْ أحدٍ فالمقتُ يحْجُبُه من غير حُجَّاب[5]
فاعْزلْ عن الباب مَن قد ظلَّ يحجبه فإنّ وجهكَ طلَّسْمٌ على الباب[6]

وقف حبيب الطائي بباب مالك بن طوق فحجب عنه؛ فكتب إليه يقول:

قل لابن طَوْقٍ رَحَى سَعدٍ إذا خَبطت نَوائبُ الدَّهْر أعْلاها وأسْفلها[7]

---

(١) النّزر: القليل من كلّ شيء. (٢) الخير: الكرم والشرف.

(٣) هذا البيت لمهلهل بن ربيعة، وحجر: هي اليمامة.

(٤) الطارق: الضيف الذي يطرق ليلاً، والمنتاب: القاصد.

(٥) المقت: البغض.

(٦) الطّلسم: خطوط وأعداد يستعملها السحرة.

(٧) رحى سعد: أي سيدها الذي يدور عليه مدار آمرها، ويريد بسعد: بني سعد بن زهير بن جشم بن بكر قبيلة مالك بن طوق.

أصبْحت حاتمها جُوداً، وأحْنَفها حِلْماً، وكيِّسَها عِلْماً، ودَغْفَلَها[1]
مـالي أرَى القُبـةَ البَيضـاءَ مُقْفلـةً دُوني وقد طال ما اسْتَفْتَحْتُ مَقْفَلها
أظنّهـا جَنّـة الفِـرْدوْس مَعْـرضـةً وليس لي عمـلٌ زَاكٍ فـأَدْخُلهـا

باب الوفاء والغدر

بين مروان وعبد الحميد الكاتب:

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال مُلكه: قد احتجتَ إلى أن تصير مع عدّوي وتُظهر الغدرَ بي؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظنّ بك، فإن استطعتَ أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرمتي بعد مماتي. فقال عبد الحميد: إن الذي أمرتَ به أنفعُ الأشياء لك وأقبحها بي، وما عندي غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك. وأنشأ يقول:

أسِـرُّ وفـاءً ثم أظهر غـدرةً فمن لي بعذرٍ يُوسع الناسَ ظاهـرُهْ

عبد الملك بعد قتله ابن سعيد:

أبو الحسن المدائني قال: لما قَتَل عبدُ الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب له أماناً وأشهد شهوداً. قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويُصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمرٌ قد فات دركه[2]! قال: لتقولنّ! قال حَزْمٌ لو قتلتَه وحَييت. قال: أولستُ بحيّ؟ فقال: ليس بحيّ مَن أوقفَ نفسه موقفاً لا يُوثَق له بعهد ولا بعقْد. قال عبد الملك: كلام لو سَبَقَ سماعُه فِعْلي لأمسكْت.

---

(١) يعني: حاتماً الطائي، والأحنف بن قيس، والكيس بن أبي الكيس المحدث، أو زيد بن الكيس النمري النسّابة، ودغفل بن حنظلة الشيباني النسّابة.

(٢) دركه: نيله وإدراكه.

أبو جعفر وابن هبيرة:

المدائني قال: لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوماً[1] ركب في رجال معه حتى دخل على المنصور، فقال: إن دولتكم هذه جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنّبوهم مرارتها، لتسرعَ محبتُكم إلى قلوبهم ويَعْذُب ذكرُكم على ألسنتهم، وما زلتُ منتظراً لهذه الدعوة. فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأنّ قلبه. فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه: عجباً من كل من يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً.

أبو جعفر وسلم في قتل أبي مسلم:

وقال أبو جعفر لسَلْم بن قُتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، قال: حسبك الله أبا أُمية.

قال أبو عمرو بن العلاء: كانت بنو سعد بن تميم أغدرَ العرب، وكانوا يُسمون الغَدر في الجاهلية كيسان، فقال فيهم الشاعر:

إذا كنتَ في سَعدٍ وخالُك منهمُ ... غريباً، فلا يَغررْك خالك مِنْ سعْد
إذا ما دعوْا كَيْسانَ كانت كهولهم ... إلى الغَدر أدْنى من شبابهم المُرْدِ

الولاية والعزل

قال النبي ﷺ: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة؛ فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة».

لابن شعبة في حب الولاية وكراهيتها:

وقال المغيرة بن شعبة: أحب الإمارة لثلاث وأهجرها لثلاث: أُحبها لرفع

---

(١) لما هم أبو جعفر أن يكتب الأمان لابن هبيرة يزيد بن عمر الذي كان عاملاً لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية على العراق، مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ابن هبيرة.

الأولياء، ووضع الأعداء واسترخاص الأشياء. وأكرهها لـروعـة البريـد، ومَـوْت العزل[1]، وشماتة العدوّ.

بين ابن شبرمة وأبيه في موكب طارق:

وقال وَلَدُ ابن شُبرُمة القاضي: كنت جالساً مع أبي قبل أن يلي القضاء. فمرّ به طارقُ بن أبي زياد في موكب نبيل، وهو والي البصرة، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال:

أراهـا وإنْ كـانـت تحَبُّ كـأنها سَحَائبُ صَيفٍ عنْ قَريب تقَشَّعُ[2]

ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم: فلما ابتُلي بالقضاء قلت له: يا أبت، أتذكر يوم طارق؟ قال: يا بنيّ، إنهم يجدون خلفاً من أبيك، وإن أباك لا يجد خلفاً منهم: إن أباك حَط في أهوائهم، وأكل من حلوائهم!

لابن الحسن في رجل غيرته الولاية:

قيل لعبد الله بن الحسن: إنّ فلاناً غيّرته الولاية. قال: من وَلِيَ ولاية يراها أكبرَ منه تغيّر لها، ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها.

بين عمر والمغيرة حين عزله:

ولما عَزل عمرُ بن الخطاب المُغيرة بن شعبةَ عن كتابة أبي موسى، قال له: أعَنْ عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة.

دعوة ابن عمر على زياد:

وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذتُ العراق بيميني وبقيت شمالي فارغة ـ يُعرِّض له

(١) العزل: الاقصاء عن الولاية.

(٢) تقشع: تزول وتنكشف عمّا تحجبه.

بالحجاز - فبلغ ذلك عبدَ الله بن عمر، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم اكفنا شِمالَ زياد: فخرجت في شماله قرحة فقتلته.

بين ابن الخطاب وأبي هريرة:

ولقي عمر بن الخطاب أبا هريرة، فقال له: ألا تعمل؟ قال: لا أريد العمل. قال: قد طلب العملَ مَن هو خير منك يوسف عليه الصلاة والسلام، قال: ﴿اجْعَلني عَلى خَزَائِنِ الأرْض إني حَفِيظٌ عَليم﴾[1].

خالد القسري وتوليته بلالا:

المدائني قال: كان بلال بن أبي بردة ملازماً لباب خالد بن عبد الله القَسريّ، فكان لا يركب خالد إلا رآه في موكبه، فبرم به[2]، فقال لرجل من الشرط: إيت ذلك الرجلَ صاحبَ العمامة السوداء فقل له: يقول لك الأمير: مالزومُك بابي وموكبي؟ لا أوّليك ولاية أبداً. فأتاه الرسول فأبلغه. فقال له بلال: هل أنت مُبلغ عني الأمير كما بلغتني عنه؟ قال: نعم. قال: قل له: والله لئن وليتني لا عزلتني. فأبلغه ذلك. فقال خالد: مالَه قاتَله الله! إنه ليَعِدُ من نفسه بكفاية. فدعاه فولاّه.

بين عمر وطالب عمل:

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلاً، فبادر الرجل فطلب منه العمل، فقال له عمر: والله لقد كنتُ أردتُك لذلك، ولكن مَنْ طلب هذا الأمر لم يُعَنْ عليه.

بين النبي ﷺ والعباس:

وطلب العباسُ عم النبي ﷺ من النبي ولاية، فقال له: «ياعم، نفسٌ تحييها، خيرٌ من ولاية لا تحصيها».

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٥.

(٢) برم به: ملّه واستثقله.

بين النبي ﷺ ورجل طلب عملاً:

وطلب رجل من أصحاب النبي ﷺ عملاً، فقال له: «إنالا نستعين على عملنا بمن يريده».

وتقول النصارى: لا نختار للجثلقة إلا زاهداً فيها غير طالب لها.

لزياد في أغبط الناس عيشاً:

وقال زياد لأصحابه: من أغْبَطُ الناس عيشاً؟ قالوا: الأميرُ وأصحابه! قال: كلا، إنّ لأعواد المِنبر لهيبة، ولِقَرع لجام البريد لفَزْعة؛ ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يجري عليه كِراؤها[1]، وزوجةٌ قد وافقته في كَفاف من عيشه، لا يعرفنا ولا نعرفه؛ فإن عَرفنا وعرفناه أفسدْنا عليه آخرته ودنياه.

بين معاوية والمغيرة حين كبر:

وكتب المُغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يُستبدل به:

أما بعد، فقد كبرتْ سنّي، ورقّ عظمي، وآقترب أجلي، وسفّهني سفهاء قريش، فرأيُ أمير المؤمنين في عمله مُوَفَّق.

فكتب إليه معاوية: أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنّك، فأنت أكلتَ شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفعَ المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان؛ وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أحلّوك ذلك المحل؛ وأما ما ذكرت من العمل، فـ«ضَحِّ رُوَيْداً يدْرك الْهَيْجَا حَمَل»[2] وهذا مثل، وقع وقع تفسيره في كتاب الأمثال.

فلما انتهى الكتابُ إلى المُغيرة كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له فخرج

---

(١) الكراء: الأجرة

(٢) حمل: هو حمل بن بدر من فرسان العرب والمثل في النهي عن العجلة، والأصل فيه النهي عن العجلة في الذبح، ثم استعمل في النهي عن العجلة عامة.

وخرجنا معه، فلما دخل عليه قال له: يا مُغيرة، كَبرت سنك ورقّ عظمك ولم يبق منك شيء، ولا أراني إلا مستبدلاً بك. قال المحدِّث عنه: فآنصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه، فأخبرنَا بما كان من أمره. قلنا له: فما تُريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك. فأتى معاويةَ فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ الأنفس ليُغْدَى عليها ويُراح، ولستَ في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبتَ لنا عَلَماً من بعدك نصير إليه! فإني قد كنت دعوتُ أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، آنصرف إلى عملك ورُمْ هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا نركُض على النُّجُب[1]، فالتفت فقال: والله لقد وضعتُ رجلَه في ركاب طويل أَلْقَى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

باب من أحكام القضاة

قال عمرُ بن عبد العزيز: إذا كان في القاضي خمسُ خصال فقد كَمُل: عِلمٌ بما كان قبله، ونزاهةٌ عن الطمع، وحِلمٌ عن الخَصم، واقتداءٌ بالأئمة، ومشاورةٌ أهل العلم والرأي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فُقِئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتيَ خصمُه؛ فلعله قد فُقئت عيناه جميعاً.

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية في القضاء:

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية في القضاء كتاباً يقول فيه: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وإدناءِ الضعيف حتى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانه، وتَعَاهَد الغريب! فإنك إن لم تتعاهده سقط حقّه ورجع إلى أهله؛ وإنما ضيَّع حقَّه من لم يَرْفُق به: وآس بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس مالم يتبين لك فصل القضاء.

---

(١) النجب: الإبل.

العُتبي قال: تنازع إبراهيمُ بن المهديّ هو وبُخْتَيْشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دواد القاضي في مجلس الحكْم في عَقار بناحية السَّواد؛ فزَرَى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين يدي أحمد بن أبي دُواد، فأحفظه ذلك[1]، فقال: يا إبراهيم، إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت إليه بيدٍ، وليكن قصدك أمماً، وطريقُك نهجاً، وريحُك ساكنة؛ ووفِّ مجالس الحكومة حقوقها مع التوقير والتعظيم والتوجيه إلى الواجب؛ فإن ذلك اشْبهُ بك، وأشكل لمذهبك في مَحْتدِك[2] وعِظَم خَطرك؛ ولا تعجل؛ فرُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً. والله يعصمك من الزلل، وخَطل القول والعمل[3]، ويُتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم. قال إبراهيم: أصلحك الله، أمرتَ بسَداد، وحَضضْتَ على رشاد. ولستُ بعائدٍ إلى ما يثلم مروءتي عندك[4]، ويُسقطني من عينك، ويُخرجني عن مقادر الواجب إلى الاعتذار؛ فها أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتـذارَ مُقِـرٍّ بذنبه، باخِع[5] بجُرْمِه وتلك عادةُ عندنا منك، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد وهبـتُ حقي من هذا العقار لبُخْتَيشوع! فليت ذلك يقوم بأرْشِ[6] الجناية؛ ولن يَتْلَـفَ مـالٌ أفاد موعظة، وبالله التوفيق.

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء:

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، رواها ابن عُيينة: أما بعد فإنّ القضاء فريضةٌ مُحكمة، وسُنَة متّبعة؛ فافهم إذا أُدْلي إليك الخصم؛ فإنه لا ينفع تَكَلّمٌ بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفك[7] ولا يخاف ضعيفٌ من جَوْرك. البينةُ على من آدّعى واليمينُ على من أنكر

---

(١) أحفظه: وجد عليه. (٢) المحتد: الأصل.

(٣) الخطل: الفساد. (٤) يثلم: يعيب وينقص.

(٥) باخع: متذلّل معترف. (٦) الأرش: الدية.

(٧) الحيف: الظلم.

والصلح جائز بين المُسلمين إلا صلحاً أحَلَّ حراماً أو حَرَّمَ حلالاً. ولا يمنعْك قضاءٌ قضيت به بالأمس ثم راجعتَ فيه نفسك وهُدِيتَ فيه لرشدك أن ترجع عنه؛ فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التمادي على الباطل. الْفَهْمَ الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ. واعرف الأمثال والأشباه، وقِس الأمورَ عند ذلك ثم اعمد إلى أحَبِّها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق؛ واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنتَه أخذتَ له بحقه وإلا وجّهت عليه القضاء؛ فإن ذلك أجلى للعمَى وأَبْلَغُ في العُذر. والمسلمون عُدول[1] بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حَدّ، أو مُجَرَّباً عليه شهادةُ زور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو قَرابة أو نَسب؛ فإنّ الله تَولَّى منكم السرائر، ودَرَأ[2] عنكم بالبينات والأيمان؛ ثم إياك والتأذّيَ بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يُوجب اللهُ بها الأجر ويُحسن بها الذخر، فإنه من تَخْلُصُ نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تَزَيَّنَ للناس بما يعلم اللهُ خِلافَه منه هَتَكَ اللهُ ستره.

وله أيضاً يوصيه:

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد؛ فإنّ للناس نُفرةً عن سلطانهم؛ فاحذر أن تدركني وإيّاك عَمياء مجهولة، وضغائنُ محمولة، وأهواء مُتَّبعة، ودُنيا مؤثرة. أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار وأخِف الفُسّاق واجعلهم يداً يداً ورجْلا رجْلا، وإذا كانت بين القبائل نائرة[3] فنادوا يا لَفُلان! فإنما تلك نجوى من الشيطان، فاضْرِبْهم بالسيف حتى يَفيئوا[4] إلى أمر الله وتكونَ دَعَواتُهم إلى الله والإسلام وَاستدِم النعمةَ بالشكر، والطاعة بالتألُّف، والمقدرةَ بالعفو والنُّصرةَ بالتواضع والمحبةِ للناس. وبلغني أن ضَبَّةَ تنادي: يا لَضَبّة. والله ما علمتُ أن ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا صرف بها شرّا. فإذا جاءك كتابي

---

(١) العدول: الأعباء والأعمال. (٢) درأ: منع وأبعد.

(٣) النائرة: العداوة الشديدة. (٤) يفيئوا: يذعنوا.

هذا فأنهكهم عقوبة حتى يَفْرَقُوا إن لم يفقهوا، وألصق بغَيلان بن خَرشة مَن بينهم: وعُدْ مَرْضَى المسلمين، وآشهد جنائزهم، وباشرْ أمورهم، وافتح بابك لهم؛ فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلَهم حملا وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنه فَشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومَركبك ليس للمسلمين مثلُها؛ فإيّاك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة: هَمُّها في السِّمَنِ والسِّمَنُ حَتْفُها. وآعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيتُه، وأشقى الناس من يشقى به الناس. والسلام.

ابن الخطاب وابن العاص والغزو في البحر:

أراد عمر بن الخطاب أن يغزو قوماً في البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عاملُه على مصر: يا أمير المؤمنين، إنّ البحر خلق عظيم، يركبه خلق صغير، دُودٌ على عود. فقال عمر: لا يسألني الله عن أحد أحمله فيه.

للشعبي قال: كنت جالساً عند شُريح إذ دخلت عليه آمرأة تشتكي زوجها وهو غائب وتبكي بكاء شديداً، فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: وما علمك؟ قلت: لبكائها. قال: لا تفعل؛ فإن إخوة يوسف جاءُوا أباهُمْ عِشاءً يَبْكونَ، وهم له ظالمون.

الحسن ورجل رد إياس شهادته:

وكان الحسن بن أبي الحسن، لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجرّحه المشهودُ عليه؛ فأقبل إليه رجل فقال: يا أبا سعيد، إنّ إياساً ردّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه فقال: يا أبا واثلة، لِمَ رَددتَ شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاتَنا واستقبل قِبلتنا فهو المسلم: له مالنا وعليه ما علينا؟ فقال: يا أبا سعيد، إن الله يقول: ﴿مِمَّن تَرضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[1] وهذا لا يُرْضَى.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢

من عدل شريح القاضي:

ودخل الأشعث بن قيس على شُرَيح القاضي في مجلس الحكومة، فقال: مرحباً وأهلا بشيخنا وسيدنا، وأجلسه معه. فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث. فقال له شُريح: قُم فاجلس مجلس الخصم وكلِّم صاحبك. قال بل أكلِّمه من مجلسي. فقال له: لتَقُومَنَّ أو لآمُرَنّ من يُقيمك. فقال له الأشعث: لشدّ ما ارتفعت؟ قال: فهل رأيتَ ذلك ضَرّك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرفُ نعمة الله على غيرك وتجهلُها على نفسك.

إياس ورده لشهادة ابن أبي سود

وأقبل وكيع بن أبي سود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة، فقال: مرحبا وأهلا بأبي مُطَرِّف وأجلسه معه، ثم قال له ما جاء بك؟ قال لأشهد لفلان. فقال: مالك وللشهادة! إنما يَشْهَدُ الموالي والتجار والسُّوقة. قال صدقت، وانصرف من عنده فقيل له: خدَعَك، إنه لا يَقبل شهادتَك. قال: لو علمتُ ذلك لعلوتُه بالقضيب.

عدي بن أرطاة وشريح:

دخل عديّ بن أرطأة على شريح فقال: أين أنتَ أصلحَك الله؟ قال: بينك وبين الجدار. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: نائي المحلِّ سحيقُ الدار. قال: قد تزوجتُ عندكم. قال: بالرفاء والبنين. قال: ووُلِد لي غلام. قال: لِيَهْنِك الفارس. قال: وأردتُ أن أرحِّلها. قال: الرجل أحقّ بأهله. قال: وشرطتُ لها دارها، قال: الشرطُ أمْلَك. قال: فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلت. قال: على من قضيتَ؟ قال: على آبن أمك. قال: بشهادةِ مَنْ؟ قال: بشهادة آبن أختِ خالتِك؛ يريد إقراره على نفسه.

شريح ورجل يخاصم في سنور:

سفيان الثوري قال: جاء رجل يُخاصم إلى شُريح في سِنَّوْر، قال: بيِّنتَك. قال: ما أجد بينة في سنور وُلِدَتْ عندنا. قال شُريح: فاذهبوا بها إلى أمها فأرسِلوها، فإن استقرت واستمرت ودرّت فهي سنورك، وإن هي آقشعرت وازْبأَرَّت[1] فليست بسنورك.

سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى شُريح فقال: ما تقول في شاة تأكل الدَّبَى[2]؟ فقال: لبنٌ طيِّب وعَآف مجّان.

لشريح وقد سئل حكما:

وقيل لشريح: أيها أطيب الجوز ينق أو اللآّزينق؟ قال: لست أحكم على غائب.

الشعبي في الفصل بين رجل وامرأته:

ودخل رجل على الشَّعبي في مجلس القضاء ومعه امرأة، وهي من أجمل النساء فآختصما إليه؛ فأدلت المرأة بحُجتها وقرّبت بينّتها. فقال للزوج: هل عندكَ من مَدْفَع؟ فأنشأ يقول:

فِتِـــن الشَّعبيُّ لَمَّـــا رَفَـع الطَّـرف إليهـا
فَتَنتـــه بـــدلال وبخطَّـيْ حـاجبيهـا
قـال لِلجلـواز قَـرِّبْـها وأحْضِرْ شاهِدَيْها[3]
فَقضى جَـوْراً على الخَصْـم ولَمْ يَقْـض عليهـا

قال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان، فلما نظر إليَّ تبسم وقال:

فُتِـنَ الشَّعْبيُّ لَمَـا رَفَـعَ الطَّـرْف إليهـا

---

(١) ازبأرّت: انتفشت وتهيأت للشرّ.

(٢) الدَّبى: الجراد وقيل صغاره. (٣) الجلواز: الشرطي.

ثم قال: ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعْتُه ضرباً يا أمير المؤمنين؛ بما انتهك من حُرمتي في مجلس الحكومة وبما افتري به عليّ! قال: أحسنت.

تم الجزء الثاني من كتاب اللؤلؤة في السطان. ولله المنة

يتلوه إن شاء الله تعالى «كتاب الفريدة في الحروب» وهو الجزء الثالث من قسمة خمسة وعشرين من قسمة للمؤلف والحمد لله أولا وآخرا. وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها

فرش كتاب الحروب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه:

قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصحيته، وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها، وقَوْد الجيوش وتَدبيرها، وما على المُدبّر لها من أعمال الخدمة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغِرّة، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق، والتحفظ في البيات. هذا بعد معرفة أحكامها، وإحكام معرفته، وطول تجربته لها، ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش، وعلمه أن لا دِرْعَ كالصبر، ولا حِصْن كاليقين. ثم نذكر كرمَ الإقدام ومحمودَ عاقبته، ولؤمَ الفرار ومذمومَ مَغَبّتِه، والله المُعين.

صفة الحروب

الحرب: رحى، ثِفالُها[1] الصبر؛ وقُطْبُها المكْر، ومدارها الاجتهاد، وثِقافُها الأناة[2]، وزمامها الحذر. ولكل شيء من هذه ثمرة: فثمرة المكر الظفَر، وثمرة الصبر التأييد، وثمرة الاجتهاد التوفيق، وثمرة الأناة اليُمْن، وثمرة الحذَر السلامة؛ ولكل

(١) الثفال: ما يبسط تحت الرّحى ليكون عليه الدقيق.

(٢) الثقاف: ما تسوّى به الرماح.

مقام مقال، ولكل زمان رجال والحرب بين الناس سجال[1]، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب: صف لنا الحرب. قال: مُرَّةُ المَذاق، إذا كشفت عن ساق؛ من صَبَر فيها عُرف، ومن نكل عنها تَلِف، ثم أنشأ يقول:

الحرْبُ أوَّلَ ما تكون فُتَيَّةً   تَسْهى بزينتها لكُلِّ جَهول
حتى إذا حَمِيتْ وشَبَّ ضرامُها   عادتْ عجوزاً غير ذات خَليل[2]
شَمطاءَ جَزَّتْ رأسها وتنكَّرَتْ   مَكْروهةً للشَّمِّ والتقبيلِ[3]

وقيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب. فقال: أوّلها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى.

وقال الكميت:

والناسُ في الحرب شتّى وهْي مُقبلةٌ   ويستوون إذا ما أدْبر القُبُلُ
كلٌّ بأمْسِيِّها طَبٌّ مُوَلِّيَةً   والعالمون بذي غُدْوِيِّها قُلُلُ[4]

وقال نصر بن سيار صاحب خُراسان يصف الحرب ومبتدَأ أمرها:

أرى خَلَلَ الرَّماد ومِيضَ نارِ   ويُوشك أن يكون له ضِرَامُ
فإنّ النَّار بالعُوديْن تُذْكى   وإنّ الحربَ أولها الكلامُ

من حكمة لسليمان:

وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: الشر حلوٌ أوله، مُرٌّ آخره.

للعرب:

والعرب تقول: الحرب غشوم؛ لأنها تَنال غيرَ الجاني.

(١) سجال: مداورة.   (٢) شبّ ضرامها: اتّقد لهبها.
(٣) الشمطاء: التي خالط سواد شعرها البياض.
(٤) طبٌّ: خبير وعالم، وغدوِّيها: أي ما يحمله الغد، وقلل: أي قلّة.

وقال حبيب[1]:

والحرب تَرْكب رأْسَها في مشْهَدٍ عُدِلَ السَّفيهُ به بألْفِ حليمِ
في ساعةٍ لو أنّ لُقماناً بها وهو الحيكمُ لكانَ غير حكيمِ

وقال أكثمُ بن صيفيّ حكيمُ العرب: لا حلم لمن لا سفيه له.

ونحو هذا هول الأحنفِ بن قيس: ما قَلَّ سفهاءُ قومٍ قَطُّ إلا ذلّوا.

وقال: لأنْ يطيعني سفهاءُ قومي أحَبُّ إليّ مِن أن يُطيعني حلماؤهم.

وقال: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النارَ والعار.

للنابغة الجعدي ودعوة النبي ﷺ:

وقال النابغة الجعدي:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم تكن له بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أن يُكدَّرَا

وأنشد هذا الشعر للنبي ﷺ، فلما آنتهى إلى هذا البيت. قال له النبي ﷺ: لا يَفْضُض اللهُ فاك. فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثنيّة.

وقال النابغة الذّبياني يصف الحرب:

تَبدو كواكبه والشمسُ طالِعةٌ لا النّورُ نُورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

يريد بقوله: «تبدو كواكبه والشمس طالعة، شدَة الهول والكرب، كما تقول العامة: أَرَيْتُه النجومَ وسط النهار. قال الفرزدق:

أُريكَ نجومَ الليلِ والشمسُ حيّةٌ

وقال طرفة بن العبد:

وتريكَ النَّجْمَ يَجْري بالظّهر

(١) هو حبيب بن أوس الطائي، أبو تمام.

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمسُ طالِعةٌ ليست بكاسِفَةٍ تبكي عليك نجومَ الليلِ والقَمَرَا

يقول: إن الشمس طالعة وليست بكاسفةٍ نجومَ الليل، لشدة الغم والكرب الذي فيه الناس.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في صفة الحرب:

ومُغْبَرِّ السماءِ إذا تَجَلَّى يُغادِرُ أَرْضَه كالأُرْجُوان
كأنّ نهاره ظَلْماءُ لَيْلٍ كَوَاكِبه مِنَ السُّمر اللِّدان[1]
سَمَوْتُ لهُ سُمُوَّ النَّقْع فيهِ بكلِّ مُدَلَّقٍ سَلِبِ السَّنَان[2]
وكلِّ مُشطَّبِ المتنين صافٍ كلون الملحِ منصلتٌ يمانِ[3]

وفي صفة المعترك:

ومُعْتركٍ تَهزُّ به المنايا ذُكُورَ الهندِ في أَيْدِي ذُكُور[4]
لَوَامِعُ يُبْصِر الأعْمَى سَناها ويَعمَى دونها طَرْفُ البَصِيرِ
وخافِقةِ الذَّوائب قد أَنافَتْ على حَمْراءَ ذات شَباً طَرير[5]
يُحَوِّم حَولَها عِقْبان مَوْتٍ تَخطَّفتِ القُلُوبَ مِنَ الصُّدُّور
بيَوْمٍ رَاحَ في سِرْبَال ليلٍ فما عُرِفَ الأصِيلُ من البُكُورِ
وعَيْنُ الشمس تَرْنُو في قَتامٍ رُنُوَّ البكْر من بين السُّتُور[6]
فكم قَصَّرْت مِنْ عُمُرٍ طَويلٍ بهِ، وأَطَلْتَ مِنْ عُمُرٍ قصيرِ

---

(١) السمر اللدان: الرماح اللينة.
(٢) النّقع: الغبار، والمذلّق: المحدّد وسلب: طويل.
(٣) مشطب: كناية عن السيف المصقول الأبيض الذي نسبته اليمن.
(٤) ذكور الهند: سيوفها القاطعة.
(٥) الذوائب: خصلات الشعر، وأراد بالحمراء: القناة والشبا: جمع شباة وهي الحد، والطرير: المحدّد.
(٦) ترنو: تنظر، والقتام: الغبار.

العمل في الحروب

قيل لأكثم بن صَيفيّ: صف لنا العمل في الحرب. قال أقِلّوا الخلاف على أمراتكم، فلا جماعةَ لمن اختُلف عليه. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل؛ فتثبّتوا؛ فإن أحْزَمَ الفريقين الرَّكِين. ورُبَّ عجلةٍ تُعْقِبُ رَيْثاً. وادَّرعوا اللَّيْلَ فإنه أخْفَى للوَيل، وتحَفَّظوا من البيات.

وقال شَبيب الحَروريّ: الليل يكفيك الجبان ونصفَ الشجاع. وكان إذا أمسى يقول لأصحابه: أتاكم المدد.

وقالت عائشةُ رضي الله تعالى عنها يوم الجمل، وسمعتْ منازعةَ أصحابها وكثرةَ صياحهم: المُنازعة في الحرب خَوَر[1]، والصياحُ فيها فَشَل، وما برأيي خَرَجْتُ مع هؤلاء.

وقال عُتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله ﷺ: أمَا تَرَوْنَهم خُرْساً لا يتكلّمون، يتلَمَّظُونَ تَلمُّظَ الحيات[2].

لابن أبي طالب في العواقب:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَن أكثر النظرَ في العواقب لم يَشجُع.

وقال النعمان بن مُقَرِّنَ لأصحابه عند لقاء العدوّ: إني هازٌّ لكم الراية، فليُصْلح كلّ رجل منكم من شأنه ولْيَشُدَّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازُّها لكم الثانية. فلينظر كل رجل منكم موقعَ سهمه وموضعَ عدوِّه ومكان فرصته؛ ثم إني هازُّها لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله.

---

(١) الخور: الضعف.
(٢) تلّمظت الحيَّة: أخرجت لسانها.

لعمر بن الخطاب في ابن مقرن:

وللنعمان بن مقرّن هذا، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ تكاملت [الخيل] وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: لأُقلّدنّ أعنَّتَها رجلا يكون غداً لأول أسنَّةٍ يلقاها، فقلدها النعمان بن مقرن.

لعلي في الفرصه:

وقال علي رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين.

وقال بعض الحكماء: انتهز الفرصة فإنها خلْسة؛ وثِب عند رأس الأمر ولا تثب عند ذنَبه؛ وإياك والعجزَ فإنه أذَلُّ مَرْكب، والشفيعُ المهين فإنه أضعف وسيلة.

لابن مسلم في ابن أبي سود

وخرجتْ خارجةٌ بخراسانَ على قتُيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقيل له: ما يهمُّك منهم؟ وجَّه إليهم وكيع بن أبي سُود فإنه يكفيهم. فقال: لا، إن وكيعا رجل به كِبْرٌ يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قَلت مبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم. فيجد عدوُّه غِرَّةً منه[1].

لبعض الملوك في الحزم:

وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم في القتال فقال: مخاتلة العدو[2] عن الريف وإعدادا العيون[3] على الرَّصد، وإعطاء المُبلّغين على الصدق، ومعاقبة المتوصّلين بالكذب، وألاّ تخرج هاربا إلى قتال؛ ولا تُضيّق أمانا على مستأمن، ولا تشدَهنَّك[4] الغنيمة عن المحاذرة.

---

(١) الغرّة: الغفلة. (٢) المخاتلة: الخداع.
(٣) العيون: الجواسيس. (٤) تشدهنَّك: تدهشنّك.

للعجم في أشد الأمور تدريباً:

وفي بعض كتب العجم: إن حكيماً سُئل عن أشد الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لها. فقال: تَعَوُّدُ القتال، وكثرةُ الظّفر، وأن يكون لها موادٌّ من ورائها.

بين معاوية وعمرو بن العاص:

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

شُجَاعٌ إذا ما أمْكنتْنِيَ فُرْصَةٌ وإن لم تَكنْ لي فُرصةٌ فَجَبانُ

وقال الأحنف بن قيس: إن رأيت الشر يتركك إن تركته، فاتركه.

قال هُدبة العذري:

ولا أتّمنى الشرَّ والشرُّ تاركي ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركَبِ[1]
ولستُ بمفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّني ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المتقلّبِ

الصبر والإقدام في الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب في آيتين من كتابه فقال تعالى: ﴿يأيُّها الذين آمنُوا إذا لقِيتم فِئَةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرا لعَلَكُمْ تُفلِحُون وأَطِيعُوا آللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا وتذْهَبَ رِيحُكم وآصْبروُا إنّ اللهَ مَعَ الصَّابرين﴾[2].

للعرب في الشجاعة:

وتقول العرب: الشجاعة وقاية والجبن مَقْتلة. واعتبر من ذلك أن من يُقْتلُ مدبراً أكثرُ ممن يُقْتل مُقْبلا.

(١) أحمل: أدفع وأقاد، أي أنّه حتى لا يجد مناصاً من الشرّ فإنّه فاعله.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٥.

لأبي بكر يوصي خالداً:

ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهَبْ لك الحياة.

للعرب:

والعرب تقول: الشجاع مُوَقًّى والجبان مُلَقّى.

وقال أعرابي: الله مُخْلف ما أتلف الناس. والدهرُ متلف ما جمعوا، وكم من مُنية عِلّتها طلب الحياةِ، وحياةٍ سببِها التعرّض للموت.

لخالد في الصبر:

وكان خالد بن الوليد يسير في صفوف يُذمّرُ[1] الناس ويقول: يا أهل الإسلام: إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النصر.

وكتب أنو شروان إلى مرازبته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة؛ فإنهم أهلُ حُسْن الظنّ بالله.

وقالت الحكماء: استقبال الموت خير من استدباره.

وقال حسان بن ثابت:

ولسْنا على الأعْقاب تَدْمَى كُلُومُنـا ولكن على أعْقابنا تَقْطُـرُ الدِّمـا[2]

وقال العلوي في هذا المعنى:

مُحَرَّمـةٌ أكْفـالُ خَيلِـي على القَنـا ودامِيَــةُ لَبَّــاتها ونحورُهــا[3]

حرامٌ على أرْماحنـا طَعـنُ مُـدْبـرِ وتَنْدَقُّ منها في الصدور صُدورُهـا

(١) يذمّرهم: يحضّهم على القتال.

(٢) روي هذا البيت في الحماسة للحصين بن الحمام المرّي، من شعراء الجاهلية.

(٣) يقصد أنّه كرّارٌ غير فرّار، لأن الجراح من قبل وليست من دبُر.

وكانوا يتمادحون بالموت قَعْصاً[١] ويتهاجون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلانٌ حَتْفَ أنفِه وأول من قال ذلك النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

لعبد الله بن الزبير في مقتل أخيه مصعب:

وخطب عبد الله بن الزُّبير الناسَ لما بلغه قتلُ مصعب أخيه، فقال: إن يُقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصا بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف؛ وإن يُقتل مصعب فإن في آل الزبير خلفاً منه. وقال السموأل بن عادياء:

وما مات منّا سيِّد حتْفَ أنْفِه ... ولا طُلّ منّا حيثُ كان قَتيلُ[٢]
تَسِيلُ على حدِّ الظّباتِ نفوسُنا ... وليس على غير السُّيُوفِ تَسِيلُ[٣]

وقال آخر:

وإنا لتَسْتَحْلي المنايا نُفوسُنا ... ونَتْرُكُ أُخرى مُرّها فنذوقُها

وقال الشَّنْفري:

فلا تدفِنوني، إنّ دَفْني مُحَرَّمٌ ... عليكم ولكنْ خامري أُمَّ عامِر
إذا حُملَتْ رأسي وفي الرأس أكْثري ... وغُودِرَ عند المُلتقَى ثمّ سائري
هنالك لا أبْغي حَياةً تسُرُّني ... سجيسَ اللّيالي مُبْسَلاً بالجزائر[٤]

قوله «خامري أمْ عامر»: هي الضبع. يعني: إذا قتلتموني فلا تدفنوني ولكن ألقوني إلى التي يقال لها: خامري أمّ عامر، وهي الضبع. وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

---

(١) يقولون مات قعصاً: أي أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه.
(٢) حتف أنفه: أي على فراشه. وطُلّ: ذهب دمه هدراً ولم يثأر له.
(٣) تسيل: أيّ تزهق والظبات: السيوف والرماح وغيرها.
(٤) سجيس الليالي: أي أبداً: ومبسلاً: أي مسلَماً.

لعلي بن أبي طالب:

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ـ وقيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشيّ في ازار ورداء؟ فقال: أبالموت تخوِّفوني؟ فوالله ما أبالي أسقطتُ على الموت أم سقط عليّ.

وقال لابنه الحسن عليهما السلام: لا تدعُونّ أحدا إلى المبارزة، وإن دُعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أنْمَى عدداً، وأطيَبُ ولداً. يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددُهم ونما ولدُهم.

ومما يستدلْ به على صدق قوله: ما عَمِل السيفُ في آل الزبير وآل أبي طالب وما أكْثَرَ مِن عددِهم.

وقال أبو دلف العِجْليّ:

سَيْفِـــــــي بلَيْلي قَبَسي ... وفي نَهـــــاري أنسي[1]
إنّـــــي فتىً عَـــوَّدَني ... مُهْـري رُكُـوبَ الغَلس
يَحْمَـــــدُني سيْفِني كما ... يَحْمَـدُ كَـرِّي فـرسي

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان:

لَسْـتُ لِـرَيْحَـانِ ولا رَاح ... ولا على الجار بنَفّـــاح[2]
فـإنْ أَرَدْتَ الآنَ لي مـوْقِفـاً ... فبَيْـن أَسْيـافٍ وأرْمـاحِ
تَـرَى فتىً تَحْـت ظلال القَنـا ... يَقْبـض أرْوَاحـاً بـأَرْوَاحِ

وقال أشهب بن رميلة:

أَسُودُ شرًى لاقـت أَسُـودَ خَفِيَّـةٍ ... تلاقوا على جُـرْدٍ بماءِ الأسـاود[3]

---

(١) القبس: الضوء.

(٢) النفّاح: الذي ينفح الطيب، كناية عن العطاء وحسن المعاملة.

(٣) الجرد: الغضب.

للمهلب في أعجب ما رأى في حرب الأزارقة:

وقيل للمُهلب بن أبي صُفرة: ما أعجبُ ما رأيتَ في حرب الأزارقة؟ قال: فتى كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول:

وسائِلَةٍ بالغَيْب عنّي ولو دَرَتْ ... مُقَارَعَتي الأبْطَال طال نَحِيبُهَا
إذا ما التَقَينا كنتُ أوّلَ فارسٍ ... يَجُود بنَفْسٍ أثْقَلَتها ذُنُوبُها

ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك.

بين هشام وأخيه مسلمة في الذعر:

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعد، هل دخلك ذعرٌ قط لحرب أو عدوّ؟ قال: ما سلمت في ذلك من ذعر يُنبِّه على حِيلة، ولم يُغشَني ذعرٌ قَطّ سلبني رأيي. قال هشام: صدقت هذه والله البسالة.

وقيل لعنترة: كم كنتم يومَ الفَرُوق[1]؟ قال: كُنَّا مائة لم نكثر فنتكل، ولم نقِلّ فنذلّ.

ما كان يتمثل به ابن المهلب:

وكان يزيدُ بن المهلّب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حُصين بن الحُمام:

تأخَّرْتُ أسْتَقِي الحَياةَ فلَمْ أجدْ ... لنَفْسي حَياةً مِثْل أنْ أتقَدَّمَا

وقالت الخَنساء:

نهِينُ النُّفُوسَ وبَذْلُ النفُو ... س يَوْمَ الكريهةِ أبْقَى لها

وقيل لعبّاد بن الحُصين، وكان من أشدّ أهل البصر: في أيّ عُدَّة كنت تُريد أن تلقَى عدوّك؟ قال: في أجل مستأخرٍ.

وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله تعالى عنه يوم صفّين:

---

(١) من أيام عبس وذبيان.

أبَــتْ لي شِيمَتي وأبَــى بلائِــي وأخْذِي ٱلحمْدَ بـالثَّمَـن الرَّبيـح
وإقـدامِـي على المكـروهِ نفْسِـي وضَـرْبِي هـامَـةَ البطَـل المُشِيـح
وقوْلي كُلَّمَـا جَشـأَتْ وجـاشَـتْ مكانَكِ تُحْمَـدِي أوْ تَسْتَـريحِي[1]
لأَدْفـعَ عَـنْ مَـآثِـرَ صـالِحَـاتٍ وأحْمِي بَعْدُ عن عِـرْضٍ صَحيـحِ

ونظير هذا قول قطَريّ بن الفُجاءة:

[اقُولُ لها وقدْ طارَتْ شَعَاعـاً][2] مِنَ ٱلأَبْطـال ويْحَـكِ لا تُـرَاعِـي
فإنَّـكِ لـو سـألْـتِ حَيَـاةَ يَـوْمٍ سِوَى الأجَل الذي لَكِ لم تُطاعِـي

لابن أبي طالب في صفين:

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفّين حتى يقف بين الصفَّين ويقول:

أيَّ يَــوْمَـيَّ مِـــن المَوْت أفِــرّ يـوْم لا يُقْـدَرُ أو يَــوْمَ قـُـدِرْ
يَـــوْمَ لا يُقْـــدَرُ لا أرْهَبُـــهُ ومِـنَ المَقْـدُور لا يُنْجِـي الحَذَرْ

ومثله قول جرير:

قلْ لِلجبـان إذا تـأَخَّـرَ سَـرْجُـهُ هل أنت من شَـرَكِ المنيَّـة نـاجِ[3]

وهذا البيت في شعره الذي أوله:

هاج الفراقُ لقلبك المهتاج

ومدح فيه الحجاج، فلما أنشده:

قل للجبان إذا تأخّر سرجه

---

(١) جشأت: أيّ تطلعت ونهضت جزعا وكراهة.
(٢) في الأصل: «وقولي كلّما جشأت لنفسي».
(٣) شرك المنية: حبائلها.

قال له: جرّأت عليّ الناس يا بن اللّخناء! قال: والله ما ألقيتُ لها بالا أيها الأمير إلا وقتي هذا.

عاصم بن الحدثان والفرزدق:

وكان عاصم بن الحدثان عالما ذكيّا، وكان رأس الخوارج بالبصرة، وربما جاء الرسول منهم من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه، فمرّ به الفرزدق، فقال لآبنه: أنشد أبا فراس، فأنشده:

وهُمُ إذا كسرُوا الجُفُون أكارمٌ   صُبُرٌ وحِين تُحَلَّل الأزْرَارُ[1]
يَغْشَوْنَ حَوْمَاتِ المَنُون وإنّها   في الله عند نُفُوسهمْ لَصِغَارُ
يَمشُونَ بالخطِّيِّ لا يثْنِيهِمُ   والقوْمُ إن رَكِبُوا الرماحَ تَجَارُ[2]

فقال له الفرزدق: ويحك! اكتم هذا لا يسمعه الناسجون فيخرجوا علينا بحفوفهم[3] فقال أبوه: هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين.

ونظير هذا مما يشجّع الجبان قولُ عنترة الفوارس:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الْحتُوفَ كأنّني   أصبحتُ عن غرض الْحتُوفِ بمعْزِل[4]
فأجبتُها: إنّ الْمنِيَّة مَنْهلٌ   لا بُدَّ أن أُسْقَي بكأس المَنْهَلِ
فاقْنَيْ حيَاءَكِ لا أبالَكِ واعْلَمي   أنّي امْرُؤٌ سأَمُوتُ إن لم أُقْتَلِ[5]

ومن أحسن ما قالوه في الصبر، قولُ نَهشل بن حَريّ بن ضَمْرة النهشليّ:

ويومٍ كأنّ المصْطَلِينَ بحرِّه   وإن لم تكنْ نَارٌ وقُوفٌ على جَمْرِ[6]
صَبَرنَا له حتى يَبُوخَ، وإنما   تفَرَّجُ أيامُ الكريهةِ بالصَّبْرِ[7]

(١) الجفون: الأغماد، وكسر الجفون وحلّ الأزرار كناية عن الاستعداد والنهوض للحرب.
(٢) الخطّيّ: الرماح منسوبة إلى الخطّ. وتجار: يمارسون البيع والشراء، أي يقتلون ويُقتلون.
(٣) الخفّ: المنسج. (٤) بكرت: عجلت.
(٥) فاقني حياءك: الزميه. (٦) المصطلين: الذين يعانون من حرّه وسعيره.
(٧) يبوخ: يسكن. والكريهة: الحرب.

وأحسن من هذا عندي قولُ حبيب:

فأَثْبَتَ في مُستنقع الموتِ رِجْلَهُ ... وقالَ لها مِنْ تَحْت إخْمَصِكِ الحَشْرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الموتِ حُمْراً فما أَتَى ... لها الليلُ إلا وهْيَ مِنْ سُنْدُس خُضْر

وأحسن من هذا قوله:

يستعذِبون مناياهم كأنهمُ ... لا يخرجون مِنَ الدنيا إذا قُتِلوا

وقولهُ في المعنى:

قوْمٌ إذا لبِسوا الحديدَ حسِبتَهم ... لم يحسَبوا أنّ المنيَّةَ تُخلقُ
انظُرْ بحيث ترى السُّيوف لَوامِعاً ... أبدا وفوقَ رُءُوسِهم تتألَّقُ

وقال الجحّاف بن حكيم:

شهِدنَ مع النبيّ مُسَوَّماتٍ ... حُنَيْناً وهي دامية الحوامي[1]
ووقعةَ راهطٍ شهِدتْ وحلَّت ... سنابكُهُنَّ بالبلدِ الحرامِ
تعرّض للطِّعانِ إذا التقينا ... خُدُوداً لا تعَرَّضُ لِلّطامِ

أخذه من قولهم: ضربة بسيف في عزّ، خيرٌ من لطمة في ذلّ.

ومن أحسن ما وُصِفت به رجالُ الحرب قولُ الشاعر[2]:

رُوَيداً بني شيبانَ بعضَ وعيدِكُم ... تَلاقوا غَداً خَيلي على سفوان[3]
تُلاقوا رِجالا لا تَحيد عنِ الوغى ... إذا الخيلُ جالتْ في فنا الميدان
إذا استُنجدوا لم يسألوا من دَعاهُمُ ... لأيّةِ أرضٍ أو لأيّ مكان

ونظير هذا قول الآخر:

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارِهِمْ ... تركوهُ ربَّ صَواهلٍ وقِيانِ[4]

---

(١) المسوّمات: المعارك. والحوامي: ميامن الحافر ومياسره.

(٢) هو وداك بن نميل المازني.

(٣) سفوان: هبوب وعَجَل، والسافنة الريح التي تهبُّ على وجه الأرض.

(٤) أي تركوه صاحب خيل وعبيد، كناية عن إغنائهم إيّاه.

وإذا دعوتَهُمُ ليومِ كريهةٍ ... سَدُّوا شُعاعَ الشمسِ بالفُرْسانِ
لا يَنكُتُونَ الأرضَ عند سُؤالِهِمْ ... لتطلُّبِ العِلاَّتِ بالعِيدانِ (١)
بل يُسفِرون وجوهَهم فترى لها ... عند السُّؤال كأحسنِ الألْوانِ

ومن أحسن المحدّثين تشبيهاً في الحرب، مُسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد بن مزْيد:

تَلقَي المنيَّةَ في أمثالِ عُدّتِها ... كالسَّيلِ يَقذِف جلْمودا بجلمودِ
تجودُ بالنفس إذ ضَنّ الجواد بها ... والجود بالنَّفس أقصَى غايةِ الجودِ

وقوله أيضا:

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ ... كأنّه أجلٌ، يسعَى إلى أمَلِ (٢)
يَنالُ بالرّفْقِ ما تَعيا الرجالُ به ... كالموت مستعجلاً يأتي على مَهَلِ

وقال أبو العتاهية:

كأنّك عند الكرّ في الحرب إنّما ... تفرُّ عن السّلم الذي من ورائكا
كأنّ المنايا ليْس تجْري لَدَى الْوَغى ... إذا التقتِ الأبطالُ إلاّ برأيكا
فما آفةُ الآجالِ غيْرُك في الوغى ... وما آفة الأموال غير حِبائكا (٣)

وقال زيد الخيل:

وقد علمتْ سلامةُ أنّ سيْفي ... كريهٌ كلّما دُعِيتْ نَزالِ
أُحادِثُهُ بِصَقْلٍ كلّ يوْمٍ ... وأَعْجمُه بهاماتِ الرجالِ

وقال أبو محلّم السعديّ:

تقولُ وصَكّت وجهَها بيمينِها ... أبعْلِيَ هذا بالرّحَى المُتقاعسُ (٤)

---

(١) ينكتون الأرض: كناية عن التفكير في توسل العلل المانعة للعطاء.
(٢) الرهج: الغبار، والأجل: الموت.
(٣) الحباء: العطاء.
(٤) صكّت: لطمت، والمتقاعس: الذي دخل ظهره وخرج صدره، يقول: إنّ امرأته حين رأته متشاغلاً بالرّحى لطمت وجهها لأن هذا العمل ليس من عاداته وأفعاله.

فقلـــت لها لا تعْجلـــي وتَبيَّني بلائـي إذا التفَّـتْ عليّ الفَـوارسُ
ألسْتُ أرُدُّ القِرْنَ يـركـب رَدعـه وفيه سِنان ذو غـراريـن نـائس(١)
إذا هاب أقْـوامٌ تقحَّمْـتُ غمـرةً يَهـاب حُميَّـاهُ الألـدُّ المداعِس(٢)
لعَمـرُ أبيـك الخير إنّـي لخادمٌ لضَيْفي وإنّي إن ركبـتُ لفـارسُ

وقال آخر يمدح المهلّب بالصبر:

وإذا جُـدِدْتَ فكـلُّ شيءٍ نـافـعٌ وإذا حُدِدْتَ فكلُّ شيءٍ ضـائـرُ(٣)
وإذا أتـــاك مُهلّبيٌّ في الوغـــى في كفّـه سيْـفٌ فنِعْـم النـاصِـرُ

ومن قولنا في القائد أبي العباس في الحرب:

نفسي فِـداؤك والأبطـالُ واقِفـةٌ والموْتُ يَقسِـمُ في أرواحِهـا النّقَما
شارَكْتَ صَرْف المنايا في نُفوسِهـمُ حتى تحكّمْتَ فيها مثْل مـا احتَكما
لو تسْتطيع العُلا جاءَتْك خاضعـةً حتى تُقَبِّل منـكَ الكَـفَّ والقَـدَمـا

ومن قولنا في وصف الحرب:

سيوفٌ يَقيـلُ الموْتُ تحت ظُبـاتها لها في الكُلَى طُعْمٌ وبينَ الكُلَي شرْب(٤)
إذا اصْطَفَّت الرايات حُمْراً مُتونُهـا ذَوائِبُهـا تَهْفـو فيهْفـو لها القلـبُ
ولم تَنطِـقِ الأبطـــالُ إلاّ بفعْلِهـــا فألْسنُهـا عُجْـمٌ وأفْعـالُها عـرْبُ
إذا ما التقَوا في مأزقٍ وتَعـانقـوا فلُقْياهُمْ طَعْـنٌ وتَعْنِيقُهُـمْ ضَـرْبُ

ومن قولنا في رجال الحرب و أنّ الوغى قد أخذت منهم ومن أجسامهم فهي مثلُ السيوف في رقّتها وصلابتها:

سيْـــفٌ تقلّـــدَ مِثْلـــهُ عَطْفَ القَضيـب على القضِيـبْ

---

(١) يركب ردعه: أي يخرّ صريعاً لوجهه والنائس: المضطرب، والغرار: الحدّ.

(٢) تقحّمت: أي أقدمت، والغمرة: الحرب وحمياها: شدّتها، والألد: اللجوج الشديد الخصومة والمداعس: المطاعن.

(٣) جُددت: أي كنت محظوظاً.

(٤) يقيل الموت: أي يتقيّل ويرتاح والظباة: حدّ السيف والسهم وغيرهما.

هــذا تُجَــزُّ بــه الرِّقــا ... بُ وذا تُجَرُّ بـه الخطـوبْ

ومن قولنا أيضاً:

تــراهُ في الْوَغَــى سيْفــاً صَقيلاً ... يُقَلِّـبُ صفْحتَـيْ سيْـفٍ صقِيـلِ

ومن قولنا أيضاً:

سيْـفٌ عليــه نجادُ سَيــفٍ مِثْلـهِ ... في حَـدِّهِ لِلْمُفْسِـديـنَ صلاحُ

ومن قولنا أيضاً في الحرب وذكر القائد:

مَقيلُــكَ تحت أظْلالِ العــوالي ... وبيْتُـك فـوْق صَهْـواتِ الجيــادِ
تَبخْتَـرُ في قميـصٍ مــن دِلاصٍ ... وتَـرْفُـل في رداءٍ مــن نِجــادِ[1]
كأنَّــك لِلحـروب رَضيـعُ ثَدْيٍ ... غَـذَتْـك بكــلِّ داهِيَــةٍ نَــآدِ[2]
فكَــمْ هــذا التَّمني لِلْمَنــايــا ... وكم هــذا التَّجلّــدُ لِلجِلادِ
لئِـنْ عُـرِف الجهـادُ بكُـلِّ عــامٍ ... فـإنَّـك طـولَ دَهْـرِكَ في جهــادِ
وإنَّـك حين أُبْتَ بكــلِّ سَعْـدٍ ... كمِثْــلِ الرُّوحِ آبَ إلى الفُــؤادِ
رأيـنَـا السَّيـف مُـرتَـدياً بسَيـفٍ ... وعـــايَنَّـــا الجواد على الجواد

وقد وصفنا الحربَ بتشبيه عجيب لم يُتَقدَّمْ عليه، ومعنى بديعٍ لا نظير له، فمن ذلك قولُنا:

وجيش كظهْرِ اليَمِّ تنْفحُـهُ الصَّبـا ... يَعُبُّ عُبابـاً مـنْ قنـاً وقنـابِـلِ[3]
فتَنْـــزِلُ أُولاهُ وليس بنــــازلٍ ... وتَرحـلُ أُخْـرَاهُ وليس بـراحِـلِ
ومُعتَرَكٍ ضَنْـكٍ تعـاطَـتْ كُماتُـهُ ... كئوسَ دِماءٍ مـنْ كُلىً ومفَـاصـلِ
يُدِيرونَها راحـاً مـنَ الرُّوح بيْنَهـم ... بِبيضٍ رِقاقٍ أو بِسُمرٍ ذوابِـلِ[4]

---

(١) الدلاص: الدرع، والنجاد: حمائل السيف.

(٢) النآد: الداهية. (٣) القنابل: القطع من الخيل.

(٤) الراح: الخمر، والبيض: السيوف والسمر الذوابل: الرماح الدقيقة يريد أنّ هذه الخمر من أرواح القتلى بالسيوف والرماح.

وتُسْمِعُهُم أمُّ المَنِيَّة وسْطَهـا غِناءَ صليلِ البِيضِ تحْتَ المَناصِلِ[1]

ومن قولنا في هذا المعنى:

سيفٌ من الْحَتف تَردَّى به يومَ الوغَى سيفٌ من الحزْمِ
مواصلاً أعْداءَهُ عن قِلىً لا صِلةَ القربَى ولا الرَّحْمِ[2]
وصلٌ يَحِنُّ الإلْفُ من بُغْضهِ شوقاً إلى الهجران والصَّرْمِ
حتى إذا نادمُهم سيفُه بكلِّ كأسٍ مُرَّةِ الطَّعْمِ
تَرى حُمَيَّاها بهاماتِهم تغُور بين الجِلْدِ والعظْمِ[3]
على أهازِيجِ ظُباً بينَها ما شئْتَ منْ حَذْفٍ ومنْ خَرْمِ[4]
طاعوا له من بعدِ عِصْيانِهم وطاعَةُ الأعْداء عن رَغْمِ
وكم أعَدُّوا واستَعدُّوا له هيْهات ليس الخضْمُ كالقَضْمِ[5]

ومن قولنا في شبهه:

كم ألْحَمَ السَّيف في أبْناءِ مَلْحَمةٍ ما مِنهُمُ فوق متْنِ الأرضِ دَيَّارُ[6]
وأوردَ النَّارَ من أرواحِ مارِقةٍ كادتْ تَميَّزُ من غَيظٍ لها النَّارُ[7]
كأنَّما صالَ في ثِنْيَيْ مُفاضتهِ مُستأسدٌ حنِقُ الأحْشاءِ هدَّارُ[8]
لما رأى الفِتنةَ العَمياءَ قد رحُبَتْ منها على النَّاسِ آفاقٌ وأقْطارُ
وأطبقَت ظُلَمٌ من فوقِها ظُلَمٌ ما يُسْتضاءُ بها نُورٌ ولا نارُ
قاد الجيادَ إلى الأعْداءِ ساريةً قُبّاً طَواها كطيِّ العصْبِ إضْمارُ[9]

(١) الصليل: صوت السيف عند القراع.
(٢) القلى: الكره.
(٣) الحميّا: الخمرة وأثرها.
(٤) الخرم: اختراق الشيء من ناحية إلى ناحية.
(٥) الخضم: الأكل بالأضراس والقطم. الأكل بأطراف الأسنان، وهو أشدّ.
(٦) ألحم السيف: امتزج، ومتن الأرض: ظهرها.
(٧) المارقة: الخارجون عن الجماعة.
(٨) المفاضة: الدّرع الواسعة. (٩) القبّ: الضوامر البطون: الواحد أقب.

ملمومـــةً تتبــارى في مُلَمْلَمَــةٍ ... كأنَّها لاَعْتِدالِ الخلْقِ أَفْهـارُ[1]

تَزْوَرُّ عِندَ احتِماسِ الطَّعنِ أَعْيُنُهـا ... وهُنَّ منْ فُرُجاتِ النَّقْعِ نُظّارُ[2]

تفُوتُ بالثَّأر أقـواماً وتُـدْرِكُـه ... مـن آخَـريـن إذ لَمْ يُـدْرَك الثّارُ

فانْسَاب نَاصِرُ دِينِ اللهِ يقْـدُمُهُـمُ ... وحـولَـهُ مـن جنـودِ اللهِ أنصَـارُ

كتـائِـبٌ تتبـارى حـولَ رايتـه ... وجحْفَـلٌ كَسَـوادِ الليـلِ جَـرَّارُ

قومٌ لهم في مكـرِّ اللَّيـلِ غَمْغَمَـةٌ ... تحت العجاجِ وإقبـالٌ وإدبـارُ[3]

يَستَقْبِلـون كـرادِيسـاً مكَـردسَـةً ... كما تَـدافـعَ بـالتَّيّـارِ تيَّـارُ[4]

من كلِّ أَرْوعَ لا يَـرْعَـى لِهاجِسَـةٍ ... كأَنَّهُ مُخْدِرٌ في الْخَيْلِ هَصَّارُ[5]

في قسْطلٍ من عَجاجِ الحرب مُدَّ لهُ ... بينَ السماءِ وبينَ الأرضِ أَسْتـارُ

فكم بساحَتِهم مـن شِلْـوِ مُطَّـرَحٍ ... كأنه فوقَ ظَهْرِ الأرضِ إجّـارُ[6]

كـأَنَّما رأْسُـهُ أفلاقُ حنْظَلَــةٍ ... وساعِداهُ إلى الزَّنْـدَيْـنِ جُمَّـارُ[7]

وكم على النَّهْـرِ أَوْصـالاً مُفـرَّقَـةً ... تَقَّسمتْهـا المنـايـا فهْـيَ أشطـارُ

قد فُلِّقتْ بصفِيحِ الهنْـدِ هـامُهُـمُ ... فهُنَّ بين حَوامِي الخيْلِ أَعشارُ[8]

ومن قولنا في الحروب:

وحـوْمَـةٍ عـادرْت فُـرْسـانها ... في مبركٍ لِلْحَـرْبِ جعْجـاعِ[9]

مُستلْحَـمٍ بِـالموتِ مستشعـرٍ ... مُفَـرِّقٍ لِلشَّمْـلِ جَمَّـاعِ

---

(١) الأفهار: حجارة يدقّ بها الطيب.

(٢) تزورّ: تنظر بضيق.

(٣) الغمغمة: أصوات غير مفهومة، والعجاج: الغبار.

(٤) الكراديس: القطع العظيمة من الجيش.

(٥) المخدر: الأسد، والهصار: الفتّاك.

(٦) الشلو: العضو المقطوع المطروح. والإجّار: السطح، يريد أنّ ذلك الشلو قد سوّي بالأرض فصار كالسطح على سطحها.

(٧) الحنظلة: نبات مرّ، وجمّار.

(٨) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره، يشبه هامات القتلى بجزور الميسر، أي أنها مقسّمة بين حوافر الخيل.

(٩) الجعجاع: الموضع الضيّق الخشن.

وبلْدة صحصَحَتْ منها الرُّبا ... لفَيْلَقٍ كالسَّيلِ دَفَّاعِ[١]
كأنَّها باضتَّ نعامُ الفَلا ... منهم بهامٍ فوْقَ أدْراعِ
تراهُمُ عند احْتِماسِ الوَغَى ... كأنَّهُم جِنٌّ بِأَجْراعِ[٢]
بكلّ مأْثُورٍ على متْنِهِ ... مِثْلُ مَدَبِّ النَّملِ في القاعِ
يَرْتدُّ طرْفُ العيْنِ من حَدِّهِ ... عن كوْكبٍ للموتِ لَمّاعِ

ومن قولنا في الحروب:

ورُبَّ مُلْتَفَّةِ العوالي ... يلتَمِعُ الموتُ في ذُراها[٣]
إذا تَوطَّت حُزُون أَرْضٍ ... طحْطَحَتِ الشُّمَّ من رُباها[٤]
يقُودُها منهُ ليْثُ غابٍ ... إذا رأى فُرْصةً قضاها
تَمْضي بآرائِه سُيوفٌ ... يَسْتبِقُ الموتُ في ظُباها[٥]
بيضٌ تَحُلّ القلوب سُوداً ... إذا انْتضَى عزْمَهُ انتضاها[٦]
تَتْبعُهُ الطَّيرُ في الأعادي ... تَجْني كَلاَ العُشب من كُلاَها[٧]
أقدم إذْ كاعَ كلُّ ليْثٍ ... عن حوْمة الموتِ إذْ رآها[٨]
فأَقحم الخيلَ في غِمارٍ ... تفغَرُ بالموتِ لهوتاها[٩]
عنَت لهُ أوْجُهُ المنايا ... فعافها القومُ واشْتَهاها

---

(١) صحصحت منها الربا: أي جعلت مستوية.
(٢) الأجراع: الأرض ذات الحزونة، وقيل هي الرمال السهلة المستوية.
(٣) العوالي: الرماح.
(٤) توَطَّتْ: أي توطأت، وطحطحت الشمّ من رباها: أي كسرتها ودققتها.
(٥) الظبّا: الحدّ من السيف وغيره.
(٦) انتضى: استلَّ وشهر. (٧) الكلأ: العشب.
(٨) كاع: جبن.
(٩) تفغر: تفتح: اللهوة: من اللهاة.

فرسان العرب في الجاهلية والإسلام

ابن مكدم وقول حسان فيه:

كان فارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مُكدَّم. من بني فراس بن غَنْم بن مالك ابن كنانة، وكان يُعْقَر على قبره في الجاهلية. ولم يُعقر على قبر أحد غيره. وقال حسان بن ثابت وقد مرّ على قبره:

نفرَتْ قلوصِي من حِجَارَةِ حرّةٍ ... بُنِيَت على طَلْقِ اليدين وهُوبِ
لا تنْفري يا ناقُ منه فإنَّه ... شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
لولا السَّفارُ وطولُ قفْرٍ مهْمَهٍ ... لتركتُها تحبو على عُرْقوبِ(١)

فراس بن غنم وكلمة لعلي فيهم:

وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب. كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم. وفيهم يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بي مَن هو شرٌّ لكم، وأبدلني بكم من هو خيرٌ منكم. ودِدْت والله أنّ لي بجميعكم ـ وأنتم مائةُ ألف ـ ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فرسان العرب في الجاهلية عنترة الفوارس، وعُتيبة بن الحارث بن شهاب؛ وأبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبِسطام بن قيس، والأُحَيْمِر السعدي، وعامر بن الطُّفيل، وعمرو بن عبد ودّ، وعمرو بن معد يكرب.

وفي الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والزبير، وطلحة، ورجال الأنصار: عبد الله بن خازم السُّلمي، وعباد بن الحُصين، وعُمَيْر بن الحباب، وقطريّ بن الفُجاءة، والحريش بن هِلال السعدي، وشبيب الحروريّ.

---

(١) المهمة: القفر والفلاة. والعرقوب: عصبٌ غليظ فوق العقب، ومن الدابة في رجلها كالركبة في يدها.

للعرب في بعض فرسانهم:

وقالوا: ما استحيا شجاع قطُّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم وقطريٍّ بن الفجاءة، صاحب الأزارقة.

وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بالحلم، وخُرَيم بالنعمة، وعُمير بن الحباب بالشدّة.

ابن خازم مع ابن زياد في جرذ:

وبينا عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دُخل عليه بِجُرَذٍ أبيض، فعجب منه عبيد الله، وقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا؟ ونظر إليه، فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصفرّ كأنه جرادةٌ ذكر فقال عبيد الله: أبو صالح يعصى الرحمن، ويتهاون بالسلطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الليث، ويلقى الرماح بنحره، وقد آعتراه من جُرذ ما ترون، أشهد أن الله على كل شيء قدير.

وكان شبيب الحروريّ: يصيح في جَنبات الجيش فلا يُلوي أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:

إنَّ صاحَ يوْماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ منحدراً   والريحَ عاصِفةً والموْجَ يَلتطمُ

ولما قُتل أمر الحجاج بشق صدره. فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل. فكانوا إذا ضربوا به الأرض ينزو كما تنزو المثانة المنفوخة[1].

لابن عباس في الأنصار:

ورجال الأنصار أشجع الناس؛ قال عبد الله بن عباس: ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أُقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة: يعني الأوس والخزرج، وهما الأنصار، من بني عمرو بن عامر من الأزد.

---

(١) ينزو: ينضج.

أبو براء لما أسن:

العتبي: لما أسنَّ أبو بَراء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخَرَّفوه. ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ يقول:

دَفعْتُكُمُ عنيِّ وما دفْعُ راحةٍ ... بشيءٍ إذا لم تَسْتعنْ بالأناملِ
يُضَعّفُني حِلْمي وكثرةُ جهلِكُمْ ... عليَّ وأنّي لا أَصُولُ بِجاهِلِ[1]

لعلي في همدان:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ رأى همدان وغَناءها في الحرب يوم صفين:

ناديت هَمْدانَ والأبْوابُ مغلقةٌ ... ومِثْلُ هَمْدانَ سَنّى فَتْحةَ البابِ[2]
كالْهِنْدُوانيِّ لم تُفْلَلْ مضارِبُهُ ... وجهٌ جميل وقلبٌ غيْرُ وجّابِ[3]

وقال ابن برّاقة الهمداني:

كذبتم وبَيْتِ اللهِ لا تأخذونها ... مُرَاغَمةً ما دام للسيفِ قائمُ[4]
متى تجمعِ القلبَ الذّكِيّ وصارماً ... وأنْفاً حَمِياً تجتنبْكَ المظالمُ
وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْني غزوْتُهُمْ ... فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالمُ

وقال تأبط شراً:

قليلُ التَّشكّي لِلمُهِمِّ يُصيبُهُ ... كثيرُ النوى شَتُّ الهوى والمسالكِ
يَبيتُ بمَوْماةٍ ويُضحْى بغيرها ... جَحِيشاً ويَعْرَوْري ظُورَ المهالكِ[5]
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يَزَل ... لهُ كالِئٌ من قلب شَيْحانَ فاتكِ[6]

---

(١) أصول: أثب وأسطو. (٢) سَنّى: فتح.

(٣) تفلل: تتصدّع، والوجّاب: المضطرب. (٤) قائم السيف: مقبضه.

(٥) الموماة: المفازة لا ماء فيها، وجحيشاً: متفرداً ويعروري: أي يركب، واصله من اعرورى الدابة، إذا ركبها عارية الظهر.

(٦) حاص عينيه: ضيّقها، والشيحان: الحازم.

ويجعــلُ عينيــه ربيئــةَ قلبــه إلى سَلّةٍ مِن حدِّ أخْلَقَ بـاتِـكِ[1]
إذا هَـزَّهُ في عَظْـم قـرْن تَهلَّلـتْ نوَاجذُ أَفْواه المنايـا الضَّـواحِـكِ

وقال أبو سعيد المخزومي ـ وكان شجاعا:

وما يُريدُ بنو الأغبار مـن رجـلٍ بالجمرِ مُكتحِلٍ بالنبلِ مُشْتَمـلِ[2]
لا يشرب الماءَ إلاّ مـن قَلِيـب دمٍ ولا يَبيـتُ لـه جـارٌ على وجَـلِ[3]

ونظير هذا قول بشّار العقيلي:

فَتــىً لا يَبيــتُ علــى دِمنــةٍ ولا يَشْــربُ المــاءَ إلا بِــدَمْ[4]

بين ابن الزبير والأشتر:

وقال عبدُ الله بن الزُّبير: التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربةً حتى ضربني خمساً أو ستا، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قرابتُك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو إلى آخرِ.

جائزة عائشة لمن بشرها بنجاة ابن الزبير:

وقال أبو بكر بن أبي شَيبة: أعطت عائشة الذي بشّرها بحياة ابن الزُّبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف.

لمنعم في أخيه:

وذكر متمِّم بن نُوَيرة أخاه مالكا وجَلَدَه، فقال: كان يخرج في الليلة الصِّنَّبْرِ[5]، عليه الشملةُ الفلُوت، بيْنَ المزَادَتَيْن على الجمل الثَّفال[6]، مُعتقِل الرُّمْحِ الخطيّ. قالوا: وأبيك إن هذا لهو الجلَد.

---

(١) الربيئة: الرقيب، والسَلّة: المرّة من سلّ السيف إذا جرّده، والأخلق: الأملس والباتك: القاطع.

(٢) الأغبار: جمع غير وهو بقية الحيض، وهو من صفات اكزمّ عندهم.

(٣) القليب: البئر، والوجل: الخوف.
(٤) الدمنة: الحقد.

(٥) الصِّنَّبر: الشديدة البرد.
(٦) الثفال: البطيء.

من عمر إلى ابن مقرن في الصائفة:

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مُقرّن وهو على الصائفة: أن استعِن في حَربك بعمرو بن معد يكرب، وطُليحة الأزري، ولا تُولِّهما من الأمر شيئا؛ فإن كل صانع أعلمُ بصناعته.

وقال عمرو بن معد يكرب يصف صبره وجَلَده في الحرب:

أعـاذلُ عُـدَّتي بَـزّي ورُمحي ... وكـلّ مُقَلّـصٍ سَلِس القِيـادِ[1]
أعـاذلُ إنما أفنَـى شبـابي ... إجـابتيَ الصَّريـخ إلى المنادِي[2]
مـع الأبطـال حتى سَلَّ جِسْمِـي ... وأقـرَحَ عـاتقـي حَمْلُ النَّجَـادِ
ويَبْقَى بَعدَ حِلْـمِ القـومِ حِلمـي ... ويَفْنَـى قبـلَ زاد القـومِ زادِيّ
ومنْ عجبٍ عَجِبْتُ لـه حـديـثٌ ... بـديـعٌ ليس مـن بـدعِ السّـدادِ
تمَنَّـى أن يُلاقينـي أُبـيٌّ ... ودِدْتُ وأينمـا منّـيوِدادي
تَمنَّـاني وسـابِغَتي قميصي ... كـأنّ قتيرَهـا حَـدقُ الجرادِ[3]
وسيـفٌ لابن ذي كنعـان عنـدي ... تُخُيّـر نصلُـهُ مـن عهـدِ عـادِ
فلـوْ لاقيتَني للَقيـتَ ليثـاً ... هصـوراً ذا ظُبـاً وشبـاً حِـدادِ[4]
ولاسْتَيقنـتَ أنّ المـوتَ حـقٌّ ... وصرّحَ شَحْـمُ قلبِـكَ عـن سـوادِ
أُريـدُ حيـاتَـهُ ويُـريـدُ قتْلي ... عذيـرَك مـن خليلِـكَ مـن مُـرادِ

ومن قوله في قيس بن مكشوح المرادي:

تَمنَّـاني على فـرسٍ ... عليْـهِ جـالسٌ أسـدُهُ
عليَّ مُفـاضـةٌ كـالنَّهْـيِ ... أخلـص مـاءَهُ جـدَدُهْ[5]
فلـو لاقيتني للقيـتَ ليثـاً فـوقـهُ لِبَـدُهْ

---

(١) البزّ: السلاح، والمقلّص: الفرس الطويل القوائم المشرف المشمر.

(٢) الصّريخ: المستغيث به.

(٣) السابقة: الدرع، والقتير: المسامير التي تكون بين حلقاتها.

(٤) المصور: الذي يقضي على فريسته.

(٥) المفاضة: الدرع الواسعة، والنّهي: الغدير من الماء، والجدد: الأرض الصلبة، شبّه الدرع بالغدير في صفائها واطرادها.

سبَنْتَــــي ضَيغماً هَصراً صلَخْداً نـاشـزاً كتـدهْ[١]
يُسـامـي القِـرْنَ إن قِـرنٌ تيمَّمــــه فيعتضِـــدهْ[٢]
فيـأْخُـذه فيُــرْدِيــه فيخفِضُــه فيقْتصِـــدُهْ[٣]
فيـدمغُـه فيحطمُـــهُ فيخصِمِـــهُ فيــزدَردُهْ

المكيدة في الحرب

قال النبي ﷺ: الحرب خدعة.

وقال المهلّب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب فإنها أبلغ من النجدة.

وكان المهلّب يقول: أناةٌ في عواقبها فوْت، خيرٌ من عجلة في عواقبها دَرَك[٤].

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذتُ أمراً قط بحزم فلمتُ نفسي فيه وإن كانت العاقبةُ عليّ. ولا أخذت أمراً قطُّ وضيَّعتُ الحزم فيه إلا لُمت نفسي عليه وإن كانت لي العاقبة.

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أيُّ المكايد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون[٥]، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار؛ وإظهار السرور، وإماتةُ الفرَق[٦]، والاحتراس من البطانة[٧] من غير إقصاء لمن يُستنصح، ولا استناد لمن يُستغشّ، وإشغالُ الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوّه على كل حال: يحذر المواثبة إن قرُب، والغارة إن بعُد، والكمينَ إن انكشف، والاستطراد إن ولّى.

بين المأمون والفضل بن سهل في رأي فات الأمين:

قال المأمون للفضل بن سهل: قد كان لأخي رأي لو عمل به لظفر. فقال له

---

(١) السبنتي الجريء المقدام، والنّمر، والصلخد: الصلب القوي، والناشز: المرتفع، والكند: ما بين الكتفين.
(٢) تيمّمه: قصده، ويعتضده: أي يحمله ويرفعه.
(٣) فيقتصده: أي يقتله.
(٤) درك: نيل.
(٥) إذكاء العيون: نشر الجواسيس.
(٦) الفرق: الخوف.
(٧) البطانة: الحاشية المقرّبة، الخاصة.

الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال لو كتب إلى أهل خراسان وطَبَرِسْتان والري ودُنْياوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة، لم نخل نحن من إحدى خصلتين: إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه فَعَصانا أهلُ هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا. وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطي منه مَن معنا، وتفرّق جندُنا ووهى أمرنا. فقال الفضل: الحمد لله الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة، فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

لبعض أهل التمرس:

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم، والجبناء من أولى الحزم؛ فإن الجبان لا يألو[1] برأيه ما يقي مُهجَكم، والشجاع لا يعدو ما يشُدّ نُصرتكم؛ ثم خلِّصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم مَعَرَّة الجبان[2]، وتَهوُّرَ الشجعان، فتكونَ أنفذَ من السهم الزالج[3]، والحسام الوالج[4].

بين الاسكندر ومؤدبه في مدينة فتحها:

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هَدَمَها وقتل أهلها، حتى مرَّ بمدينة كان مؤدِّبُه فيها؛ فخرج إليه، فألْطَفَهُ الإسكندر وأعظمه. فقال له: أصلح الله الملك، إن أحقَّ مَن زيَّن لك أمرك، وأعانك على كل ما هَويتَ لأنَا، وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك، فأُحب أن تشفِّعني فيهم، وألاّ تخالفني في كل ما سألتك لهم. فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه. فلما توثّق منه قال: فإن حاجتي إليك أن تَهدمها وتقتل أهلها. قال: ليس إلى ذلك سبيل، ولا بد من مخالفتك. فقال له: ارحل عنا.

---

(١) يألو: يقصِّر.

(٢) معرّة الجبان: أي عيبه وعاره.

(٣) الزالج: النافذ الذي يخترق المصاب به.

(٤) الوالج: الداخل.

سعيد بن العاص وحصن فتحه:

قيل: صالَح سعيدُ بن العاص حصناً من حصون فارس على ألاّ يقتل منهم رجلاً واحداً، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

عمرو بن العاص وعلج قيسارية:

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قَيساريّة سار حتى نزل غزَّة، فبعث إليه علْجُها[1]: أن ابعث إليّ رجلاً من أصحابك أكلّمه. ففكّر عمرو وقال: ما لهذا أحدٌ غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قطُّ مثله. فقال العلج: حدِّثني: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال لا تسأل عن هذا، إني هيِّنٌ عليهم إذ بعثوا بي إليك وعَرَّضُوني لما عرّضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مر بك فآضرب عنقه وخذ ما معه. فخرج من عنده فمرّ برجل من نصاري غسّان فعرَفه؛ فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسِن الخروج. ففطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ما ردَّك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتَني فلم أجد ذلك يَسَعُ بني عمي، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت. أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن خَلِّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمِنَ قال: لا عُدْتُ لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غدرك.

عمر والهرمزان:

وقال: ولما أُتِي بالهُرْمزَان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العَجم وصاحب رُسْتَم[2] فقال له عمر: أعرِض عليك الإسلام نُصحاً لك في

---

(١) العلج: الكافر، وهنا رئيسها.

(٢) هو رستم بن فرخزاد، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان في وقعة القادسية، وقد قتل رستم في هذه الوقعة.

عاجلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام. فدعا له عمر بالسيف. فلما همّ بقتله قال: يا أمير المؤمنين، شربةً من ماء أفضَلُ من قتلي على ظمأ. فأمر له بشربة من ماء. فلما أخذها قال: أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمَى بها وقال: الوفاءُ يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج. قال: صدقتَ، لك التوقفُ عنك والنظر في أمرك؛ ارفعا عنه السيف. فلما رُفع عنه. قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده. قال عمر: أسلمتَ خيرَ إسلام، فما أخرَك؟ قال كرهتُ أن تظُن أني أسلمت جزعاً من السيف وإيثاراً لدينه بالرهبة. فقال عمر: إن لأهل فارس عقولاً بها آستحقوا ما كانوا فيه من الملك. ثم أمر به أن يُبَرّ ويُكْرَمَ، فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

معن ونفر من الأسرى:

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به مَعْنُ بن زائدة في جملة الأسرى. فأمَر بقتلهم، فقال له: أتقتل الأسرى عطاشاً يا مَعْن فأمر بهم فسُقُوا، فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يا معن؟ فخلى سبيلهم.

ملك من ملوك العجم:

وذكروا: أن ملكاً من ملوك العجم كان معروفاً ببُعد الغور[١] ويقظة الفطنة وحسن السياسة، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يُظهِر محاربته، فيكشف عن ثلاث خصال من حاله؛ فكان يقول لعيونه: انظروا، هل ترِد على الملك أخبار رعيته على حقائقها أم يخدعه عنها المُنهي ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغنى في أي صنف هو من رعيته، أفيمن اشتدّ أنَفُهُ وقلّ شرهَهُه، أم فيمن قلَّ أنَفُه واشتدّ شرهُه؟ وانظروا في أي صنف من رعيته

(١) بعد الغور: يعني عمق التفكير.

القوّامُ بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده، أم مَن شغله يومُه عن غده؟ فإن قيل له: لا يُخْدَع عن أخباره؛ والغِنَى فيمن قلّ شرهُه واشتد انفه، والقوّام بأمره مَن نَظَر ليومه وغده، قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن قيل له ضدّ ذلك قال: نار كائنةٌ تنتظر مُو قِدا، وأضغانٌ مُزملةٌ[1] تنتظر مَخْرَجاً، اقصدوا له، فلا حَيْنَ أحْيَنُ من سلامةٍ مع تضييع، ولا عدوّ أعدى من أمْن أدّى إلى اغترار.

وقيعة ملك الهياطلة بيزدجرد:

كانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ، ثم نزلت بابل، ثم نزل أردشير ابن بابك فارس، فصارت دارَ مملكتهم، وصار بخراسان ملوكُ الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروزَ بن يَزْدَجرد بن بهرام مَلِكَ فارس، وكان غزاهم؛ فكاده ملكُ الهياطلة بأن عَمد إلى رجل ممن عرفه بالمكايدة وحُسن الإدارة، فأظهر السخط عليه وأوقع به على أعين الناس توقيعاً قبيحاً ونكّل به تنكيلاً شديداً. ثم أرسله وقد واطأه[2] على أمر أبطنه معه وظاهره عليه فخرج حتى أتى فيروز في طريقه، فأظهر النزوع[3] إليه والآستنصار به من عظيم ما ناله. فلما رأى فيروزُ ما به من التوقيع والنكاية فيه، وثِقَ به وآستنام إليه. فقال: أنا أدلك أيها الملك على غِرة القوم وعورتهم وأُعْلمك مكان غفلتهم. فسلك به سبيلَ مهلكة مُعْطِشة؛ ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثرَ أصحابه، فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه، وأعطاهم موثقاً لا يغزوهم أبداً، ونصب لهم حجَرا جعله حداً بينه وبينهم، وحلف لهم ألاّ يجاوزه هو ولا جنودُه، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته؛ فمنُّوا عليه وأطلقوه ومنْ معه. فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفَة مما أصابه، فعاد إلى غزوهم ناكثاً لعهده غادراً بذمته، إلا أنه تلطف في ذلك بحيلة ظنّها مجْزِئَةً في أيمانه، فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فِيل في مقدّمة عسكره، وتأوّل في ذلك أنه لا يجاوزه فلما صار إليهم ناشدوه

---

(١) أضغان مزمّلة: أحقاد مستورة ومغطّاة.

(٢) واطأه: اتفق معه. (٣) النزوع: الميل والتقرّب.

الله وذكّروه الأيمان به، وما جعل على نفسه من عهده وذمته، فأبى إلا لجاجاً[1] ونكثا. فواقعوه فظفروا به فقتلوه وقتلوا حُماته واستباحوا عسكره.

للنبي صلى الله عليه وسلم:

أسامة بن زيد اللّيثي قال: كان النبي ﷺ «إذا غزا أخذ طريقاً وهو يريد أُخرى، ويقول: الحرب خدعة».

مالك الخثعمي وتسميته بالثعلب:

زياد عن مالك بن أنس قال: كان مالك بن عبد الله الخثعميّ، وهو على الصائفة. يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل؛ فيحمد الله تعالى ويثني عليه ثم يقول. إني دارب[2] بالغداة إن شاء الله تعالى دربَ كذا. فتتفرق الجواسيس عنه بذلك؛ فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقاً أخرى. فكانت تُسميه الروم: الثعلب.

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سريَّة قال: اغْزُوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغُلّوا ولا تَغدروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتُلوا امرأة ولا وليداً. فإذا بعثتَ جيشاً أو سرية فمُرْهم بذلك.

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله. امضوا بتأييد الله. وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحقِّ والصبر. فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولا تَجْبُنُوا عند اللقاء، ولا تُمَثِّلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هَرِماً ولا امرأة ولا وليدا،

---

(١) لجاجاً: تمادياً ومعاودة لسيرته والنكث: عدم الوفاء بالعهد والميثاق.

(٢) دارب: سالك.

وتَوَقَّوا قتلَهم إذا التقى الزحفان، وعند شنِّ الغارات.

أبو بكر يوصي يزيد بن أبي سفيان:

ولما وجّه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام شيَّعه راجلاً. فقال له يزيد: إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب. إني أحتسب خُطاي[1] هذه في سبيل الله. ثم قال: إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرْهم وما حبسوا أنفسهم له - يعني الرهبان - وستجد قوماً فحصوا[2] عن أوساط رؤسهم الشَّعر، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال له: إني موصيك بعشر: لا تغدر، ولا تمثّل، ولا تقتُل هَرِما ولا آمرأة ولا وليدا، ولا تَقِرَن شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم، ولا تحرقنّ نخلا، ولا تخرّبن عامرا، ولا تغُلّ ولا تبخس.

أبو بكر يوصي خالد بن الوليد:

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد، حين وجهه لقتال أهل الردّة: سِر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدوّ فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسِرْ بالأدِلاء، ولا تقاتل بمجروح، فإنّ بعضه ليس منه؛ واحترس من البَيات، فإنّ في العرب غِرّة[3]؛ وأقلل من الكلام، فإنما لك ما وُعِيَ عنك؛ واقبل من الناس علانيتهم، وكِلهُمْ إلى الله في سرائرهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

من خالد إلى مرازبة فارس:

كتب خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس مع ابن نُفيلة الغساني: الحمد لله الذي فضّ حُزمتكم[4]، وفرّق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلَب ملككم، وأذلّ عزكم؛ فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرُّهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا

(١) احتسب خطاي: أي أجعلها واحتسبها. (٢) فحصوا: قلبوا وكشفوا.
(٣) الغرّة: الغفلة، وعدم الخبرة. (٤) فضّ حزمتكم: فرّقها.

والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم يُحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا .

من عمر إلى ابن أبي وقاص:

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - ومن معه من الأجناد:

أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضلُ العدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمُرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدّتهم، فإذا استَوَينا[1] في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم في مسيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستَحْيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله؛ ولا تقولوا إن عدوّنا شر منا فلن يُسَلَّط علينا وإن أسأنا؛ فرُبّ قوم سُلّط عليهم شر منهم، كما سُلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كُفّارُ المجوس ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ ٱلديارِ وكانَ وَعْداً مفْعُولا﴾[2] . واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم . وتَرَفّقْ بالمسلمين في مسيرهم، ولا تُجَشّمْهُم مسيرا يُتعبهم، ولا تُقَصر بهم عن منزل يَرْفُقُ بهم، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفر لم ينقُص قوتَهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكُراع[3] . وأقِمْ بمن معك في كل جمعة يوماً وليلةِ، حتى تكون لهم راحةٌ يجمّون[4] فيها أنفسَهم، ويَرُمّون[5] أسلحتَهم وأمتعتهم . ونَحّ منازلهم عن قرى أهل

(١) استوينا في المعصية: أي كنّا سواء.

(٢) سورة الإسراء الآية ٥ .

(٣) الكراع: الخيل.

(٤) يجمون فيها أنفسهم: أي يريحونها .

(٥) يرمون: يصلحون.

الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه. ولا يَرْزَأ أحداً من أهلها شيئاً: فإن لهم حرمة وذمة ابْتلِيتم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولَّوهم خيراً، ولا تستبصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذكِ العيونَ بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرُهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدَقَك في بعضه، والغاشّ عينٌ عليك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوِّك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبُث السرايا بينك وبينهم. فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقَهم، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم. وانتق للطلائع أهلَ الرأي والبأس من أصحابك، وتخيَّر لهم سوابقَ الخيل؛ فإن لقُوا عدوّاً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمرَ السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تَخُص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيتَ[1] به أهلَ خاصتِك. ولا تبعثن طليعةً ولا سريةً في وجهِ تتخوّف فيه غلبةَ أو ضيعة ونِكاية[2]؛ فإذا عاينت العدو فاضمُمْ إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوّتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصرَ عورةَ عدوك ومقاتلَه، وتعرفَ الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوّك كصُنعِه بك، ثم أذْكِ أحراسَك على عسكرك، وتَحَفّظ من البيات[3] جُهدَك. ولا تُؤتَ بأسيرٍ له عهدٌ إلا ضربتَ عنقَه، لتُرهبَ بذلك عدوّ الله وعدوك. والله ولي أمرِك ومن معك، ووليُّ النصر لكم على عدوّكم، والله المستعان.

عبد الملك يوصي أميره إلى أرض الروم:

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجرُ اللهِ لعباده، فكن كالمضارِب الكيِّس[4] الذي إن وجد ربحاً تَجرَ وإلا تَحَفّظَ برأس المال.

(١) حابيت: توددت وأظهرت الميل.
(٢) النكاية: القهر والغلبة. (٣) البيات: الإقامة ليلاً.
(٤) الكيّس: العاقل اللبق.

ولا تطلب الغنيمة حتى تحْرِز السلامة . وكن من احتيالك على عدوِّك أشدّ حذراً من احتيال عدوِّك عليك .

زياد يوصي قواده:

وكان زياد يقول لقواده: تجنّبوا آثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء، وبطون الأودية .

بين الوليد وعباد في زياد:

وأغزى الوليدُ بن عبد الملك جيشاً في الشتاء، فغنِموا وسلموا . فقال لعبّاد: يا أبا حرب، أين رأي زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تُصاب .

معاوية وقد أراد استعمال ابن خالد ثم الغامدي:

العُتبي قال: جاشت الرُّوم وغزت المسلمين براً وبحراً، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهدَه قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً لا أعصيه . قال: أرْدُدْ عليّ عهدي . ثم بعث إلى سُفيان ابن عوف الغامديّ فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً أمام الحزم، فإن خالفَه خالفتُه . فقال معاوية: هذا الذي لا يُكَفْكَفُ من عجلة، ولا يُدفَع في ظهره من خَوَر[1]، ولا يُضْرَبُ على الأمور ضَرْبَ الجمل الثفال[2] .

دريد وابن عوف النصري:

وقال دُريد بن الصمّة لمالك بن عوف النَّصري، قائد هوازن، يوم حنين: يا مالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير، ونهيق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقتُ مع الناس

---

(١) خور: أي سقط وضعف. (٢) الثفال: البطيء.

أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجلٍ أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. فأنقض به[1]، وقال: راعي ضأن الله! وهل يَرُدُّ المنهزِمَ شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فُضِحْتَ في أهلك ومالك؛ وَيْحَكَ! إنك لم تصنع بتقديم البيْضَةِ بَيْضَةِ هوازن[2] إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى مُتَمَنَّعِ بلادِهم وعُلْيَا قومِهم، ثم الق الصُّبَّاء[3] على متون الخيل؛ فإن كانت لك لَحِقَ بك من وراءك، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزتَ أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك؛ إنك قد كبرتَ وذهل عقلُك. قال دريد: هذا يوم أشهده ولم يَفُتْني. ثم أنشأ يقول:

يــا لَيْتَني فيهــا جَــذَعْ   أخُـبُّ فيهــا وأَضَــعْ[4]
أَقُــودُ وَطْفَــاء الزَّمَــعْ   كـأنَّهـا شــاةٌ صَــدَعْ[5]

لقتيبة ينصح أصحابه:

وكان قتيبة بن مُسلم يقول لأصحابه: إذا غزوتم، فأطيلوا الأظفار، وقصِّروا الشعور، والحظوا الناس شَزْرا[6]، وكلِّموهم رمزاً، واطعنوهم وخزاً[7].

لأبي مسلم ينصح قواده:

وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.

---

(١) انقض به: أي أنكر عليه، وزجره. (٢) بيضة هوازن: أي جماعتهم.
(٣) الصباء: يريد المسلمين، كان المشركون يسمّونهم بهذا الاسم لأنهم تركوا دينهم وخرجوا من دين الجاهلية إلى الاسلام.
(٤) الجذع: الشاب او الخبب والوضع: ضربان من السَّير.
(٥) الوطفاء: الطويلة الشعر، والزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة، والشاة: الوعل أي تيس الجبل، هنا، والصدع: من الأوعال والظباء والحمر: الفتي الشاب القوي.
(٦) شزراً: أي بمؤخّرة عيونكم، غضابى. (٧) الوخز: أي كوخز الابر.

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصّروا الأعنَّة، واشحذوا الأسنة، تأكلوا القريب، ويرهبكم البعيد.

المنصور وعيسى ابن موسى:

وقال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة لمحاربة عبد الله بن الحسن، جعل يُوصيني ويكثر، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى متى توصيني؟

إنِّـي أنـا ذاك الحسـامُ الهِنْـدِي أكلتُ جَفْنِي وفَرَيْتُ غِمْدِي[١]
فكلٌّ ما تَطْلبُ عندِي عِنْدِي

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

لجعيل يصف لعبد الملك قومه:

قال عبد الملك بن مروان لجُعَيل بن عَلقمة الثعلبي: ما مَبْلَغ عزّكم؟ قال: لم يُطمَعْ فينا ولم يُؤمن منّا. قال: فما مبلغ حِفظكم؟ قال: يدفع الرجل منّا عمن استجار به غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: مثلُك من يصف قومه.

لابن مطاع:

وقال عبد الملك بن مروان لابن مُطاع العنزي: أخبرني عن مالك بن مِسْمَع قال له: لو غضب مالكُ لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب. قال عبد الملك: هذا والله السُّودد.

قال: ولم يَلِ قطُّ مالكُ بن مِسْمع ولا أسماء بن خارجة شيئاً للسلطان.

للعرب في الدفاع عن الجار:

وكانت العرب تمتدح بالذّبّ[٢] عن الجار، فيقولون: فلانٌ منيعُ الجار حامي

---

(١) الجفن: غمد السيف، وفريت: قطعت. (٢) الذبّ: الدفاع.

الذمار[1]. نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره، فسُمّي مجير الجراد.

وقال مَروان بن أبي حَفصة يمدح مَعن بن زائدة ويصف مَفاخر بني شيبان ومَنْعهم لمن آستجار بهم:

هُمُ القوْمُ إن قالُوا أصابوا وإن دُعُـوا أجابوا، وإنْ أعْطَوْا أطابوا وأجْزَلُوا
هُـمُ يَمنعُـون الجارَ حتّـى كـأنّما لِجَارِهِـمْ بينَ السّماكَيْـنَ مَنـزِلُ[2]

وقال آخر:

هُـمُ يَمنعُـون الجارَ حتّـى كـأنّـهُ كَثِيبةَ زَوْرٍ بين خـافِيَتَـيْ نَسْـرِ[3]

معاوية وهانيء في مال اختانه ابن شهاب:

وذكر أن معاوية ولّى كَثير بن شهاب المذحجيّ خُراسان، فاختان مالاً كثيراً. ثم هرب فاستتر عند هانيء بن عُروة المُرادي. فبلغ ذلك معاوية فهدر دمَ هانيء. فخرج هانيء إلى معاوية، فكان في جواره. ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه. فلما نهض الناسُ ثبت مكانه، فسأله معاوية عن أمره، فقال: أنا هانيء بن عروة، فقال: إنّ هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك:

أُرَجِّــلُ جُمّتي وأَجُــرُّ ذَيلي وتَحمل شِكّتي أفقّ كُمَيْـتُ[4]
وأمشي في سَراة بني غُطَيـفٍ إذا مـا سـاءني أمـرٌ أبَيْـتُ[5]

قال: أنا والله يا أمير المؤمنين اليومَ أعزُّ مني ذلك اليوم. قال: بمَ ذلك؟ قال: بالإسلام. قال: أين كثير بن شهاب؟ قال: عندي وعندك يا أمير المؤمنين. قال: انظر إلى ما اختانه فخذ منه بعضاً وسوِّغه بعضاً، وقد أمَّنّاه ووهبناه لك.

(١) الذّمار: ما يحمى ويدافع عنه كالعرض والشرف.
(٢) السماكين: نجمين في السماء.
(٣) كثيبة الزور: أي مجتمعه. والخافية: الريش في الجناح بعد القوادم جمعه: خوافي.
(٤) الأفق: الفرس الرائعة الكريمة. (٥) السراة: السادة.

مقتل محمد ابن أبي بكر:

الشيباني قال: لما نزل محمد بن أبي بكر مصر وصَيَّر إليه معاويةُ معاويةَ بن حديج الكندي. تفرّق عن محمد من كان معه، فتغيّب فدُلّ عليه، فأخذه فضرب عُنقه وبعث برأسه إلى معاوية. فكان أولَ رأس طِيفَ به في الإسلام. وكان محمد بن جعفر بن أبي طالب معه، فاستجار بأخواله من خَثْعم فغيّبوه؛ وكان سيّد خثعم يومئذ رجلاً في ظهره بَزَخ[1] مِن كسْرٍ أصابه، فكان إذا مشى ظنّ الجاهل أنه يتبختر في مِشيته، فذُكِر لمعاوية أنه عنده، فقال له: أسلم إلينا هذا الرجل. فقال: ابن أختنا لجأ إلينا لنحقن دمه، فدعْه عنك يا أمير المؤمنين. قال: والله لا أدعه حتى تأتيني به. قال: لا والله لا آتيك به. قال: كذبت، والله لتأتينّي به، إنك ما علمتُ لأوْرَه[2]. قال: أجل، إني لأورهُ حين أقاتلك على ابن عمك لتحقن دمه، وأقدِّم ابن عمي دونه تسفك دمه. فسكت عنه معاوية وخلّى بينه وبينه.

المهدي ومعن في رجل أهدر دمه:

الشيباني قال: قال سعيد بن سلم: أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة فأقام الرجل حيناً متوارياً، ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهراً كغائب، خائفاً مترقباً. فبينا هو يمشي في بعض نواحيها إذ بَصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين. فأمكنَ الرجلَ من قياده ونظر إلى الموت أمامه. فبينا هو على تلك الحالة إذ سمع وَقْعَ الحوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال: يا أبا الوليد، أجرني أجارك الله. فوقف وقال للرجل الذي تعلق به: ما شأنك؟ قال: بُغيةُ أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وأعطى لمن دَلّ عليه مائة ألف. فقال: يا غلام، انزل عن دابتك واحمل أخانا. فصاح الرجل: يا معشر الناس، يُحالُ بيني وبين من طَلَبه أمير المؤمنين. قال له معن: اذهب فأخبره أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس

(١) البزخ: خروج الصدر ودخول الظهر. (٢) الأوره: الأحمق.

الرجل ووجَّه إلى معن من يَحْضُرُ به، فأتته رسلُ أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقُرِّبتْ إليه دابتُه، فدعا أهل بيته ومواليه فقال: لا يُخلَصَنّ[1] إلى هذا الرجل وفيكم عَيْنٌ تَطرف. ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي، فلم يردّ عليه، فقال: يا معن، أتُجير عَليَّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ونعم أيضاً! واشتدّ غضبه. فقال معن: يا أمير المؤمنين، قَتَلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشَر ألفاً، ولِي أيام كثيرة قد تقدّم فيها بلائي وحسن غَنائي، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا لي رجلاً واحداً آستجار بي؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سُرِّي عنه[2]، فقال: قد أجَرْنا من أجَرْت. قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله ـ فيكون قد أحياه وأغناه ـ فَعَل. قال: قد أمرنا له بخمسة آلاف. قال: يا أمير المؤمنين، إنّ صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم؛ فأجزل له الصلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فَتُعَجِّلُها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء. ثم انصرف ولحقه المال؛ فدعا الرجل فقال له: خذ صلتك والحق بأهلك، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى.

الجبن والفرار

لعمرو بن معديكرب في الفزعات:

قال عمرو بن معديكرب: الفَزَعات ثلاث: فمن كانت فَزْعَته في رجليه فذلك الذي لا تُقِلّه رجلاه، ومَن كانت فَزعته في رأسه فذلك الذي يفرُّ عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه فذلك الذي يقاتل.

وقال الأحنف: أسرعُ الناس إلى الفتنة، أقلهم حياءً من الفرار.

وقالت عائشة أم المؤمنين: إنّ لله خَلقاً قلوبُهم كقلوب الطير، كلما خَفَقت الريح خفقت معها؛ فأفٍ للجبناء!

وقال الشاعر:

---

(١) لا يخلصنّ: لا يصل أحلّ إليه. (٢) سرّي عنه: زال غضبه.

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عن أُمِّ نَفْسِهِ ويحمي شجاع القوم مَن لا يُناسِبُهْ
ويُرْزَقُ مَعْروفَ الجَوادِ عَدُوُّهُ ويُحرَمُ مَعْرُوفَ البخيلِ أقارِبُهُ[1]

وقال خالد بن الوليد عند موته: لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحْفاً، وما في جسمي موضعُ شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ أو طعنة أو رَمْية؛ ثم هأنذا أموت حَتْف نَفْسي كما يموت العَيْرُ[2]؛ فلا نامت أعينُ الجبناء.

للفرار السلمي في الفرار:

ومن أشعار الفرّارين الذين حَسَّنوا فيها الفرار على قبحه حتى حَسُن، قول الفرار السلمي[3]:

وكتيبةٍ لَبَّسْتها بكتيبةٍ حتى إذا الْتَبَسَتْ أَمَلْتُ بها يدي[4]
وتركتهم تَقِصُ الرماحُ ظُهورَهم مِن بين مقتولٍ وآخَرَ مُسْنَدِ[5]
هل يَنْفَعَنِّي أن تقولَ نساؤُهم وقُتِلْتُ دون رجالها: لا تَبْعَدِ

للحارث بن هشام في الفرار:

وقال أبو عُبيدة مَعمر بن المثنّى: ما آعتذر أحد من الفرّارين بأحسن مما آعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

الله يعلَم ما تركتُ قِتالَهُم حتى رمَوْا مُهْري بأشْقَرَ مُزْبِدِ
وعلمت أنّي إنْ أقاتل واحداً أُقتل ولا يضرر عدوّي مشهدي
فَصَدَفْتُ عنهم والأحِبَّةُ فيهمُ طمعاً لهم بعقابِ يوم مرصدِ[6]

وهذا الذي سمعه صاحب رتْبيل فقال: يا معشر العرب، حسَّنتم كلّ شيء فَحَسُنَ حتى الفرار.

(١) معروف الجواد: أي كرمه. (٢) العير: الحمار.
(٣) هو حيان بن الحكم شاعر مخضرم صحابي، كان صاحب راية بني سليم يوم الفتح.
(٤) لبستها: أي خلطتها، ونفضت لها يدي: كناية عن الاعراض عنها.
(٥) تَقِص: تكسر وتقصم. (٦) صدفت عنهم: أعرضت عنهم.

وبعد هذا يأتي قول حسان في ذلك.

وأسلم الحارث يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه، وخرج في زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله، فاتبعه أهل مكة يبكون، فرقّ وبكى وقال: أما لو كنا نستبدل داراً بدارنا، أو جاراً بجارنا، ما رأينا بكم بدلاً؛ ولكنها النُّقلة إلى الله فلم يزل هناك مجاهداً حتى مات.

وقال آخر:

قامتْ تُشَجِّعُني هندٌ وقد علمت ... أنّ الشَّجاعة مقرُونٌ بها العطَبُ

لا والذي منَعَ الأبصارَ رُؤيتَهُ ... ما يشْتَهي الموتَ عِنْدِي من له أَدَبُ

للحرب قومٌ أَضلَّ اللهُ سعْيهُمُ ... إذا دعتهُم إلى نيرانِها وثبوا

ولَسْتُ منهم ولا أهْوى فِعالَهُمُ ... لا القتلُ يُعجبني منها ولا السَّلَبُ

وقال محمود الوراق:

أيها الفارسُ المُشِيخُ المغِيرُ ... إنّ قلبي من السَّلاحِ يطِيرُ[1]

ليْسَ لي قُوَّةٌ على رهَجِ الخَيْـ ... ـلِ إذا ثوّرَ الغُبارَ مُثِيرُ[2]

واستَدارتْ رَحى الحرُوبِ بِقوْمٍ ... فقتِيلٌ وهارِبٌ وأَسيرُ[3]

حيثُ لا يَنطِقُ الجبانُ منَ الذُّعـ ... ـرِ ويَعْلُو الصّياحُ والتَّكْبيرُ

أنا في مِثْلِ ذا وهٰذا بليدٌ ... ولَبيبٌ في غيْرِهِ نِحْرِيرُ[4]

وقال أيْمَن بن خُرَيْم:

إنَّ لِلْفِتنةِ مَيْطاً بيِّنا ... فرُوَيْد الميطَ منها يعتدِلْ[5]

فإذا كان عطاءٌ فأْتِهِمْ ... وإذا كان قِتالٌ فاعْتَزِلْ

إنما يُوقِدُها جُهّالُها ... حطَبَ النَّارِ فدَعْها تشْتعِلْ

---

(١) المشيح: الجاد الماضي في أموره.

(٢) الرهج: الغبار الساطع.

(٣) الرّحى: الطاحون.

(٤) النحرير: العالم.

(٥) الميط: الهياج والصخب.

لصاحب كليلة ودمنة:

ومما يحتج به الفارّون: ما قاله صاحب كليلة ودمنة: إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدّاً منه؛ لأن النفقة[1] فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في شعره حيث يقول:

كَمْ بيْنَ قَوْمٍ إنَّمَا نفَقَاتُهُمْ مَالٌ وقَوْمٍ ينْفِقُونَ نُفُوسَا

ومن الفرّارين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فرّ من الأزارقة وكان في عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المهلّب: يا بن أخي، خَنْدِقْ على نفسك وعلى أصحابك، فإني عالم بأمر الخوارج، ولا تغترّ. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهْوَنُ عليّ من ضَرطة الجمل فبيَّته قطَرِيٌّ صاحب الأزارقة فقَتَل من أصحابه خمسمائة، وفرّ لا يلوي على أحد. فقال فيه الشاعر:

تَركتَ وِلْدَاننا تَدْمَى نحُورُهُمُ وجِئْتَ مُنْهزِماً يا ضَرطَةَ الجمَلِ

ومن الفرارين أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد؛ فرّ يوم مرداء هَجَر من أبي فدَيْك، فسار من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فجلس يوماً بالبصرة فقال: سرت على فرسي «المِهْرجانِ» من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام. فقال له بعض جلسائه: أصلح الله الأمير، فلو ركبت «النّيروزَ» لسرتَ إليها في يوم واحد. فلما دخل عليه أهلُ البصرة لم يروا كيف يُكلّمونه، ولا ما يُلْقُونه من القول، أيهنّئونه أم يُعزّونه؛ حتى دخل عليه عبدُ الله بن الأهتم فاستشرف[2] الناسُ له، وقالوا: ما عسى أن يُقال للمنهزِم؟ فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخذول، الذي خذله قومه. الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا فقد تعرّضت للشهادة جهدَك، ولكِنْ عَلِم الله حاجةَ أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلانِ مَن معك لك. فقال أمية بن عبد الله: ما وجدت أحداً أخبرَني عن نفسي غيركَ. وفيه يقول الشاعر:

---

(١) النفقة: الموت، ونفقت الماشية: هلكت.

(٢) استشرف الناس له توجّهت إليه الأبصار.

إذا صوَّتَ العُصْفُورُ طـارَ فـؤادُه ... وليْثٌ حديدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرائِـدِ[1]

الحجاج وخيل لأمية:

أتى الحجاج بدواب من دواب أمية قد وُسم على أفخاذها: «عُدّة» فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: «للفرار».

وقال أبو دُلامة: كنت مع مروان[2] أيام الضحاك الحروري، فخرج فارس منهم فدعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل، فقتله، ثم ثان، ثم ثالث. فانقبض الناس عنه، وجعل يدنو ويهدِر كالفحل المغتلم[3]، فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت عليّ الدنيا وسَخَوْتُ بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه. فإذا عليه فَرْوٌ قد بلّه المطر فارْمَعَلّ[4]، ثم أصابته الشمس فاقفعلّ[5]، وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان؛ فلما رآني فهِم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:

وخارِجٍ أَخـرَجَـهُ حُـبُّ الطَّمَـعْ ... فـرَّ مِـنَ الموْتِ وفي الموْتِ وقَـعْ

مَنْ كانَ يَنْوِي أهْلَهُ فلا رَجَعْ

فلما رأيته قَنَّعْتُ رأسي ووليت هارباً ومروان يقول: مَن هذا الفاضح؟ لا يفوتكم! فدخلت في غمار الناس.

لأعرابي في الغزو:

وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدوّ؟ قال: وكيف يكونون لي عدوّاً وما أعرفهم ولا يعرفونني؟

---

(١) الثرايد: أي الأكل السهل الطري، والثريد: طعام من خبزٍ مفتت ومرق.

(٢) هو مروان بن محمد.

(٣) المغتلم: المتهيّج.

(٤) فارمعلّ: ابتل.

(٥) فاقفعل: أي تقبّض.

وقيل للآخر: ألا تغزو العدوّ؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أخبّ[1] إليه ركضا!

لحسان يعير الحارث بن هشام:

ومما قيل في الفرّارين الجبناء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يعيّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر، وقد تقدم ذكر ذلك:

إنْ كنتِ كاذبةَ الذي حدَّثْتِني فنجوْت مَنْجَى الحارثِ بن هشام
ترَكَ الأحِبَّةَ لم يُقاتِلْ دونَهم ونَجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجام[2]
مَلأتْ به الفرْجَيْن فامتدّتْ به وثوَى أحبَّتُه بِشَرٍّ مُقام

وقال بعض العراقيين في رجل أكول جبان:

إذا صوَّتَ العُصفورُ طار فؤادُه وليثٌ حديدُ الناب عند الثَّرائِد

وقال فيه:

ضعيفُ القلب رعْديدٌ عظيمُ الخلْقِ والمَنْظَرْ[3]
رَأى في النومِ عُصْفوراً فَوارى نفسَه أشْهرْ

وقال آخر:

لو جرَتْ خَيْلٌ نُكوصاً لجَرتْ خَيْلُ ذُفافَهْ[4]
هيَ لا خيْلُ رَجاءٍ لا ولا خيْلُ مَخافَهْ

وقال آخر:

خَرجنا نُريدُ مُغاراً لنا وفينا زِيادٌ أبو صَعْصَعَهْ
فسِتَّةُ رَهْطٍ به خمسةٌ وخمسةُ رهْطٍ به أرْبعَهْ

---

(١) الخبب: نوعٌ من العَدْو.
(٢) الطمرّة: الأنثى من الجياد، وهي المستفزة للوثب والعدو، وقيل: هي الطويلة القوائم.
(٣) رعديد: جبان.
(٤) النكوص: الهرب والتراجع.

ولم يقل أحد في وصف الجبن والفرار مثل قول الطرِمّاح في بني تميم:

تميمٌ بطُرْق اللؤمِ أهْدى مِنَ القَطا ... ولو سَلَكَتْ سُبْلَ المكارمِ ضَلَّتِ
ولو أنّ بُرْغوثاً على ظَهْرِ قَملةٍ ... رأتْه تميمٌ يومَ زَحفٍ لولَّتِ
ولو جَمَعَتْ يوماً تميمٌ جموعَها ... على ذَرَّةٍ معقولةٍ لا شمَلَّت[1]

وليس يُعاب الشجاعُ والبُهْمة البطلُ بالفَرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة؛ كما قال زُفر بن الحارث وفرّ يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال:

أيذْهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُه ... بصالحِ أيّامي وحُسنِ بلائِيا[2]
ولم تُرَ مني زَلّةٌ قبل هذه ... فِراري وتَرْكي صاحبَيَّ ورائيا

وفرّ عمرو بن معديكرب من عباس بن مرداس وأَسَرَ أختَه ريحانة: وفيها يقول عمرو:

أمِنْ رَيحانةَ الدّاعي السَّميعُ ... يُؤَرِّقُني وأصحابي هُجُوعُ

وفرّ عن بني عبس وفيهم زُهير بن جذيمة العبسي وولده شأس بن زهير وقيس بن زهير! فقال فيهم:

أجاعِلَةٌ أمُّ الثُوَيْر خَزايَةً ... عليَّ فِراري إذْ لقيتُ بني عَبْس[3]
لقِيتُ أبا شأسٍ وشأساً ومالكاً ... وقيْساً فَجاشت من لِقائِهم نفْسي[4]
لقُونا فضمُّوا جانبيْنا بصادقٍ ... من الطعْنِ مثل النارِ في الحطبِ اليبْس
ولما دَخلنا تحتَ فَيءِ رِماحِهم ... خَبَطْتُ بكفِّي أطلبُ الأرضَ باللّمْس[5]
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِه ... إذا عُرِفَتْ منه الشجاعةُ بالأمس

وقال أيضاً:

---

(١) اشمعلّت: تفرّقت
(٢) حسن البلاء: حسن الفعل والإقدام.
(٣) أمّ الثوير: هي امرأة عمر بن معد يكرب.
(٤) جاشت: اضطربت ... (٥) خبطت: ضربت

ولقد أجمع رجليّ بها   حذَر الموت وإنّي لفَرُورْ
ولقد أعطفها كارهةً   حين للنفس من الموت هَريرْ[١]
كلّ ما ذلك منّي خُلُقٌ   وبكلٍّ أنا في الرَّوع جديرْ
وابن صبحٍ سادراً يُودعني   ماله في الناس ما عِشتُ مجير[٢]

وقال الحارث لآمرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يَحُدّ حربة يوم فتح مكة فقالت له: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتُها لمحمد وأصحابه. فقالت: ما أُرَى يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمَك بعضهم! ثم أنشأ يقول:

إنْ يُقْبِلوا اليومَ فما بي علّهْ   هذا سلاحٌ كاملٌ وألّهْ[٣]
وذو غرارَيْن سَريعُ السَّلهْ

فلما لقيهم خالد يوم الخندمة[٤] انهزم الرجل، فلامته آمرأته، فقال:

إنك لو شاهدْتِ يومَ الْخَنْدَمَهْ   إذْ فرَّ صَفْوَانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيدَ قائمٌ كالمُوتمهْ   ولحقتْنا بالسيوف المُسلمهْ[٥]
يفْلَقْنَ كلَّ ساعدٍ وجمْجُمَهْ   ضَرباً فلا تُسْمَعُ إلاّ غمغمه[٦]
لهم نَهيتٌ خلفنا وهمهمه   لم تَنطِقي في اللوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ[٧]

بين ابن زياد وابن زرعة:

وكان أسلم بن زرعة وجَّهه عبيد الله بن زياد لحرب أبي بلال الخارجي في ألفين، وأبو بلال في أربعين رجلاً: فشدُّوا عليه شدّة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه، فلما

(١) الهرير: الصياح.
(٢) سادراً: أي لا يبالي ما فعل.
(٣) الألّه: الحربة لها سنان طويل والغرار: الحدّ.
(٤) الخندمه: جبل دخل منه النبي صلى الله عليه وسلّم يوم فتح مكّة.
(٥) أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو خطيب قريش والموتمه: المرأة مات زوجها وترك لها أيتاماً.
(٦) الغمغمة: أصوات غير واضحة.
(٧) النهيت: الزئير والزحير.

دخل على ابن زياد عنَّفه في ذلك وقال: ويلك! أتمضي في ألفين وتنهزم عن أربعين؟ فخرج عنه وهو يقول: لأنْ يذُمَّني ابن زيادٍ حيّاً خيرٌ من أن يَمدحني وأنا ميت ـ وفي رواية أخرى: أن يشتمَني الأميرُ وأنا حيٌّ أحبُّ إليّ من أن يدعو لي وأنا ميت. فقال شاعر الخوارج:

أألْفَا مُـؤمـنٍ فيما زَعَمْتُـمْ ... ويهزمهم بـآسَـكَ أربَعـونـا
كـذبْتُـمْ، ليس ذٰلكُـمُ كـذاكُـم ... ولكـنّ الخوارجَ مـؤمنـونـا
هُـمُ الفئـةُ القليلـةُ قـد عَلِمتُـمْ ... على الفئـةِ الكثيرةِ يُنْصَـرُونـا

ومثل ذلك قولُ عبد الله بن مطيع بن الأسود العَدوي، وكان فَرَّ يوم الحرَّة من جيش مُسلم بن عُقبة، فلما كان أيامَ حِصارِ الحجاج بمكة لعبد الله بن الزُّبير جعل يقاتل أهلَ الشام ويقول:

أنـا الذي فـررتُ يـومَ الحرَّهْ ... والشيـخُ لا يَفِـر إلا مـرّهْ
فـاليـومَ أجـزي فـرّةً بكـرّه ... لا بـأس بـالكـرَّة بعـد الفـرَّهْ

فلم يزل يُقاتل حتى قُتِل.

وأحسن ما قيل في الفرار كله ما قاله قيس بن الحطيم:

إذا ما فررْنا كان أَسْوَا فِـرارِنـا ... صدود الخُدودِ وازورار المنـاكـب
أجالِدُهـم يـومَ الحديقـة حـاسراً ... كأنّ يدي بالسيف مِخْراقُ لاعبِ[١]

وفرّ عُتيبة بن الحارث بن هشام يوم ثبرة عن آبنه حَزْرة وقال:

يا حسرتي لقد لقِيتُ حَسْرَهْ ... يـالتميم غشِيَتْني عبْـرَهْ
نعـم الفتى غـادرْتُـه بِثَبَـرهْ ... نَجَّيْتُ نفسي وتَركـتُ حَـزرَهْ
هل يترُكُ الحرُّ الكريمُ بِكْرَهْ[٢]

(١) الحديقة: قرية من أعراض المدينة في طريق مكة، كانت وقعة بين الأوس والخزرج قبل الاسلام. والمخراق: منديل أو نحوه يلوى فيضرب به أو يلف فيفزع به.
(٢) البكر: أوّل الصبية.

وفرَّ أبو خراش الهذلي من فائد وأصحابه، ورصدوه بعرفات فقال:

وفوني وقالوا يا خُوَيلد لا تُرَعْ ... فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ
وقلتُ وقد جاوزتُ أصحابَ فائدٍ ... أأعْجزتُ أولى الخيل أم أنا أحْلم
فلولا آدّراكُ الشرِّ قامت حليلتي ... تَخَيَّرُ من خُطَّابها وهْي أيِّمُ[1]
ولولا ادّراكُ الشرّ أتلفتُ مُهجتي ... وكان خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَمُ

وفرّ خُبيب بن عوف يوم مَرْداء هجر من أبي فُديك، فقال:

بذلتُ لهم يا قَوم حوْلي وقوّتي ... ونُصْحي وما ضَمّت يدايَ من التبرِ
فلما تناهى الأمر بي من عدوكم ... إلى مُهجتي ولّيْتُ أعداءكم ظهري
وطِرتُ ولم أحفِل ملامَةَ عاجز ... يُقيم لأطرافِ الرُّدَيْنيةِ السُّمْر
فلو كان لي روحان عَرّضْتُ واحداً ... لكلِّ رُدَيْنيٍّ وأبيضَ ذي أُثْر[2]

رَجَع بنا القول إلى الفرّارين والجبناء وما قيل فيهم.

للفرزدق في خالد ابن أسيد:

فرّ خالد بن عبد الله بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجُفْرة بالبصرة، فقال فيه الفرزدق:

وكلُّ بني السَّوداء قد فرّ فرّةً ... فلم يبق إلاّ فرّةٌ في آسْت خالدِ
فضحتم أمير المؤمنين وأنتمُ ... تمرُّون سُوداناً غِلاظَ السَّواعِدِ

وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تقدّم. فأنشأ يقول:

وقالوا تقدّمْ، قلتُ لست بفاعلٍ ... أخافُ على فَخّارتي أن تَحطَّما
فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ... ولكنّه رأسٌ إذا راح أعقما
فلو كان مُبْتاعاً لدَى السوق مِثْلُهُ ... فعلتُ ولم أحفِلْ بأن أتقدّما
فأُوتِم أولاداً وأُرْمِلُ نِسوةً ... فكيف على هذا تَرون التقدُّما

(١) الأيّم: الأرمل. (٢) الرديني: الرمح، والأبيض: السيف والأثر: فرند السيف وجوهره.

بين هند وابن زنباع:

وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها رَوْح بن زنباع: كيف سَودك قومك وأنت جبانٌ غيور؟ قال: أما الجبن، فإن لي نفساً واحدة فأنا أحوطها، وأما الغيرة فما أحق بها مَن كانت له اَمرأة حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمي به في حِجْره.

وقال كعب بن زهير:

بُخْلا علينا وجُبْناً مِن عدوِّكم ... لبئْسَتِ الخلّتانِ البخلُ والجُبْنُ

فضائل الخيل

قال النبي ﷺ في صفة الخيل: «أعرافها أدفاؤها[1]، وأذنابها مَذَابُّها[2] والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «عليكم بإناث الخيل فإنّ بطونها كنز؛ وظهورها حِرْز، وأصحابها مُعانون عليها».

وسأل رجل النبي ﷺ فقال: إني أريد أن أشتري فرساً أُعِدُّهُ في سبيل الله. فقال له: اشتره أدْهَمَ أو كُمَيْتاً أقْرَحَ أرْثم، أو مُحجلا مطلق اليمين[3]، فإنها ميامينُ الخيل.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال: فَرسٌ تتبعها فرس في بطنها فرس.

---

(١) الأدفاء: الأجنحة. (٢) مذابُّها: أي ما يذبُّ عنها ويدفع.

(٣) الأدهم: الأسود، والكميت: من الكمتة وهي لون بين السّواد والحمره، والأقرح: ما كان في جبهته بياض قليلٌ دون الغرَه، والأثرم: هو ما كانت شفته العليا وأنفه أبيضين. والمحجّل: ما كانت قوائمه بيضاء، ومطلق اليمين: أي لا تحجيل فيها.

صفة جياد الخيل

للنبي صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله ﷺ يستحب من الخيل الشقر.

وقال: «لو جُمعتْ خيلُ العرب في صعيد واحد ما سبَقها إلا أشقر».

وسأله رجل: أيُّ المال خير؟ قال: سِكة مأبورة، ومُهْرةٌ مأمورة[١].

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشّكال[٢] في الخيل.

لبعضهم:

وقالوا: إنما سميت خيلاً لاختيالها.

ووصف أعرابيٌّ فرساً فقال: إذا تركته نَعَس، وإذا حرّكته طار.

وأرسلَ مُسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً، فقال له: لا علم لي بالخيل. فقال: ألست صاحب قَنْص؟ قال: بلى. قال: فانظر، كل شيء تستحسنه في الكلب فاطلبه في الفَرس. فأُتي بخيل لم يكن في العرب مثلها.

وقال بعض الضَّبّيّين في وصف فرس:

متقاذفٍ عبْلِ الشّوى شنِجِ النَّسا ... سَبَّاقِ أَنْدِيَةِ الجِيَادِ عَمَيْثَلِ[٣]

وإذا تَعَلّلَ بالسّياطِ جِيادُها ... أعطاك نائله ولم يتعلّل

بين المهدي وابن دراج في أفضل الخيل:

سأل المهدي مطَربن درّاج عن أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلتَ نافر، وإذا استدبرتَه قلت زاخر[٤]، وإذا استعرضته قلت زافر[٥]. قال: فأيّ هذه

(١) السكّة: الطريق المصطفة من النخل، والمأبوره: الملقّحة، والمأمورة: الكثيرة النتاج.

(٢) الشّكال: أن تكون ثلاث قوائم محجّلة وواحدة مطلقة.

(٣) عبل الشّوى: العبل: الضخم، والشوى: القوائم والنسا: عرق من الورك الى الكعب. والعميثل: النشيط.

(٤) الزاخر: الممتلىء. (٥) الزافر: لعل المرّاد بالزافر: العظيم الزُفرة بالضمّ وهي وسط الفرس.

أفضل؟ قال: الذي طرفُه إمامُه، وسَوْطُه عنانُه.

وقال آخر: الذي إذا مَشَى رَدَى[1]، وإذا عدَا دَحا[2]، وإذا استُقْبل أقْعى، وإذا استُدْبَر جَبَّى[3]، وإذا استُعرِض استوى.

بين معاوية وصعصعة:

وسأل معاوية بن أبي سفيانَ صعصعة بن صُوحان: أي الخيل أفضل؟ قال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث. قال: فَسِّرْ لنا. قال: أما الطويل الثلاث، فالأُذن والعنق والحزام؛ وأما القصير الثلاث، فالصُّلب والعَسِيب والقضيب؛ وأما العريض الثلاث، فالجبهة والمِنْخَر والوَرِك؛ وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر.

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معديكرب في عراب الخيل:

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب: كيف معرفتك بِعِراب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعُرِضت عليه، فقال: قدِّموا إليها الماء في التِّراس[4]، فما شرب ولم يَكْتِف[5] فهو من العِراب، وما ثَنَى سُنْبُكه[6] فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أن عمر شك في العِتاق والهُجن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره، فدعا سلمانُ بطست من ماء فوُضِع بالأرض، ثم قدّم إليه الخيل فَرَساً فرساً، فما ثنى سنبكه وشرب هجَنه، وما شرب ولم يَثْنِ عَرَّبه.

---

(١) ردى: من الرديان، أي أن يرجم الأرض رجماً بين المشي والعدو.
(٢) دحا: أي أن الفرس في سيره يرمي بيديه لا يرفع سنبكة عن الأرض.
(٣) جبّى: انكبّ على وجهه.
(٤) التراس: جمع ترس، وهو صفحة مستديرة تحمل للوقاية من سيف ونحوه.
(٥) يكتف الفرس: أي ترتفع فروع كتفه.
(٦) السنبك: طرف الحافر، أو الزّمام.

وقال حسان بن ثابت يصف طولَ عنق الفرس:

بكلِّ كُميتٍ جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِه أقَبَّ طُوَالٍ مُشرِفٍ في الحوارِكِ[١]

وقال زهير:

ومُلْجَمُنا ما إنْ ينالُ قذالُه ولا قَدماه الأرْضَ إلا أنامِله[٢]

وقال آخر:

له ساقا ظَليمٍ خا ضِبٍ فوجِيءَ بالرُّعبِ[٣]
حديدُ الطَّرْفِ والمنْكِـ ـبِ والعُرْقوبِ والقَلْبِ

وقال آخر[٤]:

هريتٌ قصير عذارِ اللِّجامِ أسيلٌ طَويلُ عِذارِ الرسَنْ[٥]

لم يرد بقوله «قصير عذار اللجام» قِصر خدِّه، وإنما أراد طويل شق الفم؛ وأراد بطول عذار الرسن، طولَ الخدّ.

وقال آخر:

بكلِّ هَريتٍ نقيِّ الأديم طويلِ الحزام قصير اللَّببْ[٦]

لأبي عبيدة في عتاقه الفرس:

وقال أبو عبيدة: يُستدلّ على عَتاقة الفرس جحافله وأرْنبَتهِ، وسعة مِنْخَرَيْه، وعُرْى نواهقه[٧]، ودِقّة حَقْوَيه وما ظهر من أعالي أُذنيه، ورقة سالفتيه وأديمه، ولين

(١) الكميت، من الكمتة وهي لون بين السواد والحمرة وجوزه: وسطه، والأقبّ من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن، والطوال: الطويل والحوارك: أعالي الكاهل.

(٢) القذال من الفرس: معقد الغدار خلف الناصية.

(٣) الظليم: ذكر النعام، والخاضب: الذي أعتلم فاحمرّت ساقاه.

(٤) هو تميم بن أبي مقبل أحد شعراء الجاهلية، مخضرم عاش مائة وعشرين سنة.

(٥) الهريت: الواسع الشدقين الطويل شقّ الفمّ والأسيل: صفحة الخدّ الناعمة.

(٦) اللّبب: المنحر. (٧) النواهق: يريد بالنواهق: الناهقين وهما العظمان الشاخصان في مجرى الدمع.

شعره. وأبْيَنُ من ذلك كله لينُ شكيرِ[1] ناصيته وعُرفه.

وكانوا يقولون: إذا اشتد نفَسُه، ورَحُبَ مُتَنفَّسُه، وطال عنقه، واشتد حِقْوه، وانهَرَتَ شِدْقُه، وعظمت فخذاه، وانشبخت[2] أنساؤه، وعظمت فصوصه، وصلبت حوافره ووقُحت: أُلحق بجياد الخيل.

قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المُقرف[3]؟ قال نعم: أما الكريم فالجواد الجيد، الذي نَهَز نَهْز العَيْر[4]، وأُنِّف تأنيف السَّير، الذي إذا عدا اسلهبّ[5]، وإذا قُيّد اجْلَعَبّ[6]، وإذا انتصب اتلأَبّ[7].

وأما المُقرف فإنه الذَّلول الحجبَة، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال أمسِكني، وإذا أمسكته قال أرسِلْني.

وكان محمد بن السائب الكَلْبي يحدث أنّ الصَّافنات[8] الجياد المعروضة على سليمان ابن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه، فلما عُرضت عليه ألهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، فَعَرْقبها إلا أفراساً لم تُعرض عليه، فوفد أقوامٌ من الأزد، وكانوا أصهاره، فلما فرغوا من حوائجهم، قالوا: يا نبيّ الله، إنّ أرضنا شاسعة فزوّدنا زاداً يبلّغنا. فأعطاهم فرساً من تلك الخيل، وقال: إذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا؛ فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتيكم بطعامكم. فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركِبه أحدهم للقنْص فلا يفلته شيء وقعت عينه من ظبي أو بقر أو حمار، إلى أن قَدِموا إلى بلادهم فقالوا: « ما فرسُنا إلا زاد الراكب، فسموه زاد الراكب، فأصل فحول العرب من نتاجه.

---

(١) الشكير: ما أطاف بالناحية من قصير الشعر وهو ممّا يستدلّ به على العنق.

(٢) أشبخت: تقلّصت.

(٣) المقرف: البعيد عن الأصالة.

(٤) العير: الحمار الوحشي.

(٥) اسلهبّ: مضى. (٦) اجلعبّ: امتدّ على الأرض.

(٧) اتلأبّ: رفع صدره ورأسهُ.

(٨) الصافنات: جياد الخيل، والصافن: الفرس القائم على ثلاث قوائم

ويقال إن « أعوج » كان منها، وكان فحلا لهلال بن عامر أنتجته أُمه ببعض بيوت الحيّ، فنظروا إلى طِرْف يضع بَجْفَلَتِه على كاذَتها - على الفخذ مما يلي الحياء - فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم، لعظم، « أعوج » وطول قوائمه فقاموا إليه فوجدوا المهر، فسموه أعوج.

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: أُغير على أهل النسار[1] وأعوج موثقٌ بثمامة،[2] فجال صاحبهُ في متنه ثم زجره فاقتلع الثمامة، فخرجت تَحُف في متنه كالخُذْروف[3] وراءه، فعدا بياضَ يومه وأمسى يتعشى من جَميم قُباء[4].

وقال الشاعر في وصف فرس:

وأحمرَ كالديباج أمّا سماؤه ... فريّا، وأمّا أرْضُه فمَحُول

قوله: سماؤه: أعلاه. وأرضه: أسفله، يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول:

مُبْتَلٌّ مَتْنٍ وصَهْوَتَيْن إلى ... حوافِرٍ صَلْبةٍ لهُ مُلُسِ
فهو لَدَى الرَّوْع والجلائب ذو ... أعْلى مُندًّى وأسفلٍ يَبَسِ
أو أدهم فيه كُمْتةٌ أممٌ ... كأنّهُ قطعةَ مِنَ الغَلَسِ[5]
صهْصلِقٌ في الصّهيلِ، تحْسَبُهُ ... أُشرِجَ حُلقومُه على جَرَسِ

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهب الكاتب.

ما مُقْرَبٌ يختالُ في أشطانه ... ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُق[6]
بحوافِرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ ... وأشاعرٍ شُعْرٍ وحلْقٍ أحْلَق[7]

---

(١) النّسار: ماء لبني عامر، له يومٌ من ايام العرب.

(٢) ثمامة: أي بشجيرة من شجيرات الثمام المعروف.

(٣) الخذروف: عود صغير يدوّره الولد بخيط فيدور ويسمع له صوت.

(٤) الجميم: النبات الكثير، وقباء: بئر سمّيت باسمها قرية على ميلين من المدينة، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار.

(٥) الأمم: الشيء بين الشيئين، والغلس الظلام.

(٦) الأشطان: الحبال، والتلهوق: المبالغة في العجب والاختيال.

(٧) الصلب: الظهر، وصُلّب: قوي، والأشاعر: ما استدار بالحافر من منتهى الجلد، وشعر: شديدة، وأحلق: واسع.

وبشُعلــةٍ تبْـدُو كــأنّ حُلــولها ... في صَهْوَتَيْه بُدُوُّ شيْبِ المَفْـرَق
ذو أولَــقٍ تحت العَجـــاجِ وإنّما ... من صِحّةٍ إفراطُ ذاك الأولَـقِ [1]
تُغْرَى العيونُ بـه ويُفْلِقُ شاعـرٌ ... في نَعْتِــه عفــواً وليس بمُفلِـقِ
بمُصَعَّـدٍ مــن نعتــه ومُصَــوَّبٍ ... ومُجَمَّـعٍ مـن حسنــه ومُفَــرَّقِ
قد سالتِ الأوضاحُ سيْلَ قرارةٍ ... فيـه فمفْترِقٌ عليــه وملتقــي [2]
صــافي الأديم كــأنّما ألْبَستَــهُ ... من سُنْدُسٍ ثـوبـاً ومـن إستبرق
مُسْوَدَّ شَطْرٍ مثل ما اسودَّ الدُّجَى ... مُبيَضَّ شطرٍ كابْيِضاضِ المهْرَق [3]
فكـأن فـارسـه يُصَـرّفُ إذْ بَـدَا ... في متنـه آبْنـاً للصّبــاحِ الأبلَـقِ
إمْليســةٌ إمليــدةٌ لـــو عُلّقَــتْ ... في صَهْـوَتيــه العينُ لم تتعلَّـقِ [4]
يُرْقَى ومـا هـو بـالسَّليمِ ويغتَـدي ... دونَ السلاحِ سلاحِ أروعَ مُملِقِ [5]

لبعض الشعراء في أبي دلف:

وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البَذّ [6] وتحته فرس أدهم وعليه نَضْح الدم، فاستوقفه رجل من الشعراء وأنشد:

كم ذا تُجـرِّعُـه المَنــونَ ويَسْلَـمُ ... لو يَستطيعُ شَكـا إليـكَ الأدْهَـمُ
في كلِّ مَنْبتِ شعـرةٍ مـن جِلْـدِهِ ... نَمَـقٌ يُنَمِّقُـه الحُسامُ المِخْـذَمُ [7]
وكـأنّما عَقـدَ النُّجُـومَ بطَــرفِـه ... وكأنـهُ بعُـرَى المجَـرَّةِ مُلجَـم [8]
وكـــأنّـــه بين البَــوارقِ لَقْــوَةٌ ... شَقراءُ كاسرةٌ طَوَتْ مـا تطعـمُ [9]
مـا تُـدركُ الأرواحُ أدْنَــى سيره ... لا بَلْ يفـوتُ الرِّيـحَ فهْـوَ مُقـدَّمُ

---

(١) الأولق: الجنون، يريد وصفه بشدّة النشاط.

(٢) الأوضاح: جمع وَضَحْ وهو البياض.

(٣) المهرق: ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويُصقل ثم يكتب فيه.

(٤) إمليسه إمليده: أملسه أملده: أي لين ناعم والعين يريد بها التي تصيب الانسان وغيره.

(٥) يرقى من الرقية، والسليم: الذي لدغ، والأروع: الشجاع، والمملق: الذي لا سلاح له.

(٦) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخرمي في أيام المعتصم، وشهدها أبو دلف.

(٧) المخذم: القاطع.

(٨) يشير بهذا البيت إلى أنه مرتفع الرأس لا يخفضه.

(٩) البوارق: السيوف.

رَجَعَتْهُ أطرافُ الأسِنَةِ أشْقراً ... واللوْن أدْهم حينَ ضَرَّجَهُ الدَّمُ

قال: فأمر له بعشرة آلاف.

لابن عبد ربه في وصف الفرس:

ومن قولنا في وصف الفرس:

ومُقْربةٍ يَشْقرُّ في النَّقْعِ كَمْتُها ... ويَخْضَرُّ حيناً كلما بَلَّها الرَّشْحُ[1]

تطِيرُ بلا رِيشٍ إلى كلّ صَيْحةٍ ... وتَسْبَحُ في البَرِّ الذي ما بِهِ سَبْحُ

وقال عديّ بن الرّقاع:

يَخرجن من فُرُجات النَّقْعِ دامِيَةً ... كأنَّ آذانَها أطرافُ أقلامِ

وطلب البحتري الشاعر من سعيد بن حُمَيد بن عبد الحميد الكاتب فرساً ووصف له أنواعاً من الخيل في شعره فقال:

لأُكَلِّفَنَّ العِيسَ أبْعَدَ هِمَّةٍ ... يَجري إليها خائفٌ أو مُرْتجي

وإلى سَرَاةِ بني حُميدٍ إنهمْ ... أمْسَوْا كواكبَ أشرقَتْ في مَذْحِجِ

والبيتُ لولا أنّ فيه فضيلةً ... تعلُو البيوتُ بفضلها لم يُحْجَجِ

فأَعِنْ على غَزْوِ العدوِّ بمُنْطَوٍ ... أحشاؤهُ طَيَّ الرِّداءِ المُدْرَجِ

إمّا بأشقرَ ساطعٍ أغْشَى الْوَغَى ... منهُ بمثلِ الكوكبِ المتأجّجِ

مُتَسَرْبِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَهُ ... بدَمٍ فما تَلْقاهُ غيرَ مُضَرَّجِ[2]

أو أدْهَمٍ صافي الأديمِ كأنّهُ ... تحتَ الكميّ مُظهَّرٌ بيَرَنْدَجِ[3]

ضَرِمٍ يَهيجُ السَّوْطُ من شُؤْبُوبِهِ ... هَيْجَ الجَنائبِ من حريقِ العَرْفَجِ[4]

خَفَّتْ مَواقِعُ وَطْئِهِ فلَوَ آنه ... يجري بَرملةِ عالجٍ لم يُرْهِجِ[5]

---

(١) النقع: الغبار. (٢) الشية: العلامة، واللون الذي يخالف غيره.

(٣) اليرندج: السواد يسوَّد به الخف، أو هو الزاج يسوّد به.

(٤) الشؤبوب: شدّة العدو، والجنائب: وهي من الرياح، والعرفج: ضرب من النبات سهل طيب الرائحة، ولهبه شديد الحمرة.

(٥) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، ولم يرهج: أي لم يثر الغبار.

أو أشهبٍ يَقَقٍ يضيءُ وراءَه ... متنٌ كمتْنِ اللُّجةِ المترجرجِ [1]
تَخفى الحُجولُ ولو بَلَغْنَ لَبانَه ... في أبيضٍ مُتألقٍ كالدُّمْلُجِ [2]
أوْفَى بعُرْفٍ أسْوَدٍ مُتَفرّدٍ ... فيما يليهِ وحافرٍ فيْرُوزَجي
أو أبلقٍ ملأ العيون إذا بَدا ... من كلّ لون مُعْجبٍ بنَموذَجِ
جذلانَ تحسُدُه الجيادُ إذا مَشى ... عَنَقاً بأحسنِ حُلّةٍ لم تُنْسَجِ [3]
وعريض أعْلى المتن لو علّيْتَه ... بالزئبقِ المُنهال لم يَتَدَحْرَجِ
خاضَتْ قوائمه الوثيقُ بناؤُها ... أمواجَ تَحْنيبٍ بهنَّ مُدرّجِ [4]
ولأنتَ أبعدُ في السّماحةِ همةً ... مِن أن تَضِنَّ بمُلْجمٍ أو مُسْرَجِ

لامريء القيس:

وأول من شبّه الخيل بالظباء والسِّرحان والنعامة، وتبعه الشعراء وحذوا حذوه وعلى مثاله ـ امرؤ القيس بن حجر:

لـه أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نَعامة ... وإرْخاءُ سِرْحان وتقْريبُ تتفلِ [5]
كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إذا انْتَحى ... مَداكَ عروسٍ أو صَلاية حَنْظَلِ [6]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معاً ... كجلْمود صَخْرٍ حَطّهُ السَّيْلُ من عَلِ
دَريرٍ كخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّه ... تَتابُعُ كفَّيْه بخيْطٍ موَصّلِ [7]
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِبْدُ عن حالِ مَتْنِه ... كما زلّتِ الصَّفْواءُ بالمتنَزّلِ [8]

---

(١) اليقق: الشديد البياض.

(٢) اللّبان: الصدر، والدّملج: حليّ يلبس في المعصم.

(٣) العنق: ضرب من السير فسيح سريع.

(٤) التحنيب: احديدابٌ في وظيفي يدي الفرس، ويوصف صاحبه بالشدّة، وقيل: هو بعد ما بين الرجلين من غير فحج.

(٥) الأيطل: الخاصرة، والإرخاء شدّة العدو، والسرحان: الذئب، والتتفل: ولد الثعلب.

(٦) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر، وانتحى: اعتمد وقصد والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب. والصلاية: الحجر الأملس الذي يسحق عليه حبُّ الحنظل وغيره.

(٧) الدرير: السريع العدو، والخذروف: عود أو قصبة مشقوقة تحدث أصواتاً يلعب به الصبيان، وأمرّه: قلبه ثم أداره بين كفيه.

(٨) الحال: وسط الظهر، والصفواء: الصخرة الملساء التي لا يثبت عليها شيء، والمتنزّل: المتزحلق عليها.

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امريء القيس فحذوا عليه، فقال طُفيل الخيل:

إنّي وإنْ قَلَّ مالي لا يُفارِقْني ... مثْلُ النَّعامة في أوْصالِها طوْلُ
تقْريبها المَرَطى والجوْزُ مُعتدلٌ ... كأنّه سُبَدٌ بالماءِ مغسولُ[1]
أو ساهِمُ الوجْهِ لم تُقْطَعْ أباجلهُ ... يُصانُ وهْوَ ليوْم الرَّوْعِ مَبْذولُ[2]

بين عبد الملك بن مروان وأصحابه:

وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أي المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر التي كأنها غِرْقِيء[3] البيض. وقال بعضهم: مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع. فقال: ما صنعتم شيئا، أفضلُ المناديل مناديل عَبْدة بن الطَّبيب حيث يقول:

لَمَّا نزَلْنا ضَربنا ظِلَّ أخْبيَةٍ ... وفارَ باللحمِ للقَوْم المراجيلُ
ورداً وأشقرَ لم يُنْهِئه طابخُهُ ... ما قاربَ النُّضْجَ منها فهو مأكولُ[4]
وقد وثبنا على عُوجٍ مُسَوَّمَةٍ ... أعرافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ[5]

سوابق الخيل

قال الأصمعي: ما سبق في الرهان فرسٌ أهْضَمُ قطُّ. وأنشد لأبي النَّجم:

مُنتفجُ الجوْفِ عريضٌ كلكَلُهْ[6]

لأبي النجم في فرس هشام:

قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلا مُسَبِّقا لا يكاد يَسبق، فسَبَقت له فرسٌ أنثى وصَلَّت أختها، ففرح لذلك فرحا شديداً، وقال: عليّ بالشعراء. قال أبو النجم:

---

(١) التقريب: ضرب من العدو، وهو أن يرفع الفرس يديه معا ويضعهما معا، والمَرَطى: فوق التقريب، والجوز: الوسط، والسبد: ثوب يسدُّ به الحوض المركو لئلا يتكدَّر الماء، يفرش فيه وتسقى الابل عليه.

(٢) الساهم: العابس، والأباجل: جمع أبجل، وهو عرق غليظ في الرجل، وهو في الفرس بمنزلة الأكحل في الانسان.

(٣) غرقيء البيض: القشرة الرقيقة الملتزمَة بالبياض من البيضة.

(٤) لم ينهئه: لم ينضجه.

(٥) الكلكل: الصدر. (٦) الجرد: الخيل القصار والشعر، والسوّمة: المعْلمة.

فدُعينا فقيل لنا: قولوا في هذا الفرس وأختها. فسأل أصحابُ النشيد النَّظِرةَ حتى يقولوا. فقلت له: هل لك في رجل يَنْقُدُك إذا آستنسئوك[1]؟ قال: هات. فقلت من ساعتي:

أشاعَ للغَـرّاءِ فينـا ذِكـرَهـا ... قـوائمٌ عـوجٌ أطَعْـنَ أمـرَهـا
ومـا نسينـا بـالطـريـق مُهْـرهـا ... حين نَقيسُ قـدره وقـدرهـا
وصبرَهُ إذا عـدا وصبرَهـا ... والماءُ يعلـو نحره ونحرهـا
ملْمـومـة شـدّ المليـكُ أسْـرَهـا ... أسْفَلَهـا وبطنَهـا وظهْـرهـا[2]
قد كـاد هـاديها يكـونُ شَطْـرهـا ... لا تـأخـذُ الحَلْبـةُ إلا سُـؤْرَهـا[3]

قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

بين الرشيد والأصمعي في فرس سابق:

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد، وأبو الحسن علي بن جعفر البصري، قالا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلْبة. قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها فيمن شَهد من خواص أمير المؤمنين؛ والحلْبةُ يومئذ أفراسٌ للرشيد ولولديه الأمين والمأمون، ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن أبي جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهرون الرشيد سابقاً؛ فابتهج لذلك ابتهاجا عُلم ذلك في وجهه، وقال عليّ بالأصمعي. فنوديتُ له من كل جانب، فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه، فقال: يا أصمعي، خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قوْنَسهِ إلى سُنْبُكه؛ فإنه يقال إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير. قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ وأُنشدك شعراً جامعا لها من قول أبي حَزرة. قال: فأنشدنا للهِ أبوك. قال: فأنشدته:

وأقَـبَّ كـالسِّـرحـانِ تمَّ لـه ... مـا بين هـامَتِـه إلى النَّسْـرِ

الأقب: اللاحق المُخْطَف البطن، وذلك يكون من خِلْقَةٍ وربما حدث من هُزال أو

(١) استنسئوك: أبعدوك وأخّروك.

(٢) ملومة: مجتمعة الخلق، والأسر: شدة الخلق.

(٣) الهادي: العنق، يريد وصفه بالطول وسؤرها فضل قوتها.

بُعْدِ قَوَد؛ والأنثى قَبَّاء، والجمع قُبٌّ، والمصدر القَبب. والسِّرحان: الذئب، شبهه في ضُموره وعدْوه به، وجمعه سَراحين: وقد قالوا: سِرَاح. والهامة: أعلى الرأس، وهي أم الدماغ، وهي من أسماء الطير. والنسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النَّوى والحصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه نُسور.

رَحُبَتْ نَعامتُه ووُفِّر فَرخُهُ   وتمكن الصُّرَدان في النحْر

رَحُبت: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ، وهي من أسماء الطير. وقوله «ووُفّر فرخه» الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور. ووفّر أي تمَّم؛ يقال: وفّرت الشيء ووفَرته، بالتخفيف، موْفور. والصَردان: عرقان في أصل اللسان، ويقال إنهما عرقان أخضران مكتِنفان باطن اللسان، منهما الرّيقُ ونَفَس الرئة؛ وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صُرَد أيضا، وهو بياض يكون في موضع السرج من أثر الدَّبَر؛ يقال: فرس صَرِد إذا كان ذلك به. والنحر: موضع القلادة من الصدر، وهو البَرْك.

وأنافَ بالعُصْفورِ من سَعَفٍ   هامٍ أشمُّ موَثَّقُ الجِذْرِ

أناف: أشرف. والعصفور: أصل منبت الناصية. والعصفور أيضاً: عظم ناتيء في كل جبين. والعصفور: من الغرر أيضاً، وهي التي سالت ودّقت ولم تجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقُرْحة؛ وهو من أسماء الطير. والسَّعَف، يقال: فرس بيّن السَّعَف، وهو الذي سالت ناصيته. وهامٍ: أي سائل منتشر. وأشمّ: مرتفع؛ والشَّمم في الأنف: ارتفاع قصبته. ويروى: هادٍ أشم. يريد عُنقاً مرتفعاً، وجمعه هوادٍ. وقوله: موثّق، أي شديد قويّ. والجِذْر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح. وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وآزدانَ بالدّيكَيْنِ صَلصَله   ونَبَتْ دجاجتُهُ عن الصَّدرِ

ازدان: افتعل، من قولك زان يزين، وكان الأصل: ازتان، فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان: واحدهما ديك، وهو العظم الناتيء خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخُشَشاء والخشّاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية: ويقال: هو أصل الناصية: والدجاجة: اللحم

الذي على زَوْره بين يديه؛ والديك والصلصل والدجاجة: من أسماء الطير.

والناهِضانِ أُمِرَّ جَلْزُهُمَا فكأنما عُثِما عَلى كَسْرِ

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضُدَيْن من أعلاهما؛ والجمع نواهض؛ ويقال في الجمع: أنْهُض، على غير قياس. والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أُمِرَّ جَلْزُهما: أي فُتِلَ وأُحْكِمَ؛ يقال أمررتُ الحبل فهو مُمَرٌّ، أي فتلته؛ والجَلْز: الشدّ. وقوله:

فكأنما عُثِما على كَسْرِ

أي كأنهما كُسِرَا ثم جُبرا؛ يقال: عُثِمَت يَدُه. والعَثْم: الجبر على عُقدة وعِوَج؛ وعُثمان: فُعلان منه.

مُسْحَنْفِرُ الجَنْبَيْنِ مُلْتَئِمٌ ما بَيْنَ شيمَتِهِ إلى الغُرِّ

مسحنفر الجنبين: أي منتفخهما. مُلتئم: أي معتدل. وشيمته: نحْره والشيمة أيضا: من قولك: فرس أَشْيَمُ: بيِّنُ الشِّيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والغُرّ في الطير الذي يسمى الرخمة، وهي عضلة الساق.

وَصَفَتْ سمَاناهُ وحافِرُهُ وأَديمُهُ ومَنَابِتُ الشَّعْرِ

السّمَانَي: طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السَّمَامة، وهي دائرة تكون في سالفة الفَرس، وهو عُنقه. والسَّمامة من الطير أيضا. والأديم: الجلد.

وسَمَا الغُرابُ لِمَوْقِعَيْهِ مَعاً فأُبِينَ بَيْنهُمَا على قدْرِ

سما الغراب: أي ارتفع. والغراب: رأس الورك. ويقال للصَّلَوين: الغرابان، وهما مكتنفا عَجْب الذنب. ويقال: هما أعالي الوركين. والموقعان منه: في أعالي الخاصرتين. فأُبينَ: أي فُرِّق بينهما. على قدر، أي على استواء واعتدال.

واكْتَنَّ دونَ قَبِيحِهِ خُطَّافُهُ ونَأَتْ سَمَامَتُهُ عن الصَّقْرِ

اكتنّ، أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال إنه مُرَكَّب الذراعين في العضدين. والخُطّاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عَقِب الفارس إذا حرّك

رجليه، ويقال لهذين الموضعين من الفرس: الْمَرْكلان. ونأت. أي بعدت، والسَّمامة: دائرة تكون في عُنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير.

وتَقَدَّمَتْ عنه القَطاةُ له ... فنأتْ بمَوْقِعها عن الْحُرِّ

القطاة: مقعد الرِّدْف، وهي من أسماء الطير؛ والْحُرّ: من الطير، يقال: إنه ذكر الحمام. وهي من الفرس: سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسَما على نقْوَيْهِ دون حِداتِه ... خَرَبانِ بينهما مَدَى الشّبر

النّقْوان: واحدهما نقْو، والجمع أنقاء. وهو عظم ذو مُخ، وإنما عَنَى ها هنا عظامَ الوَركين؛ لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المدْهُن في ورَك الفرس. وهو من الطير: ذَكَرُ الحبارى. والحِدأة: من الطير: وأصله الهمز ولكنه خُفّف، وهي سالفة الفرس، وجمعها حِداء، على وزن فِعال، كما تقول: عَظاءة وعَظاء؛ ويقال: عَظاية. وإذا فتحت الفاء قلت حدَأة، وهو الفأس ذات الرأسين، وجمعها حَدَأ، مثل نَواة ونَوى، وقَطاة وقطا.

يدع الرّضيم إذا جرى فِلَقا ... بتَوائِمٍ كمواسمٍ سُمْرِ

الرَّضيم: الحجارة. والفلق: المكسورة فِلَقا. بتوائم: جمع توْأم، وقد قالوا: تُؤَام، على وزن فُعال، جمع تَوْأم؛ وهي على غير قياس. يقول: هي مَثْنَى مَثْنَى، يعني حوافره. والمواسم: جمع مِيسَم الحديد، أي إنها كمواسم الحديد في صلابتها. وقوله سمر: أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

رُكّبْنَ في مَحْض الشَّوَى سَبطٍ ... كَفْتِ الوُثُوب مُشَدَّد الأسْرِ

الشوى ها هنا: القَوائم، والواحدة شَواة؛ ويقال: فرس محض الشوى، إذا كانت قوائمه معصوبة. سَبط: سهل. كَفْتِ الوثوب. أي مجتمع، من قولك: كَفَتُّ الشيء، إذا جمعته وتَمّمته. مشدّد الأسر: أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بألف درهم.

لأبي العتاهية في المشمر فرس الرشيد:

وسبق يوما فرس للرشيد، يسمى المشمِّر. وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد البرمكي. فقال أبو العتاهية:

جاء المسمَّر والأفراس يقدُمها هَوناً على سرعة منها وما انتهرا[١]
وخلّف الريح حسرى وهي تتبعه ومرّ يختطف الأبصار والنظرا

لأبي النجم في الحلبة:

وقال أبو النجم في شعر يصف الفرس، وهو أجود شعر يصف الحلبة:

ثم سَمِعْنا بِرِهانٍ نأمُلُهْ قِيدَ لهُ مِنْ كلِّ أُفْقٍ جَحْفَلُهْ
فقلتُ للسَّائس قُدْهُ أعْجِلُهْ واغْدُ لَعنَّا في الرِّهانِ نُرْسِلُهْ[٢]
نعلو به الحَزْنَ ولا نُسهِّلُهْ إذا علا الأخْشَبَ صاح جندلُهْ[٣]
تَرنّم النَّوَّحِ يُبكي مُثْكِلُهْ كأنَّ في الصَّوْتِ الذي يُفَصِّلُهْ
زُمّارَ دُفٍّ يَتغنى جُلجُلُهْ حتى وزدنا المِصْرَ يُطْوَى قَنبلُهْ[٤]
طَيَّ التّجار العَصْبَ إذ تَنخَّلُهْ وقد رأينا فِعلَهُمْ فَنفْعلُهْ[٥]
نطْويه والطَّيّ الرقيقُ يجدلُهْ نُضمِّرُ الشَّحْمَ ولسنا نَهزلُهْ
حتى إذا الليل تولَّى أثجلُهْ واتَّبعَ الأيديَ مِنه أرْجُلُهْ[٦]
قمنا على هَوْلٍ شديدٍ وَجَلُهْ نَمُدُّ حَبْلا فوقَ خطٍّ نَعْدِلُه[٧]
نقولُ قَدِّمْ ذا وهٰذا أدْخِلُهْ وقام مشقوقَ القميص يُعْجِلُه
فوق الخُمَاسِيِّ قليلاً يَفضُلُهْ أدْرَكَ عَقْلاً والرِّهانُ عَمِلُهْ[٨]

---

(١) الهون: السكينة والهدوء. وانتهر: أي زجر من أجل السرعة.

(٢) الرِّهان: تضمير الخيل. (٣) الحزن: الأرض الوعرة المسالك، والجندل: الحجارة

(٤) القنبل: الطائفة من الخبل. (٥) العصب: ضرب من البرود، وتنخله: تختاره.

(٦) الأثجل: القطعة الضخمة من الليل. (٧) الوجل: الخوف.

(٨) الخماسي: يقال غلام خماسيّ إذا كان طوله خمسة أشبار.

حتى إذا أدركَ خيْلاً مُرسلَهْ ... ثار عَجَاجٌ مُسْتَطِيرٌ قَسْطلُه[1]
تَنْفشُ منه الخيلُ ما لا تغْزلُهْ ... مَراً يُغَطّيها ومَراًّ تُنْعَلُه
مَرَّ القطَا انصبَّ عليه أجْدَلُهْ ... وَهْو رَخِيُّ البالِ سامٍ وهَلُه[2]
قَدَّمَهُ مِثْلاً لِمَنْ يمثلُه ... تُطيرُهُ الجنُّ وحيناً تُرجلُهْ
تَسْبحُ أُخراهُ ويَطفو أوَلُهْ ... ترى الغلامَ ساجياً ما يَركلُهْ[3]
يعطيهِ ما شاءَ وليْس يَسألُهْ ... كأنَّهُ مِن زَبدٍ يُسَرْبلُهُ
في كُرْسُفِ النَّدَّافِ لولا بَللُهُ ... تَخالُ مِسكاً عَلَهُ مُعَلَّلُهْ[4]
ثم تناولنا الغُلام تُنزلُهْ ... عن مُفْرعِ الكتِفيْنِ حُلْوٌ عَطَلُهْ[5]
مُنْتَفِج الجوْف عريضٌ كلْكله ... فوافَتِ الخيلُ ونحن نَشكلُهْ[6]

والجنُّ عُكّافُ به تُقبّلُهْ

وقال آخر في فرس أبي الأعور السَّلمي:

مَرَّ كلمعِ البرْقِ سامٍ ناظِرُهْ ... تَسْبحَ أُولاهَ ويَطفو آخِرَهْ

فما يَمسُّ الأرضَ منه حافِرُهْ

قول هذا أشبه من قول أبي النجم: لأنه يقول:

تَسبحُ أُخْراهُ ويَطفو أوَّلَهْ

وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكسَّاح[7] أسرع منه. لأن اضطراب مؤخره قبيح.

وقال الأصمعي: كان أبو النجم وصّافا للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت، وقد غلط رُؤبة أيضا في الفرس فقال يصف قوائمه:

يَهوين شتّى ويقَعْن وفْقَا[8]

(١) العجاج والقسطل: الغبار.
(٢) الأجدل: الصقر، والوهل: الخوف.
(٣) الساجي: الساكن، ويركله: ينهره.
(٤) الكرسف: القطن.
(٥) مفرع الكتفين: عاليهما، والعطل: العنق، وقيل: الضمور.
(٦) منتفج: أي منتفخ.
(٧) الكسّاح: الكنّاس.
(٨) وفقاً: أي على نمطٍ واحد.

ولما أنشده مُسلم بن قتيبة، قال له: أخطأت في هذا يا أبا الجحَاف، جعلته مقيّدا. قال: قرّبني من ذَنب البعير.

وأنشد الأصمعي:

قـد أطـرُق الحيَّ على سـابـحٍ   أسْطَعَ مِثْلِ الصَّدَعِ الأجْـرَدِ
لمّا أتيـتُ الحيَّ في مَتْنـه   كـأنّ عُـرْجـونـا بمَثنى يـدِي[1]
أقبـلَ يختـالُ على شَـأْوه   يضربُ في الأقـربِ والأبعـدِ
كـأنّـه سكـرانُ أو عـابِسٌ   أو آبن ربٍّ حَـدَث المولْـدِ

وقال غيره:

أمـا إذا استقبلتَـه فكـأنـهُ   جِذْعٌ سَمَا فـوق النَّخيـل مُشَذَّبُ
وإذا اعترضت له استوتْ أقطـاره   وكـأنّـه، مُسْتَـدْبَـراً، مُتَصـوِّبُ

وقال ابن المعتز:

وقد يحضُرُ الهيْجاءَ في شَنجِ النَّسا   تكامَلَ في أسْنانِـه فهْـو قـارِحُ[2]
لـه عُنـقٌ يغتـالُ طـولَ عِنـانـه   وصدرٌ إذا أعطَيْته الجرْيَ سـابـحُ
إذا مال عن أعطافه قلـت شـاربٌ   عنـاهُ بتصريـفِ المُدامـة طـافـحُ

وقال أيضاً:

ولقـد وطِئـتُ الغيْـثَ يحْملُني   طِرْفٌ كَلَوْنِ الصُّبْحِ حين وقـد
يَمشي ويعـرِضُ في العِنـان كما   صَدَفَ المُعَشَّق بالـدلال وصـدْ[3]
طـارت بـه رِجـلٌ مُـرَصَّعَـةٌ   رَجّامةٌ لِحَصَى الطـريـق ويَـدْ[4]
فكـأنـه مـوجٌ يسيـلُ إذا   أطلقتَـهُ وإذا حَبَسْـت جَمـدْ

---

(١) العرجون: أصل العذق، وهو عنقود النخل.

(٢) شنج النسا: أي تقبض عرق النّسا ويكون من الورك إلى الكعب. والقارح: الفرس في الخامسة من عمره.

(٣) صدف: امتنع وكذلك الصدّ.

(٤) رجّامة: من الرّجم، أي مثيرة لها.

الحلبة والرهان

والحلبة: مجمع الخيل، ويقال: مجتمع الخيل، ويقال: مجتمع الناس للرهان؛ وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا: إذا اجتمعوا. ويقال منه: حَلَبَ الحالبُ اللبنَ في القدح: أي جمعه فيه. والمِقْوس: الحبل الذي يُمدُّ في صدور الخيل عند الإرسال للسياق. والمنّصبة: الخيل حين تُنَصب للإرسال.

وأصل الرهان من الرهن، لأن الرجل يراهن صاحبه في المسابقة، يضع هذا رهنا وهذا رهنا، فأيها سبق فرسُه أخذ رهْنَه ورهْن صاحبه. والرهان، مصدر راهنته مراهنة ورهانا، كما تقول: قاتلته مقاتلة وقتالا. وهذا كان من أمر الجاهلية، وهو القِمار المنهيّ عنه. فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمًّى على أنه إن سَبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبُه أخذ الرهن، فهذا حلال؛ لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر؛ وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخلا بينهما محلِّلا، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضاً الدّخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأوّلَيْن أخذَ رهْنَه ورهنَ صاحبه فكان له طيبا، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعا، وإن سُبق هو لم يكن عليه شيء. ولا يكون الدخيل إلا رائعا جواداً، لا يأمنان أن يسبقهما؛ وإلا فهذا قمار، لأنهما كأنهما لم يُدخلا بينهما محلّلا.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمصلِّي: الثاني الذي يتلوه. قال: وإنما قيل له مُصَلٍّ، لأنه يكون عند صلوِي السابق، وهما جانبا ذَنَبه عن يمينه وشماله؛ ثم الثالث والرابع لا آسم لواحد منهما إلى العاشر، فإنه يسمَّى سُكَيْتاً.

قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثَق بعلمه آسما لشيء منها إلا الثاني والعاشر؛ فإن الثاني آسمه المصلّي، والعاشر السُّكَيْت؛ وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السُّكَيْت ويقال السُّكَّيْت، بالتشديد والتخفيف، فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به. والفِسْكِل ـ بالكسر ـ الذي يجيء آخر

الخيل، والعامة تسميه الفُسكل ـ بالضم.

وقال أبو عبيدة: القاشور، الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل، وهو الفِسْكل، وإنما قيل للسُّكيت؛ سُكَيت لأنه آخر العدد الذي يقف العادُّ عليه. والسَّكت: الوقوف، هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيَّروا.

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق. قال جرير:

إذا شِئتمُ أن تَمسحوا وجه سابقٍ ... جَوادٍ، فمُدُّوا في الرِّهان عِنانِيا

ومن قولنا في هذا المعنى:

وإذا جياد الخيلِ ما طَلَها المدى ... وتقطَّعتْ في شأوها المبهُور[1]

خَلّوا عِناني في الرّهان ومسِّحوا ... مِنّي بغُرَّةِ أبلقٍ مشهورِ[2]

وصف السلاح

درع عليّ:

كانت درعُ عليّ صدراً لا ظهر لها، فقيل له في ذلك؛ فقال: إذا استمكن عدوّي من ظهري فلا يُبْقِ.

ورؤي الجراح بن عبد الله قد ظاهَر بين درعين، فقيل له في ذلك؛ فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري[3].

وآشترى زيد بن حاتم أدراعا وقال: إني لست أشتري أدراعاً وإنما أشتري أعمارا.

وقال حبيب بن المُهلَّب لبنيه: لا يقعدنّ أحدكم في السوق، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين، فإلى زراد، أو سَرَّاج، أو ورَّاق.

---

(١) الشأو: المدى والسبق.

(٢) الأبلق: الذي في لونه سوادٌ وبياض.

(٣) في الأصول «صدري» وما أثبت هنا من عيون الأخبار لابن قتيبة.

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يكرب في الصمصامة:

العتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصَّمصامة، فبعث به إليه، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك، فرّد عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث بالساعد الذي يَضرب به.

وسأله عمر بن الخطاب يوما عن السلاح، فقال: يسألُ أميرُ المؤمنين عما بدا له. قال: ما تقول في التَّرس؟ قال: هو المِجنُّ الدائر، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في الرُّمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف. قال: فالنَّبل؟ قال: منايا تخْطِئُ وتصيب. قال: فما تقول في الدِّرع؟ قال: مُثقِلة للراجل، مُتْعبة للفارس، وإنها لحصنٌ حصين. قال: فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أمَّ لك يا أمير المؤمنين، فضربه عمر بالدّرة وقال: بل لا أمّ لك. قال: الحُمى أضرعتني لك[1].

لابن يامين في الصمصامة:

الهيثم بن عدي قال: وُصِف سيفُ عمرو بن معد يكرب الذي يقال له الصَّمصامة لموسى الهادي، فدعا به فوضع بين يديه مجرَّدا، ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء. فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه، فبدرهم ابن يامين[2] فقال:

حازَ صَمْصامةَ الزُّبَيدِيِّ عَمْرٍو ... من جميع الأنام مُوسى الأمينُ
سَيفَ عمروٍ وكان فيما سمِعْنا ... خَيْرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجفُونُ
أخضر المتنِ بين حَدَّيْهِ نُورٌ ... من فِرِنْدٍ تمتدُّ فيه العُيونُ
أوقدت فَوقَه الصواعقُ ناراً ... ثم ساطتْ به الذُّعافَ القُيونُ[3]
فإذا ما سللْته بَهرَ الشمْسَ ضِياءً فلم تكدْ تسْتَبينُ

(١) أراد أنّ الإسلام قيّده، ولو كنت في الجاهلية لم تكلّمني بهذا الكلام، وهو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع.

(٢) اضطرب هذا الاسم في الأصول: فمرّة «ابن قسي» ومرّة «ابن أقيس» وما أثبتناه هنا من رواية نهاية الأرب وابن خلّكان (٢/٤٠٣) ومروج الذهب (٤/٢٨٦) وديوان المعاني (٢/٥٢).

(٣) شابت: مزجت، والذّعاف: والقيون: جمع قين وهو الحدّاد.

فكـأنّ الفــرنــدَ والرّونــق الجا ريَ في صَفْحَتَيْــــهِ مــــاءٌ مَعينُ
وكــأن المَنــون نيطَــتْ إليـــه فهو مـن كـل جـانِبَيـهِ مَنُـونُ[1]
نِعْمَ مِخْراق ذي الحفيظـة في الهيـــــجـاء يسطـو بـه ونعـم القـريـن
مـا يُبـالي مَـنِ انْتضـاهُ لحربٍ أشَمِـالٌ سَطَــتْ بـــه أم يَمينُ

فأمر له ببدرة وخرجوا .

الزبير بن العوام وسيف:

وضرَبَ الزبيرُ بن العوام يوم الخندق عثمانَ بن عبدالله بن المُغيرة فقطَّه إلى القَرَبُوس؛ فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب ـ يريد أن العمل ليده لا لسيفه ـ وقال:

متى تَلْقني يَعـدو ببَـزِّي مقلَّـصٌ كُمَيْـتٌ بَهيم أو أغَـرُّ مُحَجَّـلُ[2]
تُلاقِ آمـرءً إنْ تَلْقَـهُ فبسَيْفِـهِ تُعَلِّمُـك الأيـامُ مـا كنـتَ تجهـلُ

وقال أبو الشَّيص:

خَتَلَتْـهُ المَنُــونُ بعــدَ اخْتِيــالِ بين صَفَّين مـن قنّــاً ونِصّــالِ[3]
في رِداءٍ مـن الصفيــحِ صَقِيــلٍ وقميـصٍ مـن الحديـدِ مُـذَالِ[4]

لأبي الأغر يوصي ابنه:

وبلغ أبا الأغر التميميّ أنّ أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شرٍ، فوجّه إليهم آبنه الأغرّ وقال: يا بنيّ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم، وإياك والسيف فإنه ظلّ الموت، واتق الرُّمح فإنه رِشاءُ المنيّة[5]، ولا تقرب السهام فإنها رُسل لا تُؤامر مُرْسِلَها . قال: فبماذا أقاتل؟ قال: بما قال الشاعر:

جَلامِيـد يملأْنَ الأكُـفَّ كـأنّهـا رُءُوسُ رجال حُلِّقـتْ بـالمواسِـمِ

---

(١) نيطت: أسندت وخصّت به .

(٢) البزّ: السلاح، والمقلّص من الأفراس: المشمّر المشرق الطويل القوائم، والبهيم: ما لاشية فيه . والأغر: الذي في جبهته بياض، والمحجل: الذي في قوائمه بياض .

(٣) ختلته: غدرته .

(٤) المذال: الذي له ذيل، أي أنّ الدرع كانت فضفاضة . (٥) رشاء المنيّة: حبلها .

وذكر أعرابيّ قوماً تحاربوا فقال: أقبلت الفحول، تمشي مشي الوعول، فلما تصافحوا بالسيوف، فَغرت[1] المنايا أفواهها.

وقال آخر يذكر قوما أُسروا: استنزلوهم عن الجياد بليِّنة الخُرصان[2]، ونزعوهم نَزع الدّلاء بالأشطان[3].

وقال أعرابي في آخرين ابتغَوا قوما أغاروا عليهم، فقال: احتثُّوا كل جُمَاليَّةٍ عَيْرَانَةٍ[4]، كيما يخصفون أخفاف المطيِّ بحوافر الخيل، حتى أدركوهم بعد ثالثة، فجعلوا المرّان أَرْشِيَةَ المنايا فاستَقَوْا بها أرواحَهم.

ومن أحسن ما قيل في السيف قولُ حبيب:

ونَبّهـن مثـلَ السيـف لـو لم تَسُلّـهُ   يَـدانِ لسَلَّتْـهُ ظُبـاهُ مـن الغِمْـدِ

وقال في صفة الرماح:

مُثَقَّفـــاتٌ سَلَبنَ الرومَ زُرْقَتهـــا   والعُرْبَ ألوانَها والعاشِقَ القضَفَـا[5]

ومن الإفراط القبيح قولُ النابغة في وصف السيف:

يَقُدُّ السَّلُوقـيَّ المضـاعَـفَ نَسْجُـهُ   ويوقِدُ في الصّفّاح نارَ الحباحـب[6]

فذكر أنه يقُدّ الدرع المُضاعف نسجه، والفارسَ، والفرسَ، ويقع بها في الأرض فيقدح النار من الحجارة.

وأقبح منه في الإفراط قولُ الآخر:

تظـل تحفِـرُ عنـه إن ضربـتَ بـه   بعدَ الذرّاعين والقيْدَيْـن والهادي[7]

---

(١) فغرت: فتحت.

(٢) الخرصان: القنا، الواحدة: خُرص بضم الخاء وتكسر.

(٣) الأشطان: الحبال.

(٤) الجمّالية: الناقة الوثيقة كالجمل، والعيرانة: الناجية في نشاط.

(٥) القضف: النحافة.

(٦) الحباحب: هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من اصطكاك الحجارة بعضها ببعض.

(٧) الهادي: العنق.

وقد جمع العلويّ وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجوّد حيث يقول:

بِحَسبيَ مِنْ مالي من الخَيْلِ أَعْيَطٌ ... سليمُ الشَّظَى عاري النَّواهِقِ أَمْعَطُ[1]

وأَبيَضُ من ماءِ الحديد مُهَنَّدٌ ... وأسمرُ عسَّالُ الكُعوب عَنَطْنَطُ[2]

وبيضاء كالضَّحضاح زَغْفٌ مُفاضةٌ ... يُكفِّتها عنِّي نجادٌ مُخَطَّطُ[3]

ومَعْطوفةُ الاطْرافِ كَبْداءُ سَمْحةٌ ... مُنَفَّجَةُ الأعضادِ صفراءُ شَوْحَطُ[4]

فيا ليتَ مالي غَيرَ ما قد جمَعْته ... على لُجَّةٍ تَيَّارُها يتَغَطْغَطُ[5]

ويا ليتني أُمْسِي على الدّهْرِ ليْلةً ... وليسَ على نفْسي أميرٌ مُسَلَّطُ

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكلِّ رُدَيْنِيٍّ كأنّ سِنانَهُ ... شِهَابٌ بَدا في ظُلْمةِ اللّيلِ ساطِعُ

تقاصَرتِ الآجالُ في طولِ مَتْنه ... وعادتْ به الآمالُ وهيَ فَجائعُ

وساءَت ظُنونُ الحرْبِ في حُسْنِ ظَنَّه ... فهُنَّ ظُباتٌ للقلوب قوارِعُ[6]

وذي شُطَبٍ تقْضي المنايا بحُكْمه ... وليس لما تَقْضِي المنِيّةُ دافِعُ

فِرِنْدٌ إذا ما اعتنّ للعين راكدٌ ... وبرقٌ إذا ما آهتزّ بالكفِّ لامعُ

يُسَلِّلُ أرواحَ الْكُماةِ آنسلالَهُ ... ويرتاعُ منه الموتُ والموتُ رائعُ

إذا ما التَقَتْ أمثالُهُ في وقِيعَةٍ ... هنالك ظنُّ النفسِ بالنفسِ واقعُ

ومن قولنا في وصف السيف:

---

(١) الأعيط: الطويل العنق، والشنطي: عظم لازق بالركبة أو بالذراع أو بالوطيف. والنواهق: يريد بها الناهقين: وهما عظمان شاخصان من ذي الحافر في مجرى الدمع. والأمعط: الذي لا شعر على جسده.

(٢) العسال: الرمح الشديد الاهتزاز والعنطنط: الطويل.

(٣) البيضاء: يريد بها الدرع، والضحضاح: الماء اليسير ويكفّتها عنّي: يريد أن زوائد هذه الدرع تلتصق بنجاد سيفه فلا تعوق حركته.

(٤) الكبداء: القوس بملأ الكفّ مقبضها، والسمحة: الواتية والشوحط: شجرٌ تتخذ منه القسيّ.

(٥) يتغطغط: أي يضطرب.

(٦) الظّبا: الحدّ في السيف وغيره.

بكلِّ مأثور على مَتْنِه　　مِثْلُ مَدَب النَّمْل بالقاعِ
يرتدّ طرْفُ العَيْنِ من حَدّه　　عن كَوْكَبٍ لِلمَوْت لَمّاعِ

وقال إسحاق بن خلف البَهْراني في صفة السيف:

أَلقَى بجانِب خَصْرِهِ　　أمْضي مِن الأجَلِ المتاح
وكأنما ذَرَّ الْهبا　　عليهِ أنْفاسُ الرِّياح[1]

ومن جيد صفات السيف قول الغَنَوي:

حُسامٌ غداة الرَّوع ماضٍ كأنّه　　من الله في قبض النفوس رسولُ
كأنّ على إفرنده موج لُجّةٍ　　تَقاصَرُ في ضحضاحه وتطول
كأنّ جُيوش الذَّرّ كَسَّرْنَ فوقه　　قرون جرادٍ بينهن ذُحول[2]

النزع بالقوس

إبراهيم الشيباني قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل لسلطان أنه يعْرِض له ضَيعة بواسطَ في مَغْرم لزمه للخليفة؛ فحمل وكيلا له على بغل وأترع[3] له خُرجاً بدنانير، وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر لي هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك ما في هذا الخرج وإلا فاكتب إلى أُمدّك بالمال. فخرج، فلما أصحر عن البيوت، لحق به أعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة؛ فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك في الصُّحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فَوّزا، فعنت لهما ظباء، فقال له الأعرابي: أيُّ هذه الظباء أحبُّ إليك: المتقدم منها أم المتأخر فأزكِّيَه[4] لك؟ قال له: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم، فاشْتَوَيا وأكلا، فاغتبط الرجل بصحبة الأعرابي، ثم عنّ له زُفّة قطا، فقال: أيها تريد فأصرعَها لك؟

(١) الهباء: الشيء المنبث الذي تراه في الكوى من ضوء الشمس شبيهاً بالغبار.
(٢) الذحول: جمع ذحل: وهو الثأر.
(٣) أترع: ملأ.
(٤) فأزكيه: أي أرميه بالسهم فأجعله مزكّى يحلّ أكله.

فأشار إلى واحدة منها فرماها فأقْصَدَها، ثم اشتويا وأكلا، فلما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابي سهماً ثم قال له: أين تريد أن أُصيبك؟ فقال له: اتق الله وآحفظ زمام الصحبة. قال: لا بد منه! قال له: آتق الله ربك واستَبْقِني، ودونك البغل والخرج فإنه مُترعٌ مالا. قال: فاخلع ثيابك. فآنسلخ من ثيابه ثوباً ثوبا حتى بقي مجرَّداً. قال له: اخلع أمواقك(١). وكان لابساً خُفَّيْن طائفيَّين، فقال له: اتق الله فيّ ودع لي الخفين أتبلّغ بهما من الحرّ، فإن الرّمضاء تحرق قدميّ. قال: لا بدّ منه. قال فدونك الخُف فآخلعه. فلما تناول الخفَّ، ذكر الرجل خنجراً كان معه في الخف، فآستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته، وقال له: الاستقصاء فرقة. فذهبت مثلا. وكان هذا الأعرابي من رُماة الحَدَق(٢).

بين لص ورام:

وحدّث العتبي عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والى اليمامة، فأُتي بأعرابي كان معروفا بالسَرَق فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك. قال: عجائبي كثيرة، ومن أعجبها أنه كان لي بعير لا يُسْبَق، وكانت لي خيل لا تُلْحَق، فكنت أخرج فلا أرجع خائباً، فخرجت يوماً فاحترشتُ(٣) ضباً، فعلّقته على قَتَبي، ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها، فقلت: يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل. فلما أمسيتُ إذا بإبل مائة، وإذا شيخ عظيم البطن، شثْن الكفين(٤)، ومعه عبد أسود، فلما رآني رحب بي، ثم قام إلى ناقة فآحتلبها، وناولني العُلْبة. فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقي فضرب به جبهته، ثم احتلب تسع أينُق فشرب ألبانهن، ثم نحر حُوارا(٥) فطبخه، فأكلت شيئا، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضا، وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غَطَّ غطيط البَكْر. فقلت:

---

(١) الأمواق: جمع موق، وهو خفٌّ غليظ يلبس فوق الخفّ.

(٢) رماة الحدق: أي المهرة الحاذقين في الرميّ.

(٣) احترشت: اصطدت. (٤) شثن الكفّين: غليظها.

(٥) الحوار: ولد الناقة، من وقت ولادته إلى وقت فطامه.

هذه والله الغنيمة، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمتُه[1]: ثم قرنته ببعيري وصحت به، فاتّبعني الفحل واتّبَعته الأبل إرْباباً به في قطار[2]، فصارت خلفي كأنها حبل ممدود؛ فمضيت أبادر ثنيّة بيني وبينها مسيرة ليلة للمُسْرِع، ولم أزل أضرب بعيري، مرة بيدي، ومرة برجلي، حتى طلع الفجر؛ فأبصرت الثنية، وإذا عليها سواد، فلما دَنَوْت منه إذا الشيخ قاعد وقوسُه في حِجره! فقال: أضيْفَنا؟ قلت: نعم! قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهمّا كأنه لسان كلب، ثم قال: انظره بين أذني الضبِّ المعلّقِ في القَتَب. ثم رماه فصدع عظمَه عن دماغه، فقال لي: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول. قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى، ثم رمى به فكأنما قدّره بيده ثم وضعه بأصبعه، ثم قال: رأيَك؟ فقلت: إني أحب أن أستثبت. قال: آنظر هذا السهم الثالث في عُكْوة ذنَبه، والرابع والله في بطنك. ثم رماه فلم يخطيء العُكوة؛ قلت: أنزلُ آمنا؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك لم تذهب منها وبرة. وأنا أنظر متى يرميني بسهم يُقْصِد به قلبي؛ فلما تباعدت قال: أقبل! فأقبلت والله فَرَقا من شره لا طمعاً في خيره. فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة! قلت نعم. قال: فاقرُن من هذه الإبل بعيرين وامض لِطيَّتِك. قال: قلت: أما والله لا أمضي حتى أخبرَك عن نفسك؛ فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشدّ ضِرساً، ولا أعْدَى رِجلا، ولا أرْمَى يداً، ولا أكرمَ عَفْوا، ولا أسْخَى نفساً، منك. فصرف وجهه عني حياءً وقال: خذ الإبل برمتها مباركا لك فيها.

للنبي ﷺ في الرمي:

وقال النبي ﷺ: «اركبواوآرموا؛ وأنْ ترْموا أحبُّ إليّ من أن تركبوا».

وقال: «كل لَهْوِ المؤمن باطِلٌ إلا في ثلاث: تأديبه فرسَه ورمْيه عن كَبد قوسِه، وملاعَبَتِه امرأتَه؛ فإنه حق. إن الله ليُدْخِلُ الجنةَ بالسهم الواحد عامله المحتَسِب،

---

(١) خطمته: علّقته.

(٢) القطار: القافلة، والإرباب: الملازمة.

والقويّ به في سبيل الله، أي والرامي به في سبيل الله ».

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: ﴿وأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1]. ألا إنّ القوة الرمي. ألا إنّ القوةَ الرمي. ألا إنّ القوة الرمْي.

وكان أرمى أصحابِ رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص؛ لأن رسول الله ﷺ دعا له فقال: اللهم سدّد رمْيَته، وأجِبْ دَعوَتَه. فكان لا يُردّ له دعاء، ولا يخيب له سهم.

النبي ﷺ ورماة من أسلم:

وذكر أسامة بن زيد: أنّ شيوخا من أَسْلَمَ حدّثوه، أنّ رسول الله ﷺ جاءهم وهم يرمون ببُطْحان، فقال رسول الله ﷺ: ارمُوا يا بني إسمعيل، فقد كان أبوكم راميا، وأنا مع ابن الأدرع. فتعدّى القوم فقالوا: يا رسول الله، مَن كنت معه فقد نَضَلَ[2]. قال رسول الله ﷺ: أرموا وأنا معكم كلكم.فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء؛ ليس لأحد على أحد منهم فضل.

لعمر بن الخطاب:

وقال عمر: ائتزروا وارتدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارمُوا الأغراض، والقوْا الرُّكُب، وانْزُوا على الخيل نَزْواً[3]، وعليكم بالمَعَدِّيّة - أو قال: بالعربية - ودَعُوا التنعُّم وزِيّ العجم.

وقال أيضا: لنْ تخور قواكم ما نَزَوْتُم ونَزَعْتُمْ. يعني نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسيّ.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(٢) نضل: غلب في المناضلة، وهي المراماة.

(٣) انزوا: اقفزوا وثبوا.

لرجل من البادية يذمر قومه:

وجنى قوم من أهل اليمامة[1] جناية، فأرسل السلطانُ إليهم جُنداً من محاربة بن زياد. فقام رجل من أهل البادية يُذَمِّر أصحابه فقال: يا معشر العرب، ويا بني المُحصنات، قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم؛ فوالله لئن ظهر هؤلاء عليكم لا يدَعون بها لَبِنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض، وَلَآعْتَراكم من نُشَّاب معهم في جعاب كأنها أُيور الفِيَلة ينزعون في قِسِيٍ كأنها الغُبط[2]، تئطّ[3] إحداهن أطيط الزَّرْنُوق[4]، يَمَعط[5] أحدهم فيها حتى يتفرّق شعر إبْطَيْه، ثم يرسل نُشَّابة كأنها رِشاء منقطع، فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينهُ أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبَهم فطاروا رُعبا.

مشاروة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهديُّ ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدّم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيعتهم، ونقضوا موثقهم، وطردوا العُمال، والتوَوْا بما عليهم من الخراج. وحمل المهديَّ ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عنَتهم على أن أقال عثرتهم[6]، واغتفر زَلَّتهم، واحتمل دالَّتهم؛ تطوُّلاً بالفضل، واتساعا بالعفو، وأخذاً بالحُجة، ورفقاً بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مذ حمَّله اللهُ أعباء الخلافة، وقلّده أمور

(١) كذا في بعض الأصول وعيون الأخبار، والذي في سائر الأصول: «المدينة».

(٢) الغبط: جمع غبيط، وهو الرحل الذي قتبه وأحناؤه واحدة.

(٣) تئط: تصوّت.

(٤) الزرنوق: واحد الزرنوقين، وهما منارتان تبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع خشبة تعرض عليهما ثم تعلّق فيها بكره فيستقى بها.

(٥) يمعط: معط الرامي في قوسه: أغرق في مدّها.

(٦) أقال عثرتهم: أصلحها واغتفرها.

الرعية، رفيقاً بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطا للمعدلة في رعّيته؛ تسكُن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه؛ فإذا وقعت الأَقضية اللازمة، والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاءٌ ولا مُداهنة[1]؛ أَثرةً للحق، وقياما بالعدل، وأخذاً بالحزم. فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه، والثقةُ بعفوه، أن كسروا الخراج، وطردوا العمال، وسألوا ما ليس لهم من الحق؛ ثم خلطوا آحتجاجا باعتذار، وخصومةً بإقرار، وتنصّلا باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي، خرج إلى مجلس خُلأَئه، وبعث إلى نفر من لُحْمَتِه ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية؛ ثم أمر الموالي بالابتداء؛ وقال للعباس بن محمد: أيْ عَمِ، تَعَقَّبْ قولَنا، وكُن حكما بيننا. وارسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر، وشاركهما في الرأي. وأمر محمد ابن الليث بحفظ مُراجَعَتِهم وإثبات مقالتهم في كتاب.

فقال سلاّم صاحب دار المظالم: أيها المهدي، إن في كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة، آستفرغت رأيَهم، واستغرقت أشغالَهم، واستنفدت أعمارَهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعُرفت بهم؛ ولهذه الأمور التي جعلَتَنا فيها غايةً وطلبْت معونتنا عليها: أقوامٌ من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفُرسان الهَزاهز[2]، وإخوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رَشَحَتْهُمْ سِجَالُها، وفيَّأتهم ظلالُها، وعضَّتهم شدائدُها، وقرمتهم نواجذها[3]؛ فلو عَجَمْتَ ما قِبَلَهُم، وكشفت ما عندهم، لوجدتَ نظائرَ تؤيِّد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديثَ تقوّي قلبَك. فأما نحن معاشرَ عُمّالك، وأصحاب دواوينك، فَحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منّا أن نقوم بثقل ما حمّلتنا من عَملك، واستودعتَنا من أمانتك، وشغَلْتنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبير يُبطل الآخِرُ الأوّل؛ ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

---

(١) المداهنة: المحاباة والتزلّف.

(٢) الهزاهز: الفتن والحروب. (٣) النواجذ: أواخر الأضراس في الفم.

قال: نعم أيها المهدي، أنت متسع الرأي، وثيق العقدة قوي المُنّة[١]، بليغ الفطنة، معصوم النية، محضور الرّويّة، مؤيّد البديهة، موفّق العزيمة، مُعان بالظفر، مَهْدِيٌّ إلى الخير؛ إن هممت ففي عزمك مواقع الظنّ، وإن أجمعت صدع فعلُك ملتبسَ الشك، فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبَك، وقُلْ يُنْطِق الله بالحق لسانَك، فإن جنودك جمة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.

فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومِفتاحا بركة، لا يَهلك عليهما رأي، ولا يتفيَّل[٢] معهما حزم؛ فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضُرُكم؛ فإني من ورائكم، وتوفيقُ الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي، إنّ تصاريف وجوه الرأي كثيرة، وإن الإشارة ببعض معاريض القول[٣] يسيرة؛ ولكنّ خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشُّقة، متفاوتة السُّبُل، فإذا ارتأيتَ من محكم التَّدبير، ومُبْرَم التقدير، ولباب الصواب. رأيا قد أحكمه نظرك، وقلّبه تدبيرُك، فليس وراءه مذهب لحجة طاعن، ولا دونه مُتَعَلق لخصومة عائب، ثم خَبّت[٤] البرُدُ به، وانطوت الرسلُ عليه. كان بالحَرَى ألاّ يصل إليهم مُحْكَمُهُ إلا وقد حدث منهم ما ينقضه؛ فما أيسرَ أن ترجع إليك الرسل وترِد عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم؛ فتحدث رأياً غيره، وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحَلَق[٥]، وتحلّلت العُقد، وآسترخى الحقاب[٦]، وامتد الزمان. ثم لعلّما مَوْقِعُ الآخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك أيها المهدي وفّقك الله، أن تصرف إجالة النظر، وتقليب الفكر فيما جمعتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحِيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل ذي دين

---

(١) المنّة: القوّة.

(٢) لا يتفيّل: لا يضعف.

(٣) معاريض القول: ما عرض به ولم يصرح، وهي التورية عن الشيء بالشيء.

(٤) خبّت البرد: أسرعت، والبرد: جمع بريد، وهو الرسول.

(٥) الحلق: جمع حلقه.

(٦) الحقاب: شيء تعلّق به المرأة الحليّ وتشده في وسطها.

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثَرة عليك، ولا ظنينا على دُخلة مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محذورة، فيقدحَ في ملكك، ويربِّض الأمور لغيرك، ثم تُسند إليه أمورَهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلافِ نهيك إذا خالفه الرأي، عند استحالة الأمور واستدارة الأحوال التي يُنْقَصُ أمرُ الغائب عنها، ويَثْبُت رأيُ الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فواثَب أمْرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقَويت المكيدة، ونَفذ العمل، وأحد النظر إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن وليَّ الأمور، وسائس الحروب، ربما نحّى جنودَه، وفرّق أموالهُ، في غير ما ضِيق أمرٍ حَزبه. ولا ضغطِة حال اضطرّتْه، فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها، فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعُدّة، ولا يفزع إلى ثِقة. فالرأي لك أيها المهدي وفقك الله، أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودَك من مُكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار وتغرير القتال. ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسُد عليك أدبهم، وتُجَرِّيء من رعيتك غيرهم؛ ولكن اغْزُهُم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق[1]، وأَبْرق لهم بالقول، وأرعِد نحوهم بالفِعل، وابعث البُعوث، وجند الجنود وكَتِّب الكتائب، واَعْقِد الألوية، واَنصُب الرايات، وأظهر أنك موجِّهٌ إليهم الجيوش مع أحنق[2] قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم، ثم ادْسُس الرسل، وابثُث الكتب، وضَع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك، وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم، واَغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتَنطوي الصدور على البغضة، ويدخل كلاًّ من كلٍّ الحذرُ والهيبة؛ فإن مَرَام الظفر بالغِيلة، والقتالَ بالحيلة، والمُناصبة بالكتب، والمكايدة بالرسل، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي المَوقع من النفوس، المعقود بالحُجج، الموصول بالحِيل، المبنيّ على اللِّين، الذي

---

(١) خاتلهم: خادعهم.
(٢) احنق: أي أشدّهم حنقاً وغضباً.

يستميل القلوب، ويَسْتَرِقُّ العقول، ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة[١] ـ أنْفَذُ من القتال بظُبات السيوف وأسنة الرماح: كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيّته بالحيل، ويُفرّق كلمة عدوه بالمكايدة، أحكمُ عملا وألطف نظراً وأحسن سياسة من الذي لا يَنال ذلك إلا بالقتال، والإتلاف للأموال، والتغرير والخِطار.

وليعلم المهدي ـ وفقه الله ـ أنه إن وجه لقتالهم رجلاً، لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج على حال شديدة، وتُقدم على أسفار ضيقة، وأهوال متفرّقة، وقواد غَشَشَة[٢]، إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون، وتجسد حقه في القلوب، ولكنْ فوق كلّ ذي علم عليم.

ثم نظر إلى ابنه عليّ فقال: ما تقول؟

قال علي: أيها المهدي، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا مِن دونك أحداً يكدح في تغيير ملكك، ويربِّض[٣] الأمور لفساد دولتك؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحالُ أدَل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذله، وعند موعده الذي لا يُخلِفه: ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفةٌ من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً، طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً؛ فإن أجبتَ إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحَم منهم حال، أو يحدثَ مِن عندهم فَتق، أطعتَ أمر الرب، وأطفأتَ نائرة الحرب[٤]، ووفّرت خزائنَ المال، وطرحت تغرير[٥] القتال؛ وحَمَل الناسُ مَحْملَ ذلك على طبيعة جُودك وسجيّة حِلْمك، وإسجاح خليقتك[٦]، ومعدلة نظرك؛ فأمنت أن تُنْسب إلى ضعفة، وأن يكون ذلك لهم فيما بقي دُربة. وإن مَنَعْتَهم ما طلبوا، ولم تُجبهم إلى ما سألوا،

(١) المواتاة: الموافقة.
(٢) قوّاد غششة: أي لا أمانة لهم.
(٣) يربّض: يثبّت.
(٤) نائره الحرب: أي المتقد منها.
(٥) تغرير القتال: هلاكه.
(٦) إسجاح خليقتك: حسنها وعفوها.

اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتَهم في ميدان الخطاب. فما أَرَبُ المهدي أن يَعمد إلى طائفة من رعيته: مُقرّين بمملكته، مُذعِنين لطاعته، لا يُخرجون أنفسهم عن قُدرته، ولا يُبرئونها من عبوديّته، فيُمَلّكهم أنفسهم، ويخلعَ نفسه عنهم، ويقفَ على الجدل معهم، ثم يجازيَهم السوء في جد المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي ـ وفقه الله ـ الأموال؟ فلعمري لا ينالها ولا يَظفَر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعافِ ما يَدَّعي قِبَلهم؛ ولو نالها فحملِتْ إليه، أو وُضِعَتْ بخرائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان مما إليه يُنْسَب وبه يُعْرَف، من الجود الذي طَبعه الله عليه، وجَعَل قُرّةَ عينه ونهمَةَ نفسه فيه. فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخَراج الذين شكوْا ظلمَ عُمَّالنا وتحامُلَ وُلاتنا، فأما الجنودُ الذين نقضوا مواثيقَ العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف[1]، وفتحوا بابَ المعصية، وكسروا قيْد الفتنة؛ فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم؛ وعِظَةً لسواهم. فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مُقَرَّنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوُه، ولإقالة عثرتِهم صفْحُه، واستبقاهم لما هُم فيه من حَرْبه، أو لمن بإزائهم من عدوّه، لما كان بدْعاً من رأيه، ولا مستنكراً من نظره. لقد علمَت العربُ أنه أعظمُ الخلفاء والملوك عفواً، وأشدُّها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاظمه عفو، ولا يتكاءدُه[2] صفح، وإن عَظُمَ الذنبُ وجلّ الخطب. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله تعالى ـ أن يَحُل عقدةَ الغيْظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم وضَيعة عِيالاتهم، برّاً بهم، وتوسّعاً لهم، فإنهم إخوان دولته، وأركانُ دعوته، وأساسُ حقه، الذين بعِزتهم يصُول، وبحجتهم يقول. وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَساخطِه، وتَعَرَّضوا له من معاصيه، وانطوَوْا فيه عن إجابته؛ ومَثَلهُ في قلة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم، أو نَقَل من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهم ـ كمثل رجلين أخَوَين متناصرَيْن متوازرين، أصاب أحدَهما خَبَلٌ عارض[3]، ولهو حادث، فنهض

---

(١) الإرجاف: الخوض في أخبار الفتن لإيقاع الاضطراب في الناس. (٢) يتكاءده: يشق عليه.

(٣) الخبل العارض: الفساد في الرأي والعقل.

إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه؛ فلم يزدد أخوه إلا رقّة له، ولُطفاً به، واحتيالاً لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبرّاً به، ومَرْحمةً له.

فقال المهدي: أما عليّ فقد نوى اللّيان، وفضّ القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تَسيل من خَلل فِعلهم. والحال من القوم تنادي بمُضمرةِ شرّ، وخَفيَّة حقْد، قد جعلوا المعاذير عليها ستراً، واتخذوا العلل من دونها حِجاباً، رجاءَ أن يدافعوا الأيامَ بالتأخير، والأمورَ بالتطويل، فيكسروا حِيَل المهدي فيهم، ويَثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرُهم، وتتلاحق مادّتهم، وتستفحل حربُهم، وتستمرّ الأمورُ بهم؛ والمهديّ من قوتهم في حال غِرَة[1]! ولباس أمنَة، قد فتر[2] لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا ما اجتمعت له قلوبهم، وبَردت عليه جلودهم، من المناصبة بالقتال، والإضمار للقِراع، عن داعية ضلال أو شيطان فساد، لرهبوا عواقبَ أحوال الولاة، وغِبَّ سكون الأمور. فليشددْ المهدي ـ وفقه الله ـ أزرَه لهم، ويكتِّبْ كتائبه نحوهم، وليضع الأمر على أشدّ ما يحضره فيهم، وليوقِن أنه لا يُعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُربة لفسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعيةً إلى عودتهم، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود الذين إن أقرّهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح في فَتقٍ حادث، وخلاف حاضر، لا يصلُح عليه دين، ولا تسنقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدَّربة، لم يصل إلى ذلك بالعقوبة المفرِطة، والمئونة الشديدة. والرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ ألاّ يقيل عثرتَهم، ولا يقبل معذرَتَهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذَهم السيوف. ويستحرّ[3] بهم القتل، ويُحدِق بهم الموت، ويُحيط بهم البلاء، ويُطبق عليهم الذل.

---

(١) الغرّة: الغفلة. (٢) فتر: ضعف.

(٣) يستحرّ: يشتدّ ويكثر.

فإن فعل المهديّ بهم ذلك كان مقطعةً لكل عادةِ سوءٍ فيهم، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزواتٍ كثيرة، ونفقاتٍ عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي، أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدّوا أموراً قَصَّر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُنفَق، والجنود ألا تفرّق، وبأن لا يُعْطَى القومُ ما طَلبوا، ولا يُبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك، آستصغاراً لأمرهم وآستهانة بحربهم، وإنما يَهِيجُ جسيماتِ الأمورِ صغارُها.

وأما عليٌّ فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جَرّد الوالي لمن غَمط[1] أمرَه وسَفِه حقَّه، اللينَ بَحتا، والخيرَ مَحضا، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوبَ على لينه، ولا بشرٍ يَحيشهم[2] إلى خيره؛ فقد مَلّكهم الخلعَ لِعُذْرهم[3] ووسّع لهم الفُرْجة لِثَنْي أعناقهم، فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرهم، ولا شدةٍ حالٍ أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم، ونَزوةً في رءوسهم، يستدعون بها البلاءَ إلى أنفسهم؛ ويصرفون بها رأيَ المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويُسرعوا لإجابته باللِّين المحض والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنُّ بهم، والرأيُ فيهم، وما قد يُشبه أن يكون من مِثْلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر، ولا تُدركه الفِكَر، ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها؛ فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدّةٍ لا لينَ فيها، وأن يُرْمَوا بشرٍّ لا خَيْرَ معه.

---

(١) غمط: جحد وأنكر. (٢) يحيشهم: يجعلهم يفزعون.

(٣) العذر: بضمتين جمع عذار، وهو من اللجام ما سال على خدِّ الفرس.

وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعتَه وخالف جماعته، الخوفَ مفرداً والشرَّ مجرداً، ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يَثْنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلَهم الحميّةُ من الشدة، والأنفةُ من الذلّة، والامتعاضُ[1] من القَهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلافِ، والاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكُرْه، ويُذعنوا بالقَهْر، على بغْضَة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق، وتُعْقِب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قَويت لهم حال، عاد أمرُهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدَّ مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكْفَى دليل، وأوضحُ برهان، وأَبْيَنُ خبرٍ بان. قد اجتمع رأيه، وحَزُم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأي.

قال هارون: خلطتَ الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمرَّ فطامٍ لما تكره، وعاد اللين أهدى قائدٍ إلى ما تُحب؛ ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلتَ قولاً بديعاً، وخالفت به أهلَ بيتك جميعاً، والمرء مُتَّهم بما قال، وظنين بما ٱدَّعَى، حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة، فاخْرُج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خُدعة، والأعاجم قومٌ مَكَرة، وربما اعتدلت الحالُ بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يُسِرُّون على ظاهر ما يعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلبُ على مَحجوبةٍ تُبْطَن، واستسرّ بمدخولةٍ لا تُعْلَن؛ والطبيب الرفيق بطِبِّه، البصيرُ بأمره، العالم بمقدَّم يده، وموضع ميسمِه[2]، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء؛ فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يَفِرّ[3] باطنَ أمرهم فَرَّ المُسِنَّة، ويمخض ظاهرَ حالهم

(١) الامتعاض: الشعور بالكره والألم.

(٢) الميسم: المكواة. (٣) يفرّ: يختبر.

مَحْضَ السّقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاة العيون، حتى تهتَك حُجُبُ غُيوبهم، وتُكْشَفَ أغطيةُ أمورهم؛ فإن آنفرجت الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعيةِ ضلال، آشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدِين يعتقدونه. وإثم يستحلّونه، عَصَبَهم بشدَّة[(١)]. لا لينَ فيها، ورماهم بعقوبة لا عفوَ معها، وإن انفرجت الغيوب، واهتُصرت السُّتور، ورُفعت الحجب، والحالُ فيهم مَرِيعة[(٢)]، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال يُنكرونها، وظُلامات يّدعونها، وحقوق يسألونها، بماتَّةِ سابقتهم، ودالَّةِ مناصحتهم. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يتسع لهم بما طلبوا، ويَتجافى لهم عما كرهوا، ويَشْعبَ[(٣)] من أمرهم ما صَدَعوا، ويرتق من فَتْقهم ما فتقوا؛ ويولِّي عليهم من أَحَبُّوا، ويُداوي بذلك مَرَضَ قلوبهم، وفسادَ أمورِهم؛ فإنما المهدي وأمتَه وسوادَ أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعي الحَدب، الذي يحتال لمرابِض غنمه، وضوالِّ رعيته، حتى يبرىء المريضةَ من داءِ علتها، ويرد الضالّة إلى أُنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصةٍ لهم ذالّة محمولة، وماتّة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوقٌ واجبة؛ لأنهم أيدي دولته، وسيوفُ دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله. فليس من شأن المهدي الآضطغانُ عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعُّر بهم[(٤)]، ولا المكافأة بإساءتهم؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى، ومحاولةَ قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ، أحزمُ في الرأي وأصحُّ في التدبير، من التأخير لها والتهاون بها، حتى يلتئم قليلُها بكثيرها، وتجتمعَ أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وَقْع الحيا، حتى خرج خروج القِدْح مما قال، وانسلّ انسلال السيف فيما ادعى، فدعوا ما قد سَبَق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنّى بعده هارون، ولكن مَن لأعِنَّة الخيل، وسياسةِ الحرب، وقيادة الناس، إن أمعن بهم اللجاج، وأفرطت بهم الدالّة؟[(٥)]

---

(١) عصبهم بشدّة: أخذهم بالحزم.

(٢) مريعة: أي موفورة الرزق والخيرات.

(٣) يشعب: يصلح ويسوّي. (٤) التوعُّر: التشدّد. (٥) الدّالّة: الجرأة.

قال صالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك، وبعضَ لحظات نظرك؛ وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم، ذو دين فاضل ورأي كامل، وتدبير قويّ، تُقلّده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة، سبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم؛ فليس يقع آختيارُك ولا يقف نظرك على أحد تولّيه أمرك وتُسند إليه ثَغرَك إلا أراك الله ما تُحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك. لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أُحب الموافقة على الرأي، والآعتبار للمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهلُ خراسان ـ أيها المهدي ـ قوم ذوو عزة ومَنَعة، وشياطينُ خَدَعَة زُرع الحميةِ فيهم نابتة، وملابسُ الأنفة عليهم ظاهرة، فالرَّوِيَّة عنهم عازبة[1]، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرَهم، وسيوفُهم عَذَلَهم، لأنهم بين سِفْلة لا يعدو مبلغُ عقولهم منظرَ عيونهم، وبين رؤساء لا يُلْجمون إلا بشدّة ولا يُفْطمون إلا بالقهر؛ وإن ولّى المهدي عليهم وضيعالم تَنْقَد له العظماء، وإن ولّى أمْرَهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن أخَّر المهديّ أمرَهم ودافَعَ حَرْبَهم حتى يُصيب لنفسه من حشمه ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقةً تجتمع له أملاؤهم[2]، بلا أنفة تَلزمهم، ولا حميّة تَدْخلهم، ولا عَصبية تُنفّرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحالُ بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبر والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصفة وإن جدّ ولا يَستَصلِحُه وإن جَهَد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي ـ وفقه الله ـ فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صَفَاتَهم[3] بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عِدْلَ في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بسَمعك،

---

(١) عازبة: مبتعدة ومفارقة وغائبة.

(٢) أملاؤهم: جماعاتهم، الواحد ملأ.

(٣) صفاتهم: صخورهم، والصفاة: الصخرة الملساء.

ويدٌ ممثّلة لعينك، وصخرة لا تُزَعْزَع، وبُهْمَة لا ينثني، وبازِلٌ لا يُفزِعه صوتُ الجُلجل[٢]، نقيّ العِرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمّته، فجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْباً، والغرض الأدنى لقدَمه موطئاً، فليس يُغفل عملاً، ولا يتعدّى أملاً وهو رأس مواليك، وأنصحُ بني أبيك رجلٌ قد غُذِّي بلطيف كرامتك، ونَبت في ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك؛ فإن قلدته أمرهم، وحمّلته ثِقلهم، وأسندت إليه ثغرهم: كان قُفْلاً فَتحه أمْرُك، وباباً أغْلَقَهُ نهْيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصافَ بينه وبينهم حاكماً. وإذا حكَم النصفة وسلَك المَعدلة فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس لك في الذي بين صدورهم، وأسكن لك في السُّويداء داخل قلوبهم طاعةً راسخَةَ العروق، باسقة الفروع، مُتمثّلة في حواشي عوامِّهم، متمكنّة من قلوب خواصهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نَفَوْه، ولا يلزمهم حق إلا أَدَّوْه، وهذا أحدهما.

والآخر عُود من غَيْضتك، ونَبعة[٣] من أرومتك، فتيّ السنّ، كهل الحلم، راجح العقل، محمود الصّرامة، مأمون الخلاف، يُجرِّد فيهم سيفَه، ويبسط عليهم خيرَه بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون، وهو فلان أيها المهدي، فسلِّطه ـ أعزك الله ـ عليهم، ووجِّهه بالجيوش إليهم، ولا تمنعك ضراعة سنّه[٤] وحداثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشك والجهل مع الكُهولة؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طَبعكم الله عليه وآختصّكم به من مكارم الأخلاق، ومحَامد الفِعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصَرامة الأنفس، كفراخ عِتاقِ الطير[٥] المُحْكِمةِ لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم

---

(١) البُهمة: الصخرة الصلبة.

(٢) البازل: الجمل في السنة التاسعة ويطلق على الرجل الكامل في تجربته. والجلجل: واحدة الجلاجل تعلّق على الدابة.

(٣) نبعة من أرومتك: أصلٌ من أصولك.

(٤) ضراعة سنّه: حداثته وشبابه. (٥) عتاق الطير: كرامها.

والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مَزروع في قلوبكم، مستحكم لكم، متكامل عندكم، بطبائع لازمة، وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاءُ[1] أهلِ بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذُكر، وأهلُ خراسان في حال عِزٍّ على ما وصف. ولكنْ إن ولّى المهديُّ عليهم رجلاً ليس بقديم الذّكر في الجنود، ولا بنَبيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء، دخل من ذلك أمران عظيمان، وخَطران مَهولان: أحدهما أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترءون بها عليه في النُّهوض به والمُقارعة له والخلاف عليه، قبل الآختبار لأمره، والتكشُّفِ لحاله، والعِلْم بطباعه. والأمر الآخر أن الجنود التي يقول، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأسَ والنجدة، ولم يعرفوه بالصَّوت والهيبة؛ انكسرت شجاعتُهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين آختبارهم ووقوع معرفتهم. وربما وقع البَوار قبل الآختبار. وبباب المهدي - وفقه الله - رجلٌ مَهيب نبيهٌ حَيكٌ صَيِّتٌ[2]، له نسب زاكٍ وصوتٌ عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألف أهلَ خُراسان وآجتمعوا عليه بالمقَة[3]، ووَثِقوا به كل الثِّقة، فلو ولاّه المهدي أمرَهم لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبتَ قصد الرَّمِيَّة، وأبيتَ إلا عَصبية، إذ رأيُ الحَدَثِ من أهل بيتنا كرأي عشرة حُلماء من غيرنا، ولكن أين تركتم ولي العهد؟

قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيهَ جدِّه، ونسيجَ وحده، ومن الدين وأهله بحيث يقصُر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حَجَب عن خَلْقه، وستَر من دون عِباده، عِلْم ما تختلف به الأيام، ومعرفةَ ما تجري به المقادير، من حوادث الأمور وريب المنون، المخترِمَةِ لخوالي القرون ومواضي الملوك؛ فكرِهنا

---

(١) أفتاء: جمع فتي. (٢) صيّت: معروف ومشهور.
(٣) المقة: المحبّة.

شُسُوعه[1] عن محلةِ المُلْك، ودار السلطان، ومقرّ الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومُستقرّ الجنود، وموضع الوُجوه، ومجمع الأموال التي جعلها الله قُطباً لمدار الملك، ومِصْيَدَةً لقلوب الناس، ومَثابة لإخوان الطمع، وثُوّار الفِتَن، ودواعي البدَع، وفرسان الضلال، وأبناء المُروق؛ وقلنا: إن وجّه المهدي وليّ عهْدِه فحدَثَ في جيوشه وجنودِه ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يُعْقِبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه؛ وهذا خطر عظيم، وهَوْل شديد؛ وإن تنفّست الأيام بمَقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عَرَض لا يستغني فيه، أو يحدث أمرٌ لا بد فيه منه، صار ما بعده مما هو أعظمُ هَوْلاً وأجل خطراً. له تَبَعاً وبه مُتَّصلاً.

قال المهدي: الخطبُ أيسر مما تذهبون إليه؛ وعلى غير ما تصفون الأمر عليه، نحن أهلَ البيت. نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابقٍ من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكُتب، وتتابعت عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره[2] عندنا، فبِهِ نُدبِّر، وعلى الله نتوكل: إنه لا بدّ لوليّ عهدي ـ ووليُّ عهدي عقبي بعدي ـ أن يقود إلى خُراسان البعوث، ويتوجّه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يُقدِّم إليهم رُسُله، ويُعْمِل فيهم حِيَله، ثم يخرج نَشِطاً إليهم، حَنِقاً عليهم، يريد ألاّ يدع أحداً من إخوان الفتن، ودواعي البِدَع، وفُرسان الضلال، إلا توطّأه بحرِّ القتل، وألبسه قناع القهر، وطوّقَه طوقَ الذُّل. ولا أحداً من الذين عملوا في قَصّ جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرةُ ولاة الحق، إلا أجرى عليهم دِيَمَ فضلِهِ، وجداولَ بَذْله، فإذا خرج مُزْمعاً به مُجمعاً عليه؛ لم يَسِر إلا قليلاً حتى يأتيه أنْ قد عَمِلتْ حِيَله؛ وكدحت كتُبه؛ ونفذت مكايده؛ فهدأت نافرةُ القلوب، ووقعت طائرة الأهواء[3]، وآجتمع عليه المختلفون بالرضا؛ فيميل نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطّفاً عليهم، إلى عدُوّ قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حُجّاجَهم بيتَ الله

(١) شسوعهُ: بعدهُ. (٢) حذافيره: نواحيه وجوانبه.

(٣) وقعت طائرة الأهواء: خمد غضبها وسكنت ثائرتها.

الحرام، وسَلب تجارَهم رزقَ الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون، وبَذْلِ ما يَسْألون، فإذا سمحت الفِرَق بقرانها له، وجَنَحَ أهلُ النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدِمَت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بخعت[1] بطاعتها، وألقت بأزمتها، فألبسها جَناحَ نعمته، وأنزلها ظلّ كرامته، وخصّها بعظيم حِبائه، ثم عمّ الجماعة بالمعْدَلة؛ وتعطّف عليهم بالرحمة، فلا تبقى فيهم ناحية دانية، ولا فِرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركتُه، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرَها، وجبَرَ كسيرها، ورفع وَضيعها، وزاد رفِيعَها، ما خلا ناحيتين: ناحيةً يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته، وتُبطيء عن إجابته، وتتثاقل عن حقه، فتكون آخرَ مَن يَبعث، وأبطأ من يُوَجَّه، فيضطمر عليها موجِده،[2] ويبتغي لها علة، لا يلبث أن يجدها بحقٍّ يلزمهم؛ وأمرٍ يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحرُّفيهم القتل، ويحيط بهم الأسْر، ويُفنيهم التتبُّع، حتى يُخرب البلاد، ويُؤتِم الأولاد. وناحيةً لا يبسط لهم أماناً، ولا يقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرّع جِلباب الفِتنة، ورَبض[3] في شقِّ العصا. ولكنه يقتل أعلامَهم، ويأسر قوّادهم، ويطلب هُرَّابهم في لُجَجِ البحار، وقُلل الجبال، وخَمر الأودية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتَنكيلاً؛ حتى يَدع الدِّيار خراباً، والنِّساء أيامى. وهذا أمر لا نَعرف له في كُتبنا وقتاً، ولا نصحّح منه غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان، وحُلوله بجُرْجان؛ وما قضى الله له من الشخوص[4] إليها والمُقام فيها، خيرٌ للمسلمين مَغَبَّةً، وله بإذن الله عاقبة، من المقام بحيث يُغْمَر في لُجج بُحورنا ومدافع سيولِنا ومجامع أمواجنا،

---

(١) بخعت: أقرّت. (٢) الموجدة: الغضب.

(٣) ربض: أقام على المعصية واصرّ.

(٤) الشخوص: التوجه والذهاب بنفسه.

فيتصاغر عظيمُ فضلِه، ويتذأب[1] مشرقُ نُوره، ويُتقلل كثير ما هو كائنٌ منه فمن يَصحبُه من الوزراء ومن يُخْتارُ له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن وليّ عهدِك أصبح لأُمتك وأهل ملتك عَلَماً قد تثنّت نحوه أعناقُها، ومُدّتْ سَمْتَه أبصارُها، وقد كان لقرب داره منك، ومحلّ جواره لك، عُطُل الحال، غُفْل الأمر، واسع العذر، فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه، وتستَنْصِتَ لمواقع آثاره، وتسألَ عن حوادث أحواله، في برِّه ومَرْحَمَتِه، وإقساطه ومَعدلته، وتدبيره وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ما سيق إليهم أغلبَ الأشياءِ عليهم، وأملكَ الأمور بهم، وألزمها لقلوبهم، وأشدَّها استمالة لرأيهم، وعطفاً لأهوائهم. فلا يفتأ المهدي ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يُقَوِّي عَمَد مملكتِه، ويسدّد أركان ولايته، ويستجمع رضا أُمته، بأمر هو أزْين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضلُ مَغَبَّةً لأمره، وأجلّ موقعاً في قلوب رعيته، وأحمدُ حالاً في نفوس أهل مِلّته. ولا أوقع مع ذلك بآستجماع الأهواء له؛ وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مَرْحَمَةٍ تَظْهر من فعله، ومَعْدلة تنتشر عن أثره، ومحبةٍ للخير وأهله، وأن يختار المهديُّ ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل بلدة، وفُقهاء أهلِ كلّ مصر. أقواماً تسكن العامةُ إليهم إذا ذُكروا، وتأنس الرعيةُ بهم إذا وُصفوا، ثم تُسهِّل لهم عمارة سُبُل الإحسان؛ وفَتْح باب المعروف كما قد كان فُتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحتَ. ثم بعث في ابنه موسى؛ فقال: أيْ بُنَيّ، إنك قد أصبحتَ لِسَمْتِ عيون العامة نُصْباً[2]، وَلَمثْنَى أعطافِ الرعية غاية، فحسنتُك شاملة، وإساءتك نامية، وأمرُك ظاهر. فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيها، ولا تطلب رضاهم بخلافها؛ فإن الله عزّ وجلّ كافيك مَن أسْخَطَه عليك إيثارُك رضاه؛ وليس بكافيك منْ يَسْخِطُه عليك إيثارُك رضا مَنْ سِواه.

ثم آعلم أن لله تعالى في كل زمان عتْرة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا

---

(١) يتذأب: يضطرب.

(٢) السمت: الطريق، والنصب: الإمام والقدوة وجعله نصب عينيه: أي أمام عينيه مقتدياً به.

لنُصرة حقه، يجدِّد حبل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنُصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً، يَسُدّون الخَلل، ويُقيمون المَيل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أيديَ دولتِنا، وسيوفَ دعوتِنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمُناصحتهم، وندافع ريبَ الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركنَ الدهرِ ببصائرهم. فهم عمادُ الأرض إذا أُرجفت كُنفُها[1]، وحُتوف الأعداءِ إذا أبرزت صَفحتها، وحصونُ الرعية إذا تضايقت الحال بها؛ قد مضت لهم وقائع صادقات؛ ومواطن صالحات، أخمدت نيرانَ الفتن، وقصمت دواعي البِدع، وأذلّت رقاب الجبّارين، ولم ينفكّوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظلِّ دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعزّ الله بها ذِلّتهم، ورفع بها ضَعَتَهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين، ومُلوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذُّل، وقِناع الخوف وإطباق البلاء، ومُحالفة الأسى، وجَهد البأس والضر. فظاهرْ عليهم لباسَ كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك. ثم آعرف لهم حقَّ طاعتهم، ووسيلة دالَّتهم، وماتة[2] سابقتهم، وحرمةَ مُناصحتهم، بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أيْ بُنَيّ؛ ثم عليك العامةَ. فاسْتَدْعِ رضاها بالعدل عليها. وآستَجْلِبْ مودَّتها بالإنصاف لها، وتحسّنْ بذلك لربك، وتزيَّن به في عين رعيّتك، واجعل عُمال القَدْر، وولاَة الحُجج، مقدّمةً بين يدي عملك، ونَصَفَةً منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيارَ أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً تُولّيه أمرَهم، وتجعل العدلَ حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حُمدت، وإن أساء عُذرت. هؤلاء عمال القدر؛ وولاة الحُجج. فلا يضيعنّ عليك ما في ذلك ـ إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع ـ من انعقاد ألسنةِ المُرجفين، وكَبْت قلوب الحاسدين، إطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور، ولا ينفكنَّ في ظل كرامتك نازلاً، وبعُرَا[3] حبلك متعلّقاً،

(١) الكنف: الجنبات. (٢) الماتة: الصلة والسبب.
(٣) العُرا: الأواصر والصلات.

رجلان: أحدهما كريمةٌ من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دِينٌ غير مغموز، وموضعٌ غير مدخول، بصيرٌ بتقليب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء الأدب، ووضعِ الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك، وتحلية ذكرك. فتستشيره في حربك، وتُدخله في أمرك. فرجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلّتي، ويرعى في خُضرة جِناني؛ ولا تدعْ أن تختار لك من فُقهاء البلدان، وخِيَار الأمصار. أقواماً يكونون جيرانَك وسُمارَك، وأهلَ مشاورتك فيما تُورد، وأصحابَ مُناظرتك فيما تُصْدِر. فسِر على بركة الله، أَصْحَبَكَ اللهُ من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك، وهادياً يُنطق بالخير لسانَك.

وكُتب في شهر ربيع الآخرة سنة سبعين ومائة ببغداد[١].

باب في مداراة العدوّ

في كتاب للهند: أن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا تردّ بأسه عنك بمثل الخشوع والخُضوع له، كما أنّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه معها.

وقالوا: ازْفِن[٢] للقرد في دَوْلته.

أخذه الشاعر فقال:

لا تعبـدنْ صنَماً في فـاقـةٍ نـزلـتْ   وازْفِن بلا حَرَجٍ للقـرد في زمنـهْ

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تَعَضَّ يدَ عدوِّك فقبِّلها.

---

(١) كذا في الأصل، والذي يذكره المؤرّخون أن خروج موسى الهادي إلى جرجان كان في سنة ١٦٦هـ وكانت وفاة المهدي في شهر محرّم سنة ١٦٩ بعد الهجرة.

(٢) ازفن: ارقص.

وقال سابق البَلَوي:

وداهنْ إذا ما خِفْتَ يوماً مُسَلَّطاً   عليك، ولَنْ يَحتالَ مَن لا يُدَاهِنُ[1]

وقالت الحكماء: رأسُ العقل مغافصة[2] الفُرصة عند إمكانها. والانصرافُ عما لا سبيل إليه.

وقال الشاعر:

بلاءٌ ليس يشبِهُهُ بَلاءٌ   عَداوةُ غيرِ ذي حَسَبٍ ودِينِ
يُبِيحُكَ منه عِرْضاً لم يَصُنْهُ   ويَرْتَعُ منك في عِرْضٍ مَصُونِ

التحفظ من العدوّ وإن أبدى لك المودّة

قالت الحكماء: احذر الموتور ولا تطمئن إليه، وكُن أشدَّ ما تكون حذراً منه ألطَفَ ما يكون مُدَاخلةً لك؛ فإنما السلامةُ من العدوّ بتباعُدك منه، وانقباضِك عنه. وعند الأُنس إليه والثقة [به] تُمَكّنه من مقاتِلك.

قالوا: لا تطمئنّ إلى العدو وإن أبدى لك المُقاربة، وإن بسط لك وجهه وخَفض[3] لك جناحه؛ فإنه يتربّص بك الدوائر، ويُضمر لك الغوائل ولا يَرتجي صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعةً إلا بسُقوط جاهك.

للاخطل يحذر بني أمية:

كما قال الأخطل:

بنِي أمَيَّةَ إني ناصحٌ لَكُمُ   فلا يَبِيتَنَّ فيكم آمِناً زُفَرُ[4]
وأتخِذُوه عَدُوّاً إنّ شاهِدَه   وما تَغَيَّبَ مِن أخْلاقِهِ دَعَر[5]

(١) داهن: صانع.

(٢) المغافصة: المفاجأة والأخذ على حين غرة.

(٣) خفض جناحه: تودّد وأظهر الدِّعة والتواضع.

(٤) هو زفر بن الحارث بن كلاب الكلابي، أخو بني نفيل بن عمرو بن كلاب. (٥) الوعر: الفساد.

إنّ الضَّغِينة تَلْقاها وإن قَدُمَتْ   كالعُرِّ يكْمُنُ حِيناً ثم يَنْتَشِرُ [1]

وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوَّه على كل حال: يحذر المُواثبة إن قَرُب والمعاودة إن بَعُد، والكمين إن انكشف، والآستطرادَ إن ولّى، والكرَّة إن فرّ.

وأوصى بعضُ الحكماء ملكاً فقال: لا يكونَنَّ العدوَّ الذي كشف لك عن عداوته بأخوفَ عندك من الظنين الذي يستتر لك بمخاتلِته، فإنه ربما تخوَّف الرجلُ السُّمَّ الذي هو أقتل الأشياء، وقَتَله الماءُ الذي هو محيي الأشياء؛ وربما تخوَّفَ أن تقتله الملوك التي تَملكه، ثم تقتله العبيد التي يملكها.

ولم يقل أحد في العدوّ المُندمل [2] على العداوة مثلَ قول الأخطل:

إنّ الضغِينةَ تلقاها وإن قَدُمَتْ   كالعُرِّ يكمُن حيناً ثمَّ يَنتشرُ

وقد أشار الحسنُ بن هانيء إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:

وابْنُ عَمٍّ لا يُكاشِفُنا   قد لَبِسناهُ على غَمرِهْ [3]

كَمَنَ الشنْآنُ فيه لنا   كَكُمونِ النار في حَجَرِهْ [4]

وشبهوا العدوَّ إذا كان هذا فعلَه بالحية المُطرقة. قال آبنُ أخت تأبّط شرّاً: [5]

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتاً كما   أَطْرق أفعى يَنفث السّم صلّ

بين معاوية وابن الزبير:

وقال عبد الله بن الزُّبير لمعاوية ـ ويقال معاوية قالها لعبد الله بن الزبير ـ: مالي أراك تُطرق إطراق الأفعوان في أُصول الشجر.

وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدوُّ صداقة لعلة ألجأته إليك، فمع ذهاب

(١) العرّ: الجرب.

(٢) المندمل: المستتر، أو الذي يجعل العداوة في اعماقه مختبئة. (٣) الغمر: الحقد.

(٤) الشنآن: البغض، وفي حجره: يريد حجر القادح.

(٥) الرشح: العرق، والنفث: كالقذف. والصل: من صفة الأفعى، وكل خبيث يقال له: صَلَّ أصلاً.

العلّة رجوعُ العداوة، كالماء تُسخِّنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً والشجرةُ المُرّةُ لو طليتَها بالعسل لم تُثمر إلا مُرّاً.

وقال دريد:

وما تَخْفَى الضغِينة حيثُ كانتْ ولا النَّظرُ المريض من الصحيحِ

وقال زهير:

وما يَكُ في صديقٍ أو عَدُوٍّ تُخَبِّرْكَ العيونُ عنِ القلوبِ

وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال عمره حتى يرى في عدوه ما يسرّه.

باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل عليّ رضي الله عنه، حَوْثرة الأقطع؛ فإنه خرج إلى النُّخَيْلة وآجتمع إليه جماعة من الخوارج، ومعاويةُ بالكوفة، وقد بايعه الحسن والحُسين وقيس بن سعد بن عُبادة؛ ثم خرج الحسن يريد المدينة؛ فوجه إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه، يسأله أن يكون المتولِّيَ لمحاربتهم. فقال الحسن عليه السلام: والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين، و ما أحسب ذلك يسعني؛ فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولَى بالقتال منهم؟ فلما رجع الجواب إليه وجّه إليهم جيشاً أكثرُه من أهلِ الكوفة، ثم قال لأبي حوثرة. تقدّمْ فاكفني أمرَ آبنك. فسار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع، فأبى، فداوره فصمّم. فقال له: أيْ بنيّ، أجيئك بابنك لعلّك تراه فتحنّ إليه! فقال له: يا أبتِ، أنا والله إلى طَعنة نافذةٍ أتقلّب فيها على كعوب الرمح أشْوَقُ مني إلى آبني. فرجع إلى معاوية فأخبره، فقال: يا أبا حوثرة، جارَ هذا جداً. فلما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال: يا أعداء الله! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتَهُدُّوا سلطانه. واليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه؟ ثم جعل يَشُدّ عليهم ويقول:

احملْ على هذِي الجموعِ حَوْثَرَة فَعَنْ قَرِيبٍ سَتَنالُ المَغْفِرَة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله، فرأي أثر السجود قد لوّح جبهته، فندم على قتله:

مرداس ومقتله:

وكان مرداس أبو بلال قد شهد صِفِّين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنكر التحكيم، وشهد النَّهروان ونجا فيمن نجا. فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى شدّة الطلب للشُّراة[1]، عزم على الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعُنا المُقام مع هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامُهم، مُجانبين للعدل مُفارقين للفضْل. والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإنّ تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد؛ ولكنا ننتبذ[2] عنهم ولا نجرّد سيفَنا ولا نُقاتل إلا من قاتَلَنا. فاجتمع إليه أصحابه زُهاء ثلاثين رجلاً، منهم: حُرَيث بن حَجْل وكَهْمس بن طلق الصَّرِيمي، فأرادوا أن يولّوا أمرهم حُرَيثا فأبى، فولوا أمرَهم مِرداسا، فلما مضى بأصحابه لقيهم عبدُ الله بن ربَاح الأنصاري، وكان له صديقاً؛ فقال له: يا بن أخي، أين تريد؟ فقال: أريد أهرُب بديني ودين أصحابي من أحكام هؤلاء الجَوْرَة. قال له: أعَلِمَ أحدٌ بكم؟ قال: لا. قال: فارجع. قال: أو تخاف عليّ مكروهاً؟ قال: نعم، وأن يُؤتَى بك. قال: فلا تخف. فإني لا أجرد سيفاً ولا أُخيف أحداً ولا أُقاتل إلا من قاتلني.

ثم مضى حتى نزل آسَك؛ فمرّ به مال يُحمَل إلى ابن زياد وقد بلغ أصحابُه الأربعين، فحطّ ذلك المالَ فأخذ منه عطاءه وأعْطِياتِ أصحابه وترك ما بقي، وقال: قُولوا لصاحبكم إنما أخذنا أعْطِياتِنا. فقال له أصحابه: لماذا تترك الباقي؟ قال: إنهم يقسمون هذا الفيء كما يُقيمون الصلاة، فلا تُقاتلوهم ما داموا على الصلاة.

فوجّه إليهم ابنُ زياد أسلمَ بن زُرْعة الكِلابيّ في ألفين، فلما وصل إليهم، قال له مرداس: اتق الله يا أسلم، فإنا لا نُريد قتالاً ولا نُروِّع أحداً؛ وإنما هربنا من الظُّلم،

---

(١) الشراة: الذين اشتروا الآخر بحياتهم.

(٢) ننتبذ: نبتعد ونعتزل.

ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا، ولا نُقاتل إلا مَن قاتلَنا. قال: لا بد من ردّكم إلى ٱبن زياد. قال: وإن أراد قَتْلَنا؟ قال: وإن أراد قتلكم. قال: فَتشْرَكُ في دمائنا؟ قال: نعم. فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم وجه إليهم ابنُ زياد عبّاداً، فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة، فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة فوادِعونا حتى نصلّي [وتُصَلّوا[1]]. فوادَعُوهم؛ فلما دخلوا في الصلاة شدُّوا عليهم فقتلوهم، وهم بين راكع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد. فقال عِمران بن حِطّان يرثي أبا بلال:

يا عينُ بَكّي لِمِرْداسٍ ومَصرَعِهِ ... يا ربَّ مرادسٍ ٱجعْلني كمرداس
أبقَيْتِني هائماً أبكي لمرزئتي ... في منْزلٍ مُوحشٍ من بعد إيناس[2]
أنكرتُ بَعْدَك ما قد كنتُ أعْرِفه ... ما الناسُ بعدك يا مرداسُ بالناسِ
إمَّا شَرِبْتَ بكأس دارَ أوّلُها ... على القُرون فذاقوا جَرْعَة الكاسِ
فكلٌّ من لم يَذُقْها شاربٌ عَجِلاً ... منها بأنفاسِ وِرْدٍ بَعْدَ أنفاسِ

وليس في الفرَق كلها وأهل البدع أشد بصائر من الخوارج، ولا أكثر اجتهاداً، ولا أوطن[3] أنفساً على الموت؛ منهم الذي طُعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: عَجلت إليك ربِّ لترضى.

ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرتْ بها عَتّابَ بنَ وَرْقاءَ سبعةَ أشهر يقاتلهم في كل يوم وكان مع عتّاب بن ورقاء رجل يقال له: شريح. ويكنى أبا هريرة، فكان يخرج إليهم في يوم فيناديهم:

يا بنَ أبي الماحوز والأشرارِ ... كيف تروْنَ يا كِلابَ النارِ[4]
شَدَّ أبي هريرَةَ الهرّارِ ... يَعْروكم بالليلِ والنَّهارِ
وهو مِنَ الرَّحْمٰنِ في جوَارِ

---

(١) زيادة من الكامل للمبرّد.

(٢) المرزئة: المصيبة. (٣) أوطن: أكثر تصمياً.

(٤) الماحوز: يريد الزبير بن علي بن الماحوز وكان على الخوارج.

فتعاظمهم ذلك. فكَمن له عبيدة بن هلال فضربه، واحتمله أصحابُه، فظنّت الخوارج أنه قد قُتل، فكانوا إذا تواقَفوا ينادونهم: ما فعل الهرار؟ فيقولون: ما به من بأس. حتى أبَلَّ[1] من عِلّته، فخرج إليهم فقال؛ يا أعداء الله! أتَرَوْن بي بأساً؟ فصاحوا: قد كنا نرى أنك لحقت بأُمك الهاوية في النار الحامية.

فلما طال الحصار على عتّاب، قال لأصحابه: ما تنتظرون؟ إنكم والله ما تُؤْتَوْنَ من قلّة؛ وإنكم فُرسان عشائركم؛ ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم؛ وما بقي من هذا الحصار إلا أن تَفْنى ذخائرُهم فيموتَ أحدُكم فيدفنَه صاحبُه، ثم يموت هو فلا يجد مَن يدفنه! فقاتِلوا القومَ وبكم قُوة، من قبل أن يضعف أحدُكم عن أن يمشي إلى قِرْنه.

فلما أصبح صلى بهم الصبح، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون، وقد نصب لواءً لجارية يقال لها ياسَمين، فقال: من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسَمين! ومن أراد الجِهاد فلْيَلْحَقْ بلوائي. قال: فخرج في ألفين وسبعمائة فارس، فلم تشعُر بهم الخوارج حتى غَشوهم. فقاتلوهم بجِدٍ لم ترَ الخوارج مثلَه، فقتلوا أميرَهم الزبيرَ بن عليّ، وانهزمت الخوارج، فلم يتبعهم عتّاب بن ورقاء.

وخرج قُرَيْبُ بنُ مرة الأزدي وزَحّاف الطائي؛ وكانا مُجتهدين بالبصرة في أيام زياد فاعترضا الناسَ، فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضُبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه، وتنادى الناس، فخرج رجل من بني قُطَيعة من الأزد بالسيف، فناداه الناس من بعض البيوت: الحروريةَ الحروريةَ! انجُ بنفسك. فنادوه: لسْنا حرُورِيّةً نحن الشُّرَط. فوقف فقتلوه.

وبلغ أبا بلال خبرُهما، وكان على دين الخوارج إلا أنه كان لا يرى اعتراضَ الناس، فقال: قُريبٌ، لا قرّبه الله من الخير، وزحّافٌ، لاعفا الله عنه، فلقد ركبَاها عشواءَ مُظلمة[2].

---

(١) أبلّ: شَفي.

(٢) يريد اعتراضهما الناس، والعشواء. المظلمة: الناقة العمياء التي تتخبّط في سيرها.

ثم جعلا لا يَمُرّان بقبيلة إلا قتلا مَنْ وجَدا فيها، حتى مرّا ببني عليّ بن سُود، من الأزد، وكانوا رُماةً، وكان فيهم مائة يُجيدون الرمي، فرموهم رمياً شديداً، فصاحوا: يا بني عليّ، البُقْيا، لارِماء بيننا. فقال رجل منهم:

لا شيء للقوم سوى السهام　　مشحوذةً في غلس الظلامِ

فهربت عنهم الخوارج؛ فاشتقُّوا مقبُرة بني يَشْكُو حتى خرجوا إلى مُزَيْنة، واستقبلهم الناس فقُتلوا عن آخرهم.

زياد والخوارج:

ثم عاد الناس إلى زياد، فقال: ألا يَنْهَى كلٌّ قوم سفهاءهم؟ فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فبهمْ أوثقوه وأتوا به زياداً، فمنهم من يَحبسه ومنهم من يقتله.

ولزيادٍ أخرى في الخوارج: أنه أُتي بامرأة منهم، فقتلها ثم عرّاها، فلم تَخْرج النساء إلا بعد زياد، وكنّ إذا أُرْغِمْن على الخروج قلن: لولا التَّعرية لسارعْنا.

ومن مشاهير فرسان الخوارج: عمرو القَنَا، من بني سعد بن زيد مناة؛ وعَبيدة بن هلال، من بني يشكر بن بكر بن وائل، وهو الذي طَعن صاحب المهلّب في فخذه؛ فشكَّها مع السرج؛ وهما اللذان يقول فيهما ابن المُنجِب السدوسي من فُرسان المهلَّب، وكان قال له مولاه خِلاج: وددت أنّا فَضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرّهم فأستلبَ منه جاريتين، إحداهما لك والأخرى لي:

أخلاجُ إنك لن تُعانِقَ طَفْلةً　　شَرقاً بها الجاديُّ كالتِّمثال[(١)]
حتى تُعانِقَ في الكتيبةِ مُعلماً　　عَمْرَو القَنَا وعَبيدةَ بنَ هِلال[(٢)]
وترى المُقَعْطَر في الكَتيبة مُقْدِماً　　في عُصْبةٍ قَسَطُوا مع الضُّلاَّل[(٣)]

---

(١) الطفلة: الناعمة، والجادي: الزعفران نسبة إلى جادية، قرية من عمل البلقاء من أرض الشام.
(٢) المعلم: المعروف المشهور.
(٣) المقعطر: من عبد القس، وقسطوا: جاروا.

والمُقَعْطَر: من مشاهير فرسانهم، وقَطريّ، أنجدهُم قاطبة؛ وصالح بن مِخراق، من بُهَمهم، وكذلك سعد الطلائع.

للمهلب في نفر من الخوارج:

ولما اختلف أمرُ الخوارج وانحاز قَطَرِيٌّ فيمن معه وبقي عبدُ ربّه، قال المهلّب لأصحابه: إن الله تعالى قد أراحكم من أقرانٍ أربعة: قطريّ بن الفُجاءة، وصالح بن مِخراق، وعَبيدة بن هلال، وسعد الطلائع؛ وإنما بين أيديكم عبدُ ربه في خُشَار[1] من خُشار الشيطان.

تعطش الخوارج إلى القتال:

وكانت الخوارج تُقاتل على السوط يؤخذ منها والعِلق الخسيس[2] أشدَّ قتال، وسقط في بعض أيامهم رُمح لرجل من مُرَاد من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراحُ والقتل، وذلك مع المغرب، والمُرادي يرتجز:

اَلّيلُ ليلٌ فيهِ وَيْلٌ ويلُ   وسالَ بالقومِ الشُّراةِ السَّيْلُ
إنْ جازَ للأعداء فينا قَوْلُ

وتفرقت مقالة الخوارج على أربعة أضرب: فقال نافعُ بن الأزرق: بآستعراض الناس والبراءة من عثمان وعليّ وطلحة والزبير، واستحلال الأمانة وقتلِ الأطفال.

وقال أبو بَيْهَس هَيصم بن جابر الضُّبَعِيّ: إن أعداءنا كأعداء الرسول ﷺ: يحلّ لنا المُقام فيهم كما أقام رسولُ الله ﷺ وأقام المسلمون بين المشركين. وأقول: إن مناكحتهم ومواريثهم تجوز، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وإن حكمهم عند الله حكم المشركين.

وقال عبد الله بن إباض: لا نقول فيمن خالفنا إنه مُشرك، لأن معهم التوحيدَ

---

(١) خشار: يريد سفلة الناس وأرذالهم.

(٢) العلق الخسيس: الجراب أو السيف أو الترس.

والإقرارَ بالكتاب والرسول، وإنما هم كُفَّارٌ للنِّعم، ومواريثُهم ومناكِحُهم والإقامة معهم: حِلٌّ، ودعوةُ الإسلام تجمعهم.

وقالت الصُّفْريّة بقول عبد الله بن إباض، ورأت القعودَ، حتى صار عامتهم قَعَداً، وإنما سُمّوا صُفْرِيةً لاَصفرار وجوههم، وقيل: لأنهم أصحاب ابن الصَّفَّار.

كتاب الزبرجدة
في الأجواد والأصفاد

فرش كتاب الزبرجدة

قال الفقيه أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال، وتقدُّم الرجال، على منازلهم من الصبر والجلد، والعُدّة والعَدد.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد، إذ كان أشرفُ ملابس الدنيا وأزينُ حللها وأجلَبُها لحمد، وأدفعها لذَمّ، وأسترها لعيب: كرمَ طبيعة يتحلى بها السمحُ السريّ، والجواد السخي. ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى، تَسَمَّى بها، فهو الكريم عز وجل. ومن كان كريماً من خَلْقِه، فقد تسمَّى باسمه، واحتذى على صفته.

وقال النبي ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

وفي الحديث المأثور: «الخَلق عِيال الله، فأحَبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله».

وقال الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جَعفر: إنك قد أسرفتَ في بذل المال. قال: بأبي وأُمي أنتما، إنّ الله قد عوّدني أن يتفضّل عليّ، وعوّدته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطعَ العادة فيقطعَ عني.

وقال المأمون لمحمد بن عبّاد المهلّبي: أنت مِتْلاف[1]! قال: مَنْعُ الجودِ سوءُ ظنٍّ

(١) المتلاف: الكثير الإنفاق، المبذِّر.

بالمعبود. يقول الله عز وجل: ﴿وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فهُو يُخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرّازِقينَ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: « أنفِقْ بلالا ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا ».

مدح الكرم وذمّ البخل

قال النبي ﷺ: « اصطناع المعروف يَقي مصارع السوء ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن الله يُحب الجُود ومكارم الأخلاق ويُبغض سَفْسافَها[2] ».

وقال النبي ﷺ لقوم من العرب: « من سيِّدُكم؟ قالوا الجدُّ بن قيس على بُخل فيه. فقال ﷺ: وأي داء أدْوَأ من البخل ».

وقال الله تعالى: ﴿ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِه فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[3].

وقال أكثم بن صيفيّ حكيم العرب: ذلّلوا أخلاقكم للمطالب، وقُودوها إلى المحامد، وعلّموها المكارم، ولا تُقيموا على خُلق تَذُمّونه من غيركم، وصِلُوا من رَغب إليكم، وتحلّوا بالجُود يَكْسبكم المحبة، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

أخذه الشاعر فقال:

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تعَجّلتَه ... وأَخّرْتَ إنفاقَ ما تَجْمَعُ
فصِرْتَ الفقيرَ وأنتَ الغنيُّ ... وما كنتَ تَعْدو الذي تصْنَعُ

سخي وبخيل:

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويُخوّفه الفقر. فردّ عليه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويأمُرُكُمْ بِالفَحشَاءِ والله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٩.

(٢) سفساها: المنحطّ منها والحقير الرديء.

(٣) سورة الحشر الآية ٩

مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[1] وإني أكره أن أترك أمراً قد وقع، لأمرٍ لعله لا يقع.

من خطبة لخالد القسري:

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر: أيها الناس، عليكم بالمعروف؛ فإن الله لا يُعْدم فاعلهَ جَوازيَه؛ وما ضعفت الناسُ عن أدائه قَوِيَ اللهُ على جزائه.

أخذه من قول الحُطيئة:

مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَـهُ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس[2]

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة: يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي.

من خطبة لسعيد بن العاص:

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: مَن رزقه الله رزقا حَسنا فلْيُنفق منه سرّا وجهراً، حتى يكون أسعدَ الناس به؛ فإنما يَترْك ما يترك لأحد رجلين: إمّا لمُصلحٍ فلا يَقِل عليه شيء، وإما لمُفسد فلا يبقى له شيء.

أخذخ الشاعر فقال:

أَسْعِـد بمالِـك في الحيـاةِ فـإنّما يَبْقى خِلافَـكَ مُصْلِـحٌ أو مُفْسِـدُ
فـإذا جمعـتَ لمُفْسـدٍ لم يُغْنِـهِ وأخـو الصلاح قليلـهُ يَتَـزَيَّـدُ

قال أبو ذَر: إن لك في مالك شريكين: الحَدَثان[3] والوارث: فإن آستطعت ألاّ تكون أبخسَ الشركاء حظّاً فافعل.

وقال بُزُرجِمْهر الفارسي: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفنى؛ وإذا أدبرت عنك فأنفِق منها فإنها لا تبقى.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٨

(٢) جوازيهُ: أي الجزاء عليه.

(٣) الحدثان: الليل والنهار.

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

لا تبخَلَنَّ بِدُنْيا وهْي مُقْبِلَة   فليس يَنْقُصُها التَّبْذيرُ والسَّرَفُ
وإنْ تولَّتْ فأحْرى أن تَجود بها   فالحمدُ منها إذا ما أَدْبَرَتْ خَلَف

لكسرى في الأسخياء:

وكان كسرى يقول: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهلُ حسنِ الظنِّ بالله تعالى، ولو أنّ أهل البخل لم يدخل عليهم من ضَرر بُخلِهم ومَذَمَّةِ الناس لهم وإطباق[1] القلوب على بُغضهم، إلا سوءُ ظَنَهم بربِّهم في الخَلَفِ، لكان عظيما وأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال:

مَن ظَنَّ باللهِ خيْراً جادَ مُبْتدِئاً   والبُخْلُ مِن سوءِ ظَنّ المرءِ باللهِ

بين موسى والهادي وابن يزيد:

محمد بن يزيد بن عمرة بن عبد العزيز قال: خرجتُ مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جُرجان، فقال لي: إمّا أنْ تَحملني وإما أن أحملك. ففهمت ما أراد، فأنشدتُه أبيات آبن صِرْمة الأنصاري.

أُوصيكُمُ باللهِ أوّل وَهْلةِ   وأحسابِكُم، والبِرُّ باللهِ أوّلُ
وإن قومُكُم سادوا فلا تَحْسُدُوهُمُ   وإن كنتُمُ أهلَ السيادةِ فاعْدِلُوا
وإن أنتمُ أعْوَزْتُمُ فَتَعَفَّفُوا   وإن كان فضلُ المالِ فيكم فأفْضِلُوا

فأمر لي بعشرين ألفا.

وقال عبد الله بن عباس: ساداتُ الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

قال أبو مُسلم الخَوْلاني: ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه، وما كلٌّ من قدر على المعروف كانت له نيّة؛ فإذا آجتمعت القُدرة والنية تمت السعادة. وأنشد:

---

(١) إطباق القلوب: إجماعها واتفاقها.

إنّ المكـــارِمَ كُلّهـــا حَسَـــنٌ والبـذْلُ أحْسـنُ ذلـك الحَســنِ
كم عـارفٍ بي لَسْـتُ أعـرِفُـهُ ومُخَبِّــرٍ عنّــي ولم يَــرَني
يــأتيهــمُ خَبَري وإن بَعُــدَتْ داري وبُــوعِــدَ عنهــمُ وطني
إني لِحُــرِّ المالِ مُمْتَهِــنٌ ولِحُـرِّ عِـرْضي غيْـرُ مُمْتَهَــنِ[1]

وقال خالد بن عبد الله القسري: من أصابه غُبار مَرْكَبي فقد وجب عليّ شكرُه.

وقال عمرو بن العاص: والله لرَجُلٌ ذكرني، ينام على شقّة ثمرة وعلى شقة أخرى، يراني موضعاً لحاجته، لأوجَبُ عليّ حقا إذا سألَنيها مني إذا قضيتُها له.

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده، فَيَدُهُ عندي أعظمُ من يدي عنده. وأنشد لآبن عبّاس رضي الله تعالى عنهما:

إذا طارِقاتُ الهمِّ ضاجَعَـتِ الفتَـى وأعمل فِكْرَ اللّيلِ واللّيْلُ عاكِـرُ[2]
وبـاكَـرَني في حـاجَـةٍ لم يكـن لها سِوَايَ ولا من نكْبَة الدّهرِ نـاصر
فَرَجْـتُ بمالي هَمَّـه عـن خِنـاقِـه وَزاوَلَـهُ الهمُّ الطَّـرُوقُ المُســاورُ
وكـان لـه فضْــلٌ علَــيَّ بِظَنِّــه بِيَ الخيرَ إنِّي لِلَّـذِي ظَـنَّ شـاكـرُ

لأبي عقيل في مروان:

وقيل لأبي عُقَيل البليغ العِرَاقي: كيف رأيتَ مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيتُ رغبته في الإنعام فوق رغبته في الشكر، وحاجتَه إلى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحب الحاجة.

وقال زياد: كفى بالبُخل عاراً أن آسمه لم يقع في حَمد قطّ، وكفى بالجود مجدا أن آسمه لم يقع في ذم قط.

وقال آخر:

---

(١) ممتهن: مستعبد.

(٢) طارقات الهمّ: نازلاته أثناء ضجوعه والطارق: الزائر ليلاً.

ألاَ تَــراني وقــد قطّعتَني عــذَلاً ماذا من الفَضْلِ بيْن البُخْلِ والجُودِ
إلاّ يكُــنْ ورقٌ يــومــاً أُراحَ بــه للخــابطِين فــإني لَيّــنُ العُــودِ
لا يعــدُم الســائلــون الخيرَ أفعلــهُ إمّــا نــوالاً وإمــا حُسْــنَ مَــرْدُودِ

قوله « إلا يكن ورق » يريد المال، وضَرَبه مثلا . ويقال: أتى فلان فلانا يختبط ما عنده . والآختباط: ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة، فجعل طالب الرزق مثل الخابط .

قال أسماء بن خارجة: ما أُحب أن أرُدّ أحداً في حاجة طلبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه، أو لئيما فأصون عرضي منه .

وقال أرسطا طاليس: من آنتجعك[1] من بلاده فقد آبتدأك بُحسن الظن بك والثقة بما عندك .

الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف

قال النبي ﷺ: « إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربّه فآنظروا ما يتبعه من حسن الثناء » .

من عمر إلى أبي موسى:

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، وآعلم أنّ مالك عند الله مثلُ ما للناس عندك .

وقيل لبعض الحكماء: ما أفادك الدهر؟ قال: العِلْم به . قيل: فما أحمدُ الأشياء؟ قال: أن تبقي للإنسان أحُدوثةٌ حسنة .

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى ﴿واجْعلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرين﴾[2] إنه أراد حسن الثناء من بعده .

---

(١) انتجعك: قصدك للاقامة والطلب. (٢) سورة الشعراء الآية ٨٤ .

وقال أكثم بن صيفي: إنما أنتم أخبار فطيِّبوا أخباركم.

أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فقال:

وما ابنُ آدمَ إلاّ ذِكْرُ صالِحَةٍ ... أو ذِكْرُ سيئةٍ يَسرى بها الكَلِمُ
أما سَمِعْتَ بدَهْرٍ بادَ، أُمَّتُه ... جاءت بأخبارِها من بعْدِها أُمَمُ[1]

وقال أبو بكر محمد بن دريد:

وإنّما المرء حديثٌ بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقالوا: الأيام مزارع، فما زرعتَ فيها حصدته.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق:

يا مَن تَجَلَّد للزَّما ... نِ أَمَا زَمانُكَ مِنكَ أَجْلَدْ
سَلِّطْ نُهَاكَ على هَوَا ... كَ وعُدَّ يومَكَ ليس مِن غَدْ
إن الحياةَ مزارِعٌ ... فازرعْ بها ما شئت تَحْصُدْ
والناسُ لا يَبْقَى سِوَى ... آثارِهم والعيْنُ تُفْقَدْ
أَوَ ما سَمِعْتَ بمَنْ مَضَى ... هٰذا يُذَمُّ وذاك يُحْمَدْ
المالُ إنْ أَصْلَحتَه ... يَصْلُحْ وإنْ أفسَدْتَ يَفْسُدْ

وقال الأحنف بن قيس: ما ادّخَرَت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء، شيئاً أفضلَ من آصطناع المعروف عند ذوي الأحساب.

وقالوا: تَربيب المعروف أولى من آصطناعه؛ لأنّ اصطناعه نافلة[2]، وتربيبه فريضة.

وقالوا: أحْيِ معروفَك بإماتة ذِكره، وعظِّمه بالتَّصغير له.

---

(١) باد: هلك.

(٢) النافلة: الصلاة التي ليست فريضة بل هي للتقرّب من الله.

وقالت الحكماء: مِن تَمام كَرم المنْعِم التغافلُ عن حُجته، والاقرارُ بالفضيلةِ لشاكرِ نعمتهِ.

وقالوا: للمعروف خصالٌ ثلاث: تَعجيله وتَيسيره وستره، فمن أخلَّ بواحدة منها فقد بَخس[1] المعروف حقه وسقط عنه الشكر.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: من كانت له عندي يدٌ صالحة. قيل: فإن لم تكن له؟ قال: فمن كانت لي عنده يد صالحة.

وقال النبي ﷺ: «من عظُمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه، فإن لم يقُم بتلك المؤونة عَرَّض النعمة للزوال».

عروة بن أدية في صلبه:

أبو اليقظان قال: أخذ عبيد الله بن زياد عروةَ بن أُدَيَّة أخا أبي بلال، وقطع يده ورجله، وصلبه على باب داره؛ فقال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء الموكلين بي فأحسنوا إليهم، فإنهم أضيافكم.

ابن المبارك عن حُميد عن الحسن قال: لأَنْ أقضي حاجةً لأخ لي، أحبُّ إليّ من عبادة سنة.

بين السندي وكوفي ذي مروءة:

وقال إبراهيم بن السِّندي: قلت لرجل من أهل الكوفة، من وجوه أهلها، كان لا يَجف لِبْدُه[2]، ولا يستريح قلبه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضُّعفاء وكان رجلا مفوَّها؛ فقلت له: أخبرني عن الحالة التي خَفَّفتْ عنك النَّصَب[3] وهوَّنت عليك التعبَ في القيام بحوائج الناس، ما هي؟ قال قد والله

(١) بخس: أنقص وغبن.

(٢) لبدُه: أي لبد فرسه.

(٣) النّصب: التعب.

سمعتُ تغريد الطير بالأسحار، في فروع الأشجار، وسمعت خَفْق أوتار العيدان، وترجيعَ أصوات القِيان، فما طربتُ من صوت قط، طَرَبي من ثناءٍ حَسَن بلسانٍ حَسَن على رجل قد أحسن، ومن شكر حُرّ لمنعم حرّ، ومن شفاعة محتسب لطالبٍ شاكر. قال إبراهيم: فقلت له: لله أبوك! لقد حُشِيتَ كَرَما.

لجعفر بن محمد:

إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد[1] قال: إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون الحوائج للناس، فمن آستطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

الجود مع الإقلال

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار: ﴿ويُؤْثِرُون على أنْفسهم ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأولٰئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[2]

وقال النبي ﷺ: «أفضل العطية ما كان من مُعْسِرٍ إلى مُعْسر».

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل العطية جُهْدُ المُقِلّ».

وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمدُ من الكثير إلى الكثير.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلما:

قد بَعَثْنا إليكَ أكْرَمَكَ اللهُ بـــشيءٍ فكُنْ لـه ذا قَبُول
لا تقِسْهُ إلى نـدى كَفِّكَ الغمـر ولا نَيْلِكِ الكثيرِ الجزيل[3]
واسْتَجِزْ قِلَّةَ الهدِيَّةِ مِنِّي إنّ جُهْدَ المُقِلِّ غَيرُ قليل

(١) أي جعفر الصادق عليه السلام.

(٢) سورة الحشر الآية ٩.

(٣) الندى: الكرم، والغمر: الوفير.

وقالوا: جُهد المقلِّ أفضلُ من غِني المُكْثرِ.

وقال صريع الغواني:

ليس السَّماحُ لِمُكْثِرٍ في قـومـه　　لكـنْ لَمُقْتِـرِ قَـوْمِـه المُتَحَّمـدِ

لأبي هريرة في جعفر بن أبي طالب:

وقال أبو هريرة: ما وددت أن أحداً ولدتني أمُّه إلا أُم جعفر بن أبي طالب؛ تبعتُه ذات يوم وأنا جائع، فلما بلغ الباب التفت فرآني، فقال لي: ادخل، فدخلت؛ ففكّر حينا فما وجد في بيته شيئاً إلا نِحْياً[1] كان فيه سمن مُرّة، فأنزله من رَف لهم، فشقّه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والزيت، وهو يقول:

ما كلَّفَ اللهُ نفساً فـوقَ طـاقَتِهـا　　ولا تجودُ يـــدٌ إلاَّ بما تَجِـــدُ

وقيل لبعض الحكماء: مَن أجْوَدُ الناس؟ قال: من جاد من قلّة، وصان وجه السائل عن المَذَلَّة.

وقال حماد عجرد:

أَوْرِقْ بخيرٍ تـؤَمَّـل للجـزيـلِ فما　　ترْجَى الثِّمارُ إذا لم يُـورِقِ العُـودُ

إنّ الكريم ليُخفـي عنـك عسرتـه　　حتى تـراه غنيـاً وهــو مجهــود

بُـثَّ النَّـوَال ولا تَمْنَعْــكَ قلّتُــهُ　　فَكُلُّ ما سَدَّ فَقْراً فَهْوَ مَحْمُـودُ[2]

وللبخيــلِ على أمْــوالِه عِلَــلٌ　　زُرْقُ العيونِ عَليهـا أوجُـهٌ سُـودُ

وقال حاتم:

أُضاحِكُ ضَيْفي قبْل إنزال رَحْلـهِ　　ويُخْصبُ عِندي والمحَلُّ جَـدِيـبُ

وما الخصْبُ للأضْياف أن يكْثُرَ القِرى　　ولكنّما وجْــهُ الكــريم خَصِيــبُ

---

(١) النحي: الزق، أو وعاء السمن.

(٢) بث النوال: انشره، وأكثر من العطاء.

وقال عبد الملك بن مَروان: ما كُنت أُحب أنّ أحداً ولدني من العرب إلا عُروة بن الورد لقوله:

أتهزأ مني أنْ سَمِنْتَ وأنْ تَرى ... بِجسمِيَ مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهِدُ
لأني آمرُؤٌ عافى إنائيَ شِرْكَةٌ ... وأنتَ آمرُؤ عافى إنائِك واحدُ
أُقسِّم جِسْمي في جُسُومٍ كثيرةٍ ... وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ[1]

ومن أحسن ما قيل في الجود مع الإقلال قول صريع:

فلَوْ لم يكن في كفِّه غيرُ رُوحِه ... لجادَ بها فلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهُ

ومن أفرط ما قيل في الجود قول بَكْر بن النطّاح:

أقولُ لمُرْتادِ النّدَى عنْدَ مالِكٍ ... تمسَّكْ بجَدْوَى مالِكٍ وصِلاتِه[2]
فتىً جَعَلَ الدُّنيا وقاءً لِعْرضِهِ ... فأسْدَى بها المعروفَ قبلَ عداتِه[3]
فلو خَذَلَت أموالَه جُودَ كفِّهِ ... لقاسَمَ مَن يَرْجُوهُ شَطْرَ حياتِه
وإنْ لم يَجُزْ في العُمْر قَسْمٌ لِمالِكٍ ... وجازَ لهُ أعْطاهُ مِنْ حَسناتِه
وجادَ بها مِن غيرِ كُفْرٍ بربِّهِ ... وأشْرَكَهُ في صَومِهِ وصلاتِه

وقال آخر في هذا المعنى وأحسن:

مَلأْتُ يَدي مِن الدنيا مِرارا ... وما طَمِعَ العواذِلُ في اقتِصَادي
ولا وجبَتْ علَيَّ زَكاةُ مالٍ ... وهل تجِبُ الزَّكاةُ على الجواد

العطية قبل السؤال

قال سعيد بن العاص: قَبحَ الله المعروف إن لم يكن آبتداءً من غير مسألة، فالمعروف عوض من مسألة الرجل إذا بذل وجهه، فقلبه خائف، وفرائصه تُرْعَد، وجبينه يرشح؛ لا يَدري أيرجع بنُجْح الطلب، أم بسوء المنقَلَب، قد انتُقِعَ[4] لونهُ،

---

(١) قراح الماء: الخالص الصافي. (٢) الجدوى: العطاء والكرم.
(٣) أسدى المعروف: قدّمه. (٤) انتُقع: امتقع وتغيّر.

وذهب دمُ وجهه. اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظٌّ فلا تجعل لي حظا في الآخرة.

وقال أكثم بن صيفي: كل سؤالٍ وإن قلَّ أكثرُ من كل نَوَال وإن جلّ.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: منَ كانت له إليّ منكم حاجة فليرفعها في كتاب، لأصونَ وجوهَكم عن المسألة.

حبيب قال:

عطاؤكَ لا يفْنَى ويَستَغْرِق المُنى وتَبقى وُجوهُ الرَّاغِبينَ بمائها[1]

وقال حبيب أيضاً:

ذُلُّ السُّؤالِ شَجاً في الحَلْقِ مُعْتَرِضُ مِن دونهِ شَرَقٌ من خَلفه جَرَضُ[2]
ما ماءُ كفِّكَ إن جادتْ وإن بَخِلتْ مِن ماءِ وَجهي إذا أَفْنيْتُه عِوَضُ
إنّي بأيَسرِ ما أَدْنيْتَ مُنْبسِطٌ كما بأكثر ما أقْصَيْتَ مُنْقَبِضُ

وقالوا: من بذل إليك وجهه فقد وفّاك عن نعمتك.

وقالوا: أكمل الخِصال ثلاث: وقار بلا مهابة، وسماح بلا طلبِ مكافأة، وحِلم بغير ذلّ.

وقالوا: السخي من كان مَسروراً ببذله، متبرعا بعطائه، لا يلتمس عرض دنيا فيَحْبطَ عمله، ولا طَلب مكافأة فَيسقط شُكره، ولا يكون مَثله فيما أعْطى مثل الصائد الذي يُلقي الحب للطائر: لا يريد نفعها ولكن نفْعَ نفسِه.

بين ابن أبي سبرة وأبي الأسود:

نظر المنذر بن أبي سبرة إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميصٌ مرقوع، فقال له: ما أصْبرَك على هذا القميص؟ فقال له: رُبَّ مملوكٍ لا يُستطاع فِراقُه. فبعث إليه

---

(١) يستعرق المنى: أي يكون قدرها وماء الوجوه: كرامتها وحياؤها.

(٢) الشجا: ما يعترض في الحلق من لحمة وغيرها. والجرض: الغصَصَ.

بتَخت من ثياب. فقال أبو الأسود:

كَسانِي ولم أسْتَكْسِه فَحمِدتْهُ ... أَخٌ لكَ يُعطيك الجَزيلَ وناصِرُ
وإنّ أحقَّ الناسِ إن كُنتَ شاكِراً ... بشُكرِكَ مَن أعطاكَ والعِرْضُ وافِرُ

بين معاوية وابن صوحان في الجود:

وسأل معاوية صعصعةَ بن صُوحان: ما الجود؟ فقال: التبرّع بالمال، والعطّية قبل السؤال.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى:

كَريمٌ على العِلاّتِ جَزْلٌ عَطاؤهُ ... يُنِيلُ وإن لم يُعْتَمدْ لِنَوالِ[1]
وما الجُودُ مَن يُعطِي إذا ما سألتَهُ ... ولكِنَّ مَن يُعطي بغيرِ سُؤال

وقال بشّار العُقيلي:

مالكيٌّ ينشَقُّ عن وَجْهِه الجد ... بُ كما آنشَقْتِ الدُّجى عن ضِياء
فثُجوجُ السماء فَيْضُ يَدَيْه ... لقريبٍ ونازحِ الدارِ ناءِ[2]
لَيْسَ يُعْطيكَ للرَّجاء وللخو ... فِ ولكنْ يَلَذُّ طَعَمَ العَطاء
لا ولا أنْ يُقالَ شِيمَتُه الجُو ... دُ ولكِنْ طبائِعُ الآباء

وقال آخر:

إن بيْنَ السُّؤالِ والإعْتِذار ... خُطَّةً صَعْبَةً على الأحرار

وقال حبيب:

لئنْ جَحَدْتُكَ ما أوْلَيتَ مِنْ نِعَمٍ ... إني لفي اللؤمِ أمْضَى منكَ في الكَرَمِ

---

(١) العلات: كلّ النّواحي. (٢) الثجوج: الأمطار الغزيرة.

أنسَى ابتسامُكَ والألوانُ كـاسفـةٌ   تَبسُّمَ الصُّبحِ في داجٍ مِنَ الظُّلَـمِ [1]
رددتَ رَوْنَق وجهـي في صحيفتِـه   رَدّ الصِّقال بهاءَ الصَّـارِمِ الخَذِمِ [2]
وما أُبـالي وخيرُ القـول أَصْـدقُـهُ   حَقَنْتَ لي ماءَ وَجهي أم حقنْتَ دَمـي !

استنجاح الحوائج

عادتهم في ذلك:

كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما: اللهم بك أستنجح، وبآسمك أستفتح، وبمحمد نبيّك إليك أتوجه، اللهم ذلّل لي صعوبتَه ، وسهِّل لي حُزونته ، وآرزقني من الخير أكثَرَ مما أرجو، وآصرِف عنّي من الشر أكثر مما أخاف .

وقال النبي ﷺ : « آستعينوا على حوائجكم بالكتمان لها ، فإنّ كل ذي نعمة مَحسود » .

وقال خالد بن صفوان: لا تطلُبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلُبوها من غير أهلها ، فإنّ الحوائج تُطلب بالرجاء ، وتُدرَك بالقضاء .

وقال: مفتاح نُجح الحاجة الصبرُ على طول المُدة. ومغْلاقُها آعتراض الكَسَل دونها .

قال الشاعر:

إني رأيـتُ وفي الأيـامِ تَجْـرِبَـةٌ   للصبرِ عـاقبـةً محمودةَ الأثـرِ
وقلَّ مَـن جَـدَّ في أمـرٍ يُحـاوِلُـهُ   واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فازَ بالظَّفَـرِ

ومن أمثال العرب في هذا : مَنْ أدمَنَ قرْعَ الباب يوشك أن يُفتح له .

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

إن الأمور إذا آنسدّت مسـالكهـا   فالصبر يفتُق منها كل ما ارتتجـا [3]

---

(١) الكاسفة: المتغيّرة.   (٢) الخذم: القاطع.
(٣) ارتج: أي أقفِل.

لا تيأَسَنَّ وإنْ طالتْ مُطالَبةٌ   إذا تضايَق أمرٌ أن ترى فَرَجا

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبرِ أنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ   ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا[1]

وقال خالد بن صفوان: فَوْتُ الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها، وأشدُّ من المُصيبة سوءُ الخَلَف منها.

وقالوا: صاحبُ الحاجة مَبْهوت، وطلب الحوائج كلِّها تعزير[2].

وقالت الحكماء: لا تطلب حاجتك من كذّاب؛ فإنه يقرِّ بها بالقول ويُبعدها بالفعل؛ ولا من أحمق، يريد نفعَك فيضرّك؛ ولا من رجل له أُكلة من جهة رجل، فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته.

وقال دعبل بن علي الخُزاعي:

جِئْتُكَ مُسْتَرْفِداً بلا سَبَبِ   إليْكَ إلاّ بحُرْمَةِ الأدَبِ[3]

فاقْضِ ذِمامي فإنني رَجُلٌ   غيْرُ مُلِحٍّ عليْكَ في الطَّلَبِ

وقال شَبيب بن شَيبة: إني لأعرف أمراً لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النُّجْحُ بينهما. قيل له: وما ذاك؟ قال: العقل؛ فإن العاقل لا يَسأل ما لا يُمكن، ولا يَرُدُّ عما يُمكن.

وقال الشاعر:

أَتيْتُكَ لا أُدْلي بقُرْبَى ولا يَدٍ   إليْكَ سوى أَنِّي بجودِكَ واثقُ

فإن تُولِني عُرْفاً أكُنْ لك شاكراً   وإن قُلْت لي عُذْراً أَقُلْ أنتَ صادقُ[4]

وقال الحسن بن هانيء:

فإن تُولني منكَ الجميلَ فأهْلُه   وإلا فإنِّي عاذرٌ وشَكُورُ

---

(١) أخلق: أي جديرٌ وحريٌّ ويلج: يدخل

(٢) التعزير: التشديد.   (٣) مسترفداً: طالباً العطاء.

(٤) أولاه العرف: أي وصله بكرمه.

وقال آخر:

لعَمْرُك ما أَخْلَقْتُ وَجْهاً بَذَلْتُهُ ... إليكَ ولا عَرَضْتُهُ لِلْمعَايِرِ
فتًى وفَّرَتْ أيدي المكارم عِرْضَهُ ... عليه وخلَّتْ مالَهُ غيرَ وَافِرِ

بين ابن واسع وأمير:

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال: أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتَها وكنا كريمين، وإن شئتَ لم تَقضِها وكُنَّا لئيمين. أراد: إن قضيتَها كنتَ أنت كريماً بقضائها وكنتُ أنا كريماً بسؤالك إياها؛ لأني وضعت الطَّلِبَةَ في موضعها؛ فإن لم تقضها كنتَ أنتَ لئيماً بمنعك وكنت أنا لئيماً بسوء اختياري لك.

وسرق حبيب هذا المعنى فقال:

عَيَّاشُ إنكَ لَلَئِيمُ وإنَّني ... مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبي لَلَئيم

عبد الله بن طاهر وسوار القاضي:

ودخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال: أصلح الله الأمير:

لنا حاجةٌ والعُذْرُ فيها مُقَدَّمٌ ... خفيفٌ مُعنَّاها مضاعفة الأجرِ[1]
فإن تَقْضِها فالحمدُ للهِ وَحْدَهُ ... وإن عاقَ مَقْدُورٌ ففي أوْسَع العُذْرِ[2]

قال له: ما حاجتُك أبا عبد الله؟ قال: كتابٌ لي: إن رأى الأميرُ أكرمه الله ـ أن يُنفذه في خاصته، كتب إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقي. قال: أوَ غير ذلك أبا عبد الله؟ نعجِّلها لك من مالك، وإذا وددت كنت مخيَّراً بين أن تأخذ أو تردّ. فأنشد سَوار يقول:

فبَابُكَ أيْمَنُ أبْوَابِهِم ... ودَارُكَ مَأهُولَةٌ عامِرَهْ
وكفُّك حينَ تَرى المجْتَديـ ... ـنَ أنْدَى من اللَّيْلَةِ الماطِرَهْ

(١) معنَّاها: أي عناؤها. (٢) عاق مقدور: أي منع تنفيذها أمرٌ مقدَّر.

وَكلْبُـــكَ آنَسُ بـــالمُعْتَفِين   من الأمِّ بابنِتها الزَّائـرَهْ[١]

أبو حازم الأعرج وسلطان في حاجة:

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال: أتيتك في حاجة رفعتُها إلى الله قَبلك، فإن يأذن الله في قضائها قضيتَها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تَقْضِها وعذرناك.

وفي بعض الحديث: «اطلبوا الحوائج عند حِسانِ الوجوه».
أخذه الطائي فنظمه في شعره فقال:

قد تأوَّلتُ فيك قـوْلَ رسُول الله   إذْ قـالَ مُفْصِحـاً إفصـاحَـا
إن طلبتم حـوائجاً عنـد قـوْمٍ   فتَنَقَّـوْا لها الوجُـوهَ الصِّبـاحـا
فَلعَمْـرِي لقـد تَنَقَّيْـتُ وجْهـاً   ما بِـه خـابَ مـن أرادَ النَّجَـاحـا

بين المنصور وطالب حاجة:

قال المنصور لرجل دخل عليه: سَل حاجتك فإنك لست تقدر على هذا المقام في كل حين. قال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك، وإنّ عطاءك لشرف، وإن سؤالك لزَيْن، وما بآمريء بذل إليك وجهه نَقْص ولا شَين[٢]. فوصله وأحسن إليه.

استنجاز المواعد

كلمات في معنى هذا العنوان:

من أمثالهم في هذا: أَنْجَزَ حُرٌّ ما وعَد.
وقالوا: وعْدُ الكريمِ نقْد، ووعدُ اللئيم تسويف.
وقال الزُّهري: حقيق على من أورق بوعْدٍ أن يُثمر بفعل.

---

(١) المعتفين: السائلين النوال.   (٢) الشين: العيب.

وقال المغيرة: من أخر حاجة فقد ضَمِنها .

وقال الموبذان الفارسي: الوعد السحابة، والإنجاز المطر.

وقال غيره: المواعيد رءوس الحوائج والإنجاز أبدانها .

وقال عبد الله بن عمر: خُلْفُ الوعدِ ثُلُثُ النفاق، وصِدق الوعد ثلثُ الإيمان، وما ظنُّك بشيء جَعله الله مِدْحةً في كتابه، وفخراً لأنبيائه، فقال تعالى: ﴿واذْكُرْ في الكتابِ إسْمَاعِيلَ إنهُ كان صادِقَ الوَعْدِ﴾[1] .

لجبار في عامر ابن الطفيل:

وذكر جبار بن سُلمى عامر بن الطُّفيل فقال: كان والله إذا وعد الخير وفى، وإذا وعد الشر أخلف. وهو القائل:

ولا يرْهَبُ ابنَ العَمِّ ما عشتُ صَوْلتي ... ويـأمـن منّـي سَطـوة المُتهَـدِّدِ[2]
وإني وإن أوْعَـدْتُـهُ أو وعَـدْتُـهُ ... ليكذِبُ إيعادِي ويَصْدُقُ موعِـدِي

وقال ابن أبي حازم:

إذا قلـتَ في شيءٍ «نَعـم» فـأتِمَّهُ ... فإنّ «نَعمْ» دَيْنٌ على الحرِّ واجـبُ
وإلا فقُـلْ «لا» تَسترِحْ وتُـرِحْ بها ... لئلا يقـولَ النـاسُ إنـك كـاذِبُ

ولو لم يكن في خُلْف الوعد إلا قولُ الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الذِينَ آمنُوا لِمَ تقُولُونَ ما لا تفْعَلونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تقُولوا مَا لا تفْعَلون﴾[3] لكفى.

وقال عمر بن الحارث: كانوا يفعلون ولا يقولون، ثم صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون، فزعم أنهم ضَنُّوا بالكذب فضلاً عن الصدق.

---

(١) سورة مريم الآية ٥٤ .

(٢) الصولة: القوة والبطش والسطوة؛ كذلك.

(٣) سورة الصف الآية ٦١ .

وفي هذا المعنى يقول الحسن بن هانىء:

قالَ لِي تَرضَى بِوعْدٍ كاذِبٍ؟ قلْتُ إنْ لم يَكُ شَحْمٌ فنفش[1]

ومثله قول عباس بن الأحنف، ويقال إنها لمسلم بن الوليد صريع الغواني:

ما ضَرَّ مَنْ شَغَلَ الفؤادَ بِبُخْلِهِ لو كانَ عَلَّلني بِوَعْدٍ كاذب[2]
صبراً عليكَ فما أرى لي حِيلةً إلاَّ التَّمَسُّكَ بالرجاءِ الخائبِ
سأموتُ من كمَدٍ وتَبْقَى حاجتي فيما لديكَ ومالها مِن طالب

بين عبد الملك وابن أم الحكم:

قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان في مواعيد وعدها إياه فمطَله[3] بها: نحن إلى الفِعل أحوج منا إلى القول، وأنت بالإنجاز أولى منك من المَطل، وآعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد وآستتمامك المعروف.

بين عيسى بن موسى وابن معن:

القاسم بن معن المسعودي قال: قلت لعيسى بن موسى: أيها الأمير، ما انتفعتُ بك منذ عرفتك، ولا أوصلت لي خيراً منذ صحبتُك. قال: ألم أكلّم لك أميرَ المؤمنين في كذا وأسأله لك كذا؟ قال: قلت: بلى، فهل استنجزت ما وعدت، وآستتممت ما بدأت؟ قال: حال من دون ذلك أمور قاطعة، وأحوال عاذرة. قلت: أيها الأمير، فما زدت على أن نبَّهت العجز من رقدته، وأثَرْتَ الحزن من رَبْضَتِه، إنّ الوعد إذا لم يشفعه إنجاز يحقّقه، كان كلفظ لا معنى له، وجِسم لا روح فيه.

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشي لخالد بن دَيسم عامل الرّي:

أخالدُ إن الريَّ قد أجْحَفَتْ بنا وضاقَ علَيْنَا رحْبُهَا ومَعاشُهَا
وقد أطمَعَتْنا مِنْك يَوْماً سحابَةٌ أضاءت لنا بَرقاً وأبطا رشاشها

---

(١) النفش: الصوف. (٢) علّلني: شغلني وجعلني أتأمّل.
(٣) مطله: من المطل وهو التسويف وعدم الوفاء بالوعد.

فلا غَيْمُها يَصْحُو فييْئِسَ طـامِعـاً ولا ماؤها يـأتي فتروى عِطـاشهـا

بين بشار وسلم:

وقال سعيد بن سَلَم: وعد أبي بشارا العُقيلي حين مدحه بالقصيدة التي يقول فيها:

صَـدَّتْ بخَدّ وجَلَـتْ عـن خـدِّ ثم آنْثَنـتْ كـالنَّفَسِ المُرْتَـدِّ[1]

فكتب إليه بشارٌ بالغد:

مـا زالَ مـا مَنَّيْتَنِـي مِـنْ هَمّـي الوعْـدُ فـأرِحْ مِـنْ غَمّـي

إن لم تُرِدْ مَدْحِي فَراقِبْ ذَمِّي

فقال له أبي: يا أبا معاذ، هلا استنجزتَ الحاجة بدون الوعيد! فإذا لم تفعل فتربَّصْ ثلاثاً وثلاثاً؛ فإني والله ما رضيتُ بالوعد حتى سمعتُ الأبرش الكَلْبي يقول لهشام: يا أمير المؤمنين؛ لا تَصنع إليَّ معروفاً حتى تَعِدني؛ فإنه لم يأتني منك سَيْب[2] على غير وعد إلا هان عليّ قدرُه وقلّ مني شُكره. فقال له هشام: لئن قلت ذلك لقد قاله سيدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلاني: «إن أوقع المعروف في القُلوب، وأبردَه على الأكباد مَعروف منتظَر، بوعد لا يكدّره المَطْل».

يحي بن خالد وقضاء الحوائج:

وكان يحي بن خالد بن برمك لا يقضي حاجة إلا بوعد، ويقول: من لم يَبِتْ على سرور الوَعد لم يجد للصنيعة طعماً.

وقالوا: الخُلف ألأم من البخل لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذمُّ اللؤم وحده، ومن وعَد وأخلف لزمه ثلاث مَذَمّات: ذمّ اللؤم، وذمّ الخلف، وذمّ الكذب.

وقال زياد الأعجم:

للهِ دَرُّكَ مِـــنْ فَتًـــى لـو كنـتَ تَفْعَـلُ مـا تَقُـولْ

(١) صدّت: أعرضت، وجلت: أظهرت وأسفرت.

(٢) السيب: العطاء.

لا خيْــــرَ في كـــــذب الجوَا ... دِ وحبَّـــذا صِــدْقُ البخيــلْ

استبطأ حبيبٌ الطائي الحسنَ بن وهب في عِدَةٍ وعدها إياه، فكتب إليه أبياتاً يستعجله بها؛ فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه:

أعْجلْتَنـا فـأتـاكَ عـاجـلُ بِـرّنـا ... قلاًّ ولــو أخَّــرْتَــهُ لم يَقْلِــلِ
فخُذِ القليلَ وكنْ كَمـنْ لم يَسْـألِ ... ونكـون نحنُ كـأننـا لم نَفْعـلِ

ابن دأب عند المهدي:

وقال عبد الملك بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ:

وأشعث قـد قَـدّ السّفـارُ قميصَـهُ ... يَجرُّ شواءً بالعَصا غيْرَ مَنْضَـجِ (١)
دَعَـوْتُ إلى مـا نـابَني فـأجـابَني ... كَرِمٌ من الفتيانِ غيْـرُ مُـزَلَّـجِ (٢)
فتى يُمرِيءُ الشِّيزىٰ ويُرْوي سِنانَـه ... ويَضْربُ في رأسِ الكَميِّ المُدَجَّجِ (٣)
فتًى ليْس بالرَّاضي بـأدني معيشـةٍ ... ولا في بُيُـوتِ الحيّ بـالمُتَـوَلِّـجِ

فرفع المهديُّ رأسه إليّ وقال: هذه صفتك أبا العباس. فقلت: بك نلتُها يا أمير المؤمنين. قال: فأنشدني. فأنشدته قول السموءل:

إذا المرءُ لم يدْنَسْ منَ اللُّؤم عِرْضُـه ... فكـلُّ رداءٍ يَـرْتَـديـهِ جَميـلُ
وإنْ هو لم يَحْملْ على النَّفْسِ ضَيْمَهـا ... فليْس إلى حُسْـنِ الثّنـاءِ سَبيـلُ (٤)
إذا المرءُ أعْيَتْـهُ المروءة يـافِعـاً ... فمطْلَبُهـا كَهْلاً عليـهِ ثَقيـلُ (٥)
تُعَيّـرُنـا أنّـا قليـلٌ عِـدادُنـا ... فقُلْـتُ لها إنَّ الكِـرامَ قليـلُ
ومـا ضَـرَّنـا أنّـا قليـلٌ وجـارُنـا ... عَـزيـز وجـارُ الأكثَـريـن ذَليـلُ
ونحْنُ أُنـاسٌ لا نَـرى القَتْـلَ سُبَّـةً ... إذا مـا رأتْـهُ عـامِرٌ وسَلـولُ (٦)

---

(١) الأشعث: صاحب الشعر الكثير الغبار الذي لم يرجّل من مدّه والسِّفار: أي السفر.

(٢) المزلّج: البخيل والناقص المروءة.

(٣) الشيزى: خشب أسودّ تتخذ منه القصاع.

(٤) الضيم: الظلم. (٥) يافعاً: شاباً. (٦) السُّبَّة: العار.

يُقَترِبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا وتَكْرَهُهُ آجالُهمْ فتَطُولُ
وما ماتَ منَّا سيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه ولا طُلَّ منّا حيثُ كانَ قتيلُ[1]
تَسيلُ على حَدِّ السُّيوفِ نُفوسُنا وليْستْ على غيْرِ السُّيْوفِ تَسيلُ
ونُنْكِرُ إنْ شئنا على الناسِ قوْلَهمْ ولا يُنْكِرونَ القول حين نقولُ
فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيلُ[2]
وأسْيافُنا في كلِّ شَرْقٍ ومغربٍ بها مِنْ قِرَاعِ الدارِعِينَ فُلولُ[3]

فقال: أحسنت، اجلس، بهذا بلغتُم، سلْ حاجتك. قلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لي العطاء ثلاثين رجلاً من أهلي. قال: نعم، عليّ إذا وعدْتُ، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك متمكِّن من القُدرة وليس دونك حاجز عن الفعل؛ فما معنى العِدة؟ فنظر إلى آبن دأب يريد منه كلاماً في فضل الموعد، فقال ابن دأب:

حلاوة الفِعلِ بوَعْدٍ يُنْجَزُ لا خيْرَ في العُرْف كنَهْبٍ يُنْهَزُ[4]

فضحك المهدي وقال:

الفعْل أحسنُ ما يكو نُ إذا تقَدَّمَهُ ضَمان

للمهلب يوصي بنيه:

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بَنِيّ، إذا غدا عليكم الرجل وراح مُسَلّماً فكفى بذلك تقاضيا .

وقال الشاعر:

أَرُوحُ بتَسْليمي عليك وأغْتَدي وحسبُكَ بالتَّسْليمِ مِنّي تقاضيا

وقال آخر:

---

(١) حتف أنفه: أي على الفراش وطلَّ: ذهب دمه هدراً .

(٢) الكهام: الكليل الحدّ .

(٣) الفلول: الآثار والندوب

(٤) ينهز: أي يتحيّن الإنسان فرصةً مواتية لانتهابه .

كفاكَ مُخَبـراً وجْهـي بشَـاني   وحسبُكَ أَنْ أَراكَ وأن تـراني
ومـا ظَنّـي بمن يعنيـه أمْـــرِي   ويعْلَمُ حـاجتي ويَـرى مكـاني

وكتب العتابي إلى بعض أهل السلطان: أما بعد؛ فإن سحاب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل الْمَطْل. والسلام.

وكتب الجاحظ إلى رجل وعَده: أما بعدُ فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن ثمرُها سالماً من جوائح الْمَطْل[1]. والسلام.

عبد الله بن طاهر ودعبل:

وعَدَ عبد الله بن طاهر دِعْبلا بغلام، فلما طال عليه تَصَدَّى له يوماً وقد ركب إلى باب الخاصّة، فلما رآه قال: أسأت الاقتضاء، وجهلت المأخذ، ولم تُحْسن النظر، ونحن أولى بالفضل؛ فلك الغلام والدابة متى ننزل إن شاء الله تعالى. فأخذ بعنانه دعبل وأنشده:

يا جَـوادَ اللّسـانِ مِـنْ غيرِ فعْـلٍ   ليْتَ في راحتيْـكَ جُـودَ اللّسـانِ
عيْـنَ مِهْـرانَ قـد لطَمْـتَ مِرَاراً   فـاتَّــقِ ذا الجلالِ في مِهْـرانِ
عُرْتَ عيْنـاً فـدَعْ لِمْهـرانَ عيْنـاً   لا تَـدَعْـهُ يطـوف في العِمْيـانِ

قال: فنزل له عن دابته، وأمر له بالغلام.

أبان وخلف ابن خليفة:

وسأل خلف بن خليفة أبَانَ بن الوليد جارية، فوعده بها وأبطأت عليه، فكتب إليه:

أرى حاجتي عِنـد الأميرِ كـأنَّهـا   تَهُـمُّ زمـانـاً عنـدَهُ بمُقـام
وأحْصَـرُ مـن إذْ كـارِهِ إن لقِيتُـه   وصـدق الحيـاء مُلْجِـمٌ بلجـامِ
أراهـا إذا كـان النهـارُ نَسيئـةً   وباللّيل تُقْضَى عنْدَ كُلّ مَنامِ[2]

(١) المطل: عدم الوفاء بالوعد.   (٢) النسأة: تأخير الثمن.

فياربّ أخْرِجْها فإنك مُخرجٌ مِنَ المَيْتِ حَيّاً مُفْصِحاً بكلامِ
فتَعْلَم ما شُكْري إذا ما قَضيْتَها وكيْفَ صَلاتي عنْدَها وصيامي

وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده بِعِدَة ومَطَلَه بها.

لا جَعَلَ اللهُ لي إليكَ ولا عنْدَكَ ما عِشتُ حاجةً أبدَا
ما جئْتُ في حاجةٍ أُسَرُّ بها إلا تثاقلْتَ ثمّ قلْتَ غدَا

وكتب دعبل إلى رجل وعده وعداً وأخلفه:

أحسِبْتَ أرْضَ اللهِ ضَيِّقَةً عَني فأَرْضُ الله لم تَضِقِ
وجعلْتَني فَقْعاً بِقَرْقَرَةٍ فوَطِئْتَني وطْئاً على حَنَقِ[١]
فإذا سألْتكَ حاجة أبداً فاضْرِبْ بها قُفْلاً على غَلَقِ
وأعِدَّ لي غُلاًّ وجامِعةً فاجْمَعْ يَدَيَّ بها إلى عُنُقي[٢]
ما أطْولَ الدُّنْيا وأوْسَعَها وأدلَّني بمَسالِكِ الطُّرُقِ

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في رجل كتب إليّ بعِدَةٍ في صحيفة ومطلني بها:

صَحِيفَةٌ طابَعُها اللّومُ عُنْوانُها بالجَهْلِ مَخْتومُ
يُهدَى لها والخُلْفُ في طَيِّها والمَطْلُ والتَّسْويفُ واللُّومُ
مَن وجْهُهُ نحسٌ ومَن قُرْبُهُ رِجْسٌ ومَنْ عِرْفانُهُ شُومُ
لا تهتَضِمِ إنْ بِتَّ ضَيْفاً لهُ فخُبْزُهُ في الجَوْفِ هاضُومُ[٣]
تَكْلمُهُ الألحاظ مِنْ رِقَّةٍ فهو بلحْظِ العيْنِ مَكْلُومُ[٤]
لا تَأْتَدِمْ شيئاً على أكْلِهِ فإنه بالجوعِ مَأْدومُ[٥]

---

(١) الفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة والقرقرة: الأرض المطمئنة اللينة، ويقال للذليل: هو أذلّ من فقع بقرقرة، لأنّه لا يمتنع على من اجتناه، أو لأنه يوطأ بالأرجل.
(٢) الجامعة: الغلّ والقيد، لأنها تجمع اليدين إلى العنف.
(٣) الهاضوم: الكثير الهضم. (٤) تكلمه: تجرحه. (٥) تأتدم: تأكل.

وقلت فيه:

صحيفـةٌ كُتِبَـتْ ليْـتٌ بها وعسى ... عُنْوانُها راحـةُ الرَّاجـي إذا يئسـا

وعدٌ له هاجسٌ في القلبِ قد بَرِمَتْ ... أحشاءُ صدري به مِن طول ما هَجَسا[1]

بَـراعـةٌ غَـرَّني منهـا ومِيـضُ سنيً ... حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتبِسـا[2]

فصادَفَتْ حَجَراً لو كنتَ تَضرِبُـهُ ... مِن لُؤمِه بعصا موسى لما انْبجَسـا[3]

كأنما صِيغَ منْ بُخْلٍ ومِن كَـذِبٍ ... فكـان ذاكَ لـه روحـاً وذا نَفَسـا

وقلت فيه:

رجـاءٌ دون أقْـرَبِـه السَّحـابُ ... ووعْـدٌ مثـلَ مـا لَمَـعَ السرابُ

وتَسْويـفٌ يَكِـلُّ الصَّبرُ عنـه ... ومَطْـلٌ مـا يقـومُ لـه حِسـابُ[4]

وأيـام خلـت مـن كـلّ خيرٍ ... ودنيـا قـد تَـوَزَّعهـا الكلاب

لطيف الاستمناح

قالت الحكماء: لطيف الآستمناح سبب النجاح، والأنفس ربما انطلقت وانشرحتْ بلطيف السؤال، وانقبضت وامتنعت بجفاء[5] السائل؛ كما قال الشاعر:

وجفَوْتنِي فقَطَعْتُ عنك فـوائـدي ... كـالـدَّرَّ يَقْطَعُـه جَفـاءُ الحالِـب

وقال العتابي: إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإياك والإلحاحَ عليه؛ فإنّ إلحاحك يَكْلِمُ[6] عِرْضَكَ ويُريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عِوَضاً لما يأخذ منك؛ ولعلّ الإلحاح يجمع عليك إخلاقَ ماءِ الوجه، وحرمانَ النجاح؛ فإنه ربما مَلّ المطلوبُ إليه حتى يستخف بالطالب.

---

(١) برمت: ملّت، وهجس: تحدّث به سرّاً.

(٢) مقتبساً: أي طالباً قبساً من وميضها وضوئها.

(٣) انبجس: تفجرّ.

(٤) التسويق: المطل، ويكلّ: يتعب.

(٥) الجفاء: من المجافاة، وهي المفارقة والبعد.

(٦) يكلِم: يجرح.

وقال الحسن بن هانيء:

تـأنّ مـواعيـدَ الكـرامِ فـرُبَّما ... حملْتَ من الإلحاحِ سَمْحاً على بَخْـلِ

وقال آخر:

إنْ كنت طالبَ حـاجـةٍ فتجَمَّـلِ ... فيها بأحسنِ مـا طَلَبْـتَ وأجْمْـلِ
إنَّ الكـريمَ أخـا المروءَة والنُّهَـى ... مَـن ليس في حـاجـاتـه بِمُثقِّـلِ

بين مروان ابن أبي حفصة وابن يزيد:

وقال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مَزْيد وهو خارج من عند المهدي فأخذت بعنان دابّته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها مائة ألف. قال: هاتِ لله أبوك، فأنشأت أقول:

يا أكرم الناس من عُجمٍ ومن عرب ... بعد الخليفة يا ضرغامـة العـربِ[1]
أفنيـت مـالـك تعطيـه وتُنْهِبـه ... يـا آفـة الفضـة البيضـاء والذهـبِ
إنّ السنان وحَدَّ السيـف لـو نطقـا ... لأخبرا عنك في الهيجاء بـالعجـبِ

عبد الملك ونفر من بني أمية:

المدائني قال: قَدم قوم من بني أُمية على عبد الملك بن مروان، فقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن ممن تعرف، وحقُّنا ما لا يُنكر، وجئناك من بعيد، ونَمُتُّ[2] بقريب، ومهما تعطنا فنحن أهلُه.

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

دحل عبدُ الملك بن صالح على الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة؟ قال: بل بالقرابة والخاصة. قال: يداك يا أمير المؤمنين أطْلَقُ من لساني بالمسألة، فأعطاه وأجزل له.

---

(١) الضرغامة: الأسد. (٢) نمتّ: نصل.

ودخل أبو الرَّيان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أثيراً، فرآه خائراً[1]، فقال: يا أبا الريان، مالك خائراً؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين! قال: كيف ذلك؟ قال: نُسأل ما لا نقدر عليه ونَعتذر فلا نُعْذَر. قال عبد الملك: ما أحسنَ ما اسْتَمْنَحْتَ واعْتَرَرْتَ[2] يا أبا الريّان. أعطوه كذا وكذا.

الحجاج والشعبي:

العتّابي قال: كتب الشَّعبي إلى الحجاج يسأله حاجة، فاعتلَّ عليه[3]، فكتب إليه الشَّعبي: والله لا عَذَرْتُك وأنت والي العراقين وابنُ عظيم القَريتين. فقضى حاجته. وكان جدّ الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي.

معاوية وابن زرارة:

العتبي قال: قدم عبد العزيز بنُ زرارة الكِلابي على أمير المؤمنين معاوية فقال: إني لم أزل أهزّ ذوائب الرِّحال إليك، فلم أجد مُعَوَّلاً إلا عليك، أمتطي الليل بعد النهار، وأسِمُ[4] المجاهلَ بالآثار، يقودني إليك أملٌ، وتسوقني بلوى، والمجتهد يُعذر، وإذا بلغتك فَقَطني[5]. فقال: احطط عن راحلتك.

يزيد بن المهلب وكريز:

ودخل كُريز بن زُفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير، أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغُر عنك وأنت أكبرُ منه، ولا العجب أن تفعل، ولكن العجب ألا تفعل. قال: سل حاجتك. قال: حملت عن عشيرتي عَشْر ديات. قال: قد أمرتُ لك بها وشفعتُها بمثلها.

---

(١) خائراً: ضعيفاً. (٢) اعترَّ: أتاه طالباً معروفة.

(٣) اعتلَّ عليه: أي أوجد لنفسه عللاً لعدم تلبية ما سأله

(٤) أسِمُ: أعلّم، والواسم: العلامة والأثر. (٥) فقطْني: مقيمة وقاطنة.

حاتم الطائي وسائل حاجة:

العتبي عن أبيه قال: أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال: إنها وقعت بيني وبين قوم ديات، فاحتملتها في مالي وأملي، فعدِمْتُ مالي وكنتَ أملي، فإن تحملها عني فرُبَّ همّ قد فرجتَه، وغَمّ كفيتَه، ودين قضيتَه، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك،ولم أيأسْ من غدِك. فحملها عنه.

خالد القسري وسائل:

المدائني قال: سأل رجل خالداً القسري حاجة، فاعتل عليه، فقال له: لقد سألتُ الأمير من غير حاجة. قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: رأيتك تُحب من لك عنده حُسْنُ بَلاء؛ فأردتُ أن أتعلّق منك بحبل مودة. فوصله وحباه وأدنى مكانَه.

المنصور والهجري:

الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهَجريّ على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين نَغَضَ فمي[1]، وأنتم أهلَ البيت بركة، فلو أذِنْتَ لي فقبَّلتُ رأسك لعل الله يُشدّد لي منه! قال: اختر منها أو من الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين. أهونُ عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألاّ تبقى حاكَّة في فمي. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

أبو دلف وجار له:

وذكروا أن جاراً لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دَين فادح، حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه بها، فسألهم ألفي دينار؛ فقالوا له: إنّ دارك تساوي خمسمائة. قال: وجواري من أبي دُلف بألف وخمسمائة! فبلغ أبا دلف؛ فأمر بقضاء دينه وقال له: لا تَبعْ دارَك ولا تَنتقل من جوارنا.

---

(١) نغض فمي: أي تحرّكت أسنانه وقلقت.

قيس بن سعد وامرأة:

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت: أشكو إليك قلة الجِرْذان. قال: ما أحسن هذه الكِناية! املأوا لها بيتَها خُبزاً ولحماً وسمناً.

المنصور وأزهر السمان:

إبراهيم بن أحمد عن الشّيباني قال: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدّث، فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه أزهر، فرحّب به وقرّبه، وقال له: ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري متهدمة، وعليّ أربعة آلاف درهم، وأريد لو أن ابني محمداً بَنَى بعِياله[1]. فوصله باثنى عشر ألفاً، وقال: قد قضينا حاجتك يا أزهر؛ فلا تأتنا طالباً. فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنةٍ أتاه، فلما رآه أبو جعفر قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: جئتك مسلماً. قال: إنه يقع في خَلَد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا مسلّماً. قال: قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلّماً. فأخذها ومضى؛ فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: أتيت عائداً، قال: إنه يقع في خلدي أنك جئت طالباً. قال: ما جئتُ إلا عائداً. قال: قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلماً ولا عائداً. فأخذها وانصرف؛ فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: دعاءٌ كنتُ أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مُستجاب، وذلك أني قد دعوت الله به ألا أراك فلم يَسْتَجِبْ لي، وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً وتعال متى شئت، فقد أعْيَتْني فيك الحيلة.

ابن المهلب وأعرابي:

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له. إني مدحتك فاستمع. قال: على رسْلِك[2]! ثم دخل بيته وتقلّد سيفه وخرج، فقال: قُل، فإن أحسنتَ حكّمناك، وإن

---

(١) بنى بعياله: أي دخل على زوجته وتزوّج بها. (٢) على رسلك: على مهلك لا تتعجّل.

أسأت قتلناك! فأنشأ يقول:

أمِنْتُ بداودٍ وجودِ يمينِه ... من الحَدَثِ المخْشِيِّ والبُؤْس والفقْر
فأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبْوَةً ... منَ الحدَثَان إذْ شَدَدْتُ به أَزْري[1]
له حُكْمُ لُقْمانٍ وصورَةُ يوسُفٍ ... وحُكْمُ سُلَيْمانٍ وعَدْلُ أبي بكْر
فتًى تَفْرَقُ الأموالُ من جُودِ كفِّه ... كما يَفْرَقُ الشيطانُ من ليْلَةِ القدرِ[2]

فقال: قد حكمناك؛ فإن شئت على قدرك، وإن شئت على قدري. قال: بل على قدري. فأعطاه خمسين ألفا، فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير؟ قال: لم يك في ماله ما يفي بقدْرِه! قال له داود: أنت في هذه أشعرُ منك في شعرك. وأمر له بمثل ما أعطاه.

الرشيد وإسحاق الموصلي:

الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأنشده:

وآمِرَةٍ بالبُخلِ قلتُ لها اقْصري ... فليس إلى ما تأمُرينَ سبيلُ
فِعَالي فَعالُ المُكْثِرينَ تَجمُّلاً ... ومالي كما قد تَعْلَمينَ قليلُ
فكيفَ أخافُ الفقْرَ أو أُحْرَمُ الغِنَى ... ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ

فقال له الرشيد: لله دَرُّ أبيات تأتينا بها! ما أحسنَ أصولها وأبْيَنَ فصولها، وأقلّ فضولها! يا غلام أعطه عشرين ألفا. قال: والله لا أخذت منها درهما واحدا! قال: ولم؟ قال: لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خيرٌ من شعري! قال: أعطوه أربعين ألفا. قال الأصمعي: فعلمت والله أنه أصْيَدُ لدراهم الملوك مني.

(١) النبوة: المصيبة والجفوة.
(٢) تفرق: تخاف، من الفرق.

معاوية وزيد ابن منية:

العتبي عن أبيه قال: قدم زيد بن مُنية من البصرة على معاوية، وهو أخو يعلي بن مُنية صاحب الجمل، جمل عائشة رضي الله عنها، ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة؛ وكانت ابنة يعلي عند عتبة بن أبي سفيان؛ فلما دخل على معاوية شكا دَيْنَه، فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفا. فلما ولّى قال: ولِيوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى، ثم قال له: الْحَقْ بصهرك - يعني عُتبة - فقدم عليه مصر. فقال: إني سرت إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف[١]، ألبس أردية الليل مرَّة، وأخوض في لُجَج السراب أخرى، مُوقَراً[٢] من حُسن الظن بك، وهارباً من دهرٍ قَطِم[٣]، ومن دين لَزِم، بعد غِنىً جَدَعْنا به أنوفَ الحاسدين. فقال عتبة: إن الدهر أعاركم غنى، وخلطكم بنا ثم استردّ ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضَيْعَةَ معه، وأنا رافع يدي ويدك بيد الله، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية.

ابن سويد وأبو ساسان:

إبراهيم الشيباني قال: قال عبد الله بن علي بن سُويد بن مَنْجوف: أعدَمَ أبي إعدامةً بالبصرة وأنفَض[٤]، فخرج إلى خراسان فلم يصب بها طائلا. فبينا هو يشكو تعزُّر الأشياء عليه، إذ عدا غلامُه على كسوته وبغلته فذهب بهما، فأتى أبا ساسان حُضين ابن المُنذر الرقاشي فشكا إليه حاله، فقال له: والله يا بن أخي، ما عمُّك ممن يحمل محاملَك، ولعلّي أن أحتال لك. فدعا بكَسوة حسنة فألبسني إياها، ثم قال: امض بنا. فأتى باب والى خراسان، فدخل وتركني بالباب، فلم ألبث أن خرج الحاجب فقال: أي عليّ بن سُويد؟ فدخلت إلى الوالي، فإذا حُضين على فراش إلى جانبه، فسلمت على الوالي فردّ عليّ، ثم أقبل عليه حُضين فقال: أصلح الله الأمير، هذا علي

---

(١) المتالف: أي ما فيه تلفٌ للنفس وهلاك.

(٢) موقراً: مزوّداً محملاً. (٣) دهرٌ قطم: دهرٌ صؤل.

(٤) وأنفض: أي لم يبق لديه شيء من مالٍ وغيره.

ابن سُويد بن مَنجوف سيد فتيان بكر بن وائل وابن سيد كهولها، وأكثر الناس مالا حاضراً بالبصرة وفي كل موضعٍ ملكتْ به بكرُ بن وائل مالا، وقد تجمّل بي إلى الأمير في حاجة. قال: هي مقضية. قال: فإنه يسألك أن تمُدّ يدك في ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت. قال: لا والله لا أفعل ذلك به، نحن أولى بزيادته. قال: فقد أعفيناك من هذه إذْ كرهتَها، فهو يسألك أن تحمِّله حوائجك بالبصرة. قال: إن كانت حاجة فهو فيها ثقة، ولكن أسألك أن تكلّمه في قبول معونة منا؛ فإنا نحب أي يُرَى على مثله من أثَرنا. فأقبل عليّ فقال: يا أبا الحسن، عزمتُ عليك ألاّ تردّ على عمّك شيئاً أكرمك به. فسكتْ. قال: فدعا لي بمال ودوابّ وكِساً ورقيق، فلما خرجت قلت: أبا ساسان، لقد أوقفتني على خطة ما وقفتُ على مثلها قط. قال: اذهب إليك يا بن أخي، فعمُّك أعلم بالناس منك؛ إن الناس إن علموا لك غِرارة[1] من مال حَثَوْا[2] لك أخرى وإن يعلموك فقيراً تعدّوا عليك مع فقرك.

المهدي وأبو دلامة:

إبراهيم الشيباني قال: ولد لأبي دلامة ابنة ليلا، فأوقد السِّراج وجعل يخيط خريطة من شُقق، فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه، وكان لا يحجب عليه، فأنشده:

لو كان يقعُدُ فوقَ الشمسِ من كَرَمٍ　　قومُ لِقيلَ اقْعُدوا يا آل عبّاسِ
ثم ٱرتَقوا من شُعاع الشمس في دَرَجٍ　　إلى السماء فأنتمْ أكرَمُ الناسِ

قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة، فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فيها شعرا؟ قال: نعم قلت:

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أُمُّ عيسى　　ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكنْ قد تَضُمُّكِ أُمُّ سَوءٍ　　إلى لَبّاتِها وأبٌ لئيمُ[3]

---

(١) الغرارة: الكيس الكبير.

(٢) حثوا: أعطوا وجمعوا وحثا التراب: أهاله

(٣) اللبّات: جمع لبّة، وهي الصدر أو موضع القلادة منه.

قال فضحك المهدي وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين. وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمر أن تُملأ مالا، فلما نُشرت أخذتْ عليهم صحنَ الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجا[١]، فأُخذ به وهو سكران، فأُتي به إلى المهدي؛ فأمر بتمزيق الساج عليه وأن يحبس في بيت الدَّجاج؛ فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سُكره ورأى نفسه بين الدّجاج، صاح: يا صاحب البيت! فاستجاب له السجان، قال: مالك يا عدّو الله؟ قال: ويْلَك! من أدخلني مع الدَّجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة! أُتي بك أمير المؤمنين وأنت سكران، فأمر بتمزيق ساجك وحبْسك مع الدّجاج. قال له: ويلك! أوَ تقدر على أن تُوقد لي سراجا وتَجيئني بدواة وورق ولك سَلَبي[٢] هذا. فأتاه بدواة وورق؛ فكتب أبو دُلامة إلى المهديّ:

أَمِن صهْباءَ صافيةِ المِزاجِ ... كأنّ شعاعَها لهبُ السَّراجِ
تَهَشُّ لها النفوسُ وتشتهيها ... إذا بَرَزت تَرقرقُ في الزُّجاجِ
وقد طبخت بنار الله حتىّ ... لقد صارت من النُّطف النّضاج[٣]
أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسي ... علامَ حبستِني وخرقت ساجي
أُقادُ إلى السجونِ بغير ذنبٍ ... كأنّي بعضُ عُمَّال الخَراجِ
ولو معهم حُبستُ لهان وجدي ... ولكنّي حُبستُ مع الدَّجاجِ
دَجاجاتٌ يُطيفُ بهنّ ديكٌ ... يُنادي بالصّياحِ إذا يُناجي
وقد كانت تُخبّرُني ذنوبي ... بأنّي من عذابك غيرُ ناجي
على أنيّ وإن لاقيتُ شراً ... لخيْرِك بعد ذاك الشرِّ راجي

ثم قال أوصِلها إلى أمير المؤمنين. فأوصلها إليه السجّان، فلما قرأها أمر بإطلاقه

---

(١) الساج: الطيلسان الأسود أو الأخضر.

(٢) السلب: الغنيمة. (٣) النُّطفة: الماء الصافي قلّ أو كثر.

وأدخله عليه، فقال له: أين بت الليلة أبا دُلامة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين. قال: فما كنتَ تصنع؟ قال: كنت أُقاقي معهن حتى أصبحْت. فضحك المهدي وأمر له بصلة جزيلة، وخلع عليه كسوة شريفة.

بين أبي دلامة وعيسى بن موسى:

وكتب أبو دُلامة إلى عيسى بن موسى وهو والي الكوفة رُقعة فيها هذه الأبيات:

إذا جئـتَ الأميرَ فقـل سلامٌ ... عليـك ورحمةُ الله الرَّحيمِ
فأمّا بعـدَ ذاك فلي غـريمٌ ... من الأنصارِ قُبحَ منْ غـريمِ
لَـزومٌ ما علِمـتُ لِبـابِ داري ... لُـزُومَ الكلبِ أصحاب الرَّقيمِ[1]
لـه مئـةٌ عليَّ ونِصـفُ أُخـرَى ... ونِصـفُ النصْفِ في صكٍّ قـديمِ
دراهِـمُ ما انتفعْـتُ بها ولكـن ... وصَلْـتُ بها شُيـوخَ بني تميمِ
أتـوني بـالعشيرة يسـألـوني ... ولم أكُ في العشيرة بـاللئيمِ

قال: فبعث إليه بمائة ألف درهم.

أبو دلف وأبو دلامة:

ولقي أبو دُلامة أبا دُلف في مصَادٍ له وهو والي العراق، فأخذ بعِنان فرسه وأنشده:

إنّـي حَلْفـتُ لئِـنْ رأيتُـكَ سـالماً ... بِقُـرَى العـراقِ وأنـتَ ذُو وَفْـرِ
لتُصَلّيَـنَّ عَلي النبيّ مُحَمَّـدٍ ... ولتَمْلأَنَّ دراهماً حِجْـرِي[2]

فقال: أمّا الصلاة على النبيّ فنعم، ﷺ. وأما الدراهم، فلمّا نرجع إن شاء الله تعالى. قال له: جُعلتُ فِداك. لا تَفْرق بينهما. فاستلَفها له وصُبّت في حِجره حتى أثقلتْه.

(١) أصحاب الرقيم: أصحاب الكهف، وفي معنى الرقيم أقوال مختلفة، فقيل: هو الكتاب، وقيل: هو كتبت فيه أسماؤهم، أو هو الدواة، أو هو القرية أو هو الوادي.

(٢) حجري: حضني.

أبو دلامة والمهدي:

ودخل أبو دُلامة على المهدي، فأنشده أبياتاً أعجب بها، فقال له: سَلْني أبا دُلامة وآحتكم وأفرِط ما شئت. فقال: كَلبٌ يا أمير المؤمنين أصطاد به. قال: قد أمرنا لك بكَلْب، وهاهنا بلغت همتك، وإلى هاهنا انتهت أُمنيتك؟ قال: لا تعْجَل عليّ يا أمير المؤمنين، فإنه بقي عليّ. قال: وما بقي عليك؟ قال: غلامٌ يقود الكلب. قال: وغلام يقود الكَلب. قال: وخادِم يَطبخ الصَّيد. قال: وخادم يطبخ الصيد. قال: ودار نَسكنها. قال: ودار تَسكنها. قال: وجارية نأوي اِليها. قال: وجارية تأوي إليها. قال: قد بقي الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألفي جريب[1] عامرة وألفي جريب غامرة. قال: وما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: التي لا تَعْمُر. قال: أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من فيافي بني أسد. قال: قد جعلتُها كلّها لك عامرة. قال: فيأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده؟ قال: أما هذه فدعها. قال: ما منعتَني شيئاً أيسرَ على أمّ ولدي فقداً منه.

أبو دلامة والمنصور:

ودخل أبو دُلامة على أبي جعفر المَنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة، وكان قد أخذ أصحابَه بلباسها وأخذهم بلُبس دراريع، عليها مكتوب بين كتفي الرجل: ﴿فسيَكْفيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[2] وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم. فدخل عليه أبو دُلامة في ذلك الزِّيّ، فقال له: كيف أصبحت أبا دُلامة؟ قال: بشَرّ حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ ويلك. قال: وما ظَنُّك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجههُ في وسطه، وسيفهُ على استِه، وقد نَبَذ كتاب الله وراء ظهره؟ قال: فضحك أبو جعفر وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دُلامة بصلة.

---

(١) الجريب: ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، وقيل عشرة آلاف ذراع.

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٧.

هو والمنصور أيضاً:

وأوصل أبو دُلامة إلى العبّاس بن منصور رقعةً فيها هذه الأبيات:

قِفْ بالديار وأيَّ الدهرِ لم تَقِفِ — على منازلَ بيْنَ السَّهْلِ والنجفِ
وما وُقُوفُكَ في أطْلال منزلةٍ — لولا الذي استحدثتْ في قلبكَ الكَلِفِ[1]
إنْ كنتَ أصبَحْتَ مشْغوفاً بجاريَةٍ — فلا وربِّكَ لا يشفيكَ من شَغَفِ
ولا يَزيدُك إلاّ العَلَّ من أَسَفٍ — فهل لقلبك مِن صبْرٍ على الأسفِ[2]
هذي مقالَةُ شَيْخٍ مِنْ بني أسدٍ — يُهدِي السَّلامَ إلى العبَّاسِ في الصُّحُفِ
تَخُطُّها من جواري المِصْرِ كاتبةٌ — قد طالما ضُربت في اللام والألفِ
وطالَما اخْتَلَفتْ صَيْفاً وشاتِيَةً — إلى مُعَلِّمِها باللَّوْحِ والكتفِ
حتى إذا ما استوىَ الثَّدْيَانِ وامْتلأت — منها وخِيفَتْ على الإسراف والقَرفِ[3]
صينتْ ثلاثَ سِنِينٍ ما تَرَى أحداً — كما تُصانُ ببَحْرٍ دُرَّةُ الصَّدَفِ
بينا الفتَى يتَمَشَّى نحْوَ مَسْجِدِهِ — مُبادِراً لِصلاةِ الصُّبْحِ بالسُّدفِ[4]
حانتْ لهُ نَظْرَةٌ منها فأبْصَرَها — مُطِلَّةً بين سجْفَيْها مِنَ الغُرَفِ
فَخَرَّ في التُّرْبِ ما يَدْرِي غَدَاتَئِذٍ — أخَرَّ مُنْكَشِفاً أو غيرَ مُنْكَشِفِ
وجاءَهُ القَوْمُ أفْواجاً بمائِهِمُ — لِيَنْضَحُوا الرجُلَ المَغْشِيَّ بالنُّطَفِ[5]
فَوَسْوَسُوا بقُرانٍ في مَسَامِعِهِ — خوفاً من الجنّ والإنسان لم يَخَفِ...
... شيئاً، ولكنه منْ حُبِّ جاريَةٍ — أمْسَى وأصبح منْ موْتٍ على شرفِ
قالوا لك الخيْرُ ما أبصرتَ قلتُ لهم — جنِّيَّةٌ أقصَدَتْني من بني خَلَفِ
أبصرْتُ جاريةً مَحْجوبةً لهمُ — تطلَّعَتْ من أعالي القصرِ ذي الشُّرَفِ
فقلتُ: أَيُّكُمُ واللهُ يأْجُرُهُ — يُعيرُ قُوَّتَهُ منِّي إلى ضَعَفي
فقامَ شَيْخٌ بَهيٌّ منْ تجارِهِمُ — قد طالَما خَدَعَ الأقوامَ بالحَلِفِ

---

(١) الكلف: العاشق.

(٢) العَلّ: المرض والعلّة. (٣) القرف: التهمة.

(٤) السُّدف: جمع سدفة وهي الظلمة.

(٥) النُّطف: جمع نطفة، وهو الماء الصافي قلّ أو كثر.

فابتاعَها لي بـأَلْفَـيْ أَحْمَـرٍ فغَـدَا بها إليَّ فـألقـاهـا على كَتِفِـي
فبِـتُّ أَلثِمهـا طـوْراً وتلثِمُني طوْراً ونفعلُ بعض الشيء في اللُّحُـفِ
بِتنا كذلـك حتى جـاءَ صـاحِبُهـا يَبْغِي الدنانيرَ بالميزان ذي الكِفَف[١]
وذاك حقٌّ علي «زَنْدٍ» وكيف بـه والحقُّ في طرفٍ والعينُ في طرف[٢]
وبين ذاك شهـودٌ لم أبـال بهمْ أكنـتُ مُعْتَرفـاً أم غيرَ مُعْتَـرِفِ
فإن تصِلْنِي قَضَيْتُ القـومَ حَقهُـمُ وإن تَقُلْ لا فَحَقُّ القـوم في تَلَـفِ

فلما قرأ العباس الأبيات أُعجب بها وآستظرفها وقضى عنه ثمن الجارية. واسم أبي دلامة زَنْد.

جعفر بن يحي وعبد الملك بن صالح:

إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحي يوماً: إني آستأذنت أمير المؤمنين في الحجامة وأردتُ أن أخلوَ وأَفِرَّ من أشغال الناس وأتروَّح، فهل أنت مساعدي قلت: جعلني الله فِداك، أنا أسعد الناس بمساعدتك وآنسُ بمُخالاتك[٣]. قال: بكِّرْ إليَّ بُكُور الغراب. قال فأتيت عند الفجر الثاني، فوجدت الشمعةَ بين يديه، وهو قاعد ينتظرني للميعاد. قال فصيلنا ثم أفضْنا في الحديث حتى جاء وقت الحجامة فأُتى بحَجَّام فحجَّمنا في ساعة واحدة، ثم قُدِّم إلينا طعامٌ فطَعِمْنا، فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المُنادمة، وضُمّخنا بالخَلُوق[٤]، وظَلِلنا بأسَرِّ يومٍ مرَّ بنا، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب، فقال: إذا جاء عبد الملك القَهرمانِي فأْذنْ له. فنسي الحاجب. وجاء عبدُ الملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنِّه وقَدره وأدبه، فأذِن له الحاجب. فما راعنا إلا طلعةُ عبد الملك. فتغيرُ لذلك جعفرُ بن يحي وتنغّص عليه ما كان فيه. فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحالة، دعا غلامَه فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامتَه،

(١) ذي الكفف: أي الذي له كفّتان.

(٢) العين الذهب.

(٣) مخالاتك: أي الخلوة وإيّاك.

(٤) الخلوق: الطيب.

ثم جاء ووقف على باب المجلس، وقال: آصنعوا بي ما صنعتم بأنفسكم. قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة، ودعا بالطعام فطَعِم. ثم جاء بالشراب فشرِبَ ثلاثاً، ثم قال: ليُخفِّف عنيّ فإنه شيء ما شربتُه قط. فتهلل وجهُ جعفر وفرح. وكان الرشيد قد عتَب على عبد الملك بن صالح ووجد[1] عليه. فقال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك، قد تفضّلتَ وتطوّلت وأسعدت، فهل من حاجة تبلُغها مقدرتي، أو تحيط بها نِعمتي، فأقضيَها لك مكافأةً لما صنْعت؟ قال: بلى، إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ عليّ فسَلْهُ الرضا عني. قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. ثم قال: عليَّ أربعة آلاف دينار. قال: حاضرة، ولكن من مال أمير المؤمنين أحبُّ اليك. قال: وابني إبراهيم أُحب أن أشُدّ ظهره بصهرٍ من أولاد أمير المؤمنين. قال: قد زوّجه أمير المؤمنين عائشة. قال: وأُحب أن تَخفق الألويةُ على رأسه. قال: قد ولآه أمير المؤمنين مِصر. قال: وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدامه على قضاء الحوائج من غير آستئذان أمير المؤمنين. فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر، فلم نلبث أن دُعي بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، فعقد النكاح وحُملت البدَرُ إلى منزل عبد الملك؛ وكتب سجلُّ إبراهيم على مصر.. وخرج جعفر فأشار إلينا، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه، نزل ونزلنا بنزوله؛ فالتفت إلينا، فقال: تعلقت قلوبكم بأوّلِ أمرِ عبد الملك فأحببتم معرفة آخرِه، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين مَثَلتُ بين يديه وابتدأت القصة من أولها؛ فجعل يقول: أحْسَن واللهِ، فما صنعتَ؟ فأخبرته بما سأل وبما أجبتُه به، فجعل يقول في ذلك: أحسنت: أحسنت! وخرج إبراهيم والياً على مصر.

ذو حاجة على باب ملك من الأكاسرة:

وقدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة، فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه، فتلطف في رقعة أوصلها إليه، وفيها أربعة أسطر:

---

(١) وجد: من الموجودة، وهي الغضب.

في السطر الأول: الضُّر والأمل أقدماني عليك.

والسطر الثاني: الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة.

والسطر الثالث: الانصراف بلا فائدة فتنةٌ وشماتةٌ للعدوّ.

والسطر الرابع: فإما نعمْ مثمرة، وإما لا مُرِيحةَ.

فلما قرأها وقّع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها.

يحي بن خالد وشاعر:

وقد دخل رجل من الشعراء على يحي بن خالد بن يَرْمك فأنشده:

سألتُ النَّدَى هل أنت حُرٌّ؟ فقال لا ... ولكنَّني عبدٌ ليَحْيي بنِ خالِدِ
فقلتُ شِراءٌ قال لا بل وِراثةً ... تَوارَثَني عن والدٍ بعدَ والِد

فأمر له بعشرة آلاف.

خالد القسري وأعرابي:

ودخل أعرابيّ على خالد بن عبد الله القسريّ فأنشده:

أخالِدُ إني لم أَزُرْكَ لخَلَّةٍ ... سِوى أنني عافٍ وأنتَ جوادُ(١)
أخالدُ بيْنَ الحمدِ والأجرِ حاجتي ... فأيَّهما تأْتي فأنتَ عِمادُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

العباس القائد وابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى ـ ودخلتُ على أبي العبّاس القائد فأنشدتُه:

اللهُ جَرَّد للنَّدَى والباسِ ... سيْفاً فقلّدَهُ أَبا العبّاسِ
مَلِكٌ إذا استَقْبَلْتَ غُرَّةَ وجهِه ... قبضَ الرَّجاءُ إليك روحَ الياسِ

(١) الخَلّة: الصداقة وعافٍ: معدم وفقير.

وجـهُ عليـه مـنَ الحياءِ سَكينـةٌ ... ومحبَّـةٌ تَجْـري مـن الأنفـاسِ
وإذا أحـبَّ اللهُ يَـومـاً عبْـدَهُ ... ألقـى عليـه محبَّـةً للنـاس

ثم سألتهُ حاجة فيها بعضُ الغِلظ، فتلكأ عليّ. فأخذت سحَايةً[1] من بين يديه فوقّعتُ فيها على البديهة:

ما ضرَّ عندك حـاجتي مـا ضرَّهـا ... عُذراً إذا أعْطيْتَ نفسكَ قـدْرَهـا
انظرْ إلى عَـرْضِ البلادِ وطـولِهـا ... أوَلسـتَ أكـرمَ أهلهـا وأبَـرَّهـا
حاشى لجودِك أنْ يُـوَعّـرَ حـاجتي ... ثقَتي بِجودِك سَهَّلَـتْ لي وَعْـرَهـا
لا يَجتَني حُلْـوَ المحـامـدِ مـاجِـدٌ ... حتى يذوقَ مـن المطـالـبِ مُـرَّهـا

فقضى الحاجة وسارع إليها.

المتوكل وعبدالله ابن يحي:

وأبطأ عبدُالله بن يحي عن الديوان، فأرسل إليه المتوكل يتعرّف خبره، فكتب إليه:

عليـلٌ مـن مكـانيْـنِ ... مِـنَ الإفلاسِ والدَّيْـنِ
ففـي هٰـذيْـنِ لي شُغْـلٌ ... وحَسْبي شُغْـلُ هٰـذيْـنِ

فبعث إليه بألف دينار.

الفضل بن يحي ومستمنح:

عبدالله بن منصور قال: كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحي، فأتاه الحاجب فقال: إن بالباب رجلا قد أكثر في طلب الإذن وزَعَم أن له يداً يَمُتُّ بها فقال: أدْخِلْه. فدخل رجل جميل الوجه رَثُّ الهيئة، فسلّم فأحْسَن. فأومأ إليه بالجلوس فجلس؛ فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام، قال له: ما حاجتك؟ قال له: قد

(١) السحاية: القرطاس.

أعربتْ بها رثاثةُ هيئتي، وضعفُ طاقتي! قال: أجلْ، فما الذي تَمُتُّ به؟ قال: ولادةٌ تقرب من ولادتك، وجِوار يدنو من جوارِك، واسم مشتق من اسمك. قال: أمّا الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت، وقد يُوافق الاسمُ الاسم، ولكن ما عِلْمُكَ بالولادة؟ قال: أعلمتْني أمي أنها لما وضَعتْني قيل إنه وُلد الليلةَ ليحيى بن خالد غلام وسُمّي الفضل؛ فسمّتني فُضَيْلاً، إعظاماً لاسمك أن تُلْحِقني بك. فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمسٌ وثلاثون. قال: صدقت، هذا المقدار الذي أَتيت عليه، فما فعلت أمُّك؟ قال: توفيت رحمها الله، قال: فما منعك عن اللُّحوق بنا فيما مضى؟ قال: لم أرض نفسي للقائك، لأنها كانت في عامّية وحداثة تُقعِدني عن لقاء الملوك. قال: يا غلام أعطه لكل عام مضى من سِنيه ألفاً، وأعطه من كُسوتنا ومراكبنا ما يصلح له. فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

من حبيب إلى ابن أبي دواد:

وكتب حبيب بن أوس الطائي إلى أحمد بن أبي دُواد:

اعلمْ وأنــتَ المرءُ غيْــرَ مُعلَّــمِ ... وافهمْ جُعِلْتُ فِداك غيْـرَ مُفَهَّـمِ

أنّ اصطناع العُـرْفِ مـا لم تُـولِـهِ ... مُستكْمِلا كالثّوْبِ مـا لم يُعْلَـمِ (١)

والشُّكْـرُ مـا لم يُسْتَشَـرْ بصنيعَـةٍ ... كـالخَطِّ تَقْـرَؤُهُ وليس بمُعْجَـمِ (٢)

وتفنُّني في القـولِ إكثـارٌ وقـد ... أَسْرجْتَ في كرَم الفعالِ فألجِمِ

وقال دعبل بن علي الخزاعي في طاهر بن الحسين صاحب خراسان:

أيـا ذا اليَمنَيْــنِ والدّعْــوتَيْــنِ ... ومـن عنـده العُـرْفُ والنّـائـلُ

أتــرْضى لمثلــيَ أنّــي مُقيمٌ ... ببـابِـكَ مُطّـرحٌ خـامِـلُ

رَضيـتُ مـن الوُدِّ والعـائِـداتِ ... ومـن كـلّ مـا امّـلَ الآمِـلُ

بتَسليمَـةٍ بيْـنَ خمسٍ وسِـتّ ... إذا ضَمّـكَ المجلِسُ الحافِـلُ

وما كنتُ أرضى بذا مِن سِواكَ ... أيَـرضى بـذا رَجُـلٌ عـاقـلُ

(١) يعلم: يطرز ويوشّى. (٢) يستثر: يثار ويصحب الخط المعجم: المنقوط.

وإن نابَ شغْلٌ ففي دون ما تُدبِّرُهُ شُغُلٌ شاغِلُ
عليكَ السلامُ فإني امرُؤٌ إذا ضاقَ بي بلدٌ راحِلُ

بين زياد وضبيّ:

الأصمعي قال: نظر زياد إلى رجل من ضَبّة يأكل أكلا قبيحاً، وهو أقبح الناس وجهاً، فقال: يا أخا ضبّة، كم عيالك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهن وجهاً، وهنّ آكَلُ مني. فضحك زياد وقال: لله درك! ما ألطفَ سؤالك! افرضوا له ولكل واحدة منهن مائة وخادماً، وعجّلوا له ولهن بأرزاقهن. فخرج الضّبي وهو يقول:

إذا كنتَ مُرْتادَ السّماحةِ والنّدَى فنادِ زِياداً أَوْ أَخاً لِزيادِ
يُجبْكَ امرُؤٌ يُعْطي على الحمدِ مالَهُ إذا ضَنّ بالمعْروفِ كُلُّ جَوادِ
وما لَيَ لا أُثْني عليكَ وإنّما طَرِيفيَ من مَعروفكمْ وتِلادِي(١)

ووقف دعبل ببعض أمراء الرقّة، فلما مثل بين يديه قال: أصلح الله الأمير، إني لا أقول كما قال صاحب مَعْن:

بأيّ الخلّتَيْن عليك أُثْني فإني عندَ مُنْصرَفي مَسُول
أبالحسنى وليس لها ضِياءٌ عليّ فمنْ يُصَدِّقُ ما أقول
أمِ الأخرى ولستَ لها بأهْلٍ وأنتَ لكلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُول

ولكني أقول:

ماذا أقولُ إذا أَتيْتُ مَعاشِري صِفْراً يَداي منَ الجواد المُجْزِلِ
إنْ قلتُ أَعطاني كذَبْتُ وإن أَقُلْ ضَنّ الأميرُ بمالِهِ لم يَجْمُلِ
ولأنْتَ أعْلَمُ بالمكارِمِ والعُلا مِنْ أنْ أقولَ فعَلْتَ ما لم تَفعلِ
فاخْتَرْ لنفسكَ ما أقولُ، فإنّني لا بُدّ مُخْبِرهُمْ وإنْ لم أُسْأَلِ

قال له: قاتلك الله! وأمر له بعشرة آلاف درهم.

بشر بن مروان وابن عبدل:

العُتبي قال: دخل ابن عَبْدل على عبد الملك بن مبشر بن مروان لما ولي الكوفة،

(١) الطريف والتالد: المال المكتسب والموروث.

فقعد بين السماطين[1] ثم قال: أيها الأمير، إني رأيت رُؤيا فأذَنْ لي في قَصَصِها. فقال: قل. فقال:

أغفَيْت قبل الصُّبْح نَومَ مُسَهَّدٍ   في ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها
فرأيتُ أنكَ رُعْتَنِي بوَليدةٍ   مَفلوجَةٍ حَسَنٍ عليَّ قيامُها[2]
وببدْرة حُمِلَت إليّ وبغْلةٍ   شَهْباءَ ناجيَةٍ يَصِرُّ لَجامُها[3]

قال له عبد الملك بن بشر بن مروان: كل شيء رأبت فهو عندي إلا البغلة، فإنها دهماء فارهة[4]. قال: آمرأتي طالق ثلاثا إن كنتُ رأيتُها إلاّ دهماء، إلاّ أني غَلِطت.

علي الأرميني والبطين:

الشيباني عن البطَين الشاعر قال: قدمت على علي بن يحيى الأرمينيّ فكتبتُ إليه:

رأيتُ في النَّوْمْ أنّي راكبٌ فرساً   ولي وصيفٌ وفي كفي دنانيرُ
فقال قومٌ لهم حذق ومعرفةٌ   رأيتَ خيْراً وللأحْلام تعْبيرُ
رُؤياكَ فسِّر غداً عندَ الأمير تجدْ   تعبيرَ ذاك وفي الفألِ التَّباشيرُ
فجئْتُ مُسْتَبْشراً مُسْتَشعِراً فَرَحاً   وعندَ مِثْلِكَ لي بالفعلِ تَيْسيرُ

قال: فوقّع لي في أسفل كتابي: ﴿أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾[5] ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي.

وقال بشار العقيلي:

حتى متَى ليْتَ شِعْري يا بن يَقْطِينِ   أُثني عليْك بما لاَ منك تُوليني
أمَا عَلمتَ جَزاك اللهُ صالحةً   عني وزادَك خيْراً يا بن يَقْطِينِ
أنّي أُريدُك للدُّنيا وزينتِها   ولا أُريدُك يوْم الدِّين للدّين

---

(١) السماطين: الصفّين.
(٢) مفلوجة: من الفلج، وهو تباعد الأسنان بعضها عن بعض بحيث تكون سهلة التخلّل، وهي صفة تحبُّها العرب.
(٣) البدرة: الصرّة من الدراهم والفاجية.
(٤) الفارهة: نشطية وشديدة الأكل. (٥) سورة يوسف الآية ٤٤.

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

يا بنَ العلاءِ ويا بنَ القَرْمِ مِـرْداس ... إني لأَطْريـكَ في أهلي وجُلاّسي[1]

أُثني عليـكَ ولي حـالٌ تُكـذِّبُني ... فيما أقولُ فأستحْيي مـن النـاسِ

حتى إذا قيلَ: ما أعْطاكَ مِن صَفَـدٍ ... طأطأتُ مِن سوءِ حالي عندها راسِي[2]

الأخذ من الأمراء

لعثمان في جائزة السلطان:

حدّثنا جعفر بن محمد، عن يزيد بن سِمْعان، عن عبد الله بن ثَوْر، عن عبد الحميد ابن وهْب، عن أبي الخَلال، قال: سألت عثمان بن عفّان عن جائزة السلطان، فقال: لحمٌ طريٌّ ذكي.

عكرمة والجائزة:

جعفر بن محمد، عن يحيي بن محمد العامريّ، عن المُعتمر، عن عِمْران بن حُدَير، قال: انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة، فرأى الرجل عليه عمامة متخرِّقة، فقال الرجل: عندنا عمائم، ألا نبعث إليك بعمامة منها؟ قال عكرمة: إنا لا نقبل من الناس شيئاً، إنما نقبل من الأمراء.

الحسن البصري وخميصته:

وقال هشام بن حسان: رأيتُ على الحسن البصري خَميصة[3] لها أعلام يصلّي فيها، أهداها إليه مَسلمة بن عبد الملك.

وكان النبي ﷺ يلبس خُفَّين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحب الحبشة.

وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفِتْنة، مثل المختار وغيره.

ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد فشكا إليه دَيْناً لزمه فأمر له بألف دينار

---

(١) القرم: السيِّد.

(٢) الصفد: العطاء. (٣) الخميصة: كساءٌ أسود مربع له علمان.

عَيْن. فلما وضع يديه للقيام، قال: يا أمير المؤمنين، وزوّجْتُ ابني محمداً فصار عليّ فيه ألفُ دينار. قال: ولابنه محمد ألف دينار.

قال: فلقد مات مالك وتركها لوارثه في مِزْود.

وقال الأصمعي: حدّثني إسحاق بن يحي بن طلحة قال: كان الربيع بن خُثَيم في ألف ومائة من العطاء فكلم فيه أبي معاويةَ فألحقه بألفين؛ فلما حضر العطاء نودي الربيعُ بن خُثَيم، فقيل له: في ألفين. فقعد، فنظروا فوجدوا على اسمه مكتوباً: كَلَّم فيه يحي بنُ طلحة أميرَ المؤمنين فألحقه بألفين.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق، كنتُ أريد أن تقبل مني هذه الجُبة كُسوةً. قال: إن كنتَ غنياً قبلتُها منك، وإن كنتَ فقيراً لم أقبلها منك. قال: فإني غني. قال: وكم مالك؟ قال: ألفا دينار. قال: فأنتَ تودُّ أنها أربعة آلاف؟ قال: نعم. قال: فأنت فقير، لا أقبلها منك.

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله، بمال يقسم على الفقهاء، فكان منهم من قَبل ومنهم من لم يقبل، فكان أسدُ بن الفُرات فيمن قَبل، فجعل زيادة الله يَغْمِص[1] على كل من قَبِل منهم، فبلغ ذلك أسدَ بن الفرات، فقال: لا عليه، إنما أخذنا بعضَ حقوقنا والله سائلُه عما بقى!

وقد فخرت العربُ بأخذ جوائز الملوك وكان من أشرف ما يتموَّلونه، فقال ذو الرمة:

وما كان مالي من تُراثٍ ورثْتُهُ ... ولا ديةٍ كانتْ ولا كَسْب مَأثمِ
ولكن عطاءُ اللهِ من كلِّ رحلةٍ ... إلى كلِّ مَحْجُوبِ السُّرادق خِضْرِمِ[2]

وقال آخر يهجو مروان بن أبي حفصة ويعيبه بأخْذِه من العامة ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك، فقال:

(١) يغمص: يعيب. (٢) الخضرم: الكريم.

عَطـايـا أمير المؤمنينَ، ولم تكـنْ مُقصَّمـةً مـنْ هـؤُلا وأُولئِكـا
وما نِلْـت حتّـى شبتَ إلا عطيَّـةً تَقـومُ بها مَصْـرورةً في رِدائِكـا

تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء

ذَكر عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء فقال: إن سعيد بن خِذْيم منهم. فأعطاه ألف دينار، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أعطيتَ فأَغْنِ».

وقدم على رسول الله ﷺ وفدٌ من العرب فأعطاهم وفضلَ رجلاً منهم؛ فقيل له في ذلك، فقال: كل القوم عِيالٌ عليه.

الرسول ﷺ والعباس بن مرداس:

وأعطى النبي ﷺ يوم حنين المؤلَّفةَ قلوبُهم، فأعطى الأقرعَ بن حابس التميمي. وعُيينة بن حصن الفَزاري، مائةً من الإبل، وأعطى العبّاس بن مرداس السُّلمي خمسين؛ فشق ذلك عليه، فقال أبياتاً. فأتاه بها وأنشده إياها وهي:

أيَـذْهـبُ نَهبِـي ونَهْـبُ العُبيـــدِ بيْـنَ عُيينَـةَ والأقْـرَعِ
ولا كـانَ حِصْـنٌ ولا حـابسٌ يَفُوقانِ مِـرْداسَ في مَجْمَـعِ
وما كنتُ غيْـرَ امـرِيءٍ منهُـمُ ومَن تَضَـعِ اليَـومَ لم يُـرْفَـعِ

فقال رسول الله ﷺ لبلال: اقطع عني لسان العباس. فأعطاه حتى أرضاه.

الرسول ﷺ وصفوان بن أمية:

وقال صفوان بن أُمية: لقد غزوت مع رسول الله ﷺ وما خَلق الله خلْقاً أبغَضَ إليّ منه فما زال يُعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحبَّ إليَّ منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلَّفة قلوبُهم.

شكر النعمة

سُليمان التَّميميّ قال: إن الله أنعم على عباده بقدْر قُدرته، وكلَّفهم من الشكر بقدر طاقتهم.

وقالوا: مكتوبٌ في التوراة: آشكرْ لمن أنعَمَ عليك، وأنعمْ على من شكرك.

وقالوا: كفر النعمة يُوجب زوالها، وشكرُها يوجب المزيد فيها.

وقالوا: مَن حمدك فقد وفَّاك حقَّ نعمتك.

وجاء في الحديث: «مَن نَشر معروفاً فقد شكره، ومن ستره فقد كفره».

وقال عبد الله بن عباس: لو أن فرعونَ مصرَ أسدى إليّ يداً صالحة لشكرته عليها.

وقالوا: إذا قَصُرَتْ يداك عن المكافأة فلْيَطُلْ لسانك بالشكر.

وقالوا: ما نَحل الله تعالى عبادَه شيئاً أقلَّ من الشكر، وآعتبر ذلك بقول الله عز وجل: ﴿وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

الواقدي ويحي البرمكي في قوم جاءوا يشكرونه:

محمد بن صالح الواقدي قال: دخلت على يحي بن خالد البرمكي، فقلت: إن ها هنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً. فقال: يا محمد، هؤلاء يشكرون معروفاً، فكيف لنا بشكر شكرهم.

للنبي ﷺ في شكر النعمة وكفرها:

وقال النبي ﷺ: ما أنعم الله على عبده نعمة فرأى عليه أثرَها إلا كتِبَ: حبيبَ الله شاركاً لأنْعُمِه. وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرَها عليه إلا كتب: بغيضَ الله كافراً لأنْعُمِه.

---

(١) سورة سبأ الآية ١٣.

بين عدي بن أرطاة وعمر بن عبد العزيز:

وكتب عديّ بن أرطاة إلى عُمَر بن عبد العزيز: إني بأرض كثُرتْ فيها النِّعم، وقد خِفْت على مَن قِبَلي من المسلمين قلّةَ الشكر والضعف عنه فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم يُنعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثرَ مما أَخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: ﴿ولقد آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْماً وقَالا الحَمْدُ للهِ﴾[1]. فأي نعمة أفضل مما أوتي داودُ وسليمان.

بين النبي ﷺ وعائشة في أبيات لابن جناب:

وسمع النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها تنشد أبيات زُهير بن جَنَاب:

إرْفعْ ضَعيفَكَ لا يحُرْ بـك ضَعْفُـهُ ... يوماً فتُدرِكَهُ عواقِبُ مـا جَنَـى[2]
يَجْزِيك أو يُثْنى عليـك فـإنّ مَـنْ ... أثْنى عليك بما فعلتَ كمنْ جَـزَى

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صدق يا عائشة، لا شكَرَ الله مَن لا يَشكر الناس.

الخُشني قال: أنشدني الرياشي:

إذا أنـا لم أشكُرْ على الخير أهْلَـهُ ... ولم أذْمُـمِ الجِبْسَ اللئيمَ المذَمَّمَـا[3]
ففيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشَّـرَّ بـاسمِـهِ ... وشَـقَّ لِـيَ اللهُ المسـامـعَ والفَمَـا

وأنشدني في الشكر:

سأشكرُ عَمْراً ما تَراخَـتْ مَنِيَّتِـي ... أيـادِيَ لم تُمْنَـنْ وإن هـي جَلَّـتِ
فَتًى غيرَ محجوبِ الغِنى عن صديقِهِ ... ولا مُظْهِرَ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتي من حيث يَخْفَى مكانُهـا ... فكانت قذَى عَيْنَيْهِ حتى تَجَلَّـتِ[4]

---

(١) سورة النمل الآية ١٥ . (٢) لا يحُرْ: لا يرجع.

(٣) الجبس: الجبان البخيل.

(٤) القذى: ما يسقط في العين من أذىً.

قلة الكرام في كثرة اللئام

قال النبي ﷺ: الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تَجد فيها راحلة.

وقالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغرة في الفرس.

وقال الشاعر:

تُفاخِرُني بكثرتِها قريطٌ ... وقلَّ والدَ الحَجَلَ الصقورُ
فإنْ أكُ في شِرَاركُمُ قليلاً ... فإنّي في خيارِكمُ كثيرُ
بُغاثُ الطَّيرِ أكثرُها فِراخاً ... وأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورٌ[1]

وقال السموأل:

تُعَيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

وقال حبيب:

ولقد نكونُ ولا كريمَ ننالُهُ ... حتى نخوضَ إليه ألفَ لَئيمِ

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا: لو مَدَحْتَ فتىً كريماً ... فقلتُ وكيفَ لي بِفتىً كريمِ
بَلَوْتُ ومَرَّ بي خمسونَ حولاً ... وحسبُكَ بالمُجَرّبِ من عَليمِ
فلا أحدٌ يُعَدُّ لِيَوْمِ خَيرٍ ... ولا أحدٌ يَعودُ على عَديمِ[2]

وقال دِعْبل:

ما أكثرَ الناسَ لا بلْ ما أَقَلَّهُمُ ... واللهُ يَعلمُ أنّي لم أَقُلْ فَنَدَا[3]
إنّي لأغْلِقُ عيني ثم أفتَحُها ... على كثيرٍ ولكنْ ما أرى أحَدَا

---

(١) بغاث الطير: ضعافها، والمقلات: التي تلد واحداً ثم لا تلد بعد ذلك، ونزور: قليلة الولادة.

(٢) يعود: يتكرّم، والعديم: الفقير.

(٣) الفند: الكذب والفساد.

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول حبيب الطائي:

إنَّ الجِيـــادَ كثيرٌ في البلادِ وإنْ ... قلّوا، كما غَيْرُهُمْ قلٌّ وإن كثُـرُوا
لا يَدْهمَنَّـكَ مـن دَهْمائِهِمْ عَجَـبٌ ... فـإنَّ جُلَّهُـمُ أو كُلَّهُـم بَقَـرَ
وكلّما أضْحَـت الأخطـارُ بينَهُـمُ ... هلْكَى تَبيَّنَ مَنْ أَضْحَى لـه خَطَـرُ
لو لم تُصادفْ شِيَات البَهْم أكثر مـا ... في الخيل لم تُحمد الأوضاح والغُرَرُ[1]

لكسرى في الشح:

الأصمعي قال: قال كسرى. أي شيء أضرّ؟ فأجمعوا على الفقر. فقال كسرى: الشحّ أضرّ منه، لأن الفقير يجد الفرجة فيتسع.

من جاد أولاً وضنّ آخراً

نزل أعرابيّ برجل من أهل البصرة، فأكرمه وأحسن إليه ثم أمسك، فقال الأعرابي:

تَسَـرَّى فلما جـاذَبَ المَرءُ نفْسَـه ... رأى أنَّـه لا يستقيمُ لـه السَّـرْوُ[2]

وكان يزيد بن منصور يُجري لبشّار العُقيلي وظيفةً في كل شهر، ثم قطعها عنه؛ فقال:

أبا خالدٍ ما زلـتَ سـابِـح غَمـرَةٍ ... صغيراً فلما شِبْتَ خَيَّمْتَ بالشَّاطي[3]
جَرَيْتَ زمـانـاً سـابقـاً ثم لم تَـزَلْ ... تأخَّرُ حتى جئتَ تَقْطُو مع القاطي[4]
كسِنَّوْرِ عبـدِ اللهِ بيـعَ بِـدِرْهَـمٍ ... صغِيراً، فلما شَـبَّ بيـعَ بِقيراطِ

(١) الشيات: جمع شية، وهي سواد في بياض أو بياض في سواد، والأوضاح: جمع وضح، وهي التحجيل في القوائم، والغرر: جمع غرّة، وهو بياض في الجبهة.
(٢) السَّرو: المروءة والشرف.
(٣) خيَّمت: أقمت.
(٤) القاطي: الثقيل المشي، أو الذي يقارب في مشيه.

وقال مُسلم بن الوليد صريع الغواني لمحمد بن منصور بن زياد:

أبا حَسنٍ قد كنتَ قدَّمْتَ نعمةً ... وألحَقْتَ شُكْراً ثم أمْسَكتَ وانِيا[1]

فلا ضَيْرَ لم تَلْحَقْكَ مِني مَلامةٌ ... أسأتَ بنا عَوْداً وأحسنْتَ بادِيا

فأُقسِمُ لا أجْزِيكَ بالسُّوءِ مِثْلَهُ ... كفى بالذي جازَيْتني لك جازِيَا

وقال سليمان الأعمى، وهو أخو صريع الغواني، في سليمان بن علي:

يا سوءةً يُكبِر الشيطانُ إنْ ذُكرتْ ... منها العجائب جاءت من سُليمانا

لا تَعجبنَّ بخيرٍ زلَّ عن يده ... فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

من ضن أولاً ثم جاد آخراً

قدِم الحارث بن خالد المخزوميّ على عبد الملك فلم يصلْه، فرجع وقال فيه:

صحِبْتُكَ إذ عَيْني عليها غِشاوةٌ ... فلما انْجَلَت قَطَّعْتُ نفسي ألومُها

حَبَسْتُ عليكَ النَّفْسَ حتّى كأنّها ... بِكفَّيْكَ يَجري بُؤسُها ونعيمُها

فبلغ قوله عبد الملك، فأرسل إليه فردّه وقال: أرأيت عليك غضاضة[2] من مُقامك ببابي؟ قال: لا، ولكني آشتقتُ إلى أهلي ووطني، ووجدت فضلاً من القول فقلت، وعليَّ دَين لَزمني. قال: وكم دَيْنُك؟ قال ثلاثون ألفاً. قال: فقضاءُ دينك أحَبُّ إليك أم ولايةُ مكة؟ قال: بل ولاية مكة. فولاه إياها.

وقدم الحطيئةُ المدينةَ فوقف إلى عُتيبة بن النهاس العجليّ، فقال: أعطني. فقال: مالَكَ عندي حقٌّ فأعطيكه، وما في مالي فَضْلٌ عن عيالي فأعودَ به عليك. فخرج عنه مُغضباً، وعرّفه به جلساؤه، فأمر بردِّه، ثم قال له: يا هذا، إنك وقفتَ إلينا فلم تَستأنس ولم تُسلّم، وكتمتَنا نفسَك، كأنك الحُطيئة؟ قال: هو ذلك. قال: اجلس فلك عندنا كلُّ ما تحب، فجلس فقال له: مَن أشعرُ الناس؟ قال الذي يقول:

---

(١) الوناة: التعب والفتور والانكسار.

(٢) غضاضة: بأس ونقصٌ وعيب.

ومن يَجعلِ المعروفَ مِن دون عِرضِهِ		يَفِرْهُ ومَن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ[1]

يعني زهيراً . قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

مـن يسـأل النـاس يحرمـوه		وسـائـلُ الله لا يخيـبُ

يعني عبيداً . قال: ثم من؟ قال: أنا . . .

فقال لوكيله: خُذ بيد هذا فآمض به إلى السوق، فلا يُشيرَن إلى شيء إلا اشتريته له . فمضى معه إلى السوق، فعرض عليه الخزّ والقَز، فلم يلتفت إلى شيء منه . وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والأقبية، فاشترى له منها حاجته؛ ثم قال: أمسِك . قال: فإنه قد أمرني أن أبسُط يدي بالنفقة . قال: لا حاجة لي أن يكون له على قومي يد أعظم من هذه . ثم أنشأ يقول:

سُئِلْتَ فلم تَبخَلْ ولم تُعْطِ طائِلاً		فَسِيَّانِ لا ذَمٌّ عليكَ ولا حَمْدُ

وأنت امرُؤٌ لا الجُودُ منك سَجيَّةٌ		فتُعطِي وقد يُعْدِي على النائِلِ الوُجْدُ[2]

من مدح أميراً فخيبه

قال سعيد بن سَلْم: مدحني أعرابيّ فأبلغ، فقال:

ألا قُلْ لِساري اللّيْلِ لا تَخْش ضِلَّةً		سَعيدُ بنُ سَلْمٍ نُورُ كلِّ بلادِ

لنا سيِّدٌ أَرْبَى على كلِّ سيدٍ		جوادٌ حثا في وجهِ كل جَوادِ

قال: فتأخّرت عنه قليلاً ، فهجاني فأبلغ، فقال:

لِكلِّ أخي مَدْحٍ ثوابٌ عَلِمْتُهُ		وليس لمدح الباهِليّ ثوابُ

مَدَحْتُ سعيداً والمديح مهزَّةٌ[3]		فكان كصَفْوانٍ عليه تُرابُ

ومدح الحسنُ بن رجاء أبا دلف فلم يُعطه شيئاً؛ فقال:

---

(١) يفره: يوقره .

(٢) السجيّة: الطبع، ويعدي: يعين والوُجد: اليسار والسّعة .

(٣) مهزّة: أي باعث وحاث الإنسان على العطاء وصفوان: الحجر الصلد الأملس الذي لا ينبت شيئاً .

أبا دُلَفٍ ما أكذبُ النـاسِ كلِّهـم ... سِوايَ فإنّـي في مَـديحك أكْـذَبُ

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

إنّـي مَـدحتُـك كـاذِبـاً فـأثبْتَني ... لمّا مَـدحتُـك مـا يُثـابُ الكـاذِبُ

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

لئـنْ أخطـأتُ في مَـدْحِـــكَ ما أخْطَأْتَ في مَنْعِـي

لقـد أحْلَلْـتُ حـاجـاتِـي بِـــوَادٍ غيْـــرِ ذِي زَرْعِ

ومدح حبيب الطائي عيّاش بن لهيعة، وقدم عليه مصرَ واستسلفه مائتي مثقال، فشاور فيها زوجته، فقالت له: هو شاعر، يمدحك اليومَ ويهجوك غداً؛ فاعتلّ عليه وآعتذر إليه ولم يقض حاجته، فقال فيه:

عيّـــاشُ، إنّـــكَ لَلَئِيمُ وإنّني ... مُـذْ صِـرْتَ مَـوْضِـعَ مطلبي لَلَئِيمُ

ثم هجاه حتى مات، وهجاه بعد موته فقال فيه:

لا سُقِيَـــتْ أَطْلالُـــكَ الدَّاثِـــرة ... ولا انْقَضَـت عَثْـرتُـكَ العـاثِـرَهْ

يـــا أســـدَ الموتِ تَخَلَّصْتَـــهُ ... مِن بيَـنِ فَكَّـيْ أسد القـاصره[1]

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى ـ وسألتُ بعض موالي السلطان إطلاق محبوس فتلكأ فيه، فقلت:

حـاشـا لمثلِـكَ أن يَفُـكَّ أسيرَاً ... أو أنْ يكـونَ مِـن الزَّمـانِ مُجيرا

لَبِسَتْ قَوافي الشِّعر فيك مَدارعـاً ... سُوداً وضَلَّـت أوجُهـاً وصُـدورا

هلاَّ عَطفْـتَ بـرحمةٍ لما دَعَـتْ ... ويْلاً عليك مَـدائحـي وثُبـورا[2]

لو أنّ لُؤمَك عـادَ جـوداً عشْـرُهُ ... ما كـان عنـدَك حـاتمٌ مَـذْكـورا

(١) القاصرة: مكان في الطريق إلى مصر، يروون أنّ أسداً فيه أكل عتبة بن أبي لهب.

(٢) الويل: وادٍ في جهنم، والقبور: الهلاك.

ربيعة الرقي ويزيد بن حاتم:

قال: ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم الأزدي، وهو والي مصر، فاستبطأه ربيعة، فشخص عنه من مصر وقال:

أراني ولا كُفْـرانَ لله راجعـاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتمِ (١)

فبلغ قولُه يزيدَ بن حاتم، فأرسل في طلبه فرُدّ إليه. فلما دخل عليه قال له: أنت القائل:

أراني ولا كفران لله راجعاً

قال: نعم. قال: فهل قلت غير هذا؟ قال: لا والله. قال: لترجعن بخُفَّيْ حنين مملوءة مالا فأمر بخلع نعليه ومُلئت له مالاً؛ فقال فيه لما عزل عن مصر وولي يزيد بن أَسَيد السُّلمي مكانَه:

بكى أهلُ مِصْرٍ بالدُّموعِ السَّواجِمِ ... غَداةَ غَدَا منها الأغرُّ ابنُ حـاتمِ (٢)

وفيها يقول:

لشَتَّان ما بَيْنَ اليَزيدَيْنِ في النـدَى ... يَـزيـد سُليمٍ والأغـرِّ ابن حـاتمِ

فهَـمُّ الفتى الأزْدِيِّ إنفـاقُ مـالِـه ... وهمُّ الفتى القيسي جَمْعُ الدَّراهِـمِ

فلا يَحْسَبِ التَّمْتامُ أنِّي هَجَـوْتُـه ... ولكنّني فضَّلْتُ أهـلَ المكـارمِ (٣)

أجواد أهل الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجودُ في الجاهلية ثلاثةُ نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهَرِم بن سنان المُرّي، وكعب بن مامَةَ الإيادي.

---

(١) خفّي حنين: مثل يضرب لمن عاد إلى أهله فاشلاً خاسراً.

(٢) السّواجم: الذارفة للدمع بكثرة والأغرُّ: الأبيض الكريم.

(٣) التمتام: كثير التمتمة الذي يعجّل في كلامه ولا يبّينه.

شيء عن حاتم:

ولكن المضروب به المثلُ حاتمٌ وحده، وهو القائل لغلامه يسار، وكان إذا آشتدّ البرد وكَلِب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً في يفَاع من الأرض لينظُر إليها من أضلّ الطريق ليلاً فيصمِد نحوه، فقال في ذلك:

أَوْقِدْ فإنّ اللَّيْلَ ليلٌ قَرٌّ والريحُ يا موقد ريحٌ صِرٌّ[1]
علَّ يَرى نارَك مَنْ يَمُرُّ إنْ جلَبتْ ضيفاً فأنت حُرٌّ

وقالوا: لم يكن حاتم مُمسكاً شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما.

ومرّ حاتم في سفره على عَنَزة وفيهم أسير، فاستغاث بحاتم ولم يحضُره فكاكُه، فاشتراه من العنزيّين وأطلقه وأقام مكانَه في القيد حتى أدّى فداءه.

وقالت نوار آمرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرَّتْ لها الأرضُ واغبرّ أفقُ السماء، وراحت الإبلُ حُدْباً حَدابير[2]، وضنت المراضِعُ على أولادها فما تبضّ[3] بقطرة، وحلَقت[4] السنةُ المال وأيقنّا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلة صِنَّبْرٍ[5] بعيدةِ ما بين الطرفين، إذ تضاغى صِبْيَتُنا جوعاً: عبدُ الله وعديّ وسَفّانة: فقام حاتم إلى الصَّبيَّين وقمتُ أنا إلى الصَّبية، فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأة من الليل، وأقبل يعلّلني بالحديث. فعرفت ما يريد فتناومتُ، فلما تهوّرت النجوم إذا شيء قد رفع كِسْر البيت ثم عاد، فقال: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة، أتيتُك من عند صِبية يتعاوَون عُواءَ الذئاب، فما وجدتُ مُعَوَّلاً إلا عليك يا أبا عديّ، فقال: أعْجليهم فقد أشبعكِ الله وإياهم: فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي بجانبها أربعة؛ كأنها نعامة حولها رِئالُها؛ فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمُدْية فخرّ، ثم كشطه عن جلده، ودفع المدية إلى المرأة فقال لها: شأنَك؛ فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحى

---

(١) ريحٌ صِرٌ: أي ريحٌ عاصفة باردة.
(٢) الحدابير: جمع حدبار وحدبير، وهي الناقة الضامر.
(٣) تبضّ: تجود.
(٤) حلقت المال: أهلكته وأفنته. (٥) صِنَّبر: شديدة البرد.

يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول: هُبُّوا أيها القوم، عليكم بالنار. فاجتمعوا والتفع في ثوبه ناحيةً ينظر إلينا، فلا والله إن ذاق منهُ مُزْعة وإنه لأحْوَجُ إليه منّا؛ فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلاّ عظم وحافر. فأنشأ حاتم يقول:

مَهْلاً نَـوَارُ أَقِلّـي اَللّـوْمَ والعَـذلاَ ... ولا تقُـولي لشَـيءٍ فـاتَ مـا فعَلا

ولا تقـولي لمالٍ كنـتُ مُهلِكَـه ... مهْلاً وإن كنتُ أعطِي الأنسَ والخَبلاَ[1]

يَرَى البَخيلُ سبيـلَ المال واحِـدةً ... إنّ الجوادَ يـرى في مـالِـه سُبُلاَ

ورئي حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدلّ عليه أضيافه وهو يقول:

أقـول لابني وقـد سُطْتُ يـديـه ... بكلبـةٍ لا يـزال يجلـدهـا[2]

أوصيـك خيراً بها فـإن لها ... عنـدي يـداً لا أزال أحمدهـا

تـدل ضيفـي عليّ في غلس الليـ ... ـل إذا النار نـام مُـوقـدهـا

ذكرت طيء عند عديّ بن حـاتم أن رجلاً يعـرف بـأبي الخَيْبريّ مـر بقبر حـاتم فنزل به وجعل ينادي: أبا عدي: أقْـرِ أضيـافـك. قـال: فيقـال لـه: مهلاً مـا تُكلم مـن رمَّـة بالية؟ فقال: إن طيئا يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا قراه، كالمستهزيء فلما كان في السحر وثب أبو خيبري يصيح: واراحلتاه: فقال له أصحابه: ما شأنك؟ قال: خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليها. فتأملوا راحلته فإذا هي لا تنبعث. فقالوا: قد والله أقراك. فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا. فبينما هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عديّ ابن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره، فقال إن حاتماً جاء في النوم فذكر لي قولك وأنه أقراك وأصحابك راحلتك، وقال أبياتـاً ردّدهـا عليّ حتى حفظتها، وهي:

أبـا الخَيْبَـريَّ وأنـت امـرؤٌ ... حسـود العشيرة شتّـامهـا

فماذا أردت إلى رِمَّـة ... بِـدَاويـةٍ صَخِـبٍ هـامُهـا[3]

---

(١) الخبل: الجنّ. (٢) سطت: منعت وأمسكت.

(٣) الرمّة: العظام البالية، والداوية: الفلاة والهام: جمع هامة، وهي طائر تزعم العرب أنّه كان يخرج من رأس القتيل ويصيح اسقوني، حتى يؤخذ بثأره.

أتبغـي أذاهـا وإعسـارهـا ... وحـولـك غـوثٌ وأنعـامهـا
وإنّـا لنطعـم أضيـافنـا ... من الكُوم بالسيف نعتـامهـا[1]

وأمرني بدفع راحلة عوض راحلتك، فخذها؛ فأخذها.

ولحاتم بن عبد الله أيضاً:

أماويّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْـرُ ... وقد عَذَرَتنـا في طِلابكُـمُ العُـذْرُ
أمَـاويّ إنّ المالَ غـادٍ ورائـحٌ ... ويَبقى مِنَ المال الأحاديثُ والذّكـرُ
أمـاويّ إمّـا مـانـعٌ فمبيّـنٌ ... وإمـا عطـاءٌ لا يُنْهنِهُـهُ الزّجْـر
أمَـاويّ إني لا أقـولُ لِسـائـلٍ ... إذا جاءَ يوْماً حَلّ في مالِيَ النّـزر[2]
أماويّ ما يُغْنى الثّراءُ عـن الفَتَـى ... اذا حَشْرَجَت يوماً وضاقَ بها الصَّـدْرُ
أماويّ إن يُصبِحْ صـدايَ بقَفْـرةٍ ... من الأرضِ لا ماءٌ لَـدَيَّ ولا خمْرُ
تَريْ أنّ ما أنفقْتُ لم يـكُ ضَـرَّني ... وأنّ يَـدِي مما بَخِلْـت بـه صِفْـرُ
إذا أنـا دَلاني الذيـن يَلُـونني ... بمُظلِمـةٍ زلـجٌ جَـوانبُهـا غبْـرُ[3]
وراحوا سِراعاً يَنْفُضـون أكفَّهُـمْ ... يقولون قد أدْمَى أضافِرَنـا الحَفْـرُ
أمـاويّ إنّ المال مـالٌ بَـذَلْتُـه ... فـأوّلُـه شُكْـرٌ وآخِـرُهُ ذكْـرُ
وقد يَعلَـم الأقـوامُ لـو أنّ حـاتِماً ... أرادَ ثَـراءَ المالِ كـان لـه وَفْـرُ
فـإنّـي وجـدّي رُبَّ واحـدِ أُمِّـهِ ... أَجَـرْتُ فلا قَتْـلٌ عليـه ولا أسْـرُ
ولا أظلم ابن العمِّ إنْ كـان إخـوتي ... شُهوداً وقد أوْدَى بإخوتِـه الدّهـرُ
غَنِينا زَمانـاً بـالتَّصَعْلـك والغِنـى ... وكلاّ سَقـانـاه بكـاسيهما الدهْـرُ
فما زادَنـا بَـأْواً على ذي قـرابـةٍ ... غِنانا، ولا أَزْرَى بأحلامنا الفَقْرُ[4]

وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه:

متَـى تُلاقِ على عِلاتِـه هَـرِمـاً ... تلقَ السَّماحةَ في خَلْـقٍ وفي خُلُـقِ

---

(١) الكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العظيمة السّنام ونعتامها: نختارها.

(٢) النزر: القلّة. (٣) الزلج: الصخور الملساء.

(٤) البأو: الفخر والاستعلاء وأزرى: أعاب.

وكان سنان أبو هرم سيدَ غَطَفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مت فشُقّوا بطني فإن سيد غطفان فيه. فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منها سنانا. وفي بني سنان يقول زُهير:

قومٌ أبـوهـم سِنـانٌ حين تَنسبُهُـم ... طابوا وطابَ مِنَ الأولادِ ما وَلَـدوا
لو كان يَقعُد فوْق الشمس مِن كـرَمٍ ... قوْمٌ بأوّلِهِمْ أو مَجدهِـمْ، قعَـدوا
جنٌّ إذا فَـزِعـوا إنسٌ إذا أمِنـوا ... مُرَزّءُون بَهـاليـلٌ إذا قُصـدوا[١]
مُحَسَّدون على ما كـان مـن نِعَـمٍ ... لا يَنزِعُ اللهُ منهـم مـالَـهُ حُسِـدوا

وقال زهير في هرم بن سنان:

وأبيَـض فيّـاضٍ يَـداهُ غَمامَـةٌ ... على مُعْتفيـه مـا تُغِـبُّ نـوائلـه[٢]
تَـراه إذا مـا جئتَـه مُتهلِّلاً ... كأنّـك تُعْطِـه الذي أنـت سـائلـهُ
أخو ثِقـةٍ لا تُتْلِـفُ الخمـرُ مـالَـهُ ... ولكنـه قـد يُتلِـفُ المالَ نـائلُـهْ

أخذ الحسن بن هانيء هذا المعنى فقال:

فتًى لا تغول الخَمْرُ شَحْمَةَ مالِـهِ ... ولكـنْ أيـادٍ عُـوَّدٌ وبـوادِي

وقال زهير في هرم بن سنان وأهل بيته:

إليـك أعْمَلتُهـا فُتْلاً مـرافِقُهـا ... شهريْن يجهض من أرحامها العَلَقُ[٣]
حتى دَفعْـنَ إلى حُلْـوٍ شمائلـهُ ... كالغيْـثِ يَنبُـتُ في آثـارِهِ الورَقُ
من أهلِ بيْتٍ يَرى ذو العرشِ فضلَهُم ... يُبنى لهم في جنان الخُلْـدِ مُـرْتَفَـقُ
المطعمـون إذا مـا أزْمـةٌ أزمـتْ ... والطَّيِّبـون ثيـاباً كلّما عَـرِقـوا
كـأنّ آخـرَهُـمْ في الجُودِ أوّلُهُـمْ ... إنَّ الشّمائـلَ والأخلاقَ تتّفِـقُ
إن قامَرُوا قَمَروا أوْ فاخروا فخروا ... أو ناضَلوا نَضلوا أو سابقوا سبَقوا[٤]

---

(١) بهاليل: سادة كرام شجعان.

(٢) المعتفين: السائلين، وتغب: تنقطع.

(٣) أعملتها: نظمتها وأحسنت مراجعتها والعلق: الدم الجامد.

(٤) قمروا: غلبوا وفازوا، وناضلوا: رموا.

تنافَس الأرْض موْتاهم إذا دُفِنوا كما تنُوفس عندَ الباعةِ الورِق[١]

وقال فيهم أيضاً:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهم وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ
على مُكثريهم حقٌ من يعتَفيهمُ وعند المُقلِّين السماحة والبذل
فما كان من خيرٍ أتوه فإنّما توارثه آباءُ آبائهم قَبْلُ
وهل يُنبت الخَطِّيَّ إلاّ وشيجُه وتُغرس إلاّ في منابتها النخل[٢]

وأما كعب بن مامة الإياديّ فلم يأت عنه إلا ما ذُكر من إيثاره رفيقه النَّمَريّ بالماء حتى مات عطشاً ونجا النَّمريّ، وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره. وله يقول حبيب:

يُجودُ بالنّفْسِ إنْ ضنّ البخيلُ بها والجُودُ بالنَّفْسِ أقْصى غايةِ الجودِ

وله ولحاتم الطائي يقول:

كعْبٌ وحاتِمٌ اللذانِ تقَسَّما خِطَط العُلا مِنْ طارِفٍ وتليدِ
هذا الذي خَلَفَ السَحَابَ وماتَ ذَا في الجدّ مِيتةَ خِضْرِمٍ صِنْدِيدِ[٣]
إلاّ يكنْ فِيها الشَّهِيدَ فقَوْمُهُ لا يَسْمَحُون به بألف شهيدِ

أجواد أهل الإسلام

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلا في عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم.

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عُبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد وهم: عبد الله بن عامر بن كريز، وعُبيد الله

(١) الوَرِق: الذهب.
(٢) الخطيّ: شجر تنسب إليه الرماح والوشيج: أغصانه.
(٣) الخضرم: الكريم، والصنديد: الشجاع.

ابن أبي بكرة مولى رسول الله ﷺ، ومُسلم بن زياد، وعُبيد الله بن معمر القُرشي ثم التيمي. وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخُزاعي، وله يقول الشاعر يرثيه، ومات بسجستان وهو والٍ عليها.

نضَّرَ اللهُ أعظُماً دفنُوها بسجِسْتانَ طلْحة الطَّلَحَاتِ

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتّاب بن ورقاء الرّياحي وأسماء ابن خارجة الفَزاريّ. وعِكرمة بن رِبعي الفيّاض.

فمن جود عبيد الله بن عباس

أنه أول من فطّر جيرانه. وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حيّا على طعامه، وأول من أنهبه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وفي السّنةِ الشهباء أطْعَمْتَ حامِضاً وحُلْواً ولَحْماً تَامِكا ومَمَـزَّعَا[1]
وأنـتَ ربيـعٌ لليتـامَـى وعِصْمَـةٌ إذا المَحْلُ مـن جَـوِّ السَّماء تطَلَّعَا
أبوك أبو الفضل الذي كانَ رْحَمـةً وغَوْثـاً ونـوراً للخلائـق أجْمَعَا

ومن جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال: يا بن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها. فصعَّد فيه بصره وصوبّه[2]، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يَدُكَ عندنا؟ قال: رأيتك واقفاً بزَمْزم وغلامك يمتح[3] لك من مائها والشمس قد صهرتك، فظلّلتك بطرف كسائي حتى شربت. قال: إني لأذْكر ذلك وإنه يتردّد بين خاطري وفكري. ثم قال لقيِّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم. قال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد ولَد سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ، ثم شفع بك وبأبيك.

---

(١) السنة الشهباء: التي لا خضرة فيها ولا مطر وتامكاً: مكتنزاً، وممزّعاً: مقطّعاً.
(٢) صوّبه: وجهه نحوه. (٣) يمتح: يستقي.

ومن جوده أيضاً: أنّ معاوية حبس عن الحُسين بن عليّ صِلاتِه حتى ضاقت عليه حاله، فقيل [له]: لو وجَّهت إلى ابن عمك عبيد الله، فإنه قد قدم بنحو من ألف ألف درهم. فقال الحسين: وأين تقع ألف ألف من عُبيد الله؟ فوالله لَهُو أجْوَدُ من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حَبْسَ معاوية عنه صِلاتِه وضيقَ حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم. فلما قرأ عبيد الله كتابه، وكان من أرقّ الناس قلباً وألينهم عطفاً. انهملت عيناه ثم قال: ويلك يا معاوية مما اجترحتْ يداك[1] من الإثم حين أصبحت ليّن المهاد رفيع العماد، والحسينُ يشكو ضيقَ الحال وكثرة العيال. ثم قال لقهرمانه: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضّة وذهب وثوب ودابة، وأخبِرْه أني شاطرتهُ مالي، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر. فقال له القيم: فهذه المُؤن التي عليك من أين تقوم بها؟ قال: إذا بلغنا ذلك دللتُك على أمر يُقيم حالك! فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال: إنا لله! حَمَلْتُ[2] والله على آبن عمي وما حسبتُه يتسع لنا بهذا كله. فأخذ الشطر من ماله. وهو أول مَن فعل ذلك في الإسلام.

ومن جوده أن معاوية بن أبي سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النّيروز حُللاً كثيرة ومِسْكا وآنية من ذهب وفضة، ووجَّهها مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها، فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم والله، إنّ في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام. فضحك عُبيد الله وقال: فشأنَك بها فهي لك. قال: جُعلتُ فداك، أخاف أن يبلغ ذلك معاويةَ فيجدَ عليّ. قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن، فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا. فقال الحاجب: والله لَهذه الحيلةُ في الكرم أكثرُ من الكرم، ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه ـ يعني معاوية ـ فظنّ عبيد الله أنها مكيدة منه، قال: دع عنك هذا الكلام، فإنا قوم نَفي بما وعدنا ولا ننقض ما أكدنا.

---

(١) اجترحت يداك: اقترفت واكتسبت من إثم.

(٢) حملتُ: ضيّقت وكلّفته الكثير.

ومن جوده أيضاً أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له: تَصدّق، فإني نُبِّئتُ أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم وآعتذر إليه! فقال له: وأين أنا من عُبيد الله؟ قال أين أنت منه في الحَسب أم كثرةِ المال؟ قال: فيهما. قال: أما الحَسب في الرجل فمروءتهُ وفعلهُ، وإذا شئتَ فعلت، وإذا فعلت كنت حَسيبا. فأعطاه ألفي درهم وآعتذر له من ضيق الحال: فقال له السائل: إن لم تكن عُبيد الله بن عباس فأنت خير منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خيرٌ منك أمس. فأعطاه ألفاً أخرى. فقال السائل: هذه هِزَةُ كريم حسيب، والله لقد نقرت[١] حبة قلبي فأفرغتها في قلبك، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي.

ومن جوده أيضاً: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا بن عم رسول الله، إنه وُلد لي في هذه الليلة مولود، وإني سمّيته باسمك تبرُّكا مني به، وإن أُمه ماتت. فقال عبيد الله: بارك الله لك في الهبة، وأجزل لك الأجر على المصيبة. ثم دعا بوكيله فقال: آنطلق الساعةَ فاشتر للمولود جاريةً تَحْضنه، وآدفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته. ثم قال للأنصاري. عُدْ إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يُبس وفي المال قِلّة. قال الأنصاري: لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً، ولكنه سبقك فصرتَ له تاليا، وأنا أشهد أنّ عفْوك أكثر من مجهوده، وطلّ كرمك أكثر من وابله.

جود عبدالله بن جعفر

ومن جُود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عمّار دخل على نخّاس يعرض قِيانا له؛ فعلق واحدةً منهن، فشُهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس ومُجاهد يعذُلونه، فكان جوابه أن قال:

يَلومُني فِيكِ أَقْوامٌ أجالِسُهُم   فما أُبالي أَطارَ اللَّوْمُ أَمْ وقعَا

(١) حبّة القلب: مهجته.

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر، فلم يكن له همٌّ غيره، فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قيِّمة جواريه أن تزيّنها وتحلّيها ففعلت؛ وبلغ الناسَ قدومهُ فدخلوا عليه، فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمار زارَنا؟ فأُخْبِر الشيخُ، فأتاه مسلِّما. فلما أراد أن ينهض آستجلسه، ثم قال: ما فَعَل حُبُّ فلانة؟ قال: في اللحم والدم والمُخ والعُصب. قال: أتعرفها لو رأيتها؟ قال: لو أُدْخِلتُ الجنةَ لم أُنكرها. فأمر بها عبدُ الله أن تخرج إليه، وقال له: إنما اشتريتها لك، ووالله ما دنوتُ منها، فشأنك بها مباركا لك فيها. فلما ولّى قال: يا غلام، احمل معه مائة ألف درهم ينعم بها معها. قال: فبكى عبد الرحمن فرحا وقال: يأهل البيت، لقد خصَّكم الله بشرف ما خَصَّ به أحداً قبلكم من صُلب آدم، فتهنئكم هذه النعمة، وبورك لكم فيها.

ومن جوده أيضاً أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيما، فقيل له: إنها لا تعرفك وكان يُرضيها اليسير. قال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

جود سعيد بن العاص

ومن جود سعيد بن العاص أنه مرض وهو بالشام، فعاده معاوية ومعه شُرحبيل بن السِّمْط، ومُسلم بن عُقبة المُرّي، ويزيد بن شجرة الرّهاوي. فلما نظر سعيد معاوية وثَب عن صدر مجلسه إعظاماً لمعاوية، فقال له معاوية: أقسمتُ عليك أبا عثمان ألا تتحرّك، فقد ضَعُفْتَ بالعلة. فسقط؛ فتبادر معاويةُ نحوه حتى حنا عليه، وأخذ بيده فأقعده على فراشه وقعد معه، وجعل يْسائله عن عِلّته ومنَامه وغذائه، ويصف له ما ينبغي أن يتوقّاه، وأطال القُعود معه؛ فلما خرج التفت إلى شُرحبيل بن السِّمط، ويزيد ابن شجرة، فقال: هل رأيتما خَللا في مال أبي عثمان؟ فقالا: ما رأينا شيئاً ننكره. فقال لمُسلم بن عقبة: ما تقول؟ قال: رأيت. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت على حَشَمه ومواليه ثياباً وَسِخة، ورأيتُ صحن داره غيرَ مكنوس، ورأيت التجّار يُخاصمون

قَهرمانه. قال: صدقت، كل ذلك قد رأيته. فوجه إليه مع مُسلم بثلثمائة ألف، فسبق رسولٌ يبّشره بها ويُخبره بما كان. فغضب سعيد وقال للرسول: إن صاحبك ظن أنه أحسنَ فأساء، وتأوّل فأخطأ؛ فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركتِه آتسخ ثوبه، وأما كَنْس الدار فليست أخلاقنا أخلاقَ من جعل دارَه مِرآته وتَزيِّنَه لُبْسَه، ومعروفَه عِطره، ثم لا يبالي بمن مات هُزْلا من ذي لحُمة أو حُرمة. وأما مُنازعة التجار قهرماني فمن كثرة حوائجه وبيَعه وشرائه؛ لم يجد بُدًّا من أن يكون ظالماً أو مظلوماً. وأما المال الذي أمر به أمير المؤمنين فوصلته كل ذي رحم قاطعة وهنأته كرامُته المُنعَم بها عليه، وقد قَبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف، ولشُرحبيل بن السِّمط بمثلها، وليزيد بن شَجرة بمثلها، وفي سعة الله وبَسْط يد أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلنا.

فركب مُسلم بن عُقبة إلى معاوية فأعلمه، فقال: صدق آبن عمي فيما قال، وأحطأت فيما انتهيت إليه، فاجعل نصيبك من المال لروْح بن زِنْباع عقُوبةً لك، فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها، كما أنه من فعل خيرا كوفيء عليه.

ومن جوده أيضا أن معاوية كان يُداول بينه وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة، فكان مروان يُقارضه[1]، فلما دخل على معاوية قال له: كيف تركت أبا عبد الملك؟ يعني مروان. قال: تركته منفِّذا لأمرك، مُصلحا لعملك. قال معاوية: إنه كصاحب الخُبْزة: كُفي إنضاجها فأكلها! قال: كلا يا أمير المؤمنين؛ إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا. قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟ قال خِفتُه على شرفي وخافني علىٍ مثله. قال: فأي شيء كان له عندك؟ قال: أسْوَؤهُ حاضرا وأسرُّه غائبا. قال: يا أبا عثمان، تركتَنا في هذه الحروب. قال: حملتَ الثقل وكُفيتَ الحزم. قال: فما أبطأ بك؟ قال غنَاؤك عني أبطأني عنك، وكنتُ قريبا لو دعوتَ لأجبناك، ولو أمرتَ لأطعناك. قال: ذلك ظنُّنا بك. فأقبل معاوية على أهل الشام فقال يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم. ثم قال: أخبرني عن مالِك،

(١) يقارضه: أي ينظر كلّ واحدٍ إلى صاحبه شزراً.

فقد نُبِّئت أنك تَتَحَرَّى فيه. قال: يا أمير المؤمنين، لنا مالٌ يَخْرُج لنا منه فَضْل، فإذا كان ما خرج قليلا أنفقناه على قِلّته، وإن كان كثيرا فكذلك، غير أنا لا ندّخر منه شيئا عن مُعْسِر ولا طالب ولا مستحمل، ولا نستأثر منه بِفلذة لحم ولا مُزعة[1] شحم. قال: فكم يدوم لك هذا؟ قال من السَّنة نِصْفَها. قال: فما تصنع في باقيها؟ قال: نجد من يُسلفنا ويُسارع إلى معاملتنا. قال: ما أحدٌ أحْوَج إلى أن يصلح من شأنه منك. قال: إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين، ولو زدت في مالي مثلَه ما كنتُ إلا بمثل هذه الحال. فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم، وقال: اشترِ بها ضيعة تُعينك على مروأتك. فقال سعيد: بل أشترى بها حمداً وذكرا باقيا. أُطعم بها الجائع، وأُزوج بها الأيّم، وأفكّ بها العاني[2]، وأواسي بها الصديق، وأصلح بها حال الجار فلم تأت عليه ثلاثة أشهرٍ وعنده منها درهم. فقال معاوية: ما فضيلةٌ بعد الإيمان بالله هي أرفعُ في الذكر ولا أنبه في الشرف من الجود، وحَسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته.

ومن جوده أيضا ما حكاه الأصمعي، قال: كان سعيد بن العاص يسمرُ معه سماره إلى أن ينقضي حينٌ من الليل، فانصرف عنه القوم ليلةً ورجلٌ قاعد لم يقم، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: حاجتَك يافتى؟ فذكر أنّ عليه ديناً أربعة آلافِ درهم. فأمر له بها، وكان إطفاؤه للشمعة أكثرَ من عطائه.

جود عبيد الله بن أبي بكرة

ومن جود عبيد الله بن أبي بكرة أنه أدلى إليه رجل بحرمة، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: أصلحك الله، ما وصلني أحدٌ بمثلها قط، ولقد قطعتَ لساني عن شكر غيرك، وما رأيتُ الدنيا في يد أحد أحسنَ منها في يدك، ولولا أنت لم تبق لها بهجةٌ إلا أظلمتْ، ولا نورٌ إلا انطمس.

---

(١) المزعة: القطعة. (٢) العاني: الأسير.

جود عبيد الله بن معمر القرشي التيمي

ومن جود عبيد الله بن معمر القرشي، أن رجلا أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدّبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقت في جميع ذلك، ثم إنّ الدهر قعد بسيِّدها ومال عليه. وقَدِمَ عبيدُ الله بن مَعمر البصرة من بعض وجوهه، فقالت لسيّدها: إني أريد أن أذكر لك شيئا أستحي منه، إذ فيه جفاء مني، غير أنه يُسَهّلُ ذلك عليّ ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك، وما أخافه عليك من الاَحتياج وضيق الحال، وهذا عُبيد الله بن معمر قدم البصرة، وقد علمتَ شرفه وفضلَه وسعة كفِّه وجودَ نفسه، فلو أذنت لي فأصلحت من شأني ثم تقدمتَ بي إليه وعرضتَني عليه هدية، رجوتُ أن يأتيك من مُكافأته ما يُقيلك الله به ويُنهضُك إن شاء الله. قال: فبكى وجداً عليها وجزعا لفراقها منه، ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما اَبتدأتك به أبدا. ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدي عبيد الله فقال: أعزك الله، هذه جاريةٌ ربّيتها ورضيتُ بها لك، فاَقبلْها مني هدية. فقال: مثلي لا يَستهدي من مثلك؛ فهل لك في بيعها فأُجزلَ لك الثمن عليها حتى ترضى؟ قال: الذي تراه. قال: يُقْنِعُك مني عَشْرُ بدَرٍ في كل بدرة عشرةُ آلاف درهم؟ قال: والله يا سيدي ما امتد أملي إلى عُشْرِ ما ذكرت، ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور. فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلي الحجاب. فقال سيدها: أعزك الله! لو أذنتَ لي في وداعها! قال: نعم. فوقفت وقام، وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوحُ بحُزْنٍ من فِراقِكَ مُوجِعٍ … أُقاسِي به ليْلاً يُطيلُ تَفَكُّري
ولولا قُعودُ الدهرِ بي عنك لم يكنْ … يُفَرِّقُنا شيءٌ سوى الموتِ فاعْذُري
عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا … ولا وصْلَ إلا أنْ يشاء ابنُ مَعْمَرِ

قال عبيد الله بن معمر: قد شئتُ ذلك، فخذ جاريتك وبارك الله لك في المال. فذهب بجاريته ومالهِ فعادَ غنيّا.

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجُود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلا كما ذكرنا وسَمَّينا، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شُهروا بالجود وعُرفوا بالكرم، وحُمدت أفعالهم، وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من الأجواد

فمنهم الحكم بن حَنْطب

قيل لنصيب بن رباح: خَرِفَ شِعرُك أبا محجن! قال لا، ولكن خَرِف الكرم؛ لقد رأيتُني ومدحتُ الحكم بن حنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.

وسأل أعرابي الحكم بن حَنطب، فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابي، فقال: ما يُبكيك يا أعرابي؟ لعلك استقللت ما أعطيناك! قال: لا والله، ولكني أبكي لِما تأكلُ الأرضُ منك، ثم أنشأ يقول:

وكأنّ آدمَ حين حانَ وفاتُهُ ... أوْصاكَ وهْوَ يَجودُ بالحَوْباءِ[1]
ببنَيهِ أن تَرْعاهمُ فَرعَيْتَهُم ... فكفَيْتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناءِ[2]

العتبي قال: أخبرني رجل من أهل منبج، قال: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مُمْلِق[3] فأغنانا! قال له: كيف أغناكم وهو مُملق؟ قال: علّمنا المكارمَ، فعاد غنيُّنا على فقيرنا.

ومنهم معن بن زائدة

وكان يقال فيه: حدِّث عن البحر ولا حَرَج، وحدِّث عن معن ولا حَرَج.

وأتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: يا غلام، أعطِه فرسا وبِرْذَوْناً وبَغلا وعَيْراً وبَعيرا وجارية. وقال: لو عرفتُ مركوبا غير هؤلاء لأعطيتك.

(١) الحوباء: النفس. (٢) عيلة الأبناء: أي معيشتهم.
(٣) الإملاق: الفقر.

العتبي قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضادتَي[1] الباب، فأنشده شعره الذي قاله فيه:

فما أحجَمَ الأعداءُ عنكَ بَقيّةً ... علَيْكَ، ولكنْ لم يَرَوْا فيكَ مطْمَعا
لهُ راحتانِ الْحَتْفُ والجُودُ فيهما ... أبَى اللهُ إلاّ أنْ يضُرَّ وينفعا

ومنهم يزيد بن المهلب

وكان هشام بن حسّان إذا ذكره قال: والله إن كانت السفنُ لتَجْري في جوده.

وقيل ليزيدِ بن المهّلب: مالك لا تبني دارا؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس.

ولما أُتي يزيدُ بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب، نال منه بعضُ جلسائه فقال له: مَهْ[2]! إن يزيد بن المهلّب طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلّب في الحبس فأنشده:

صَحَّ في قَيْدِكَ السماحَةُ والمجْـ ... ـدُ وفَكُّ العُناة والإفضالُ

قال: أتمدحني وأنا في هذه الحال؟ قال. أصبتُك رخيصاً فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف.

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير: آغْرَم[3] ديتَك خمسين مرة. قال: ليس عندي ما أَغْرَم. قال: والله لتَغْرَمَنْ ديتك مائة مرة. قال يزيد بن المهلّب: أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين. قال: آغرم. فغرمها عنه مائة ألف.

العتبي قال: أخبرني عَوانة قال: استعمل الوليدُ بن عبد الملك عثمان بن حيّان المُرّي على المدينة وأمره بالغِلظة على أهل الظّنة؛ فلما اُستُخْلِف سليمان أخذه بألفي ألف درهم؛ فاجتمعت القيسية في ذلك فتحمّلوا شطرها وضاقوا ذرعا بالشطر الثاني.

---

(١) عضادتي الباب: خشبتان من جانبيه.

(٢) مه: إسم فعل مبني على السكون بمعنى كفّ.

(٣) اغرم: ضاعف.

ووافق ذلك استعمالُ سليمانَ يزيد بن المهلب على العراق. فقال عمر بن هبيرة: عليكم بيزيد بن المهلَّبْ، فما لها أحدٌ غيره! فتحملوا إلى يزيد وفيهم عُمر بن هُبيرة، والقَعقاع بن حبيب، والهُذيل بن زُفر بن الحارث، وانتهوا إلى رُواق يزيد. قال يحي ابن أقْتل - وكان حاجباً ليزيد بن المهلب وكان رجلا من الأزد - فاستأذنت لهم فخرج يزيد إلى الرواق فقرّب ورحّب، ثم دعا بالغداء، فأُتوا بطعامٍ ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا، فلما تغَدَّوْا تكلم عثمان بن حيّان وكان لَسِناً مفوّها، وقال: زادك الله في توفيقك أيها الأمير، إن الوليد بن عبد الملك وجَهني إلى المدينة عاملا عليها، وأمرني بالغلظة على أهل الظنّة والأخذ عليهم؛ وإن سليمان أغرمني غُرماً، والله ما يَسَعهُ مالي ولا تحمله طاقتي؛ فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خفّ عليك، وما بقي والله ثقيلٌ عليّ. ثم تكلم كل منهم بما حضره، وقد اختصرنا كلامهم.

فقال يزيد بن المهلب: مرحباً بكم وأهلا، إن خير المال ما قُضي فيه الحقوقُ وحُمِلت به المغارم، وإنما لي من المال ما فَضَلَ عن إخواني، وآيمُ اللهِ لو علمتُ أن أحدا أملأ بحاجتكم مني لهديتُكم إليه فاحتكموا وأكثِروا. فقال عثمان بن حيان: النصف أصلح الله الأمير. قال: نعم وكرامة، اغدُوا علي مالكم فخذوه.

فشكروا له وقاموا فخرجوا. فلما صاروا على باب السرادق قال عمر بن هُبيرة: قبّح الله رأيكم، والله ما يبالي يزيد أنصِفها تَحَمَّل أم كلَّها. فمن لكم بالنصف الباقي؟ قال القوم: هذا والله الرأيُ! وسمع يزيدُ مُناجاتهم، فقال لحاجبه: انظر يا يحي إن كان بقي على القوم شيء فليرجعوا، فرجعوا إليه وقالوا: أقِلْنا[1] قال: قد فعلت. قالوا: فإن رأيت أن تحملها كلَّها فأنت أهلُها، وإن أبَيْتَ فما لها أحد غيرك، قال: قد فعلت.

وغدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان فقال: يا أمير المؤمنين، أتاني عثمان بن حيّان وأصحابه. قال: أَمْسِكُ في المال؟ قال: نعم. قال سليمان: والله لآخذَنَّهُ منهم. قال

---

(١) أقلنا: أعنّا واعفنا.

يزيد: إني قد حملتهُ. قال: فأدِّه: قال يزيد والله ما حملته إلا لأؤدّيه ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن هذه الحَمَالة وإن عظُم خطبُها، فَحَمْدُها والله أعظمُ منها، ويدي مبسوطة بيدك، فابسطها لسؤالها. ثم غدا يزيد بالمال على الخُزَّان فدفعه إليهم فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال، فقال: وفت يمينُ سليمان احملوا إلى أبي خالد ماله.

فقال عدي بن الرقاع العاملي:

وللهِ عَيْنـا مَـنْ رأى كحَمَـالـةٍ   تَحمَّلَهـا كبْش العِـرَاقِ يَـزيـدُ

الأصمعي قال: قدم على يزيد بن المهلّب قومٌ من قُضاعة من بني ضبّة، فقال رجل منهم:

واللهِ مـا نَـدْري إذا مـا فـاتَنـا   طلَبٌ إليـكَ مَـن الّذي نتطَلّـبُ؟
ولقدْ ضَـربنـا في البلادِ فلمْ نَجـدْ   أحداً سِواكَ إلى المكـارمِ يُنْسَـبُ
فـاصبرْ لعـادَتِنـا التي عـوّدتَنـا   أوْ لا فأرشِدْنا إلى مَـنْ نَـذْهَـبُ؟

فأمر له بألف دينار؛ فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:

مـالي أرَى أبـوابَهُـمْ مَهْجُـورةً   وكأنّ بـابَـكَ مَجْمَـعُ الأسْـواقِ
أَرَجَوْكَ أمْ خافُوكَ أمْ شامُوا النّدَى   بيدَيْك فـاجْتَمَعُـوا مِـنَ الآفـاقِ
إنّـي رأيْتُـكَ للمكـارِمِ عـاشِقـاً   والمكْـرُمـاتُ قَليلـةُ العُشّـاقِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومر يزيد بن المهلّب في طريق البصرة بأعرابيّة، فأهدت إليه عنزا، فقبلها وقال لابنه معاوية: ما عندك من نفقة؟ قال: ثمانمائة درهم. قال: ادفعها إليها! قال إنها لا تعرفك ويُرضيها اليسير قال: إن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي، وإن كان يُرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير.

ومنهم يزيد بن حاتم

وكتب إليه رجل من العلماء يستوصله، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم، وكتب إليه: «أما بعد، فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً، لا أُكثِّرها آمتناناً، ولا أقلّلها تجبُّراً، ولا أستثيبك عليها ثناء، ولا أقطع لك بها رجاء، والسلام».

وكان ربيعة الرَّقي قد قدم مصر فأتى يزيدَ بن حاتم الوردي فلم يُعطه شيئا، فشغل عنه ببعض الأمر، فخرج وهو يقول:

أراني ولا كفْــرانَ للهِ راجِعـــاً ... بخفي حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حـاتمِ

فسأل عنه يزيد، فأُخبر أنه قد خرج وقال كذا، وأُنشد البيت؛ فأرسل في طلبه فأُتي به، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت: فقال شُغِلنا عنك! ثم أمر بخُفَّيْهِ فخلِعَتا من رجليه ومُلِئتا مالاً، وقال: ارجع بهما بدلا من خُفَّيْ حُنَين! فقال فيه لما عُزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن حاتم:

بكَى أهلُ مِصرٍ بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ... غداةَ غداً منها الأغَرُّ ابنُ حـاتِـمِ

وفيها يقول:

لشَتَّانَ ما بَينَ اليزيدَيْـنِ في النَّـدى ... يَزيدَ سُلَيْـم والأغـرِّ ابنِ حـاتِـمِ
فهَـمُّ الفَتى الأزْديّ إتلافُ مـالــهِ ... وهَمُّ الفتى القيْسيِّ جَمْـعُ الدَّراهِـم
فلا يَحْسَبِ التَّمتَامُ أنّي هَجَـوْتُـهُ ... ولكنَّني فضَّلْـتُ أهـلَ المكـارمِ

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه، فلما بلغ مصر وجده قد مات؛ فقال فيه:

لئن مِصْرُ فاتتْني بما كُنْتُ أرتَجـي ... وأخلَفَني منهـا الذي كُنْـتُ آمُــلُ
فما كُلُّ ما يَخْشَـى الفتَـى بمُصيبـه ... ولا كُلُّ ما يَرْجُو الفتَى هُوَ نـائِـلُ
وما كـان بيْني لـوْ لقِيتُـك سـالِماً ... وبيْـنَ الغِنَـى إلا ليـالٍ قلائـلُ

ومنهم أبو دُلف

واسمه القاسم بن إسماعيل، وفيه يقول عليٌّ بن جَبلة:

إنما الدنْيــا أبــو دُلـفٍ ... بين مَبْـدَاهُ ومُحْتضَـرِهْ[1]
فـإذا ولّـي أبـو دُلَـفٍ ... ولّـتِ الدنيـا على أثـرِهْ

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة:

الله أجـرى مـن الأرزاق أكْثَرهـا ... على العبادِ، على كفـيْ أبي دلَـفِ
بَارَى الرياحَ فأعطَـى وهْيَ جـاريـةٌ ... حتى إذا وقفَتْ أعطى ولم يقِـفِ[2]
ما خَطَّ «لا» كاتِباه في صحِيفتِـهِ ... يَوْماً كما خُطَّ «لا» في سائرِ الصحُف

فأعطاه ثلاثين ألفاً.

ومدحه آخر فقال فيه:

يُشْبِهُـه الرَّعْـدُ إذا الرعـدُ رَجَـفْ ... كـأنـهُ البَـرْقُ إذا البرقُ خَطَـفْ
كـأنــه الموتُ إذا الموتُ أزِفْ ... تَحمِلُهُ إلى الوغَى الخَيْلُ القُطُـفْ[3]
إن سارَ سارَ المجدُ أو حَلَّ وقَـفْ ... انظر بعينَيـكَ إلى أسْنَـى الشَّـرَفْ
هـل نـالـه بقُـدْرةٍ أو بِكُلَـفْ ... خَلْقٌ من الناسِ سِوى أبي دُلَـفْ

فأعطاه خمسين ألفاً.

ومن أخبار معن بن زائدة

شيء عنه:

قال شَراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي، وكنت كثيراً ما أسايره، إذ عرض له أعرابيّ من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه

---

(١) مبداه ومختصره: يريد حلوله البادية وحلوله الحضر.

(٢) بارى الرياح: نافسها. (٣) القطف: جمع قطوف: وهي الفرس تقارب الخطو في سرعة.

وأفرط، فقال له هارون: ألم أنْهَكَ عن مثل هذا في مدحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل في أب هذا:

بَنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهمْ أُسودٌ لها في غِيلِ خِفّانَ أَشْبُلُ[1]
هُمُ يَمنعون الجارَ حتّى كأنّما لجارِهِمُ بيْنَ السِّماكَيْنِ مَنزِلُ[2]
بَهاليلُ في الإسلام سادوا ولم يكن كأوّلهمْ في الجاهليَّةِ أوّلُ
وما يَستطيعُ الفاعلون فَعالهمْ وإن أحْسَنوا في النائباتِ وأجْمَلوا
هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أَعْطَوْا أطابوا وأجزلوا

ومنهَم خالد بن عبد الله القسري

وهو الذي يقول فيه الشاعر:

... إلى خالدٍ حتى أُنِخْنَ بِخالِدٍ فنِعْم الفتَى يُرْجى ونعمَ المُؤَمّلُ

بينا خالد بن عبد الله القسري جالس في مظلة له، إذ نظر إلى أعرابي يخبّ[3] به بعيره مُقبلاً نحوه؛ فقال لحاجبه. إذا قدم فلا تَحجبْه. فلما قدم أدخله عليه، فسلّم وقال:

أصْلحَكَ اللهُ قلَّ ما بيَدي فما أُطِيقُ العِيالَ إذْ كثُروا
أناخَ دهْرٌ أَلْقى بكَلْكَلِهِ فأرْسَلوني إليكَ وانْتظروا[4]

فقال خالد: أرسلوك وانتظروا؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرُّهم. وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة.

ومنهم عديّ بن حاتم

دخل عليه ابن دارة فقال: إني مدحتُك. قال: أَمْسِك حتى آتيك بمالي ثم امدحْني على حَسبه، فإني أكره ألا أُعطيك ثمنَ ما تقول، لي ألفُ شاة، وألفُ درهم، وثلاثةُ

(١) غيل خفّان: موضع كثير الغياض قرب الكوفة وهو مأسدة. (٢) السِّماكين: نجمين في السماء.
(٣) يخبّ: من الخبب وهو ضربٌ من العدو. (٤) كلكله: صدره، أي أثقل الدهر عليه.

أعبد، وثلاث إماء، وفرسي هذا حُبس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أخبرتك. فقال:

تَجِنْ قَلُوصِي في مَعَدٍّ، وإنّما … تُلاقي الرَّبيعَ في ديارِ بني ثُعَلْ
وأبقَى الليالي من عَدِيٍّ بن حاتمٍ … حُساماً كنَصْلِ السيْف سُلَّ مِنَ الخِلَلْ[1]
أبوك جَوَادٌ لا يُشَقُّ غُبارُهُ … وأنت جَوادٌ لستَ تُعْذَر بالعِلَلْ
فإنْ تَفعلوا شرّاً فمثلُكُمُ اتّقي … وإن خيراً فمثلُكُم فَعَلْ

قال له عدي: أمسك؛ لا يبلغُ مالي أكثرَ من هذا.

أصفاد الملوك على المدح

سعيد بن مُسلم الباهلي قال: قدم على الرشيد أعرابي من باهلة وعليه جُبة حبرة، ورداء يمَان قد شدَّه على وسطه ثم ثناه على عاتقه، وعمامة قد عصبها على فَوْدَيه وأرخى لها عَذَبة[2] من خَلْفه، فمثَلَ بين يدي الرشيد، فقال سعيد: يا أعرابي، خذ في شَرَفِ أمير المؤمنين. فاندفع في شعره. فقال الرشيد: يا أعرابي، أسمعك مستحسناً وأُنكرك متَّهماً؛ فقل لنا بيتين في هذين - يعني محمداً الأمينَ وعبدَ الله المأمونَ ابنيه، وهما عن حفافيه، فقال: يا أمير المؤمنين، حملْتني على الوعْرِ القَرْدَد[3] ورجعْتني عن السَّهْل الجَدَد[4]، روعةُ الخلافة، وبُهْرُ الدرجة، ونفورُ القوافي على البديهة؛ فأرْوِدْني[5] تتألف لي نوافرُ ويسكن روعي. قال: قد فعلتُ، وجعلتُ اعتذارَك بدلاً من امتحانك. قال: يا أمير المؤمنين، نفّست الخناق، وسهلت ميدان السباق؛ فأنشأ يقول:

---

(١) الخلل: جمع خلة، وهي جفن السيف المغشى بالأدم.
(٢) عذبة لسان وطرف.
(٣) القردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض.
(٤) الجدد: الأرض الغليظة المستوية.
(٥) فأرودني: أمهلني.

بَنَيْتَ لعبدِ اللهِ ثمَّ محمدٍ ... ذُرا قُبةِ الإسلامِ فاخْضَرَّ عودُها
هما طُنُباها، باركَ اللهُ فيهما ... وأنتَ أميرَ المؤمنينَ عمودُها[1]

فقال الرشيد: وأنت يا أعرابي، بارك الله فيك! فَسَلْ ولا تكن مسألتُك دون إحسانك. قال الهُنَيْدَةَ[2] يا أمير المؤمنين. فأمر له بمائة ناقة وسبع خِلَع.

المهدي ومروان ابن أبي حفصة:

وقال مَروان بن أبي حفصة: دخلت على المهديّ فآستنشدني، فأنشدته الشعر الذي أقول فيه:

طَرقَتْكَ زائرةً فحيِّ خَيالَها ... بَيضاءُ تَنشُرُ بالخِباءِ دلالَها
قادتْ فؤادَكَ فاسْتَقادَ ومِثلُها ... قادَ القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها

حتى انتهيت إلى قولي:

شَهدتْ من الأنفالِ آخرُ آيةٍ[3] ... بتُراثِهِمْ فرجَوْتُمُ إبطالَها
هل تَطْمِسونَ منَ السماءِ نجومَها ... بأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرون هِلالَها
أو تجحدون مَقالةً عن ربِّكُمْ ... جبريلُ بَلَّغَها النبيَّ فقالَها

قال: وأنشدته أيضاً شعري الذي أقول فيه:

يا بن الذي وَرِثَ النبيَّ مُحمداً ... دون الأقاربِ منْ ذوي الأرحامِ
الوحيُ بيْنَ بَني البَناتِ وبينَكُمْ ... قُطع الخِصام فلاتَ حين خِصامِ
ما للنساءِ مع الرِّجالِ فريضةٌ ... نَزَلت بذلك سورةُ الأنعامِ
أنّى يكون وليسَ ذاك بكائنٍ ... لِبَني البناتِ وِراثةُ الأعْمامِ

---

(١) الطنب: الحبل، أو الوتد.

(٢) الهنيدة: اسم للمائة من الابل، أو لما فوقها ودونها، أو للمائتين.

(٣) يريد قوله تعالى «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكلّ شيء عليم».

أَلغَى سِهامَهمُ الكتـابُ فحـاوَلـوا أن يَشْـرَعـوا فيهـا بغيْـرِ سِهـامِ
ظفِرَتْ بَنو ساقي الحَجيجِ بحَقِّهـم وغُـرِرْتُـمُ بتَـوَهُّـمِ الأحْلامِ

قال مروان بن أبي حفصة: فلما أنشدت المهديّ الشعرين قال: وجب حقُّك على هؤلاء ـ وعنده جماعة من أهل بيته ـ قد أمرتُ لك بثلاثين ألفاً، وفَرَضْتُ على موسى خمسة آلاف، وعلى هارون مثلَها، وعلى عليّ أربعة آلاف، وعلى العبّاس كذا، وعلى فلان كذا فحسَبتُ سبعين ألفاً. قال: فأمر بالثلاثين ألفاً فأتى بها، ثم قال: اغدُ على هؤلاء وخُذْ ما فَرضتُ لك. فأتيت موسى فأمر لي بخمسة آلاف، وأتيت هارون فأمر لي بمثلها، وأتيت عليا، قال: قَصَّر بي دون إخوتي فلن أُقصِّر بنفسي. فأمر لي بخمسة آلاف فأخذت من الباقين سبعين ألفاً.

عبد الملك وأعشى ربيعة:

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان، وعن يمينه الوليد وعن يساره سليمان؛ فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي. وأنشأ يقول:

وما أنا في حَقّي ولا في خُصـومتي بمُهْتَضَمٍ حَقّي ولا قـارِعٍ سِنّـي[1]
ولا مُسلمٍ مَوْلاي مِن سوء ما جَنَـى ولا خائفٍ مولاي من سوء ما أَجْني
وفضلِيَ في الأقـوامِ والشِّعـرِ أنني أقولُ الذي أعْني وأعْرِفُ مـا أعني
وأنّ فـؤادي بين جَنْبَـيَّ عـالِمٌ بما أبصَرَتْ عيْني وما سَمِعَتْ أُذْني
وإني وإنْ فَضّلـتُ مـروانَ وابنَـهُ على الناسِ، قد فَضَّلْتُ خيْرَ أبٍ وابْن

فضحك عبد الملك وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

---

(١) قارع سنّي: كناية عن الندم.

عبد الرحمن بن الحكم والفرزدق:

العتبي قال: دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفي بن أم الحكم، فقال له عبد الرحمن: أبا فراس، دعني من شعرك الذي لا يأتي آخره حتى يُنْسَى أولُه، وقل فيّ بيتين يعلقان[1] أفواهَ الرواة، وأُعطيكَها عطيةً لم يُعطِها أحدٌ قبلي فغدا عليه وهو يقول:

وأنت ابن بَطْحاويْ قُريْشٍ فإن تَشأْ   فكن مِنْ ثَقيفٍ سَيْل ذي حَدَبٍ غَمْر[2]
وأنــت ابن فَـرْعٍ مـاجـدٍ لعَقيلـةٍ   تلقَّتْ له الشمس المُضيئـة بـالبـدر

قال: أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف.

الفضل بن يحي وفتى من التجار:

أبو سويد قال: أخبرني الكوفي قال: آعترض الفضلَ بن يحي بن خالد في وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شَخص إلى الكوفة فقُطع به وأُخِذ جميعُ ما كان معه، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال:

سأرْسِلُ بيْتاً ليس في الشِّعْـرِ مِثْلُـه   يُقَطِّـعُ أَعنْـاقَ البيـوتِ الشَّـوارِدِ
أقامَ النَّدى والبأسُ في كلِّ منـزلٍ   أَقامَ به الفضلُ بنُ يحي بنِ خـالِـد

قال فأمر له بمائة ألف درهم.

زبيدة وابن أبي حفصة في أبيات مدح بها الأمين:

العتبي: قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبياتاً ورفعها إلى زبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمداً، وفيها يقول:

للهِ دَرُّك يــا عَقيلــة جعفــرٍ   ماذا وَلَدْتِ من العُلا والسُّؤددِ[3]

---

(١) يعلقان: أي يترددان على أفواههما.

(٢) الحدب: الحدور في صبب.

(٣) العقيلة: السيدة الكريمة والسؤدد: المجد والرفعة.

إنّ الخلافةَ قـد تَبيّـنَ نـورُهـا   للناظـريـنَ على جَبينِ مُحمـدِ

فأمرت أن يُملأ فمُهُ دُرّاً .

الحسن بن سهل وعلي بن جبلة:

وقال الحسن بن رجاء الكاتب: قَدِم علينا علي بن جبلة إلى عسكر الحسن بن سهل، والمأمون هناك بانياً على خديجة بنت الحسن بن سهل، المعروفة ببوران، ونحن إذ ذاك نُجري على نيّف وسبعين ألف فلاح. وكان الحسن بن سهل مع المأمون يَتصبّح؛ فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه، فلما قدم علي بن جبلة نزل بي، فقلتُ له: قد قوي شُغل الأمير. قال: إذاً لا أضيع معك! قلت: أجل. فدخلت على الحسن بن سهل في وقت ظُهوره فأعلمتُه مكانه؛ فقال: ألا ترى ما نحن فيه؟ قلت: لستَ بمشغولٍ عن الأمر له. فقال: يُعْطَى عشرة آلاف إلى أن نتفرّغ له. فأعلمتُ علي بن جبلة؛ فقال في كلمة له:

أعطَيْتَنـي يـا وَلِـيَّ الحقِّ مُبتـدئـاً   عَطِيَّةً كـافـأَتْ حَمْدي ولم تَـرَنـي
ما شِمـتُ بَـرْقَـكَ حتى نِلْـتُ رَيِّقَـهُ   كـأنّما كنـت بـالجَدْوَى تُبـادِرُني[1]

ابن طوق ورجل عرض له:

عرض رجل لابن طَوْق وقد خرج متنزهاً في الرحبة فناوله رقعة فيها جميع حاجته؛ فأخذها فإذا فيها:

جعَلتُك دُنيايَ فانْ أَنْتَ جُدْتَ لِـي   بخَيْـرٍ وإلا فـالسّلامُ على الدُّنْيـا

فقال: والله لأصَدقنَّ ظنَّك. فاعطاه حتى أغناه.

عبد الله بن طاهر ودعبل بن علي:

عرض دعبل بن علي الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراساني وهو راكب في حرّاقة له في دجلة، فأشار إليه برقعة، فأمر بأخذها، فإذا فيها:

---

(١) شمت: نظرت وتطلّعت، وريّقه: مطره وصوبه، كناية عن العطاء والجدوى: العطاء.

عجِبْتُ لحرّاقةِ بنِ الحُسَيْنِ كيفَ تسيرُ ولا تغْرَقُ
وبَحْران مِنْ تَحْتِها واحِدٌ وآخرُ مِنْ فوْقِها مُطْبَقُ
وأَعجبُ مِنْ ذاكَ عِيدانُها إذا مسّها كيْفَ لا تُورِقُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.

وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها:

طَلَعتْ قناتكَ بالسَّعادةِ فوْقها معْقودةً بلواءِ مُلْكٍ مُقْبلِ[1]
تَهتزُّ فوْقَ طريدَتَيْنِ كأنّما تَهْفو يُقَصُّ لها جَناحا أَجْدَلِ[2]
ربِحَ البخيلُ على احتيالِ عِرْضَهُ بنَدى يديْكَ ووجْهِكَ المُتَهلّلِ
لو كانَ يعْلَمُ أنّ نيلَكَ عاجِلٌ ما فاضَ مِنْهُ جَدْوَلٌ في جدْوَلِ

فأمر له بخمسة آلاف.

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده:

إذا قِيلَ: أيَّ فتىً تعْلَمونَ أَهَشَّ إلى البأسِ والنائِلِ
وأضْرَبَ لِلْهامِ يوْمَ الوغى وأَطْعَمَ في الزمَنِ الماحِلِ؟
أشارَ إليكَ جَمِيعُ الأنامِ إشارةَ غرْقى إلى ساحِلِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

أحمد بن مُطير قال: أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتاً كنتُ مدحت بها بعض الوُلاة، وهي:

له يوْمُ بُؤْسٍ فيهِ للناسِ أبْؤسٌ ويوْمُ نعيمٍ فيهِ للناسِ أنْعُمُ
فيقْطُر يومَ الجودِ من كفِّهِ النّدى ويقطُر يومَ البؤسِ من كفّه الدّمُ
فلوْ أنّ يَوم البُؤسِ لَمْ يثْنِ كفّهُ على الناسِ لم يُصْبحْ على الأرضِ مُجْرِمُ
ولو أنّ يوم الجودِ فرّغَ كفَّهُ لبذْلِ النّدى ما كانَ بالأرضِ مُعْدِمِ

---

(١) يريد بالقناة: القناة التي يعقد فوقها لواء الإمارة.

(٢) الأجدل: الصقر.

فقال لي عبد الله : كم أعطاك ؟ قلت: خمسة آلاف . قال: فقبلتها ؟ قلت: نعم . قال لي : أخطأت ؛ ما ثمن هذه إلا مائةُ ألف .

أبو جعفر وحماد عجرد:

ودخل حماد عجرد على أبي جعفر بعد موت أبي العبّاس أخيه فأنشده:

أبوكَ بعدَ أبي العبَّاسِ إذ بانا ... يا أكرمَ الناسِ أَعْراقاً وعيدَانا
لو مجَّ عودٌ على قومٍ عُصارتَهُ ... لَمجَّ عودُك فينا المِسْكَ والبانَا[1]

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

سعيد بن خالد وموسى شهوات:

القحذمي قال: جاء موسى شَهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، فقال: إن هنا جارية تعشّقْتُها ، وأبوا أن ينقُصوني عن مائتي دينار . فقال: بورك فيه فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد ، وأمُّه عائشة بنت طلحة الطلحات فدَعا بمطْرَف[2] خَزّ فبسطه وعقد في كل ركن من أركانه مائة دينار ، وقال لموسى . خذ المطرف بما فيه . فأخذه ، ثم غدا عليه فأنشده :

أبا خالدٍ أعني سعيدَ بنَ خالدٍ ... أخا العُرْف ، لا أعني ابن بنتِ سعيدِ
ولكنّني أعنِي ابنَ عائشةَ الذي ... أبو أبَوَيهِ خالدُ بنُ أسيدِ
عَميدَ النَّدى ما عاشَ يرْضَى به النّدى ... فإن ماتَ لم يَرْضَ النّدى بعَميدِ
دعوه دعُوه إنّكُمْ قد رقدْتُمُ ... وما هو عنْ أحسابِكُم برَقُودِ

للزبيري في آل مروان:

العتبي قال: سمعت عمي ينشد لأبي العباس الزبيرى:

وكلُّ خليفةٍ ووليِّ عهدٍ ... لكمُ يا آل مَرْوانَ الفِداءُ
إمارتُكُمْ شفاءٌ حَيْثُ كانتْ ... وبعْضُ امارةِ الأقوامِ داءُ

---

(١) المسك والبان؛ من الطيب . (٢) المطرف: الوشاح .

فـأنتمْ تُحْسنُـون إذا مَلكْتُـم ... وبعضُ القومِ إن مَلكـوا أسـاءوا
أأجْعلُكُـم وغيْـرَكُـم سَـواءٌ ... وبينكـم وبيْنهُـمُ الهواءُ
هُـمُ أرْضٌ لأرجُلكُـمْ وأنْتُـمْ ... لأيْـديِهِمْ وأرجُلِهِـمْ سَماءُ

فقلت له: كم أعطى عليها؟ قال: عشرين ألفاً.

أبو مسلم ورؤبة:

الأصمعي قال: حدثني رؤبة قال: دخلت على أبي مُسلم صاحب الدعوة، فلما أبصرني نادى: يا رؤبة. فأجبته:

لَبَّيْـكَ إذْ دعَـوْتني لبَيْكـا ... أحْمَـدُ ربـاً سـاقني إليْكـا
الحمدُ والنّعْمَةُ في يَدَيْكا

قال: بل في يدي اللهِ تعالى. قلت له: وأنت إذا أنعمتَ أجدت. ثم قلت: يأذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد؟ قال: نعم؛ فأنشدته:

مـا زال يـأتي المُلْـكَ في أقطـارِهِ ... وعـنْ يَمينـهِ وعـنْ يسـارِهِ
مُشَمِّـراً لا يصْطلي بِنـارِهِ ... حتى أقـرَّ المُلْـك في قـرارِهِ

فقال: يا رؤبة، إنك أتيتنا وقد شفَّ المالُ واستنفده الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة، وهي تافهة يسيرة، ومنك العوْد وعلينا المعَوَّل، والدهر أطْرَقُ مُستَتَبٌّ[1]، فلا تجعل بيننا وبينك الأسِدَّة[2]. قال رؤبة: فقلت: الذي أفادني الأميرُ من كلامه أكثرُ من الذي أفادني من ماله.

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده:

إذا استبـقَ النـاسُ العُلا سَبَقْتهُـمُ ... يَمينُكَ عفْواً ثم صَلَّـتْ شِمالكـا

فقال هشام: بلغتَ غاية المدح فسَلْني. فقال: يا أمير المؤمنين، يداك بالعطيّة أطلق

---

(١) الأطراف والمستتب: من أوصاف البعير، وهو الهزيل الذليل.
(٢) الأسدَّة: الحواجز.

من لساني بالمسألة. قال: لا بُد أن تفعل. قال: لي ابنة نفَضْتُ عليها من سوادي فكسَّدها، فلو أنفقها أميرُ المؤمنين بشيء يجعله لها. قال: فأقطعها أرضاً، وأمر لها بحلي وكسوة. فنفقت السوداء.

عبد الله بن جعفر ونصيب:

الرياشي عن الأصمعي قال: مدح نُصيب بن رباح عبد الله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكُسوة شريفة ورواحل مُوقَرة[1] بُرّاً وتمراً؛ فقيل له: أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ قال: أما لئن كان عبداً إن شعره فيّ لحُرّ؛ ولئن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض، وإنما أخذ مالاً يَفنى وثياباً تَبلى ورواحلَ تَنضَى[2]، وأعطى مديحاً يُرْوى وثناء يَبْقى.

هشام وأبو النجم:

وذكروا عن أبي النجم العِجْلي أنه أنشد هشاماً شعره الذي يقول فيه:

الحمد لله الوهوبِ المُجزلِ

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشمس في الجوِّ كعينِ الأحول

وكان هشام أحول، فأغضبه ذلك، فأمر به فطُرِد. فأمّل أبو النجم رجعته، فكان يأوي إلى المسجد، فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه: أبْغِني رجلاً عربياً فصيحاً يُحدّثني وينشدني. فطَلَب له ما سأل، فوجد أبا النجم، فأتى به، فلما دخل عليه قال: أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: حيث ألفاني رسولك. قال: فمن كان أبا النجم مَثْواك؟ قال: رجلين، أتَغدّى عند أحدهما وأتعشّى عند الآخر. قال: فما لَكَ من الولد؟ قال: ابنتان، قال أزَوّجْتَها؟ قال: زَوّجْتُ إحداهما. قال: فَبِمَ أوصيتَها ليلة أهديتَها؟ قال: قلت لها:

---

(١) موقرة: محملة. (٢) تنضى: تغنى وتبلى.

سُبِّـي الحماةَ وابهتِـي عليهـا　　وأن أَبـت فـازْدَلفـي إليهـا[1]
ثم اقْرَعِـي بـالعـودِ مِـرْفقَيْهـا　　وجـدِّدي الخُلـف بـه عليهـا
لا تخْبري الدّهرَ بذاكِ ابنَيْها

فقال: فهل أوصيتها بعد هذا؟ قال: نعم.

أَوْصيْـتُ مـن بَـرَّةَ قلبـاً بَـرَّا　　بـالكلـبِ خيْـراً والحماةِ شَـرّاً
لا تَسـأمـي خَنْقـاً لها وجَـرّاً　　والحيَّ عُمِّيهـمْ بشرٍّ طُـرّا
وإن كسَـوْكِ ذَهَبـاً ودُرّا　　حتى يَـروْا حُلْـوَ الحيـاةِ مُـرّا

قال هشام: ما هكذا أوصى يعقوبُ ولده. قال أبو النجم: ولا أنا كيعقوب، ولا ولدي كولده. قال: فما حال الأخرى؟ قال هي ظلامة التي أقول فيها:

كـأنّ ظَلامـةَ أُخْـتَ شَيْبـانْ　　يَتيمـةٌ ووالِداهـا حَيّـانْ
الرَّأْسُ قَمْـلٌ كُلُّـهُ وصِئْبـانْ　　وليس في الرجْلَيْـنِ إلاّ خيطـان
فَهْيَ التي يُذْعَرُ مِنها الشَّيْطان

قال هشام لحاجبه: ما فعلتَ بالدنانير التي أمرتُك بقبضها؟ قال: هي عندي، وهي خمسمائة دينار. قال له: ادفعها لأبي النّجم ليجعلها في رجلَيْ ظلامة مكان الخيطين.

مروان بن محمد وطريح وذو الرمة:

أبو عبيدة قال: حدّثني يونس بن حبيب قال: لما اسْتُخْلِفَ مروان بن محمد دخل عليه الشعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدّم إليه طُريح بن إسماعيل الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فقال: الحمد لله الذي أنعم بك على الإسلام إماماً، وجعلك لأحكام دينه قِواماً، ولأمة محمد المصطفى جُنّة[2] ونظاماً. ثم أنشده شعره الذي يقول فيه:

تُسـوءُ عِـداكَ في سَـدادٍ ونَعْمَـةٍ　　خِلافتُنـا تِسْعِين عـامـاً وأَشْهُـرَا

---

(١) ابهتي عليها: افتري عليها واكذبي فازدلفي: فتقرّبي.
(٢) الجنّة: الدرع والستر.

فقال مروان: كم الأشهر؟ قال: وفاء المائة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة في النصرةِ والتمكين. فأمر له بمائة ألف درهم.

ثم تقدّم إليه ذو الرّمة متحانياً كِبْرة، قد انحلّت عمامتُه مُنحدرة عن وجهه، فوقف يُسوّيها، فقيل له: تقدّم. قال: إني أُجلّ أميرَ المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحاً بلَوْثة عمامتي. فقال مروان: ما أملتُ أنه أبقَتْ لنا منك مَيّ ولا صَيْدَحُ[1] في كلامك إمتاعا. قال: بلى والله يا أمير المؤمنين؛ أردُ منه قَراحاً، والأحسن امتداحاً، ثم تقدّم فأنشد شعراً يقول فيه:

فقلتُ لها سِيري، أمامَكِ سيِّدٌ تفرَّعَ مِن مَرْوانَ أو من مُحمّدِ

فقال له: ما فعلت مَي؟ فقال:

طُوِيتْ غدائرُها ببُرْد بِلًى ومَحا التُّرابُ مَحاسنَ الخدّ

فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد، فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالاً؟ يُعْطَى بكل مَن سَمّى من آبائي ألفَ دينار. قال ذو الرمة: لو علمتُ لبلغتُ به عبدَ شمس.

المنصور وابن هرمة:

الربيع حاجب المنصور قال: قلت يوماً للمنصور: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم. فقال: اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام، وقل لهم من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فإنما هو كلب من الكلاب؛ ولا بالحيّة، فإنما هي دُويبّة مُنتنة تأكل التراب؛ ولا بالجبل، فإنما هو حجر أصم؛ ولا بالبحر، فإنما هو غُطامط لجب[2]؛ ومن ليس في شعره هذا فليدخل؛ ومن كان في شعره فلينصرف. فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة، فإنه قال له. أنا له يا ربيع، فأدخلني. فأدخله، فلما مثل بين يديه، قال المنصور: يا ربيع، قد علمتُ أنه لا

---

(١) ميّ: صاحبته، وصيدح: ناقته.

(٢) غطامط لجب: عظيم الأمواج.

يُجيبك أحدٌ غيره؛ هات يا بن هرمة. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

له لحظاتٌ عن حفافَيْ سَريرِهِ   إذا كرَّها فيها عذابٌ ونائلُ
لهم طِينةٌ بيْضاءُ من آل هاشم   إذا اسْوَدَّ من كُوم التراب القبائلُ
إذا ما أبى شيئاً مضى كالذي أبى   وإن قال إنّي فاعلٌ فهْوَ فاعِلُ

فقال: حسبك! ها هنا بلغْت، هذا عين الشعر، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم. فقمتُ إليه وقبلتُ رأسه وأطرافه ثم خرجت، فلما كدت أن أخفى على عينيه سمعته يقول: يا إبراهيم! فأقبلت إليه فزعاً، فقلت: لبيك فداك أبي وأمي. قال: آحتفظ بها فليس لك عندنا غيرها! فقلت: بأبي وأمي أنت، أحفظُها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتَم الجهبذ[1].

جعفر وابن الجهم:

علي بن الحسين قال؛ أنشد عليّ بن الجهم جعفراً المتوكل شعره الذي أوله:

هي النفسُ ما حَمَّلْتَها تتحمّلُ

وكان في يد المتوكل جوهرتان، فأعطاه التي في يمينه؛ فأطرق متفكّراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره، فقال: مالك مفكراً؟ إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى! خُذها لا بُورك لك فيها! فأنشأ يقول:

بِسُرَّ مَن رَا إمامُ عَدْلٍ   تَعْرفُ مِن بَحْرِهِ البِحارُ
يُرْجى ويُخْشى لكلِّ أمرٍ   كأنَّه جَنَّةٌ ونارُ
المُلْكُ فيه وفي بَنِيهِ   ما اخْتَلَفَ الليلُ والنهارُ
يَداه في الجودِ ضَرَّتانِ   عليه كِلْتاهُما تَغارُ
لم تَأتِ منه اليمينُ شيئاً   إلا أتت مثْلَه اليسارُ

وقال آخر في الهَوْل:

---

(١) الجهبذ: الخبير بالأمور المميّز بين جيّدها ورديئها.

إذا سَألت النَّدَى عن كلِّ مَكْرُمَـةٍ　　لم تُلْـفِ نِسْبتَهـا إلاّ إلى الهول

لو زاحَم الشمسَ ألفَى الشمسَ مُظْلِمةً　　لو زاحم الصُمَّ ألجاها إلى المَيْـلِ[١]

أمضى منَ الدهرِ إنْ نابَتْـهُ نـائبـةٌ　　وعندَ أعدائـِهِ أمْضى مـنَ السّيْـلِ

ودخل شاعر من أهل الريّ. يقال له أبو يزيد، على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان، فأنشده:

آشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُـرْتفِقـاً　　من شادمهْرَ ودَعْ غُمدان لليمـنِ[٢]

فأنـت أوْلى بتـاجِ المُلْـكِ تَلْبَسُـه　　من هَـوْذَةَ بنِ عليٍّ وابن ذي يـزنِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ودخلت ليلى الأخيليّة على الحجّاج فأنشدته:

إذا وَرَد الحَجّاجُ أرضـاً مـريضـةً　　تَتَبَّـعَ أقصى دائها فَشفـاهـا

شَفاها مـن الداءِ العُضـال الذي بها　　غُلامٌ إذا هَـزَّ القَنـاةَ سَقـاهـا[٣]

فقال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام. ثم قال: أي النساء أحبُّ إليك أُنْزِلُكِ عندها؟ قالت: ومَن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أم الجُلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفَزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكيّة. قالت: القيسية أحبّ إليّ. فلما كان من الغد دخلت عليه. قال: يا غلام، أعطِها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أُدْماً[٤]. قال قائل: إنما أمر لك بشاء. قالت: الأمير أكرمُ من ذلك. فجعلها إبلاً على آستحياء، وإنما كان أمر لها بشاءٍ أوّلاً.

---

(١) الصمّ: الجبال.

(٢) مرتفقا: ثابتاً دائماً، وشادمهر: موضع بنيسابور.

(٣) الداء العضال: المرض المستعصي والقناة: الرمح.

(٤) الأدم: البيض من الإبل، وهي أكرمها.

كتاب الجمانة في الوفود

فرش كتاب الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه:

قد مضى قولنا في الأجواد والأصفاد[1] على مراتبهم ومنازلهم، وما جَروا عليه، وما نَدبوا إليه من الأخلاق الجميلة، والأفعال الجزيلة. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي ﷺ، وعلى الخلفاء والملوك؛ فإنها مقامات فَضل، ومشاهد حَفل؛ يُتَخَيَّر لها الكلام، وتُستَهذب الألفاظ، وتُستجزل المعاني. ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمَهم الذي عن قُوّته ينزعون[2]، وعن رأيه يُصدرون؛ فهو واحد يَعدل قبيلة، ولسان يُعرب عن ألسنة، وما ظنّك بوافد قوم يتكلّم بين يدي النبي ﷺ أو خليفته، أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة، فهو يوطد لقومه مرّة ويتحفّظ من أمامه أخرى. أتُراه مدّخِراً نتيجة من نتائج الحكمة، أو مُستبقياً غريبة من غرائب الفِطنة؛ أم تظن القوم قدّموه لفضل هذه الخُطة إلا وهو عندهم في غاية الحَذلقة[3] واللّسن، ومَجمع الشعر والخطابة. ألا ترى أنّ قيس بن عاصم المِنقريّ لمّا وفد على النبي ﷺ بَسَط له رداءه وقال: هذا سيد الوَبَر. ولما تُوفي قيس بن عاصم قال فيه الشاعر[4]:

عليكَ سلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عـاصِـمٍ ورحمتُـهُ مـا شـاءَ أن يَتَـرحّما

(١) الأصفاد: الكرام وأصحاب العطاء. (٢) ينزعون: يذهبون.
(٣) الحذلقه: الظرف والحذق. (٤) هو عبدة بن الطبيب.

تحيّـة مـن ألبَسْتَـه منــك نِعمــةً إذا زار عن شَحْـطٍ بلادَك سَلّما[1]
وما كانَ قيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِـدٍ ولكنـه بُنْيــانُ قــوْم تَهـدَّمــا

وفود العرب على كسرى

ابن الفطامي عن الكلبيّ قال: قَدم النعمانُ بن المُنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النعمان بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارسَ ولا غيرها، فقال كسرى وأخذته عزةُ الملك: يا نعمان، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حال من يقدَم عليّ من وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظّ في آجتماع أُلفتها، وعِظم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق بُنيانها: وأنّ لها ديناً يبيِّن حلالها وحرامها ويردّ سفيهها ويُقيم جاهلها. ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطِبّها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعاتها، وطيّب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها. وكذلك الصين في آجتماعها. وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وفروسيّتها وهمتها، وأنّ لها مُلكاً يجمعها. والترك والخَزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلّة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم مُلوك تضمّ قواصيهم وتُدبّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئاً من خِصال الخير في أمرِ دينٍ ولا دُنيا، ولا حزم ولا قُوة، مع أن مما يدل على مهانتها وذُلِّها وصِغَرِ همتها، محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة، قد خرجوا من مَطاعم الدنيا وملابسها، ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضلُ طعام ظفِرَ به ناعُمهم لحومُ الإبل التي يعافها كثيرٌ من السباع لثِقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإنْ قَرَى أحدهم ضيفاً عدّها مَكْرُمة، وإن أُطعمَ أكلة عدّها غنيمة؛ تنطق بذلك أشعارهُم، وتفتخر بذلك رجالُهم، ما خلا هـذه التَّنـوخيّـة التي

---

(١) شحطٍ: بعدٍ.

أسس جدِّي اجتماعها، وشدّ مملكتها، ومنعَهَا من عدوِّها؛ فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإنّ لها مع ذلك آثاراً ولَبُوسا، وقُرى وحُصونا، وأموراً تُشبه بعض أمور الناس - يعني اليمن - ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلّة والقلّة والفاقة والبؤس، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك، حقّ لأُمةٍ الملك منها أن يسمو فضلها، ويعظم خطْبها، وتعلو درجتها. إلا أنّ عندي جواباً في كل ما نطق به الملك، في غير ردٍّ عليه، ولا تكذيب له، فإن أمّنني من غضبه نطقتُ به.

قال كسرى: قل فأنت آمن.

قال النعمان: أمّا أُمتك أيها الملك فليست تُنازَع في الفضل، لموضعِها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطةِ محلِّها، وبُحْبُوحَةِ عِزّها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأُمم التي ذكرتَ، فأيّ أمة تَقْرِنها بالعرب إلا فَضَلَتْها.

قال كسرى: بماذا؟

قال النعمان: بعزّها ومنعَتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها:

فأما عِزُّها ومنعَتُها؛ فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد، ووطّدوا الملك، وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل، حصونُهم ظهورُ خيلهم، ومهادُهم الأرض، وسُقوفهم السماء، وجُنّتهم[1] السيوف، وعُدّتهم الصبر. إذْ غيْرُها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حُسْنُ وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلُهم في ذلك على غيرهم من الهند، والصين المُنحفة، والترك المشوّهة، والروم المقشّرة.

---

(١) جنتهم: دروعهم.

وأما أنسابها وأحسابها، فليست أُمة من الأمم إلا وقد جَهلتْ آباءها وأصولها وكثيراً من أوّلها، حتى إنّ أحدهم ليُسْأَلُ عمن وراء أبيه دُنْيا فلا ينْسُبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمِّي آباءه أباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه: ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها، فإنّ أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرةُ والناب عليها بلاغُه[1] في حُموله وشِبعه وريِّه، فيطرقه الطارق[2] الذي يكتفي بالفِلْذة[3] ويجتزيء بالشَّربة فيعَقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكسبه حُسْنَ الأحدوثة وطيبَ الذكر.

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورَونق كلامهم وحُسنه ووزنه وقوافيه، مع مَعرفتهم بالأشياء، وضَربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيْلهم أفضلُ الخيل، ونساؤهم أعفُّ النساء، ولباسُهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جِبالهم الجَزْع[4]، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سَفْر، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قفر.

وأما دينها وشريعتها، فإنهم متمسّكون به، حتى يبلغ أحدُهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرماً، وبلدا محرماً، وبيتاً محجوجاً يَنسكون فيه مناسكَهم، ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجلُ قاتل أبيه أو أخيه، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه، فيَحجزه كرمُه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى.

وأما وفاؤها، فإنّ أحدهم يلحظ اللحظة ويُومِيء الإيماءة فهي ولَثٌ[5] وعُقدة لا يحلّها إلا خروج نفْسِه، وإنّ أحدَهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدَينه فلا

---

(١) الناب: الناقة المسنّة وبلاغه: معوّله وكفايته.

(٢) الطارق: الزائر ليلاً. (٣) الفلذة: القطعة.

(٤) الجزع: خرز يماني فيه سوادٌ وبياض. (٥) الولث: العهد.

يغْلَق رهنُه ولا تُخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلُغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يَرضَى حتى يُفنى تلك القبيلة التي أصابتْه أو تفنى قبيلتُه لِما خُفر من جواره؛ وإنه ليلجأ إليهم المجرمُ المُحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفُسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفَةً من العار وغيْرة من الأزواج.

أما قولك: إنّ أفضل طعامهم لحومُ الإبل على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له، فعمَدوا إلى أجلِّها وأفضلها، فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً، وأطيبُها لحوما، وأرقّها ألبانا، وأقلها غائلة، وأحلاها مَضغة، وإنه لا شيء من اللّحمان يعالج ما يعالج به لحمُها إلا آستبان فضلُها عليه.

وأما تحاربُهم وأكلُ بعضِهم بعضا، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم؛ فإنما يفعل ذلك منَ يفعله من الأمم إذا أنِستْ من نفسها ضَعفاً وتخوّفت نُهوض عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهلُ بيتٍ واحد يعْرَفُ فضلُهم على سائر غيرهم، فيلْقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمّتهم: وأما العرب فإن ذلك كثيرٌ فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا مُلوكا أجمعين، مع أنفَتهم من أداء الخراج والوطَف[1] بالعسْف.

وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جدَّ الملك وليُّها الذي أتاه عند غلبة الحَبَش له على ملك متَّسق؛ وأمرٍ مجتمع؛ فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخا، وقد تقاصر عن إيوائه، وصغُر في عينه ما شيّد من بنائه. ولولا ما وتر[2] به من يليه من العرب لمال إلى مجال، ولوَجد من يُجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لِما أجابه النعمانُ به؛ وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة

(١) الوطف: طردك الطريدة ثم تكون في إثرها. (٢) وتر به: تعلّق به.

في أهل إقليمك ولما هو أفضل. ثم كساه من كسوته، وسرّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلمّا قدم النعمانُ الحيرةَ وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تَنَقص العرب وتَهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صَيْفيّ وحاجبِ بن زُرارة التميميّين، وإلى الحارث ابن عُباد وقيس بن مسعود البكريّين، وإلى خالد بن جعفر، وعَلقمة بن معد يكرب الزّبيدي، والحرث بن ظالم المُرّي؛ فلما قدموا عليه في الخَوَرْنَق، قال لهم: قد عَرفتم هذه الأعاجمَ وقُرْبَ جوارِ العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالاتٍ تخوّفتُ أن يكونَ لها غور، وأن يكونَ إنما أظهرها لأمرٍ أراد أن يتخذ به العرب خَوَلا[١] كبعض طَماطمته[٢] في تأديتهم الخَراج إليه، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله.

فاقتصَّ عليهم مقالاتِ كسرى وما ردّ عليه؛ فقالوا: أيها الملك، وفّقك الله، ما أحسنَ ما رَدَدْت، وأبلغَ ما حَجَجْتَه به؛ فُمرْنا بأمرِك، وادْعُنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعَزَزْتُ بمكانكم وما يُتخوّف من ناحيتكم. وليس شيء أحبَّ إليَّ مما سدّد الله به أمركم، وأصلح به شأنكم، وأدام به عزّكم؛ والرأيُ أن تَسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتَنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نَطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أنّ العرب على غير ما ظن أو حدَّثَتْه نفسُه؛ ولا ينَطق رجل منكم بما يُغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان، كثيرُ الأعوان مُتْرَف مُعْجَبٌ بنفسه، ولا تنخزلوا[٣] له انخزال الخاضع الذليل، ولْيكن أمرٌ بين ذلك، تظهر به وَثَاقةُ حُلومكم، وفضلُ منزلتكم، وعظمة أخطاركم؛ وليكن أولَ من يبدأ منكم بالكلام أكثمُ بن صيفي، لِسَنِيّ حالِه، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتُكم بها؛ فإنما دعاني إلى التَّقدمة بينكم علمي بمَيْل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه؛ فلا يكوننّ ذلك منكم فيجدَ في آدابكم مَطْعَنا؛ فإنه ملك مُترَف، وقادرٌ مسلّط.

---

(١) الخول: العبيد.

(٢) الطماطمة: من في لسانهم عجمة، يريد رعيته من الأعاجم.

(٣) تنخزلوا: تتذللوا وتستضعفوا نفوسكم.

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائق حُلَل الملوك، كل رجل منهم حُلّة، وعَمّمه عمامة، وختّمه بياقوتة؛ وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية وفرس نَجيبة، وكتب معهم كتاباً:

أما بعد، فإن المَلِك ألقَى إليّ من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد فَهِم بما أحببتُ أن يكون منه على عِلْم، ولا يتلجلج في نفسه أن أُمة من الأُمم التي ٱحتجزت دونه بمملكتها، وحَمَتْ ما يليها بفضل قُوّتها، تبلُغها في شيء من الأمور التي يتعزّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ أيها الملك رهطا من العرب؛ لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعُقولِهم وآدابِهم؛ فليسمع الملك، ولْيُغْمِضْ عن جفاء إن ظهر من منطقهم، وليُكرِمْني بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم.

فخرج القوم في أُهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مرازبته[٢] ووجوهَ أهل مملكته، فحضروا وجلسوا على كراسيّ عن يمينه وشماله؛ ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وضعهم النعمانُ بها في كتابه؛ وأقام التّرجمانَ ليؤديَ إليه كلامَهم، ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثمُ بن صيفيّ فقال: إن أفضلَ الأشياء أعاليها، وأعلى الرجالِ ملوكها، وأفضل الملوك أعمُّها نفعا، وخيرَ الأزمنة أخصبُها، وأفضلَ الخطباء أصدقُها. الصدق مَنْجاة، والكذب مَهْواة، والشرُّ لَجاجة[١]، والحزم مَركَبٌ صعب، والعَجز مركبٌ وطيء. آفةُ الرأي الهوى، والعجزُ مِفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حُسن الظن ورَطة، وسوء الظن عِصمة. إصلاح فساد الرعية خيرٌ من إصلاح فسادِ الراعي. من فَسدت بطانتُه كان كالغاصّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها. شَر الملوك من

---

(١) المرازبة: الرؤساء.

(٢) اللجاجة: تماحك الخصمين وتماديها، أي ان أصل الشرّ اللجاجة.

خافه البَريء. المرء يَعجز لا المحالة. أفضلُ الأولادِ البَرَرَة. وخيرُ الأعوان من لم يُراءِ[١] بالنصيحة. أحقُّ الجنود بالنصر من حَسُنَتْ سريرتهُ. يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ. حسبك من شرٍ سماعهُ. الصمت حكمٌ وقليل فاعلهُ. البلاغة الإيجاز. من شدّد نفر، ومن تراخى تألف.

فتعجب كسرى من أكثم، ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامَك في غير موضعه.

قال أكثم: الصدقُ يُنبيء عنك لا الوعيد.

قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى.

قال أكثم: رُبَّ قولٍ أنفذُ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي، فقال وَرَى زَنْدُك، وعلَت يدُك، وهيبَ سلطانُك. إن العرب أمة قد غلُظت أكبادُها، وآستحصدت مِرّتُها[٢]، ومنعت درّتها[٣]؛ وهي لك وامقةٌ[٤] ما تألفْتَها، مُسترسِلة ما لاينتها، سامعةٌ ما سامَحتها، وهي العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلالُ سلاسة. نحن وُفودها إليك، وألسنتها لديك؛ ذمّتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة؛ إن نؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عمومُ مَحْمَدَتنا، وإن نَذُم لم نَخص بالذمِّ دونها.

قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجَر التلال بألوان صخرها.

قال حاجب: بل زئيرَ الأُسْدِ بصولتها.

قال كسرى: وذلك.

---

(١) المراءاة: الملق والرياء.

(٢) المرّة: طاقة الحبل، واستحصدت: استحكمت وهذا كناية عن قوتهم.

(٣) درّتها: لبنها. (٤) وامقة: محبة.

ثم قام الحارث بن عُبَاد البَكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها، وعلوّ ثنائها. من طال رِشاؤه كثُر مَتْحُه[١]، ومن ذهب ماله قلّ مَنْحُه. تناقُلُ الأقاويلِ يعرِّف اللُّب؛ وهذا مقام سيوجِف[٢] بما يُنطقُ فيه الرَّكْب، وتَعرف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب؛ ونحن جيرانك الأدْنَوْن، وأعوانك المُعينون، خيولنا جَمّة، وجُيوشنا فخمة، إن استنجدتَنا فغيرُ رُبُض[٣]، وإن استطرقتنا فغير جُهُض[٤]، وإن طَلبتنا فغيرُ غُمض، لا نَنثني لذُعر، ولا نَتنكّر لدهر، رِماحنا طِوال، وأعمارنا قِصار.

قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأُمة واللهِ ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك، وأنى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرَّة؟

قال كسرى: لو قَصُر عُمرك لم تستولِ على لسانِك نفسُك.

قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حَمل نفسَه على الكَتيبة مغرِّرا بنفسه على الموت، فهي مَنِيْةٌ استقبلها، وحياةٌ استدبرها؛ والعرب تعلم أني أبعث الحرب قُدُما، وأحبسها وهي تصرّف بهم، حتى إذا جاشت نارها، وسعَرَت لظاها، وكَشفت عن ساقها، جعلتُ مَقادَها رُمحى، وبَرْقها سيفي، ورَعدها زئيري، ولم أُقصّر عن خوض خُضاخضها[٥]، حتى أنغمس في غَمرات لججها، وأكون فُلْكا لفُرساني إلى بُحبوحة كَبْشها، فأستمطرها دما، وأترك حُماتَها جَزَرَ السباع وكلِّ نَسْر قَشْعَم[٦].

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟

---

(١) الرشاء: الحبل، والمتح: إخراج الماء من البئر.

(٢) الايجاف: سرعة السير.

(٣) ربض: جمع ربوض، من ربضت الشاة إذا أقامت مكانها ولزمته.

(٤) وإن استطرقتنا فغير جُهض: أي إذا استغنت بنا لم تخب استعانتك، والأصل في الاستطراق: طلبك الفحل يضرب في إبلك وجُهض: جمع جهيض، وهو سقط الناقة، أي أن مخلنا إذا ضرب النياق لم تأت بجهيض بل تنتج.

(٥) الخضاخض: المكان الكثير الماء. (٦) القشعم: المسنّ.

قالوا: فعاله أنطق من لسانه.

قال كسرى: ما رأيتُ كاليوم وفداً أحْشَدَ، ولا شهوداً أوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلمي فقال: أيها الملك نِعَم بالُك، ودام في السرور حالك؛ إنّ عاقبة الكلام متدبّرة، وأشكال الأمور مُعتبرَة، وفي كثير ثَقْلة، وفي قليل بُلْغة، وفي الملوك سورةُ العز[1]، وهذا منطق له ما بعده، شَرُفَ فيه مَن شَرُف، وخَمل فيه مَن خَمل، لم نأت لضَيْمِك، ولم نَفِدْ لسُخطِك، ولم نتعرّض لرفْدِك. إنّ في أموالنا مُرتقدا، وعلى عزنا مُعتمدا؛ إن أورينا نارا أثْقبنا، وإن أَودَ[2] دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لِجوارِك حافظون، ولمن رامك مكافحون، حتى يُحمد الصَّدَر، ويُستطاب الخَبر.

قال كسرى: ما يقوم قصدُ مَنطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك.

قال عمرو: كفى بقليلِ قَصْدي هاديا، وبأيسرِ إفراطي مُخبرا، ولم يُلَمْ من عَزَفت[3] نفسُه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كل ما يَعرف المرءُ ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكِلابيّ فقال: أحضرَ اللهُ الملك إسعادا، وأرشده إرشادا؛ إنّ لكل منطق فُرصة، ولكل حاجة غُصة. وعِيُّ المنطق أشدُّ من عيِّ السكوت، وعِثار القول أنْكى من عثار الوَعْث[4]، وما فُرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مُستساغةٍ، وتركي ما أعلم من نفسي ويعلم مَن سَمِعَني أنني له مُطيق أحَبُّ إليّ من تَكلُّفي ما أتخوّف ويتخَوَفَّ مني. وقد أوفدَنا إليك مَلِكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْمَ حاملُ المعروفِ والإحسان. أنفُسنا بالطاعة لك باخعة[5]، ورقابُنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة.

---

(١) سورة العزّ: سطوته.
(٢) الأود: الإعوجاج.
(٣) عزفت: مالت.
(٤) الوعث: المكان السهل الذي تغيب فيه الأقدام.
(٥) باخعة: خاضعة ومقرّة.

قال له كسرى: نطقتَ بعقل، وسَمَوْتَ بفضل، وعلوت بنبل.

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامريّ فقال: أنهجتْ لك سبلُ الرشاد، وخَضعت لك رقابُ العباد: إن للأقاويل مناهج، وللآراء موالج، وللعويص مخَارج؛ وخير القول أصدقُه، وأفضلُ الطلب أنجحُه. إنّا وإن كانت المحبّة أحضرتْنا، والوفادة قرّبتنا، فليس مَن حَضَرَك منا بأفضلَ ممن عَزَب[١] عنك، بل لو قِسْتَ كلَّ رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا، لوجدتَ له في آبائه دُنْياً أندادا وأكفاء، كلهم إلى الفضلِ منسوب، وبالشرف والسودد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحمى حِماه، ويُروى نَداماه، ويَذود أعداه؛ لا تَخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أَيها الملك، من يَبْلُ العرب يعرف فضلَهم؛ فاصطنع العرب، فإنها الجبال الرواسي عزّا، والبحور الزواخر طُمِيّاً[٢]، والنجوم الزواهر شرفا، والحَصَى عددا؛ فإن تعرفْ لهم فضلهم يُعزِّوك، وإن تَستصرخهم لا يخذُلوك.

قال كسرى - وخشي أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه: حسْبك، أبْلَغْتَ وأحسَنْت.

ثم قام قيس بن مسعود الشَّيباني فقال: أطاب الله بك المَراشد، وجنَّبك المصائب، ووقاك مكروهَ الشَّصائب[٣]؛ ما أحقَّنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرَك، ولا يَزرع لنا حقدا في قلبك؛ لم نقدَم أيها الملك لمسَاماة، ولم ننتسبْ لمُعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعيتُك ومَن حَضَرَك مِن وفود الأمم أنّا في المنطق غير مُحجمين، وفي اليأس غيرُ مقصرين؛ إن جُورينا فغير مسبوقين، وإن سُومينا فغير مغلوبين.

قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين. وهو يُعرِّض به في تركه الوفاء بضمانه السَّواد[٤].

---

(١) عزب: غاب.

(٢) الطمي: الامتلاء وارتفاع الموج.

(٣) الشصائب: الشدائد.

(٤) يريد سواد العراق.

قال قيس: أيا الملك، ما كنتُ في ذلك إلا كوافٍ غُدِر به، أو كخافر[1] أخفر بذمته.

قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمان، ولا لذليلٍ خِفارة.

قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما خُفر من ذمتي، أحقُّ بالزامي العارَ منك فيما قُتل من رعيتك، وانْتُهك من حُرْمتك.

قال كسرى: ذلك، لأن مَن ائتَمن الخانة، واَستنجد الأَثَمَة، ناله من الخطأ ما نالني، وليس كلُّ الناس سواء؛ كيف رأيت حاجب بن زُرارة لِمَ يُحكمِ قُواه فيُبْرِم، ويعهد فيُوفى، ويعِد فيُنجز؟

قال: وما أحقَّه بذلك وما رأيته إلا لي.

قال كسرى: القوم بُزُل فأفضلها أشدُّها.

ثم قام عامر بن الطُّفيل العامريّ فقال: كثُر فُنون المنطق، وليس القول أعمى من حِنْدسِ[2] الظَّلماء، وإنما الفخر في الفَعال، والعِزّ في النجدة؛ والسُّوددُ مطاوعَةُ القدْرة. وما أعلمك بقدْرنا، وأبصَرك بفضلنا؛ وبالَحري[3] إن أدالت الأيام، وثابت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أموراً لها أعلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام؟

قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمر يُذكر.

قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكر؟

قال: مالي علم بأكثر مما خبّرني به مُخبر.

---

(١) الخافر: المجير.

(٢) الحندس: الظلمة. (٣) الحريّ: الخليق الجدير.

قال كسرى: متى تكاهَنْتَ يا بن الطُّفيل؟

قال: لستُ بكاهن، ولكني بالرمح طاعن.

قال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟

قال: ما هيبتي في قَفاي بدون هَيبتي في وجهي، وما أذهبَ عيني عَيْثٌ[1] ولكن مطاوعة العيث.

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزّبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب، ومِلاك النَّجْعة الآرتياد، وغفْو الرأي خيرٌ من استكراه الفكرة، وتوقّف الخِبرة خيرٌ من اعتساف الحيرة، فاجتَبِذ[2] طاعتَنا بلفظك، واكْتَظِمْ[3] بادِرَتَنا بحِلْمك، وألِنْ لنا كنفك[4] يسلُسْ لك قيادَنا، فإنّا أُناس لم يُوقِس[5] صَفاتَنا قِراعُ مَناقيرِ من أراد لنا قضما، ولكن منعْنا حِمانا مِن كل مَن رام لنا هَضْما.

ثم قام الحارث بن ظالم المرّي فقال: إنّ من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملَق[6]، ومن خطلِ الرأي خفة الملك المُسلّط، فإن أعلمنْاك أن مواجهتَنا لك عن ائتلاف، وانقيادَنا لك عن تَصاف، ما أنت لقبولِ ذلك منا بخليق، ولا للاعتماد عليه بحقيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام ولْثِ العقود، والأمر بيننا وبينك مُعتدل، ما لم يأت من قبلك ميلٌ أو زلل.

قال كسرى: من أنت؟

قال: الحارث بن ظالم.

قال: إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك، وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر.

---

(١) العيث: الفساد. (٢) اجتبذ: اجتذب واستمل.
(٣) اكتظم: احتمل واصطبر (٤) كنفك: جانبك.
(٥) لم يوقس: لم يخدش. (٦) الملق: الرياء.

قال الحارث: إنّ في الحق مغَضبة، والسَّرْوُ التغافل[1]، ولن يستوجب أحدٌ الحلم إلا مع القدرة، فلتُشبه أفعالُك مجلسَك.

قال كسرى: هذا فتى القوم.

ثم قال كسرى: قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفنّن فيه متكلّموكم ولولا أني أعلم أن الأدب لم يُثَقَّف أوَدَكم، ولم يُحكم أمركم، وأنه ليس لكم مَلكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم، وغلب على طباعِكم، لم أُجِزْ لكم كثيراً مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أجبِّه[2] وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحبُّ هو إصلاح مُدْبركم، وتألف شواذّكم، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم؛ وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب. وصفحت عما كان فيه من خَلل؛ فانصرفوا إلى مَلَكِكم فأحسِنوا مُؤازرته والتزِموا طاعته، وارْدَعُوا سُفهاءكم وأقيموا أودَهم، وأحسنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامّة.

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العتبي عن أبيه: أن حاجب بن زُرارة وفد على كسرى لما مَنع تميماً من رِيف العراق، فاستأذن عليه، فأَوْصَل إليه فقال: أسيِّد العربِ أنت؟ قال: لا. قال: فسيّد مُضر؟ قال: لا. قال: فسيّد بني أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له فدخل عليه. قال: من أنت؟ قال: سيد العرب! قال: أليس قد أوْصلْتُ إليك: أسيّد العرب أنت؟ فقلت: لا، حتى اقتصرتُ بك على بني أبيك، فقلت: لا؟ قال له: أيها الملك، لم أكن كذلك حتى دخلتُ عليك، فلما دخلتُ عليك صرتُ سيدَ العرب. قال كسرى: زِه[3]! املئوا فاه دُرّاً. ثم قال: إنكم معشر العرب غُدُر، فإن أذنتُ لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وأذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك ألاّ يفعلوا.

(١) السترو: المروءة والشرف. (٢) أجبّه: أواجه.

(٣) زه: أحسنت، دليل على الإعجاب.

قال: فمن لي بأن تفي أنت؟ قال: أَرْهَنك قوسي. فلما جاء بها ضَحِك مَن حوله وقالوا: لهذه العصا يفي! قال كسرى: ما كان لِيُسْلِمها لشيء أبداً. فقبضها منه، وأذِن لهم أن يدخلوا الريف.

ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوسَ أبيه؛ فقال له: ما أنت الذي رهنتَها! قال: أجل. قال: فما فعل؟ قال. هلك، وهو أبي، وقد وفَى له قومُه ووفى هو للملك. فردّها عليه وكساه حُلة.

فلما وفد إلى النبي ﷺ عُطاردُ بن حاجب، وهو رئيس تميم، وأسلم على يديه، أهداها للنبي ﷺ، فلم يقبلها؛ فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم.

ثم إن مضر أتت النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هلك قومك وأكلتهم الضَّبُع. يريدون الجوع ـ والعرب يسمُّون السَّنة الضَّبعَ والذئب. قال جرير:

من ساقَه السنة الحصّاء والذِّيبُ[1]

فدعا لهم النبي ﷺ فأُحيُوا، وقد كان دعا عليهم فقال: اللهم آشدُدْ وطأتك على مُضر، وابعثْ عليهم سنين كسِنِي يوسف.

وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعي قال: حدثنا عبدُ الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المُرّي، قال: قال أبو سفيان: أهديتُ لكسرى خيلاً وأدَماً، فقَبل الخيلَ وردّ الأدم، وأُدْخِلتُ عليه فكأنّ وجهه وجهان من عِظَمه، فألقى إليّ مخدّةً كانت عنده، فقلت: واجُوعاه! أهذه حظّي من كسري بن هُرمز؟ قال: فخرجتُ من عنده، فما أَمرُّ على أحد من حَشَمه إلا أعْظَمَها، حتى دُفعتْ إلى خازن له: فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضةٍ وذهب.

قال الأصمعي؛ فحدثتُ بهذا الحديث النَّوشجان الفارسي، فقال: كانت وظيفة المخدّة ألفاً، إلا أن الخازن اقتطع منها مائتين.

---

(١) صدره: يأوي إليكم بلامنّ ولا جحدٍ.

وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال: وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المُنذر، قال: فلقيت رجلاً ببعض الطريق، فقال لي: أين تُريد؟ قلت: هذا الملك. قال: فإنك إذا جئته متروكٌ شهراً، ثم تُتْرك شهراً آخر، ثم عسى أن يأذن لك؛ فإن أنت خلوتَ به وأعجبتَه فأنت مُصيبٌ منه خيراً، وإن رأيت أبا أُمامةَ النابغةَ فاظعَن[1]، فإنه لا شيء لك! قال: فقدمْتُ عليه، ففعل بي ما قال، ثم خلوتُ به وأصبتُ مالاً كثيراً ونادمتُه فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القُبة ويقول:

أنـــامَ أَمْ يَسْمَـــعُ ربُّ القُبَّـــهْ يا أَوْهَبَ الناسِ لعُنْسٍ صُلْبَـهْ[2]
ضرَّابَـــةٍ بـــالمِشْفَـــرِ الأذِبَّـــهْ ذات هيـاتٍ في يـديها جَـذْبَـهْ[3]

فقال النعمان: أبو أمامة، آئذنوا له فدخل فحيّاه وشرب معه، ووردت النَّعَم السود. ولم يكن لأحد من العرب بعيرٌ أسودُ غيره ولا يُفتحل أحدٌ فحلاً أسود. فآستأذنه النابغة في الإنشاد، فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

فإنك شمسٌ والملـوكُ كَـواكِـبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهُـنَّ كـوْكـبُ

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السُّود برُعاتها؛ فما حسدتُ أحداً قط حَسَدي له في شعره وجزيلِ عطائه.

وفود قريش على سيف بن ذي يزن

بعد قتله الحبشة

نعيم بن حمّاد قال: أخبرنا عبد الله بن المُبارك، عن سُفيان الثّوري، قال: قال ابنُ عباس: لما ظَفِر سيفُ بن ذي يزن بالحبشة، وذلك بعد مولد النبي ﷺ، أتته وفودُ العرب وأشرافُها وشعراؤها تُهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطَلَبه بثأر قومه،

---

(١) الظعن: الرحيل.   (٢) العنس: النوق القوية.

(٣) المشفر: من البعير بمنزلة الشفة للإنسان، والأذبّة: الذّبان والهيات: الصياح، وهيّت: صاح.

فأتاه وفدُ قريش، فيهم: عبدُ المطلب بن هاشم، وأميةُ بن عبد شمس، وأسد بن عبد العُزّى، وعبد الله بن جُدعان، فقَدموا عليه وهو في قصر له يقال له غُمْدان، وله يقول أبو الصلت، والد أُمية ابن أبي الصلت:

لم يُدْرِك الثأرَ أمثالُ ابن ذي يَـزَنٍ ... لجّجَ في البحرِ للأعداءِ أحْـوالاً[١]

أتَى هِرَقْل وقـد شـالـتْ نعـامتُـه ... فلم يَجِدْ عندهُ القولَ الذي قـالاً[٢]

ثم انْثَنَى نحوَ كِسْرى بعـد تـاسِعةٍ ... مـن السِّنين لقـد أبعَـدْت إيغـالاً

حتى أتى ببَني الأحْـرارِ يقْـدُمُهُـمْ ... إنكَ عَمْرِي لقد أسْرَعْتَ إرْقـالاً[٣]

مَنْ مِثْلُ كِسرى وبَهْرامَ الجُنود لَهُ ... ومِثْلُ وهْرِزَ يـوم الجيش إذ جـالا

للهِ درهُـمُ مِـنْ عُصْبـةٍ خـرجُـوا ... ما إن رأينـا لهُمْ في النـاس أمْثـالاً

صِيداً جَحاجَحةً، بيضاً خَضارمـةً ... أُسْداً تربّبُ في الغاباتِ أشْبـالاً[٤]

أَرسَلت أُسْداً على سُودِ الكِلابِ فقَدْ ... غادرْتَ أَوْجُهَهُمْ في الأرضِ أفْلالا[٥]

اشرَبْ هنيئاً عليْكَ التاجُ مُـرْتفِقـاً ... في رأسِ غُمْدانَ داراً مِنْكَ مِحْلالا

ثم اَطل بالمِسْكِ إذْ شالتْ نعامَتُهـمْ ... وأَسْبِل اليوْم في بُـرديْـك إسْبـالاً[٦]

تلك المكارِمُ لا قعبـانِ مِـن لبَـنٍ ... شيبَـا بِماءٍ فعـادَا بعـدُ أبْـوالاً[٧]

فطلبوا الإذن عليه، فأذن لهم، فدخلوا، فوجدوه متضمِّخاً بالعنبر، يلمع وبَيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بُردانِ أخضران قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، وسيفهُ بين يديه، والملوك عن يمينه وشماله، وأبناءُ الملوك والمَقاوِل.

فدنا عبدُ المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له: قُل. فقال: إنّ الله تعالى أيها

---

(١) لجّج: خاض اللّجة.

(٢) شالت نعامته: غضب وأخذته الغرّة.

(٣) بنو الأحرار: الفرس، والإرقال: الإسراع.

(٤) الصّيد: الملوك، والجحاجحة: السادة والخضارمة: الأكارم: وتربّب: أي تربّى من التربية.

(٥) أفلالاً: منهزمين.

(٦) شالت نعامتهم: تفرقوا او هلكوا.

(٧) القعبان: الأقداح يحلب فيها وشيبا: مزجا.

الملك أحلّك محلاً رفيعاً صَعْباً مَنيعاً، باذخاً[1] شامخاً؛ وأنبتك مَنبتاً طابت أَرومتُه، وعزّتْ جُرثومته[2]، ونبل أصلُه، وبَسَق فرعُه، في أكرم معدن، وأطيب موطن؛ فأنت أبيْتَ اللعنَ رأسُ العرب، وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلِكُها الذي به تنقاد، وعمودُها الذي عليه العماد، ومعقِلُها الذي إليه يلجأ العباد، سَلَفُك خيرُ سلف، وأنت لنا بعدهم خيرُ خلف، ولن يَهلك مَن أنت خَلَفُه، ولن يَخمُل من أنت سلفهُ. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمّتِه وسدَنة[3] بيتِه، أشخَصَنا إليك الذي أنهجك لكشف الكَرْب الذي فدَحنا، فنحن وفْد التهنئة لا وفود المرْزِئة.

قال: من أنت أيها المتكلم.

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابنُ أختنا؟ قال: نعم. فأدناه وقرّبه؛ ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مَرحبا وأهلاً، وناقةً ورحْلاً، ومُسْتناخاً سهلاً، ومَلِكاً رِبَحْلا[4]، يُعطي عطاءً جزْلاً. فذهبت مثلاً.

وكان أول ما تكلم به قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبِل وسيلتكم فأهُل الشرف والنباهة أنتم، ولكم القُربى ما أقمتم، والحِباء إذا ظعنتم.

قال: ثم استنهِضوا إلى دارِ الضيافةِ والوفود، وأجْريتْ عليهم الأنزال. فأقاموا ببابه شهراً لا يصِلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم، فخلا به وأدنى مجلسه، وقال: يا عبد المطلب، إني مفوّض إليك مِن سرّ عِلمي أمراً غَيْرُك كانَ لم أبِحْ له به، ولكنّني رأيتك موضعه فأطلعتُك عليه؛ فليكن مَصوناً حتى يأذن الله فيه؛ فإنّ الله بالغُ أمرِه: إني أجد في العلم المخزون؛ والكتاب المكنون الذي آدخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبراً

---

(١) الباذخ: الرفيع. (٢) الجرثومة: الأصل.

(٣) السدنة: الحفظة والخدم.

(٤) الربحل: العظيم.

عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرفُ الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس كافة، ولرهطك عامة، ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مِثْلُك أيها الملك مَن بَرَّ وسَرَّ وبَشَّر، ما هُوَ؟ فِداك أهلُ الوَبَر، زُمَراً بعد زُمَر.

قال ابن ذي يزن: إذا وُلد مولود بِتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيتَ اللعن، لقد أُبتُ بخيرٍ ما آبَ به أحد؛ فلولا إجلالُ الملِك لسألته أن يزيدني في البشارة ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حِينُه الذي يُولَد فيه أو قَد وُلِد، يموت أبوه وأمُه، ويكفله جدُّه وعمه؛ قد وجدناه مراراً، والله باعثه جهاراً، وجاعلٌ له مِنّا أنصاراً، يُعِزُّ بهم أولياءه، ويُذِلّ بهم أعداءه، ويفتتح كرائمَ الأرض، ويضرب بهم الناس عن عُرض[1]؛ يُخمد النِّيران، ويكسر الأوثان، ويَعبد الرحمن، قولُه حَكَم وفَصل؛ وأمره حَزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبطله.

فقال عبدُ المطلب: طال عُمرك، ودام مُلكك، وعلا جَدُّك، وعَز فخرك؛ فهل المَلِك يَسُرُّني بأن يُوضح فيه بعضَ الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطُّنُب، والعلاماتِ والنُّصب، إنك يا عبد المطلب، لجَدُّه من غير كَذِب. فَخَرَّ عبدُ المطلب ساجداً.

قال ابن ذي يزن: آرفع رأسك؛ ثَلج صدرك، وعلا أمرك؛ فهل أحسست شيئاً مما ذكرتُ لك؟

قال عبدُ المطلب: أيها الملك، كان لي ابنٌ كنتُ له مُحِباً، وعليه حَدِباً مُشفقاً،

---

(١) عرض: قوة.

فزوجتُه كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كلُّ ما ذكرتَ من عَلامة؛ مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمُّه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلتُ لك كما قلت، فاحفظ ابنَك واَحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم سبيلاً، اَطوِ ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمَنُ أن تَدْخُلَهم النَّفاسة، من أن تكون لكم الرِّياسة، فيَبغون له الغوائل، ويَنصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أني أعلم أن الموت مُجْتاحِي قبل مَبعثِه، لسرتُ بخيلي ورَجْلي حتى أصير بيثرب دارِ مُهاجَرِه؛ فإني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دارُ هجرته، وبيتُ نُصرته؛ ولولا أني أتَوَقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حداثة سنِّه أمره، وأوطأتُ أقدامَ العربِ عَقِبَه؛ ولكني صارف إليك ذلك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبْد، وعشر إماء سُود، وخمسة أرطال فضة، وحُلّتين من حُلَل اليمن، وكَرِش[1] مملوءة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره.

فلما حال الحولُ حتى مات ابنُ ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هشام يقول: يا معشر قريش، لا يَغبطني رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نَفاد، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكرُه وفخره لِعَقبي. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين.

وفود عبد المسيح على سطيح

جرير بن حازم عن عِكْرمة عن ابن عباس، قال: لما كان ليلة وُلد النبي ﷺ، ارتجّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شُرفة؛ فعظُم ذلك على أهل مَملكته،

(١) الكرش: وعاء الطيب.

فلما كان أوشك أن كتب إليه صاحبُ اليمن يُخبره أن بُحيرة ساوةَ غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحبُ السَّماوة يُخبره أن وادي السماوة آنقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طَبَريّة أن الماء لم يَجرِ تلك الليلة في بحيرة طبرية؛ وكتب إليه صاحبُ فارس يُخبره أن بُيوت النيران خَمدت تلك الليلة ، ولم تَخمُد قبل ذلك بألف سنة . فلما تواترت الكُتب أبرز سريرَه وظهر لأهل مملكته ، فأخبرهم الخبر ؛ فقال المُوبذان[1] : أيها الملك ، إني رأيت تلك الليلةَ رُؤيا هالتني . قال له : وما رأيتَ؟ قال : رأيت إبلاً صِعابا ، تقود خيلاً عِراباً ، قد اقتحمت دِجْلة ، وانتشرت في بلادنا . قال : رأيتَ عظيماً ، فما عندك في تأويلها؟ قال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، أَرْسل إلى عاملك بالحيرة ، يُوجِّه إليك رجلاً من علمائهم ، فإنهم أَصحابُ علم بالحِدثان . فَبَعَثَ إليه عبدَ المسيح بن نُفيلة الغَساني : فلما قدم عليه أخبره كسري الخبر . فقال له : أيها الملك . والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ولكن جَهّزني إلى خالٍ لي بالشام ، يقال له سَطيح ، قال : جَهِّزوه . فلما قدم على سطيح وجده قد احْتُضِر؛ فناداه فلم يُجبْه ، وكَلمه فلم يَرُدّ عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصَمٌّ أَمْ يَسمَعُ غِطْريفُ اليَمَنْ ... يا فاصِلَ الخُطَّةِ أَعْيت مَنْ ومَن[2]
أتاكَ شيخُ الحيِّ مِنْ آل سَنَنْ ... أَبْيَضَ فَضْفاضَ الرِّداءِ والبدنْ
رسولُ قيلِ العجْم يَهْوي لِلْوَثَنْ ... لا يَرْهَبُ الوَعْدَ ولا رَيْبَ الزَّمَنْ[3]

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مُشيح ، إلى سَطيح ، وقد أوفى على الضريح؛ بعثك ملكُ بني ساسان ، لآرتجاج الإيوان ، وخُمودِ النيران ، ورُؤيا المُوابَذان؛ رأى إبلاً صعاباً ، تقود خَيلاً عِراباً . قداقتحمت في الواد ، وآنتشرت في البلاد يا عبدَ المسيح ، إذا ظهرت التِّلاوة ، وفاض وادي السَّماوة ، وغاضت بحيرة ساوة وظهر صاحب الهِراوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفُرس مقاماً ، ولا الشام

(١) الموبذان : فقيه الفرس وحاكم المجوس .
(٢) الغطريف السيد الشريف . (٣) القيل : الملك .

لسطيحٍ شاما . يملك منهم ملوك وملكات، عدد سُقوط الشُّرفات، وكل ما هو آت آت . ثم قال:

إن كان مُلْكُ بني ساسانَ أفْرَطَهُمْ ... فإنّ ذا الدَّهْرَ أطْوارٌ دَهاريرُ[1]
منهُمْ بنو الصرْحِ بهرامٌ وإخوتُهُ ... والهُرْمُزَانُ وسابُورٌ وسابُورُ
فربَّما أَصْبَحوا منهُمْ بِمنْزِلةٍ ... يَهابُ صَوْلَهُمُ الأُسْدُ المهاصيرُ[2]
حَثُّوا المَطيَّ وجدُّوا في رِحالِهِمُ ... فما يَقومُ لهم سرْحٌ ولا كُورُ[3]
والناسُ أولادُ عَلاتٍ فمن عَلِموا ... أن قد أقلَّ فَمْحقورٌ ومهجور
والخير والشرُّ مَقْرونانِ في قَرنٍ ... فالخير مُتَّبَعٌ والشرُّ محذورُ[4]

ثم أتى كسرى فأخبره، فغمه ذلك . ثم تعزّى فقال: إلى أن يملك منا أربعةَ عشرَ ملكاً يدور الزمان . فهلكوا كلهم في أربعين سنة .

وفود همدان على النبي

صلى الله عليه وسلم

قدم مالك بن نَمَط في وفد همدان على رسول الله ﷺ ، فلقُوه مُقْبلاً من تَبوك، فقال مالك بن نَمَط: يا رسول الله نصيّة[5] من همْدان، من كل حاضر وباد، أتَوْك على قُلُص نَوَاج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام وشاكر، عهدُهم لا يُنقض، عن سُنّة ماحل[6] ولا سوداء عَنْقفير[7] ، ما أقامت لَعْلع، وما جرى اليَعفورُ بصُلّع[8] .

(١) أفرطهم: تركهم، ودهارير: شديدة .
(٢) المهاصير: جمع مهصار: وهو الأسد، مأخوذة من الهصر، وهو الكسر والجذب والإمالة .
(٣) الكور: الرحل بأداته .
(٤) مقرونان في قرنٍ: أي مرتبطان في سلكٍ واحد .
(٥) النصيّة: خيار القوم .
(٦) الماحل: الساعي بالنميمة والإفساد . (٧) العنقفير: الداهية .
(٨) اليعفور: ولد الظبية، ولعلع: جبل وصلع: الأرض لانبات لها .

فكتب إليهم النبي ﷺ : هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مِخلاف خارف، وأهل جنَاب الهَضْب، وجِفَاف الرمل، مع وفدها ذي المِشعار مالك بن نَمَط ومن أسلم من قومه، أن لهم فِرَاعَها ووِهاطها وعَزَازَها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون عِلافَها، ويرعون عَفَاها، لنا من دِفْئِهم وصِرامِهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثِّلْبُ[1] والناب والفصيل والفارض الداجن والكبش الحَوري؛ وعليهم الصَّالغ[2] والقارح.

وفود النخع على النبي

صلى الله عليه وسلم

قدم أبو عمرو النَّخعي على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذه رُؤيا، رأيت أتاناً تركتُها في الحيّ ولدت جَدْياً أسْفَعَ أحوى[3]. فقال رسول الله ﷺ : هل لك من أمة تركتها مُصِرّة[4] حملاً؟ قال: نعم، تركت أمة لي أظنها قد حملت؟ قال: فقد ولدت غلاماً وهو ابنك. قال: فما باله أسفع أحوى؟ قال: ادُن منّي. فدنا منه؛ فقال: هلْ بك بَرَصٌ تكتُمه؟ قال نعم، والذي بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علِم به. قال: فهو ذلك. قال: ورأيت النُّعمان بن المُنذر عليه قُرطان ودُمْلجان ومَسَكتان. قال: ذلك مُلك العرب عاد إلى أفضل زيِّه وبَهجته. قال: ورأيت عجوزاً شمطاء تخرج من الأرض قال: تلك بقيّة الدنيا. قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يُقال له عمرو، ورأيتها تقول: لظًى لظى! بصيرٌ وأعمى! أطعموني! آكلكم آكلكم! أهلككم ومالَكم. فقال النبي ﷺ : تلك فتنة في آخر الزمان. قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يقتل الناس إمامهم ثم

---

(١) الثلب: الجمل تكسّرت أسنانه.

(٢) الصالغ: من الشياه: كالقارح من الخيل، وهي التي دخلت في الخامسة أو السادسة.

(٣) الأسفع: الأسود المشرب بالحمرة، والأحوى: الأحمر إلى سواد.

(٤) مصرّة حملاً: أي ذات حمل محقق.

يشتجرون[1] اشتجار أطْباق الرأس ـ وخالف رسولُ الله ﷺ بين أصابعه ـ يحسب المُسيء أنه محسن، ودمُ المؤمن عند المؤمن أحلى من شُرب الماء.

وفود كلب على النبي

صلى الله عليه وسلم

قدِمَ قطن بن حارثة العُليمي في وفد كلب على النبي ﷺ، فذكر كلاماً، فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً نُسخته:

هذا كتاب من محمد رسول الله لعمائر كلب وأحلافها، ومن ظأَرَهُ[2] الإسلام من غيرها، مع قطن بن حارثة العُليمي، بإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقها، في شدة عَقْدها، ووفاء عهدها، بمَحضر شهود من المسلمين: سَعد بن عُبادة، وعبد الله ابن أُنيس، ودِحْية بن خليفة الكلبي، عليهم في الهُمولَةِ الراعية البِساطِ الظُّؤار[3]، في كلِّ خمسين ناقةٌ غيرُ ذات عوَار[4]، والحَمُولةُ المائرة لهم لاغيَة، وفي الشَّوِيِّ الوَرِيِّ[5] مُسِنَّة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدولُ من العين المَعين العُشْرُ من ثمرها مما أخرجت أرضُها، وفي العِذْى[6] شطرُه بقيمة الأمين، فلا تُزاد عليهم وظيفة ولا يُفرَّق. يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله.

وكتب ثابت بن قيس بن شمّاس.

وفود ثقيف على النبي

صلى الله عليه وسلم

وفدت ثَقيف على النبي ﷺ، فكتب لهم كتاباً حين أسلموا: أن لهم ذمة الله، وأن واديهم حرام، عِضاهُه[7] وصَيْدُهُ وظُلْمٌ فيه، وأن ما كان لهم من دَين إلى أجل فبلغ

(١) الدملج: شيءٌ يشبه السوار، والمسكة: السوار من ذبل أوعاج.

(٢) ظأره: أي عطفه عليه.

(٣) الظؤار: جمع ظئر، وهي المرضعة.

(٤) العوار: العيب. (٥) الوري: السمين.

(٦) العذي من الزرع والنخيل: ما لا يسقى إلاّ بماء السماء.

(٧) العضاه: شجر عظيم له شوك.

أجلَه فإنه لِياط[١] مُبرَّأ من الله ورسوله، وأن ما كان لهم من دَين ومن رَهن وراء عُكاظ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه ويُلاَطُ بعُكاظ ولا يؤخَّر.

وفود مذحج على النبي

صلى الله عليه وسلم

وفَد ظَبْيان بن حدّاد في سراة مَذْحج على النبي ﷺ، فقال بعد السلام على رسول الله ﷺ، والثناء على الله عزَّ وجل بما هو أهله.

الحمد لله الذي صَدع الأرض بالنبات، وفتق السماء بالرَّجْع[٢]. ثم قال: نحن قوم من سَراة مذحج من يُحابِر بن مالك. ثم قال: فتَوَقَّلَت[٣] بنا القلاص؛ من أعالى الحَوْف ورءوس الهضاب، ترفعها عُرَر[٤] الرُّبا وتَخْفِضُها بُطْنان الرقاق، وتلْحقُها دياجي الدُّجى. ثم قال: وسروات الطائف كانت لبني مهْلائيل بن قَيْنان: غَرَسُوا وديانَه وذلَّلوا خِشَانَه، ورَعوا قُربانه. ثم ذكر نُوحا حين خرج من السفينة بمن معه، قال فكان أكثرَ بنيه بَناتاً. وأسرعَهم نَباتاً، عادٌ وثمود، فرماهم الله بالدُّمالق[٥]، وأهلكهم بالصواعق. ثم قال: وكانت بنو هانيء من ثمود تسكن الطائف، وهم الذين خطُّوا مَشاربها، وأَتَوْا جداولَها، وأحْيَوْا غِراسها، ورفعوا عَريشها. ثم قال: وإن حِمْير ملكوا مَعاقل الأرض وقَرارَها، وكهول الناس وأغمارَها، ورُءوسَ الملوكِ وغِرارَها، فكان لهم البَيضاءُ والسوداءُ، وفارسُ الحمراء، والجِزية الصفراء؛ فبطروا النِّعم، وآستحقوا النِّقم، فضرب الله بعضَهم ببعض. ثم قال: وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر، ففتحوا فيها الشرائع، وبنوا فيها المصَانع، وآتخذوا الدسَائع[٦]؛ ثم ترامتْ مذحج بأسنّتها، وتَنَزَّتْ بأعنّتها: فغلب العزيزُ أذلها، وقتل

---

(١) اللياط: الرِّبا. (٢) الرّجع: المطر.

(٣) توقلت: صعدت.

(٤) العرر: جمع عُرّة، وهي شحمة السنام العليا.

(٥) الدّمالق: الأملس المستدير من الحجارة.

(٦) الدسائع: الدساكر: الواحدة دسيعة.

الكثيرُ أقلَّها . ثم قال: وكان بنو عمرو بن جَذيمة يَخْبِطون عَضِيدها[1]، ويأكلون حَصيدها، ويُرَشِّحون خَضِيدَها[2] .

فقال رسول الله ﷺ . إنّ نعيم الدنيا أقلُّ وأصغر عند الله من خُرْءِ بُعَيضة، ولو عَدَلَت عند الله جَناحَ ذبابٍ لم يكن لكافر منها خَلاق، ولا لمسلم منها لَحاق .

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي

صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ لقيط بن عامر بن المُنتفق على النبي ﷺ ومعه صاحبٌ له يقال له نَهِيكُ بن عاصم بن مالك بن المُنتفق .

قال لَقيط: فخرجتُ أنا وصاحبي حتى قَدِمنا المدينة لآنسلاخ رجب، فأتينا رسولَ الله ﷺ ، فوافيناه حين آنصرف من صلاة الغَداة، فقام في الناس خَطيباً، فقال: أيها الناس، ألا إني قد خَبَأتُ لكم صَوْتي منذ أربعة أيام، لتسمعوا الآن، ألا فهل من امرىءٍ قد بَعثه قومُه؟ ـ فقالوا: اعْلَمْ لنا ما يقول رسولُ الله ﷺ ـ ألاَ، ثم لعله يُلهيه حديثُ نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضالٌّ، ألا وإني مسئول هل بلّغت، ألا اسمعوا ألا اجلسوا .

فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤادُه وبصرُه، قلت: يا رسول الله، ما عندك من عِلْمِ الغيب؟ فضحك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسَه، وعلم أني أبتغي سَقَطه؛ فقال: ضَنَّ رَبُّكَ بمفاتيح خمسٍ من الغَيب لا يعلمهن إلا الله ـ وأشار بيده ـ قلت: وما هي؟ قال: عِلْم المنيّة، قد علم متى مَنِيَّةُ أحدِكم ولا تعلمونه؛ وعِلم ما في غد وما أنت طاعم غداً، ولا تعلمه، وعلم المَنِيّ حين يكون في الرَّحم، قد علمه ولا

---

(١) العضيد: المقطوع من الشجر علفاً للحيوانات .

(٢) الخضيد: المقطوع من شجر التمر، وترشيحهم له إصلاحهم له إلى أن تعود ثمراته فتطلع .

تعلمونه؛ وعِلم الغيث، يُشرف عليكم آزلين مُسْنِتين[1] فيظلّ يضحك، قد عَلِمَ أن عونكم قريب.

قال لقيط: قالت: لن نَعدم من رب يَضحك خيراً.

وعلم يوم الساعة. قلت: يا رسول الله، إني سائلك عن حاجتي فلا تعجلني.

قال: سَل عما شئت.

قال: قلت: يا رسول الله، علِّمنا مما لا يعلم الناس ومما تَعْلم؛ فإنا من قَبيلٍ لا يصدّقون تصديقَنا أحداً؛ مِن مذحج التي تدنو إلينا، وخثعم التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها.

قال رسول الله ﷺ: تلبثون ما لبثتم، ثم يُتَوَفّى نبيُّكم ثم تلبثون حتى تُبعث الصيحة، فلعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات، والملائكة الذين عند ربك؛ فيُصبح ربُّك يطوف في الأرض وقد خَلَت عليه البلاد. فيرسل ربُّك السماءَ بهَضْب[2] من عند العرش، فلَعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من مَصْرع قَتيل، ولا مَدفن ميّت، إلا شقّت القبر عنه حتى تخلقه من قِبل رأسه فيستوي جالساً، ثم يقول ربك: مَهْيَم[3] ـ لما كان فيه ـ فيقول: يا رب، أمس! اليوم! ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله.

فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعد ما تفرقنا الرياح والبِلَى والسباع؟

قال: أنبئك بمثل ذلك في إلّ[4] الله، أشرفتُ على الأرض وهي مَدَرة[5] يابسة فقلت: لا تَحيا هذه أبداً، ثم آرسل ربُّك عليها السماء فلم تلبث إلا أياماً حتى أشرفتُ

---

(١) آزلين: قد صرتم في جدب وقحط، ومسنتين: قد أصابتكم الشدّة.

(٢) الهضب: المطر. (٣) مهيم: كلمة يمانية ومعناها: ما الأمر وما الشأن.

(٤) في إلّ الله: أي في ربوبيته وقدرته وعلمه.

(٥) المددة: القطعة من المدر، وهو الطين.

عليها وهي شَرَبَة واحدة[1]، ولَعَمْر إلهك لهو أقدرُ على أن يَجمعكم من الماء على أن يَجمع نباتَ الأرض، فتخرجون من الأصواء ـ قال ابن إسحاق: الأصواء أعلام القبور ـ ومن مصارعكم، فتنظرون إليه وينظر إليكم.

قال: قلت: يا رسول الله، وكيف، نحن مِلء الأرض وهو شخص واحد ننظر إليه وينظر إلينا؟

قال: أُنبئك بمثل ذلك في إلّ الله: الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وتَروه من أن تروهما ويرياكم، لا تُضارون في رؤيتهما.

قال: قلت: يا رسول الله، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟

قال: تُعرضون عليه باديةً له صفحاتُكم لا يخفي عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غَرفة من الماء، فينَضح بها قُبْلكم، فلعمر إلهك ما تُخطيء وجه أحدكم منها قطرة. فأما المُسلم فتدع وجهه مثل الرَّيْطةِ[2] البيضاء، وأما الكافر فتَخطمه[3] بمثل الحمم[4] الأسود. ثم ينصرف نبيّكم ويتفرق على أثره الصالحون. قال: فتسلكون جسراً من النار، فيطأ أحدكم الجمر يقول: حس! يقول ربك: أوَ إنّه؟ فتطّلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهلُه، فلعمر إلهك ما يبسُط أحد منكم يده إلا وضع عليها قدح يُطهره من الطّوْف[5] والبول والأذى، وتُحبس الشمس والقمر ولا ترون منهما واحداً.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نُبصر يومئذ؟

---

(١) الشربة: حوض يكون في أصل النخلة وحولها يملأ ماء تشربه.

(٢) الريطة: الملاءة.

(٣) تخطمه: أي تصيب خطمه، وهو أنفه فتعجل فيه أثراً.

(٤) الحمم: الفحم.

(٥) الطوف: الحدث من الطعام.

قال: بمثل بصرك ساعتك هذه؛ وذلك قبل طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نُجْزَى من سيّئاتنا وحسناتنا؟

قال: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، إلا أن يعفو.

قال: قلت: يا رسول الله، فما الجنة وما النار؟

قال: لعمر إلهك إنّ للنار لسبعة أبواب، ما منها بابان إلاّ يسير الراكب بينهما سبعين عاماً. وإن للجنة لثمانيةَ أبواب، ما منها بابان إلاّ يسير الراكب بينهما سبعين عاماً.

قال: قلت: يا رسول الله، فعلام نطَّلع من الجنة؟

قال: على أنها من عسل مُصفّى، وأنهار من كأس ما بها من صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون، وخير مِن مثله معه، وأزواج مطهَّرة.

قال: قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج؟ أوَ منهن صالحات؟

قال: الصالحات للصالحين، تلَذُّون بهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلْذَذْنَ بكم، غير أنْ لا توالد.

قال لقيط: قلت: أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه، فلم يجبه النبي ﷺ.

قال: قلت: يا رسول الله، علام أبايعك؟ قال: فبسط إليّ يده وقال: على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وزيال الشِّرك(١)، وألاّ تشرك بالله إلهاً غيره.

قال: فقلت: وإنّ لنا ما بين المشرق والمغرب؟.

فقبض ﷺ يده وظن أني مُشترْطٌ شيئاً لا يُعطينيه.

قال: قلت نَحُلّ منها حيث شئنا، ولا يجزي عن امرىء إلا نفسه؟ فبسط إليّ يده

(١) زيال الشرك: مفارقته.

وقال: ذلك لك: حُلّ حيث شئت، ولا يجزي عنك إلا نفسك. قال: فانصرفنا عنه.

وفود قيلة على النبي

صلى الله عليه وسلم

خرجت قيْلة بنت مخرمة التميمية تبغي الصُّحبة إلى رسول الله ﷺ، وكان عمّ بناتها، وهو أثوب بن أزهر، قد انتزع منها بناتها، فبكت جُويرية منهن حُديباء قد أخذتها الفَرْصة[١]، عليها سُبيِّج من صوف، فرَحِمْتها فذهبت بها. فبينما هما تُرْتكان[٢] الجمل إذ انتفخت منه الأرنب؛ فقالت الحُديباء: الفَصْية. والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب. ثم سنَح الثعلب، فسمّته اسما غير الثعلب نسِيَه ناقلُ الحديث. ثم قالت فيه مثل ما قالت في الأرنب، فبينما هما تُرتكان الجمل إذ برك الجمل وأخذته رعِدة. فقالت الحديباء: أخذتك والأمانةِ إخذةَ أثوب. قالت قَيلة: فقلت لها: فما أصنع، ويحك! قالت: قلِّبي ثيابك ظهورَها لبطونها، وادَّحْرجي ظهرك لبطنك، وقلِّبي أحلاس[٣] جَملك. ثم خلعت سُبَيِّجها فقلبته، ثم ادحرجت ظهرها لبطنها، فلما فعلتُ ما أمرتني به انتفض الجمل، ثم قام فنأج[٤] وبال، فقالت: أعيدي عليه أداتك. ففعلتُ، ثم خرجنا نُرتك، فإذا أثوبُ يسعى وراءنا بالسيف صَلْتا، فوَأَلْنا إلى حِواء ضخم فداراه، حتى ألقى الجمل إلى رُواقه الأوسط، وكان جملاً ذلولا، واقتحمتُ داخله وأدركني بالسيف، فأصابت ظُبته طائفةً من قرون رأسِيَهْ؛ ثم قال: ألقي إليّ ابنة أخي يادَفارِ[٥]. فألقيتها إليه. فجعلها على مِنكبه وذهب بها. وكنتُ أَعلمَ به من أهل البيت، وخرجتُ إلى أخت لي ناكحٍ في بني شَيبان أبتغي الصحبة إلى رسول الله ﷺ. فبينا أنا عندها تحَسب أني نائمة، إذ جاء زوجها من السامر، فقال لها: وأبيك لقد وجدتُ لقيلة صاحبَ صدق. قالت أختي: مَن هو؟

---

(١) الفرصة: أي ريح الحدب فيصير صاحبها أحدب.

(٢) ترتكان الجمل: تحمِلانه على السير السريع.

(٣) الأحلاس: جمع حلس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب.

(٤) نأج: صاح. (٥) يادفار: أي يا منتنة.

قال: حُريث بن حسّان الشَّيباني، وافد بكر بن وائل عاويا ذا صياح. فقالت أختي: الويل لي، لا تخبرها فتتبعَ أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها، ليس معها أحد من قومها. قال: لا ذكرتهُ.

قالت: وسمعت ما قالا: فغدون إلى جملي فشددت عليه، ثم نشدتُ عنه فوجدته غيرَ بعيد. فسألته الصُّحبة فقال: نعَمْ وكرامة، وركابه مُناخة عنده.

قالت: فسرت معه صاحبَ صِدق؛ حتى قَدِمنا على رسول الله ﷺ وهو يصلي بالناس صلاة الغداة: قد أُقيمت حين شق الفجر، والنجوم شابكة في السماء، والرجال لا تكاد تعارفُ من ظلْمة الليل؛ فصففت مع الرجال؛ وأنا امرأة قريبة عهد بجاهلية؛ فقال الرجل الذي يليني من الصف: امرأة أنتِ أم رجل؟ فقلت: لا بل امرأة. فقال: إنك كدت تَفْتنيني، فصلّي في النساء وراءك. فإذا صَفّ من نساء قد حدث عند الحُجرات لم أكن رأيتُه إذْ دخلت؛ فكنت فيهن؛ حتى إذا طلعت الشمس دنوتُ؛ فجعلت إذا رأيت رجلا ذا رُواء وذا قِشْر[1] طَمَح إليه بصري لأرى رسولَ الله فوق الناس، حتى جاء رجل؛ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وعليه تعني النبي ﷺ - أسمالُ مُليتيْن، كانتا مزعفرتين وقد نفضتا؛ ومعه عُسيّب نخلة مَقْشُوٌّ[2] غير خُوصتين من أعلاه: وهو قاعد القُرفصاء. فلما رأيت رسول الله ﷺ متخشّعاً في الجلسة أُرعدت من الفَرَق، فقال جليسهُ: يا رسول الله، أُرعدت المسكينة. فقال رسول الله، ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: يا مسكينة، عليكِ السكينة.

قالت: فلما قالها ﷺ أذهب الله ما كان دخل في قلبي من الرعب.

وتقدّم صاحبي أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه، ثم قال: يا رسول الله، اكتُب بيننا وبين تميم كتابا بالدَّهناء لا يُجاوزها إلينا منهم إلا مسافرٌ أو مجاوزٌ.

---

(١) القشر: اللباس. (٢) مقشوّ: أي مقشور عنه خوصه.

قال: يا غلام، اكتب له بالدَّهناء.

قالت: فلما رأيتهُ أمر بأن يُكتب له؛ شخِص بي. وهي وطني وداري؛ فقلت: يا رسول الله؛ إنه لم يسألك السويّة من الأرض إذ سألك؛ إنما هذه الدهناء مُقَيَّدُ الجمل ومَرعى الغنم؛ ونساء بني تميم وأبناؤها وراء ذلك. فقال: أمسك يا غلام، صدقت المسكينة المُسلم أخو المُسلم، يسعهما الماء والشجر. ويتعاونان على الفَتَّان (١).

فلما رأى حُريث أن قد حيل دون كتابه، قال كنت أنا وأنت كما قال في المثل: حتفَها تَحْمِلُ ضأنٌ بأظلافها! فقلت: أمَا والله ما علمت إن كنتَ لدليلا في الظلماء، جوادا لدَى الرَّحل، عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله ﷺ ولكن لا تلمني أن أسأل حظي إذ سألت حظَّك. قال: وأيّ حظ لك في الدهناء لا أبالك.

قلت مُقَيد جملي تُريده لجمل آمرأتك! فقال: لا جرم إني أُشهد رسول الله أني لك أخٌ ما حَييت؛ إذ أثنيتِ عليّ عنده. فقلت: أمَّا إذ بدأتها فلن أضيعها.

فقال رسول الله ﷺ: أيلام ابنُ هذه أن يَفصل الخُطة، وينتصر من وراء الحَجَزة. فبكيتُ ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراما، فقاتل معك يوم الرَّبذة، ثم ذهب يمتري من خَيبر، فأصابته حُمَّاها فمات فقال: لو لم تكوني مسكينة لجررناك على وجهك. أيُغلب أُحَيْدُكم على أن يصاحب صُويحبه في الدنيا معروفا، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال: ربِّ آسِني لما أمضيت، وأعنّي على ما أبقيت. فوالذي نفسُ محمد بيده إنّ أحدكم ليبكي فيستعبر له صُويحبه؛ فيا عباد الله لا تعذِّبوا إخوانكم ثم كتب لها في قطعة أدم أحمر: لقَيلة والنسوة من بنات قيلة يُظلمن حقّا، ولا يُكرهن على مَنكح، وكل مؤمن مسلم لهن نصير أحْسِنَّ ولا تسئْن.

---

(١) الفتّان: الشياطين.

كتاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم

لأكيدر دومة

من محمد رسول الله ﷺ لأُكيدر دُومة، حينأجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيفِ الله في دُومة الجندل وأكنافها:

إن لنا الضاحية من الضَّحل والبَوْرِ والمَعامِي وأغفال الأرض والحَلْقة والسِّلاح والحافر والحصنْ، ولكم الضَّامنة من النخل والمَعين من المعمور، لا تعدل سارحتُكم ولا تُعدْ فاردتُكم[١]، ولا يُحظَر عليكم النبات. تُقيمون الصلاة لوقتها، وتُؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين.

كتابه صلى الله عليه وسلم

لوائل بن حجر الحضرمي

من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة[٢] والارواع المشابيب[٣] من أهل حَضر موت بإقامة الصلاة، وايتاء الزكاة: في التيعة[٤] شاة، لا مُقوَّرة الألياط ولا ضِنَاك، وانطوا الثَّبْجَة[٥] والتيمة لصاحبها، وفي السيُّوب الخُمس؛ لا خِلاط، ولا وِرَاط،

---

(١) الفاردة: ما لا تجب فيه الصدقة.

(٢) الأقيال العباهلة: أي الملوك القار ملكهم.

(٣) الأرواع المشابيب: الحسان الوجوه السادة الرؤساء.

(٤) التيعة: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان.

(٥) الإقورار: الاسترخاء في الجلود، والألياط: جمع ليط، وهو العود شبّه به الجلد لالتزاقه باللحم والضناك: الكثيرة اللحم، وأنطوا: أعطو والشبجة: الوسط، والتيمة: الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى، وقيل هي الشاة التي تكون لصاحبها في منزلة غير سائمة.

ولا شِناق، ولا شِغار[1]، ومن أَجْبَى فقد أَرْبى[2]، وكُل مُسكرٍ حرام.

حديث جرير بن عبد الله البجلي

قدم جرير بن عبد الله البَجَليّ على رسول الله ﷺ: فسأله عن منزله ببيشة، فقال سَهْل ودَكْداك[3]، وسَلَم وأراك، وحَمّض وعَلاك، إلى نخلة ونخلة، ماؤها ينبوع، وجنابها مَريع، وشِتاؤها ربيع.

فقال رسول الله ﷺ: إنّ خير الماء الشَّبِم[4]، وخير المال الغنم، وخير المرعى الأراك، والسَّلَم إذا أخلف كان لَجِينا، وإذا أَسقط كان دَرِينا[5]، وإذا أكل كان لَبِينا.

وفي كلامه عليه السلام: إن الله خلق الأرض السُّفلى من الزبد الجُفاء والماء والكُباء.

حديث عياش بن أبي ربيعة

بعث رسول الله ﷺ عيّاش بن أبي ربيعة إلى بني عبد كُلال وقال له: خُذ كتابي بيمينك وادفعه بيمينك في أيمانهم، فهم قائلون لك اقرأ. فاقرأ: ﴿لم يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتابِ والمُشْرِكينَ مُنْفَكِّينَ﴾[6]. فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين. فلن تأتيك حجة إلا وقد دُحِضت ولا كتاب زخرف إلا وذهب

---

(١) الخلاط: المخالطة، والوراط: أن تجعل الغنم في وهدة من الأرض لتخفى عن المصدق ولاشناق: أي يخلط غنمه إلى مال غيره والشغار: زواج في الجاهلية وهو أن يزوج الرجل أخته لرجل ما على أن يتزوّج أخت ذلك الرجل.

(٢) أجبى: من الإجباء وهو بيع الزرع قبل ان يبدو صلاحه.

(٣) الدكداك: ما تلبدّ من الرمل بالأرض ولم يرتفع كثيراً.

(٤) الشبم: البارد. (٥) الدرين: ما بليَ من الحشيش.

(٦) سورة البينة الآية ١.

نُوره ومَحّ[1] لونه، وهم قارئون، فإذا رَطنوا فقد ترجموا. فقُل: حَسَن، آمنت بالله وما أنزل من كتاب الله. فإذا أسلموا فسَلْهم قُضُبَهم الثلاثة التي إذا تخصّروا بها سُجد لهم، وهي الأثل قضيب ملمع ببياض، وقضيب ذو عُجَر كأنه من خيزران، والأسود البهيم، كأنه من ساسَم[2]. ثم اخرُج بها فحرِّقها في سُوقهم.

حديث راشد بن عبد ربه السلمي

عبد الله بن الحكم الواسطيّ عن بعض أشياخ أهل الشام، قال: قال استعمل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب على نَجران، فولاّه الصلاة والحرب، ووجّه راشد بن عبد ربه أميراً على القضاء والمظالم. قال راشد بن عبد ربه:

ضحا القلبُ عن سَلْمَى وأقْصَرَ شأوُهُ ... ورَدّتْ عليه ما نَفَتْهُ تُمَاضِرُ
وحكَّمه شَيْبُ القـذالِ عـن الصبـا ... وللشَّيْبُ عن بعضِ الغَوَايَةِ زاجِرُ
فأقْصَرَ جهلي اليومَ وارتـدّ بـاطِلي ... عن الجهلِ لما ابْيَضّ مِنّي الغَـدائـرُ
على أنه قـد هـاجَـهُ بعـد صَحْـوَةٍ ... بمعرض ذي الآجامِ عيسٌ بواكـرُ
ولما دَنَتْ من جانِبِ الغُوط أَخْصَبَتْ ... وحَلَّـتْ وَلاَقَـاهـا سليمٌ وعـامِـرُ
وخَبّرهـا الرُّكْبـانُ أنْ ليس بينَهـا ... وبين قُرَى بُصْرَى ونَجرانَ كـافِـرُ
فألْقَتْ عَصاها واستقَرّت بها النَّـوى ... كما قَرَّ عيْناً بالإيـابِ المُسـافِـرُ[3]

وفود نابغة بني جعدة

على النبي صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ أبو ليلى نابغةُ بني جَعدة على النبي ﷺ، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بَلَغْنـا السماءَ مَجـدُنـا وسَنَـاؤنـا ... وإنـا لنَبْغِـي فـوق ذلـك مَظهَـرا

---

(١) محّ لونه: درس وبلي.
(٢) الساسم: شجرٌ أسود، أو هو الابنوس. (٣) النّوى: الترحال والبعد.

قال له النبي ﷺ : إلى أين أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال النبي ﷺ : إن شاء الله . فلما انتهى إلى قوله :

ولا خيْـرَ في حِلمٍ إذا لم تكـن لـــه بَوادِرُ تَحْمِـي صَفْـوَهُ أنْ يُكَـدَّرَا

قال له النبي ﷺ : لا يَفْضُضِ اللهُ فاك ! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفَضّ له سِنّ ، وبقي حتى وفد على عبد الله بن الزبير في أيامه بمكة وامتدحه ، فقال له : يا أبا ليلى ، إنّ أدنى وسائلك عندنا الشعر ، لك في مال الله حَقّان : حق برؤيتك رسول الله ﷺ ، وحقّ بشركتك أهل الإسلام في فيْئهم . ثم أحسن صلته وأجازه .

وفود طهفة بن أبي زهير النهدي

على رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي ﷺ ، قام طهفة ابن أبي زُهير ، فقال : يا رسول الله ، أتيناك من غَوْرَي تهامة بأكوار المَيْس[١] ،ترمى بنا العِيس ، نَستحلب الصبيّر ، ونَستخلب الخبير ؛ ونستعضد البَرير ، ونَستخيل الرِّهام[٢] ، ونستخيل الجَهـام[٣] ، مـن أرض غائلة النّطاء ،[٤] ، غليظة الوِطاء ، قد نَشِفَ المدْهُن[٥] ويَبس الجِعثِن[٦] ، وسَقط الأملوج[٧] ، ومات العُسلوج[٨] ؛ وهلك الهَدِيّ ، ومات الْوَدِي[٩] ، برئنا يا رسول الله من الوَثَن والعَنَن[١٠] ، وما يُحدث الزمن ؛ لنا دعوة السلام ، وشريعة الإسلام ، ماطَمَى

---

(١) أكوار الميس ، الأكوار : الرحال ، والميس : شجر تصنع منه .
(٢) الرهام : الأمطار الضعيفة .
(٣) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه ، ونستجيل : نراه جائلاً يذهب هنا وهنالك .
(٤) النّطاء : البعد . (٥) المدهُن : ما حفره السّيل .
(٦) الجعثن : أصل النبات .
(٧) الاملوج : ورق شجر يشبه الطرفاء والسرو .
(٨) العسلوج : الغصن إذا يبس وذهبت طراوته .
(٩) الوديّ : فسيل النحل . (١٠) العنن : الاعتراض ، يريد الشرك والظلم .

البحر، وقام تِعَار؛ ولنا نَعمٌ هُمّل أغفال، ما تَبِضّ ببلال؛ ووَقيرٌ[1] كثير الرَّسْل، قليل الرِّسْل، أصابتها سُنَيّةٌ حمراء مؤزِلة[2]، ليس بها علل ولا نهل.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم بارك لهم في مَحْضها ومَخْضها ومَذْقها[3]، وآبعث راعيها في الدَّثْر[4]، بيانع الثمر، وافجُر له الثَّمد[5]، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مُسلما، ومن آتى الزكاة كان مُحسنا، ومن شَهد أن لا إله إلا الله كان مُخلصا. لكم يا بني نَهد، ودائع الشِّرك، ووضائع الملك، لا تُلطِط[6] في الزكاة، ولا تُلحِد في الحياة، ولا تَثاقل عن الصلاة.

وكتب معه كتاباً إلى بني نهد: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد، السلامُ على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نَهد في الوظيفة الفَريضة، ولكم الفارض[7] والفَريش، وذو العِنَان الرَّكوب والفِلو الضبيس[8]، لا يُمنع سَرحكم، ولا يُعْضد طَلْحكم، ولا يُحبس دَرّكم، ما لم تُضمروا الإمآق[9]، وتأكلوا الرِّباق[10]. من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله ﷺ الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى عليه فعليه الرّبوة.

وفود جبلة بن الأيهم

على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العِجْلي قال: حدّثني أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عمرو بن الأجدع الكُوفي بهيت، قال: حدّثني إبراهيم بن عليّ مولى بني هاشم، قال: حدّثنا ثِقات شيوخنا أن جبلة بن

(١) الوقير: القطيع من الغنم.
(٢) مؤزلة: شديدة الضيق.
(٣) المذق: اللبن الممزوج بالماء.
(٤) الدثر: الماء الكثير والخصب.
(٥) الثمد: الماء القليل.
(٦) تلطط: تمنع.
(٧) الفارض: المريضة.
(٨) الضبيس: الصعب العسر الرّكوب.
(٩) الإماق: الغيظ والبكاء.
(١٠) الرّباق: جمع ربق، وهو الحبل يجعل فيه عرى وتشدّ به البهيمة.

الأيهم بن أبيِ شمر الغسّاني لما أراد أن يُسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلمه بذلك ويَستأذنه في القدوم عليه. فسُرَّ بذلك عمرُ والمسلمون، فكتب إليه أن اقْدَمْ ولك مالَنا وعليك ما علينا، فخرج جبَلة في خمسمائة فارس من عكّ وجَفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثيابَ الوشي المنسوج بالذهب والفِضة، ولبس يومئذ جبلةُ تاجَه وفيه قُرط مارية، وهي جدّته فلم يبق يومئذ بالمدينة أحدٌ إلا خرج ينظر اليه، حتى النساء والصبيان، وفرح المُسلمون بقدومه وإسلامه، حتى حضر الموسمَ من عامهِ ذلك مع عمرَ ابن الخطاب؛ فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطيء على إزاره رجلٌ من بني فَزارة فَحَلّه، فالتفت إليه جَبَلةُ مُغضبا. فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفَزاري عمرَ بن الخطاب. فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جَبلة إلى أن لطمتَ أخاك هذا الفَزاري فهشمت أنفه؟

فقال: إنّه وَطيء إزاري فحلّه، ولولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه. فقال له عمر: أمّا أنت فقد أقررت. إمّا أن تُرضيه وإلا أقدْتُه[١] منك قال: أتُقيده مني وأنا ملك وهو سُوقة؟ قال: يا جبلة، إنه قد جمعك وإيّاه الإسلام، فما تفضُله بشيء إلا [بالتُّقى] بالعافية. قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية. قال عمر: دع عنك ذلك. قال: إذن أَتَنصَّر. قال: إن تنصَّرت ضربتُ عنقك. قال: واجتمع قومُ جَبلة وبنو فَزارة فكادت تكون فِتنة، فقال جبلة: أخِّرني إلى غد يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك.

فلما كان جنح الليل خرج جبلةُ وأصحابه، فلم يئن[٢] حتى دخل القسطنطينية على هرقل، فتنصَّر وأقام عنده، وأعظم هرقلُ قدومَ جبلة، وسُر بذلك وأقطعه الأموال والأرضين والرِّباع.

ثم بعث عمر بن الخطاب رسولاً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول: أَلَقيتَ ابنَ عمك هذا

---

(١) أقدته منك: أمكنته.

(٢) لم يئن: لم يتوقف ويتمهل.

الذي ببلدنا ـ يعني جبلة ـ الذي أتانا راغباً في ديننا ؟ قال: ما لقيتهُ.

قال: القَهْ، ثم آئتني أُعطِك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القَهارمة والحُجاب والبهجة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هرقل.

قال الرسول: فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أُذن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلاً أصهب اللحية ذا سِبال؛ وكان عهدي به أسمر أسودَ اللحية والرأس. فنظرتُ إليه فأنكرته، فإذا هو قد دعا بُسحَالة الذهب[1] فذرّها في لِحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير، قوائمه أربعة أسُود من ذهب، فلما عَرفني رفعني معه في السرير، فجعل يُسائلني عن المسلمين، فذكرتُ خيراً، وقلت: قد أُضعفوا أضعافا على ما تعرف. فقال: كيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بخير. فرأيت الغم قد تبيّن فيه لما ذكرت له من سلامة عمر. قال: فانحدرت عن السرير. فقال: لِمَ تأبَى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إنّ رسول الله ﷺ نَهى عن هذا.

قال: نعم، ﷺ، ولكن نقِّ قلبك من الدَّنس ولا تُبال علامَ قعدت. فلما سمعته يقول: ﷺ طمعتُ فيه، فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تُسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبَعْدَ ما كان مني؟

قلت: نعم، قد فعل رجلٌ من بني فَزارة أكثرَ مما فعلت: ارتد عن الإسلام وضَرب وجوهَ المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام وقُبل ذلك منه وخلّفته بالمدينة مُسلما.

قال: ذَرني من هذا؛ إن كنتَ تضَمن لي أن يزوِّجني عمر ابنته ويولِّيني الأمر بعده رجعتُ إلى الإسلام. قلت: ضمنت لك التزويج ولم أضمن لك الإمرة.

قال: فأومأ إلى خادم بين يديه، فذهب مُسرعا، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوُضعت، ونُصبت موائدُ الذهب وصِحاف الفضة، وقال لي:

(١) سحالة الذهب: ما سقط منه إذا بُرد.

كُلْ، فقبضت يدي. وقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة. فقال نعم ﷺ، ولكن نَقِّ قلبك وكُل فيما أحببت. قال: فأكل في الذهب والفضة وأكلتُ في الخَليج[1]؛ فلما رُفع الطعامُ جيء بطساس الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمرّ مُسرعا، فسمعت حِسّا، فالتفتُّ، فإذا خدم معهنّ الكراسي مُرصّعة بالجواهر، فوُضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، ثم سمعت حِسّا، فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر[2] متكسرات في الحَلي عليهن ثيابُ الديباج، فلم أر وجوها قط أحسنَ منهن، فأقعدهُنّ على الكراسيّ عن يمينه؛ ثم سمعتُ حِسّاً، فإذا عشر جوارٍ أخرى، فأجلسهن على الكراسيّ عن يساره؛ ثم سمعت حسّا، فإذا جارية كأنها الشمس حُسنا؛ وعلى رأسها تاج، على ذلك التاج طائر لم أَرَ أحسنَ منه، وفي يدها اليمنى جام[3] فيها مسكٌ وعنبر، وفي يدها اليسرى جامة فيها ماء ورد، فأومأتْ إلى الطائر أو قال: فصَفَرتْ بالطائر، فوقع في جام ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأتْ إليه أو قال: فصفرت به، فطار حتى نزل على صليب في تاج جَبلة؛ فلم يزل يرفرف حتى نفض ما في ريشه عليه. وضحك جبلة من شدّة السرور حتى بدت أنيابه؛ ثم التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه، فقال: بالله أطرِبنني؛ فاندفعن يتغنين يخفقن بعيدانهن ويُقلْن:

لله دَرُّ عصابةٍ نادَمْتُهم ... يوماً بجِلَّقَ في الزمان الأوّلِ
يَسقونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفِّقُ بالرّحيقِ السَّلْسَلِ[4]
أولادُ جَفْنةَ حولَ قبرِ أبيهِمْ ... قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفضِلِ
يُغْشَونَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسألونَ عن السَّوادِ المُقْبِلِ
بِيضُ الوجوهِ أعِفَّةٌ أحسابُهُمْ ... شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

قال: فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلتُ: لا. قال:

---

(١) الخليج: الجفنة. (٢) مطموحات الشعر: ذوات خصلٍ وأجزاء.

(٣) الجام: إناء من فضة.

(٤) البريص: نهر بدمشق، وكذلك بردى. والرحيق: الخمر، والسلسل: اللين.

قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا. فاندفعن يتغنين ويَخفقن بعيدانهن ويقُلْن:

لِمَنْ الدارُ أقفَرَتْ بمَعانِ بين أعْلَى اليَرْموكِ فالخمّان[1]
ذاك مَغْنىً لآل جَفْنَةَ في الدّهـرِ محَلا لِحَادِثِ الأزمانِ
قد أراني هناكَ دَهراً مَكِيناً عند ذي التاج مَقعَدي ومَكاني
ودَنا الفِصْحُ فالولائدُ ينَظِمْنَ سِرَاعاً أكِلَّةَ المَرْجانِ
لم يُعَلَّلْنَ بالمغافرِ والصَّمْغِ ولا نَقْفِ حَنْظَلِ الشِّريانِ[2]

قال: فبكى حتى جعلتْ الدموع تسيل على لحيته؛ ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت: لا أدري. قال: حسان بن ثابت. ثم أنشأ يقول:

تَنصَّرَتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمَةٍ وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تكَنّفَني منها لَجاجٌ ونَخْوةٌ وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيا ليت أُمي لم تَلِدْني وليتني رَجَعْتُ إلى الأمْرِ الذي قال لي عُمرْ
ويا ليتني أرْعَى المَخاضَ بقَفْرةٍ وكنتُ أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشامِ أدْنَى معيشةٍ أُجالِسُ قومي ذاهِبَ السَمْعِ والبصَرْ

ثم سألني عن حسان: أحيٌّ هو؟ قلت: نعم، تركته حيّا. فأمر لي بكُسوة ومال ونُوق مُوقَرة بُراً. ثم قال لي: إن وجدتَه حيّا فادفع إليه الهدية واقرئه سلامي، وإن وجدتَه ميتاً فادفعها إلى أهله وآنحر الجمال على قبره.

فلما قدمتُ على عمر أخبرتُه خبر جبلة وما دعوتهُ إليه من الإسلام والشرطَ الذي شرطه وأني ضمنتُ له التزويج ولم أضمن له الإمرة، فقال: هلا ضمنت له الإمرة؛ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحُكمه عز وجل.

---

(١) الخمّان: من نواحي دمشق.

(٢) المغافير: صمغ شبية بالناطف ينضحه العرفط والشريان: شجر من عضاه الجبال.

ثم ذكرتُ له الهدية التي أهداها إلى حسّان بن ثابت، فبعثَ إليه وقد كُفَّ بصرهُ، فأُتي به وقائدٌ يقوده، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، إني لأجد رياحَ آلِ جفْنة عندك! قال: نعم. هذا رجل أقبل من عنده. قال: هات يا بن أخي إنه كريم من كرام مدحتهُم في الجاهلية فحلف ألاّ يلقى أحدا يعرفني إلا أهدى إليَّ معه شيئا. فدفعتُ إليه الهدية. المالَ والثياب، وأخبرتُه بما كان أمر به في الإبل إن وُجد ميتاً. فقال: وددت أني كنت مَيتاً فنُحِرَتْ على قبري.

قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول:

إنَّ ابن جفْنَـةَ مِـنْ بقيَّـةِ مَعْشَـرٍ ... لَمْ تَغْذُهُمْ آبـاؤُهُـمْ بـاللـومِ
لَمْ ينْسَني بـالشَّـامِ إذْ هُـوَ رَبُّهـا ... مَلِكـاً ولا مُتَنصراً بـالـرُّومِ
يُعطِـي الجَزِيـلَ ولا يَـراهُ عنـدهُ ... إلا كبعْـضِ عطِيَّـةِ المذْمُـومِ

فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكر مُلوكا كفرة أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزَني. قال: أمَا والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوّقتك طوق الحمامة.

قال: ثم جهزني عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به.

فلما قدمت القسطنطينية وجدتُ الناس مُنصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غلب عليه في أمّ الكتاب.

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

المدائني قال: قدم الأحنفُ بن قيس التميمي على عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أهل البصرة وأهل الكوفة، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كلَّ واحد منهم، وتكلم الأحنف فقال:

يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، وقد أتتك وفودُ أهل العراق، وإنّ

إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نَزلوا منازل الأمم الخالية، والملوك الجبابرة، ومنازل كسرى وقيصر وبني الأصفر(١)، فهم من المياه العَذبة والجِنان المخصبة في مثل حِوَلاء السَّلَى وحدقة البعير(٢)، تأتيهم ثمارهم غضّة لم تتغيّر؛ وإنا نزلنا أرضاً نشاشةً طَرَفٌ في فلاة وطرف في ملح أجاج، جانبٌ منها منابت القصب، وجانب سَبخة نشّاشة لا يَجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، تأتينا منافعها في مثل مريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف منّا يستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرنِّق(٣) ولدها ترنيقَ العنز، تخافِ عليه العدوَّ والسبع، فإلا ترفع خَسيستنا. وتُنعشْ ركيستنا(٤)، وتجبُر فاقتنا، وتزيد في عيالنا عِيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتُصَفِّر درهمنا، وتكبِّر قفيزنا، وتأمر لنا بحَفر نهر نَستعذب به الماء هَلَكنا.

قال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد!

قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها.

فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس هناك، وأمّه باهليّة.

قال عمر: هو خير منك إن كان صادقاً. يريد: إن كانت له نيّة.

فقال الأحنف:

أنا ابنُ الباهِلَيّةِ أَرْضَعَتْني ... بِثَدْيٍ لا أجَدَّ ولا وخِيمِ(٥)
أغُضّ علَى القَذَى أَجْفانَ عيْنِي ... إذا شَرَّ السَّفيهُ إلى الحَليمِ(٦)

قال فرجع الوفد واحتبس الأحنفَ عنده حولا وأشهراً، ثم قال: إن رسول الله

(١) بني الأصفر: يعني الروم.
(٢) الحولاء: غلاف أخضر مملوء ماءً، والسّلى: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد، ويكنّى بحولاء السّلى وحدقة البعير عن الخصب والخير.
(٣) الترنيق: إدامة النظر. (٤) الركس: قلب أول الشيء على آخره.
(٥) الأجدّ: اليابس القليل اللبن.
(٦) أغضّ: أصبر وأطبق أجفاني والقذى: ما يقع في العين من أذىً وشرَّ: من الشرّ.

ﷺ حذّرنا كُل منافق صَنَعِ اللسان، وإني خِفتك فاحتبستك، فلم يبلغني عنك إلا خير؛ رأيت لك جُولاً[1] ومعقولاً؛ فارجع إلى منزلك واتق الله ربك. وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يحتفر لهم نهراً.

وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم

على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العُتبي عن أبيه قال: وفَد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد أن يُقرِع بينهما في الرياسة، فلما اجتمعت بنو تميم، قال الأحنف:

ثوَى قدَحٌ عنْ قوْمِه طالما ثوَى ... فلمَّا أتاهُمْ قالَ قُومُوا تنَاجَزُوا

فقال عمرو بن الأهتم: إنا كنّا وأنتم في دار جاهليّة فكان الفضل فيها لمن جَهِل، فسفكنا دماءكم، وسَبينا نساءكم، وإنّا اليوم في دار الإسلام والفضلُ فيها لمن حلِم؛ فغفر الله لنا ولك.

قال: فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهتم فقال عمرو بن الأهتم:

لَمَّا دعَتْني للرِّياسَة مِنْقَرٌ ... لدَى مَجْلسٍ أَضْحَى به النَّجْمُ بادِيا
شدَدْتُ لها أزْري وقدْ كنْت قبْلها ... لأمْثالِها ممَّا أَشُدُّ إزَارِيا

وعمرو بن الأهتم: هو الذي تكلم بين يدي رسول الله ﷺ، وسأله عن الزبرقان، فقال عمرو: مُطاع في أدْنيْه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبرقان: والله يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكن حسدني.

قال: أما والله يا رسول الله، إنه لزَمِرُ[2] المروءة، ضيّق العطَن[3]؛ أحمق الوالد

---

(١) الجول: الرأي.

(٢) زمر المروءة: قليلها.

(٣) العطن: مبرك الجمال ومربض الغنم حول الماء.

لئيم الخال؛ والله ما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الأخرى؛ رضيتُ عن بن عمي فقلتُ أحسن ما علمتُ ولم أكذب، وسخِطتُ عليه فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب.

فقال رسول الله ﷺ: إنّ من البيان لسحراً.

وفود عمرو بن معديكرب
على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
إذ أوفده سعد

لما فتحت القادسيّة على يدي سعد بن أبي وقّاص، أبلى فيها عمرو بن معديكرب بلاءً حسناً، فأوفده سعدٌ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في الكتاب على عمرو؛ فلما قَدِم على عمر بن الخطاب سأله عن سعد، فقال: أعرابي في نَمرته[1]، أسدٌ في تأمورته[2]، نبطي في جبايته، يقسم بالسويّة، ويعدل في القضية وينفَل[3] في السريَّة؛ وينقل إلينا حقنا نقل الذَّرة. فقال عمر: لشدّ ما تقارضتُما الثناء. وكان عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسيّة أن يُعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن؛ فقال سعد لعمرو بن معديكرب ما معك من القرآن؟ قال: ما معي شيء. قال: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن. فقال عمرو:

إذا قُتِلْنا ولا يبكي لنا أَحدٌ قالت قريشُ ألا تلك المقادير
نُعطَي السَّويَّة من طعنٍ له نَفذٌ ولا سويَّةَ إذ تعْطَى الدنانيرُ

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر، فكتب إليه أن يُعْطَى على مقاماته في الحرب.

---

(١) النمرة: بردة من صوف تلبسها الأعراب.
(٢) التأمورة: عريسة الأسد.
(٣) في بعض الأصول: «وينفّر».

وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق

رضي الله عنه

وفد أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بعد إيقاع خالد وقَتْله مُسليمة الكذاب، فقال لهم أبو بكر: ما كان يقول صاحبكم؟ قالوا: أعفنا يا خليفة رسول الله. قال: لا بد أن تقولوا. قالوا: كان يقول: يا ضِفدع كم تَنِقّين. لا الشرابَ تَمنعين، ولا الماءَ تُكدِّرين، لنا نصفُ الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فقال لهم أبو بكر: ويحكم! ما خرج هذا من إلٍّ ولا بَر، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيد؛ الإل: الله تعالى. والبر الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معديكرب

على مجاشع بن مسعود

وفد عمرو بن معديكرب الزُّبيدي على مُجاشع بن مسعود السُّلمي - وكانت بين عمرو وبين سُليم حروب في الجاهلية - فقدم عليه البصرة يسأله الصلة، فقال له: اذكُر حاجتك. فقال له: حاجتي صلةُ مثلي. فأعطاه عشرة آلاف دِرهم، وفرساً من بنات الغبْراء، وسيفاً جُرازاً[1]، ودِرْعاً حَصِينة، وغلاماً خبازاً؛ فلما خرج من عنده. قال له أهل المجلس: كيف وجدتَ صاحبك؟ قال لله بنو سُليم! ما أشد في الهيجاء لقاءها، وأكرم في اللّأواء[2] عطاءها، وأثبتَ في المكرمات بناءها. والله يا بني سُليم، لقد قاتلناكم في الجاهلية فما أجْبَنّاكم، ولقد هاجيناكم فما أفحمناكم، ولقد سألناكم فما أبخلناكم:

فلِلّـــهِ مسئـــولاً نَـــوالاً ونـــائلاً — وصاحِـبَ هَيْجٍ يَوْمَ هَيْجٍ مُجاشِـعُ

---

(١) جرازاً: ماضياً نافذاً. (٢) اللؤاء: الشدّة والضيق.

وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما

على معاوية رضي الله عنه

أبو بكر بن أبي شَيبة قال: وفد الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة، فقال له معاوية: والله لاحبونّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك. فأمر له بمائة ألف.

وفي بعض الحديث إن النبي ﷺ دخل على ابنته فاطمة، فوجد الحسن طفلاً يلعب بين يديها، فقال لها: إن الله تعالى سيُصلح على يدي ابنك هذا بين فِئتين عظيمتين من المُسلمين.

وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله

العتبي قال: قدم زيد بن مُنْية على معاوية من البصرة - وهو أخو يَعْلى ابن مُنية صاحب جمل عائشة، ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة. وكان عُتبة بن أبي سفيان قد تزوّج ابنة يعلي بن مُنية - فلما دخل على معاوية شكا إليه ديناً لَزِمه. فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفاً. فلما ولّى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى. ثم قال له الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مِصر، فقال: إنّي سرتُ إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف، ألبس أردية الليل مَرّة، وأخوض في لُجج السراب أخرى، مُوقراً من حسن الظن بك، وهارباً من دهر قَطم، ودَيْن لَزم، بعد غِنًى جَدعْنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مَهْرباً وعليك مُعَوَّلاً. فقال عُتبة: مرحباً بك وأهلاً؛ إن الدهر أعاركم غِنًى، وخَلطكم بنا، ثم استردّ ما أمكنه أخذُه، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضيعة معه، وأنا واضعٌ يدي ويدك بيد الله فأعطاه ستين ألفاً، كما أعطاه معاويةُ رحمه الله.

وفود عبد العزيز بن زرارة

على معاوية رحمه الله

العُتبي عن أبيه قال: وفد عبد العزيز بن زُرارة على معاوية وهو سيّد أهل الكوفة. فلما أذن له وقف بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، لم أزل أُهز ذوائب الرّحال إليك؛ إذ لم أجد معوَّلاً إلا عليك، امتطى الليل بعد النهار، وأسِم المجاهلَ بالآثار، يقودني إليك أمل، وتَسُوقني بَلْوى، والمجتهد يُعْذَر، وإذ بلغتك فقَطْني. فقال معاوية: احطُط عن راحلتك رحلَها.

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة، فهلك هناك؛ فكتب به يزيدُ بن معاوية إلى معاوية، فقال لزرارة: أتاني اليوم نَعيُ سيد شباب العرب. قال زرارة: يا أمير المؤمنين، هو ابني أو ابنك. قال: بل ابنك. قال: لِلموتِ ما تلد الوالدة.

أخذه سابق البربري فقال:

وِللموتِ تغذو الوِلداتُ سِخَالَها كما لِخَرابِ الدهرِ تُبْنَى المساكِنُ

وقال آخر:

لِلموتِ يولَدُ مِنّا كُلُّ مولودِ لا شيءَ يبقَى ولا يَفْنَى بِمَوْجودِ

وفود عبد الله بن جعفر

على يزيد بن معاوية

المدائني قال: قَدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية، فقال له: كم كان عَطاؤك؟ فقال له: ألف ألف. قال: قد أضعفناها لك. قال: فداك أبي وأُمي وما قلتُها لأحد قبلك! قال: أضعفناها لك ثانية. فقيل ليزيد: أتُعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف؟ فقال: ويحكم، إنما أعطيتُها أهلَ المدينة أجمعين، فما يده فيها إلاّ عارية.

فلما كان في السنة الثانية قَدم عبد الله بن جعفر، وقدم مولى له يقال له نافع،

كانت له منزلة من يزيد بن معاوية. قال نافع: فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف، وقضى عنه ألفَ ألف، ثم نظر إليّ فتبسم، فقلت: هذه لتلك الليلة. وكنتُ سامرتُه ليلة في خلافة معاوية وأسمعتُه فيها، فذكرته بها وقَدِمتْ عليه هدايا من مصر كثيرة، فأمر بها لعبد الله بن جعفر؛ وكانت له مائة ناقة، فقلت لابن جعفر: لو سألته منها شيئاً نَحتلبه في طريقنا؟ ففعل، فأمر بصرفها كلها إليه. فلما أراد الوداع أرسل إليّ فدخلت عليه، فقال: ويلك! إنما أخّرْتُك لأتفرغ إليك، هات قولَ جميل.

خَليلَـــيّ فيما عِشْتُما هـــل رأيْتُما قتيلاً بَكَى مِن حُبِّ قـاتِلـهِ قَبْلِـي

قال؛ فأسمعتُه، فقال: أحسنت والله؛ هات حاجتك! فما سألته شيئاً إلا أعطانيه، فقال: إن يُصلح اللهُ هذا الأمرَ من قِبَل ابن الزبيرِ تَلْقَنا بالمدينة؛ فإن هذا لا يَحْسنُ إلا هناك. فمنع والله من ذلك شؤم ابن الزبير.

وفود عبد الله بن جعفر
على عبد الملك بن مروان

قال بُديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوّج ابنتَه أُم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بُديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشقَ، فإنا لنُحطّ رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وَردَة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليُحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابنُ جعفر بالترحيب، فقال له: لكن أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً! فقال: مهلاً يا بن أخي، فلستُ أهلاً لهذه المقالة منك. قال: بلى، ولِشرٍّ منها، قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدتَ إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبدَ ثقيف يتفخّذها. قال: وفي هذا عَتب عليّ يا بن أخي؟ قال: وما أكثرُ مِن هذا؟ قال: والله إنّ أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك؛ إنْ كان مَن

البلكم من الوُلاة ليصلون رَحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتماني ما عندكما حتى ركبني من الدَّين ما والله لو أن عبداً مُجدَّعاً حبشياً أعطاني بها ما أعطاني عبدُ ثقيف لزوّجتها؛ فإنما فديتُ بها رقبتي من النار. قال: فما راجعه كلمةً حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك ـ وكان الوليدُ إذا غضب عُرف ذلك في وجهه ـ فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلّطت عبدَ ثقيف وملّكته ورفعته حتى تفخَّذ نساءَ عبد مناف، وأدركته الغيرة. فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج يعزم عليه ألاّ يضع كتابه من يده حتى يطلّقها... فما قطع الحجّاج عنها رزقاً ولا كرامة يُجريها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى هلك. قال بُديح: فما كان يأتي علينا هلالٌ إلا وعندنا عِير مُقبلة من الحجاج، عليها لُطَفٌ وكُسوة وميرة، حتى لحق عبدُ الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابنُ جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله فألطف المسألة، حتى سألة عن مطعمه ومشربه. فلما انقضت مسألته، قال له يحي بن الحكم: أمِن خِبْثة كان وَجْهك يا أبا جعفر؟ قال: وما خبثة؟ قال: أرضك التي جئت منها. قال: سبحان الله، رسول الله ﷺ يسميها طِيبة وتسميها خِبثة؟ لقد آختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفَيْن.

فلما خرج من عنده هيّأ له ابنُ جعفر هدايا وألطافاً. فقلت لبُديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف. من وُصَفَاءَ ووصائف وكسوة وحرير ولُطفَ من لطَف الحجاز. قال: فبعثني بها، فدخلتُ عليه وليس عنده أحد. فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضتُ عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريتُه شيئاً: عافَى الله أبا جعفر! وما رأيت كاليوم، وما نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا، وإن كُنا لمتذمِّمين محتشمين. قال: فخرجت من عنده وأذن لأصحابه.

فوالله لبينا أنا عند بن جعفر أحدِّثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى

إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت له وَخْش رقيق الحجاز وأُبّاقهم وحَبستَ عنا فلانة، فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابُه جعل يحدّثهم عن هدايا ابن جعفر ويُعظمها عندهم، فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابنُ جعفر؟ جمع لك وَخْش رقيق الحجاز وأُبّاقهم وحبس عنك فلانة. قال: ويلك، وما فلانة هذه؟ قال: ما لم يسمع واد أحدٌ بمثلها قطُّ جمالاً وكمالاً وخُلقاً وأدباً، لو أراد كرامتك بعث بها إليك. قال: وأين تُراها. وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال، وكان ابنُ جعفر في أذنه بعض الوقر، إذا سمع ما يكره تصامّ، فأقبل عليه فقال: ما يقول يابُديح؟ قال: قلت: فإنّ أمير المؤمنين يَقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم. قال: آقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز اللهُ نصرك، وكَبت عدوك. فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا. وأعاد مقالته الأولى. فسألني فصرفته إلى وجه آخر. فأقبل عليَّ الرسول، فقال: يا ماصَّ... أبرُسُل أمير المؤمنين تَهَكَّمُ، وعن أمير المؤمنين تُجيب هذا الجواب؟ أما والله لأطُلّنَّ دمك. فانصرف، وأقبل عليّ بنُ جعفر فقال: مَن تُرى صاحبنا؟ قال: صاحبُك بالأمس. قال: أظنه! فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلّفت له ما تكلفت، فإن منعتَها إياه جعلتها سبباً لمنعك، ولو طلب أميرُ المؤمنين إحدى بناتك ما كنتُ أرى أن تمنعها إياه. قال: آدعها لي فلما أقبلتْ. رحَّب بها ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنتُ أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت. قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر، وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببتِ، جاء الدهر فيه بما جاء. قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك. فإن تَهوَيْ فذاك، وإلا والله لم يكن أبداً. قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظنّ فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلتْ عينها بالبكاء. فقال لها: أما إذا فعلت فلا تَرينّ مكروهاً: فمسحَتْ عينيها، وأشار إليّ فقال: ويحك يا بُديح استحثها قبل أن تتقدّم إليّ من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع

وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبَهُ، فَدَحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيباً، ثم قال: عجِّلها ويلك. فخرجتُ أسوقها حتى انتهيت إلى الباب؛ وإذا الفارس قد بلّغ عني، فما تركني الحجّاب أن تَمس رجلاي الأرض حتى أُدخلت على عبد الملك وهو يتلظّى، فقال لي يا ماصَّ، وكذا أنت المُجيب عن أمير المؤمنين والمُتهكم برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إيذن لي أتكلم. قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: إيذن لي جعلني الله فِداك أتكلم. قال: تكلم. قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأناً، وأقل خطراً من أن يَبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، نعم، قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين إنّما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأنّ الله لم يزل إليه مُحسناً، فجاءه من قِبلك شيء ما أتاه قطُّ مثلُه، إنما طلبتَ نفسه التي بين جنبيه، فأجبتُ بما بلغك لأسهِّل الأمرَ عليه؛ ثم سألني فأخبرتُه واستشارني فأشرتُ عليه، وها هي ذه قد جئتُك بها. قال: أدخلها ويلك! قال: فأدخلتُها عليه وعنده مَسلمة ابنُه، غلام ما رأيت مثلَه ولا أجمل منه حين آخضرّ شاربه. فلما جلستْ وكلّمها أُعجب بكلامها، فقال: لله أبوكِ، أمسكك لنفسي أحبُّ إليك أم أهبك لهذا الغلام، فإنه ابنُ أمير المؤمنين، قالت: يا أمير المؤمنين، لستَ لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً. قال: فقام من مكانه ما راجعها، فدخل، وأقبل عليها مَسلمة فقال: يا لَكاعِ[1]، أعَلَى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدوّ نفسه إنما تلومني أن آخترتُك؟ لعمر الله لقد قال رأيُ من آختارتك. قال: فضيَّقت والله مجلسه. واطّلع علينا عبد الملك قد ادهَن بدُهن وَارَى الشيب، وعليه حُلة تتلألأ كأنها الذهب، بيده مخْصرة[2] يخطِر بها، فجلس مجلَسه على سريره، ثم قال: إيها، لله أبوك، أُمسكك لنفسي أحبُّ لك أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصيّ: هذا أمير المؤمنين! قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً. قال: فأين

---

(١) لكاع: أحمق.

(٢) المخصرة: ما يتوكأ عليه كالعصا.

قولُك آنفاً؟ قالت: رأيتُ شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشبَّ الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحداً، قال: دونكها يا مسيلمة قال بُديح، فنشرتُ عليه الكُسوة والدنانير التي معي، وأريتُه الجواري والطّيب. قال: عافى الله ابنَ جعفر! أخَشِيَ ألا يكونَ لها عندنا نفقة وطيب وكُسوة؟ فقلت: بلى، ولكنه أحبَّ أن يكون معها ما تكتفي به حتى تستأنس. قال: فقَبضها مسلمة، فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هَلكت. قال بُديح: فوالله الذي ذهب بنفس مَسلمة، ما جلست معه مجلساً ولا وقفتُ موقِفاً أنازعه فيه الحديث، إلا قال: ابْغِنِي مثل فلانة. فأقول: آبغني مثل ابن جعفر.

قال: فقلت لبديح: ويلك! فما أجازه به؟ قال: قال حين دفع إليه حاجته ودينه: لأجيزنك جائزة لو نُشر لي مروان من قبره ما زِدْته عليها. فأمر له بمائة ألف. وايمُ الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريتِه التي كانت عدل نفسه مائتي ألف.

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن آبعث إليَّ رجلاً يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميراً وجَليساً وخليّاً. فقال الحجاج: ما ماله إلا عامرٌ الشَّعبي. وبعث به إليه؛ فلما دخل عليه وجده قد كَبا مُهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال ذكرتُ قول زهير[1]:

كأنّي وقدْ جاوزْتُ سَبعينَ حِجَّةً ... خَلَعتُ بها عني عِذارَ لِجامي
رَمتْني بَناتُ الدهْرِ من حيثُ لا أرى ... فكيف بمن يُرْمى وليسَ برامي
فلو أنني أُرْمَى بِنَبْلٍ رأيتُها ... ولكنّني أُرْمَى بغيْرِ سِهامِ
على الراحَتَيْنِ تارةً وعلى العَصا ... أَنوءُ ثلاثاً بَعدهُنَّ قِيامِي[2]

قال له الشَّعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيدُ بن ربيعة، وقد بلغ سبعين حجة:

(١) ينسب هذا الشعر لعمرو بن قميئة. (٢) أنوء: أثقل.

كأني وقد جاوزتُ سَبعين حِجةً ... خَلَعتُ بها عن مَنْكِبَيَّ رِدائيا
خليفةَ اللهِ ماذا تأمُرَنّ بنَا ... لسْنا إليكُم ولا في دارِ مُنتظَرِ
ما زلْتُ بعْدَكَ في همٍّ يؤرّقُني ... قد طالَ في الحيِّ إصْعادِي ومُنحَدَري
لا ينْفَعُ الحاضِرُ المجهُودُ بادِيَنا ... ولا يعُودُ لنا بادٍ على حضَرِ
إنّا لنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخْلَفنا ... مِنَ الخليفَةِ ما نَرْجُو مِنَ المطَرِ
نال الخِلافَةَ إذ كانتْ له قَدَراً ... كما أتى رَبَّهُ موسى على قَدرِ
هٰذِي الأرامِلُ قد قضَّيْتَ حاجَتَها ... فمن لِحاجَةِ هذا الأرْمَلِ الذّكَرِ

فقال: يا جرير، والله لقد وَليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أُم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنها لأحبّ مال إليّ كسبته. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما يسوءُكم! خرجتُ من عند أمير يعطِي الفقراءَ ويَمْنَعُ الشعراء، وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطان لا تستَفِزُّهُ ... وقد كان شَيْطانِي من الجنِّ راقيا[1]

وفود الحجاج بابراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال: لما ولي الحجاجُ بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير، استخلص إبراهيمَ بن محمد بن طلحة فقرّبه وعظّم منزلته. فلم تزل تلك حالهُ عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه مُعادِلا، لا يُقصِّر له في برّ ولا إعظام، حتى حضر به عبدَ الملك. فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز، لم أدَع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحُسن المذهب، مع قرابة الرحم، ووجوب الحق، وعِظَم قدْر الأبوّة، وما بلوتُ منه في الطاعة والنصيحة وحسن المُوازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد

أحضرتُه بابَك ليسهل عليه إذنُك، وتعرفَ له ما عرّفتُك. فقال: أذكرتَنا رحماً قريبة وحقا واجبا، يا غلام، إيذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة. فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إنّ أبا محمد ذكّرَنا ما لم نزل نعرفُك به في الفَضل والأدب والمُروءة وحُسنِ المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعِظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة، فلا تَدَعنّ حاجةً في خاصة نفسك وعامّتك إلا ذكرتها. فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج، وأحقَّ ما قُدِّمَ بين يدي الأمور، ما كان لله فيه رِضا، ولِحَق نبيه ﷺ أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحةٌ لا أجد بُداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فأخْلني يا أمير المؤمنين تَرِدْ عليك نصيحتي. قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد؟ قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خَطْرَفَ[1] السّتْرُ أقبل عليَّ فقال: يا بن طلحة، قل نُصيحتك. فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرُسِه وتعجْرِفه وبُعدهِ من الحق وقُربه من الباطل، فوليَته الحرمين، وهما ما هما، وبهما ما بهما من المُهاجرين والأنصار، والموالي الأخيار، يطؤهم بطغام[2] أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخَسف، ويحكم فيهم بغير السّنة بعد الذي كان من سَفْك دمائهم، وما انْتُهك من حُرَمِهم؛ ثم ظنِنتَ أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غَداً إذا جاثاك[3] للخصومة بين يدي الله في أمته. أمَا والله لا تنجو هنالك إلا بحجة. فاربَعْ[4] على نفسك أوْدَع. فقال له عبد الملك: كذبتَ ومِنْتَ[5] وظنّ بك الحجاجُ ما لم يجده فيك؛ وقد يُظَنُّ الخير بغير أهله؛ قُم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمت وما أعرف طريقا. فلما خطرفت الستر لحقني لاحق فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل. فدخل، فمكث مليّا من النهار لا أشُك أنهما في أمْري، ثم خرج

---

(١) خطرف الستر: انسدل.
(٢) الطّغام: أراذل الناس.
(٣) جاثاك: جالسك على ركبتيه.
(٤) اربع: ارفق وتمهّل.
(٥) المين: الكذب.

الآذنُ فقال: ادخل يا بن طلحة. فلما كُشِف لي الستر لقيني الحجاج وهو خارج وأنا داخل؛ فآعتنقني وقبّل ما بين يعينيّ، وقال: أمّا إذا جزى الله المتواخيَيْن خيراً بفضل تواصلهما، فجزاك الله عني أفضلَ الجزاء؛ فوالله لئَن سَلِمْت لك لأرفعنّ ناظرَك، ولأعْلِيَنَّ كَعبكْ، ولأُتبعنَّ الرجالَ غبارَ قدميك. قال: فقلت: يهزأ بي وحقِّ الكعبة!.

فلما وصلت إلى عبد الملك، أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول؛ ثم قال: يا بن طلحة، لعلّ أحدا شاركك في نصيحتك هذه! قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً أنصعَ عندي يدا ولا أعظمَ معروفاً من الحجّاج. ولو كنت مّحابيا أحدا لغرضِ دنيا لحابيتُه. ولكني آثرتُ الله ورسوله، وآثرتُك والمؤمنين عليه. قال: قد علمتُ أنك لم تُرِد الدنيا، ولو أردتَها لكانت لك في الحّجاج، ولكن أردتَ الله والدار الآخرة. وقد عزلتُه عن الحرمين لِمَا كرِهْتَ من ولايته عليهما، وأعلمتُه أنك استنزلتني له عِنهما آستقلالا لهما؛ وولّيتهُ العراقين وما هنالك من الأمور التي لا يَدْحضُها إلا مثلهُ، وأعلمته أنك آستدعيتني إلى ولايته عليهما استزادةً له، لألُزمه بذلك من حقّك ما يؤدِّي إليك عني اجرَ نصيحتك. فاخرج معه فإنك غير ذامّ لصحبته فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.

وفود رسول المهلب

على الحجاج بقتل الأزارقة

أبو الحسن المدائني قال: لما هَزم المُهَلبُ بن أبي صُفرة قطَرِيَّ بن الفجاءةِ صاحبَ الأزارقة، بعث إلى مالك بن بشير فقال له: إني مُوفِدُك إلى الحجاج فِسرْ فإنما هو رجل مِثلك. وبعث إليه بجائزة، فردّها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق. وتَوَجّه. فلما دخل على الحجّاج، قال له: ما آسمك؟ قال: مالك بن بشِير. قال: مُلْكٌ وبشارة. كيف تركتَ المهلّب؟ قال: أدركَ ما أمّل وأمَّن مَن خاف. قال: كيف هو بجُنده؟ قال: والدٌ رؤوف: قال: فكيف جُنْدُه له؟ قال: أولادٌ برَرَة. قال: كيف رضاهم

عنه؟ قال: وسعَهم بالفضل وأقنعهم بالعدل. قال: فكيف تصنعون إذا لقيتُم عدوّكم؟ قال: نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم، ويلقونا بجدِّهم فيطمعون فينا. قال: كذلك الحدُّ إذا لقي الحدّ. قال: فما حال قطريّ؟ قال: كادَنا ببعض ما كدناه. قال: فما منَعكم من اتّباعه؟ قال: رأينا المُقامَ من ورَائه خيراً من اتّباعه. قال: فأخبرني عن ولد المهلب. قال: أعباء القتال بالليل، حُماة السَّرح بالنهار. قال: أيُّهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم. قال: لتقُولن. قال: هم كحلقةٍ مضروبة لا يُعرَف طرفاها. قال: أقسمتُ عليك هل روّأت[1] في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع اللهُ على غيبه أحداً. فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

وفود جرير

على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفي الحجّاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

مَــنْ سَــدّ مُطّلَـعَ النِّفـاق عليكـمُ   أمْ مَنْ يَصُولُ كصَـوْلـةِ الحَجّـاجِ

وبشعره الذي يقول فيه:

أمْ مَــنْ يغَـارُ على النّسـاءِ حفِيظَـةً   إذ لا يَثِقْــنَ بغَيْــرَةِ الأزْواجِ[2]

وقوله:

دعــا الحَجّـاجُ مِثْـلَ دُعـاءِ نُـوحٍ   فأسْمَـعَ ذا المعـارِجِ فـاسْتجـابَـا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني مُوفِدُك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسِرْ إليه بكتابي هذا فسار إليه؛ ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له، فقال:

أتَصْحُو أمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِي

---

(١) روّأت: نظرت فيه وتأمّلت.

(٢) الحفيظة: من الحفاظ عليهن.

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعَـزَّتْ أُمُّ حَــزْرَةَ ثمْ قــالــت: رأيـتَ الوارِديـنَ ذَوي امتِيـاجِ[1]
ثِقـي بـاللهِ ليْسَ لـهُ شَـريـكٌ ومِـنْ عِنْـدِ الخَليفَـةِ بـالنَّجـاحِ
سـأشْكُـرُ إنْ رَدَدْتَ إليّ ريشي وأثبَـتَّ القـوادمَ في جَنَـاحِـي[2]
ألَسْتُمْ خيْـرَ مَـنْ ركـبَ المطـايَـا وأنْـدَى العـالَمينَ بُطُـونَ راحِ

ارتاح عبد الملك، وكان متكئاً فاستوى جالساً، وقال: من مدَحنا منكم فلْيمدحْنا بمثل هذا أو ليسكتْ! ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة تُرويها مائةُ ناقة من نعمَ كلب؟ قال: إذا لم تُرْوها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب. كلها سود الحدقة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أبَّاق[3] ونحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته، فلو أمرتَ بالرِّعاء. فأمر له بثمانية من الرعاء، وكانت بين يدي عبد الملك صِحاف من فِضة يقرعها بقَضيب في يده، فقال له جرير: والمِحْلَبُ يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صَحفة منها؛ فنبذها إليه بالقضيب، قال: خُذها لا نفعتْكَ! ففي ذلك يقول جرير.

أعْطَـوْا هُنَيْـدَةَ يَحـدُوهـا ثمانيـةٌ ما في عَطائِهِـم مَـنٌ ولا سَـرفُ[4]

وفود جرير عن أهل الحجاز

على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قدم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن أهل الحجاز، فاستأذنه في الشعر، فقال: مالي وللشعر يا جرير؟ إني لفي شغل عنه! قال يا أمير المؤمنين، إنها رسالة عن أهل الحجاز. قال: فهاتها إذاً. فقال:

---

(١) الامتياج: العطاء والمنفعة.

(٢) القوادم: ريش مقدمة الجناح التي تساعد الطائر على الطيران.

(٣) أبَاق: هاربة.

(٤) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل، أو لما فوقها ودونها، وللمائتين.

كم من ضريرِ أميرَ المؤمنينَ لـدَى	أهلِ الحجازِ دهاهُ البـؤسُ والضررُ
أصابتِ السَّنَةُ الشَّهْباءُ مـا مَلَكَـتْ	يمينُـه فَحَنَـاه الجهـدُ والكِبَــرُ[1]
ومن قَطيعِ الحَشا عاشــتْ مُخَبَّـأةً	ما كانت الشمسُ تلقاها ولا القمـرُ
لما اجتلتْها صُرُوفُ الدهر كارِهَـةً	قامت تُنادي بأعْلَى الصوتِ: يا عمرُ!

وفود دكين الراجز

على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قال دُكين بن رجاء الفُقيمي الراجز: مدحتُ عمرَ بن عبد العزيز وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعابا، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر عليّ، ولم تَطِبْ نفسي ببيعها، فقدمتْ علينا رُفقةٌ من مصر، فسألتُهم الصُّحبة، فقالوا: إن خرجت الليلة. فقلت: إني لم أودِّع الأمير ولا بدّ من وَداعِه. قالوا: فإن الأمير لا يُحجَبُ عن طارق ليل. فاستأذنت عليه، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما. فقال لي: يا دُكين، إن لي نفساً تَوّاقة، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبعْينٍ ما أَرَينَّكَ. قلت له: أشهِدِ لي بذلك أيها الأمير. قال: إني أشهد الله. قلت: ومِن خَلْقِه! قال: هذين الشيخين. قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرِفْك؟ قال: سالم بن عبد الله. فقلت: لقد استسمنتُ الشاهد. وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟ قال: أبو يحي مولى الأمير. وكان مُزاحم يُكنى أبا يحي. قال دُكين: فخرجت بهن إلى بلدي، فرمى الله في أذنابهنّ بالبركة، حتى اتخذتُ منهنّ الضياع والرّباع والغلمان. فإني لبصحراءِ فَلْج[2]، إذا بَريد يركُض إلى الشام، فقلت له: هل من مُغَرِّبَةِ خَبَر؟ قال: مات سليمان بن عبد الملك. قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: فأنخت قَلوصي فألقيتُ عليها أداتي وتوجهت عنده؛ فلقيت جريراً في الطريق

(١) السنة الشهباء: المجدبة.
(٢) الفلج: النصف.

جائياً من عنده، فقلت: من أين أبا حَزَرة؟ قال: من عند أميرٍ يعطي الفقراء ويمنع الشعراء قلت: فما ترى فإني خرجت إليه؟ قال: عَوِّل عليه في مال ابن السبيل كما فعلت. فانطلقتُ فوجدتهُ قاعداً على كرسيّ في عَرْصة[1] داره، قد أحاط الناس به فلم أجد إليه سبيلا للوصول، فناديتُ بأعلى صوتي:

يـــا عَمـــرَ الخيراتِ والمكـــارِمْ ... وعمـــرَ الدّســـائـعِ العظـــائمْ[2]
إني امْـروٌ مـــن قَطـــنِ بنِ دارمِ ... أطلبُ حاجي مـن أخـي مَكـارم
إذ نَنتَجِـي والليـــلُ غيرُ نـــائم ... في ظلمـــة الليـــل وليلي عـــاتم

عند أبي يحيى وعند سالِم

فقام أبو يحيى ففرَّج لي، وقال: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البدويّ عندي شهادة عليك. قال: أعرفها، آدْنُ مني يا دكين، أنا كما ذكرتُ لك أن لي نفساً توّاقة، وأن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا، فلما أدركتُها وجدتُها تتوق إلى الآخرة؛ والله ما رزأتُ من أمور الناس شيئاً فأُعطيك منه، وما عِندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدَهما. فأمر لي بألف درهم. فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظمَ بركةً منها.

وفود كثير والأحوص ونصيب

على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

حماد الراوية قال: قال لي كُثير عَزّة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم. قال: شخصتُ أنا والأحوص ونُصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يُدلُ عليه بسابقةٍ وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنْ سيشركنا في خلافته، فلما رُفعت لنا أعلامُ خُناصرة[3]، لَقِينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ

(١) عرصة داره: ساحتها.

(٢) الدّسائع: العطايا والأخلاق والمكارم.

(٣) خناصرة: بُليدة من أعمال حلب تحاذي قنصرين نحو البادية.

فتى العرب، فسلّمنا فردّ، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا: ما تَوَضَّح إلينا خبر حتى انتهينا إليك. ووَجَمْنا وَجْمة عُرِف ذلك فينا. فقال: إن يك ذو دِين بني مروان قد وَلِيّ وخَشِيتم حرمانَه، فإن ذا دُنيانا قد بقي، ولكم عندي ما تُحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهلهُ.

فلما قدم كانت رحالُنا عنده بأكرامِ منزول عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيرهُ، فلا يؤذَن لنا؛ إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع لو أني دنوت من عمر فسمعتُ كلامه فحفظتُه، كان ذلك رأياً. ففعلت، فكان مما حفظتُ من كلامه: «لكل سفر زاد لا محالة، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولَنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوِّكم في كلام كثير لا أحفظه، ثم قال: «أعوذ بالله أن آمركم بما أنْهَى عنه نفسي، فتخسر صفْقَتي، وتظهر عَيْلتي، وتبدو مَسكنتي، في يومٍ لا ينفع فيه إلا الحق والصدق»! ثم بكى حتى ظننتُ أنه قاضٍ نحبَه، وارتجّ المسجدُ وما حوله بالبكاء، وانصرفتُ إلى صاحبيّ فقلت لهما: خُذا في شَرْجٍ[1] من الشَّعر غير ما كُنا نقول لعُمَرَ وآبائه؛ فإن الرجل آخريٌّ وليس بدنيوي.

إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جُمعة بعد ما أُذِن للعامة. فلما دخلتُ سلَّمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثَّواء وقلّت الفائدة، وتحدّث بجفائك إيانا وفودُ العرب. قال: يا كُثَيّر، (إنما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والمَسَاكِين والعَامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفي الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفي سَبِيل الله وابنِ السَّبيلِ)[2] أفي وَاحدٍ من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيلٍ منقطَع به، وأنا صاحبك. قال: ألستَ صاحبَ أبي سعيد؟ قلت: بلى، قال: ما أرى ضيفَ أبي سعيد منقطَعا به. قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاد؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقا. فقلت:

وليتَ فلم تَشْتُمْ علياً ولم تُخِفْ بَرِياً ولم تَقبل إشارَةَ مُجْرِمِ

(١) الشرج: الضرب واللون. (٢) سورة التوبة الآية ٦٠.

وصَدَّقتَ بالفعلِ المقَال مع الذي أتيتَ فأَمسى راضياً كلُّ مُسْلِم
ألا إنما يَكفي الفتى بعدَ زَيغِه منَ الأَوَدِ الباقي ثِقافُ المُقَوِّم[1]
وقد لبسَتْ لُبْسَ الهلوك ثيابَها تَراءَى لك الدنيا بكَفٍّ ومِعْصم[2]
وتُومِضُ أحياناً بعْينٍ مريضةٍ وتَبسمُ عن مثْلِ الجُمَانِ المنظَّم
فأَعرَضْتَ عنها مُشْمَئزاً كأنّما سَقتْك مَدُوفاً من سَمامٍ وعَلْقَم[3]
وقد كُنتَ من أَجْبالها في مُمَنَّعٍ ومن بَحرِها في مُزْبِدِ الموج مُفْعَم
وما زلْتَ تَواقاً إلى كلِّ غايةٍ بَلَغْتَ بها أعْلى البناءِ المُقَوّم
فلما أتاك المُلْكُ عفواً ولم يكن لطالبِ دُنيا بَعدَهُ من تقدُّم
تَركْتَ الذي يَفنى وإن كان مُونقاً وآثَرْتَ ما يَبقى برأيٍ مُصمِّم
وأَضرَرْتَ بالفاني وشَمَّرْتَ للذي أمامَك في يومٍ من الشرِّ مُظْلِم
ومالك إذا كنتَ الخليفةَ مانعٌ سوى اللهِ مِن مالٍ رَغيبٍ ولادِم
سَما لك هَمٌّ في الفؤادِ مُؤَرِّقٌ بَلَغْتَ به أعلى المعالي بُسلَّم
فما بين شرْق الأرضِ والغربِ كُلِّها مُنادٍ يُنادي من فصيحٍ وأَعْجَم
يقولُ أميرَ المؤمنينَ ظلَمْتَني بأخذٍ لدينارٍ ولا أخْذِ درهم
ولا بَسْطَ كَفٍّ لامرئٍ غيْرِ مُجرمٍ ولا السَّفْكِ منه ظالِماً ملءَ مِحْجَم
ولو يَستطيعُ المسلمونَ لقسَّموا لك الشَّطْرُ من أعمارِهِمْ غيْرَ نُدَّم
فأربحْ بها مِن صَفْقَةٍ لِمُبايعٍ وأَعْظِمْ بها أعظِم بها ثم أَعظِم

قال: فأقبل عليّ وقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدّم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد، فقال: قل، ولا تقل إلا حقّاً. فقال:

وما الشِّعرُ إلا حكمةٌ من مُؤلِّفٍ بمنطِقِ حَقٍّ أو بمنطِقِ باطلِ
فلا تقبلَنْ إلاّ الذي وافقَ الرِّضا ولا تَرْجعنَّا كالنِّساءِ الأرامِلِ
رأيناكَ لم تَعدِلْ عن الحقّ مَمنَةً ولا شَأمَةً فعلَ الظَّلومِ المخاتِلِ[4]

(١) الزيغ: الضلال، والأود: الاعوجاج. (٢) الهلوك: البغي.
(٣) مدوفاً: ممزوجاً. (٤) شأمة: يسرةً، والمخاتل، الغادر.

ولكن أَخَذْتَ الحقَّ جُهْدَكَ كلَّه تَقُدُّ مثال الصالحين الأوائلِ
فقلْنا ولم نُكذَبْ بما قد بدا لنا ومَن ذا يُردُّ الحقَّ مِن قول قائلِ
ومَن ذا يَرُدُّ السَّهْمَ بعدَ مَضائِه على فُوقِه إذ عارَ مِن نَزْعِ نابلِ (١)
ولولا الذي قد عَوَّدَتْنا خلائفٌ غَطاريفُ كانوا كاللُّيوثِ البواسلِ
لمَا وخَدَتْ شَهراً برَحْلي شِمِلَّةٌ تَقُدُّ مِتانَ البيدِ بينَ الرَّواحِلِ (٢)
ولكن رَجَوْنا منك مثلَ الذي به حُبِينا زَماناً من ذَويك الأوائلِ
فإن لم يكن للشِّعْر عندَك موْضعٌ وإن كان مثلَ الدُّرِّ في نَظْمِ قائلِ
وكان مُصيباً صادقاً لا يَعيبه سوى أنه يُبنَى بناءَ المنازلِ
فإنّ لنا قُربى ومَحْضَ مَودَّةٍ وميراثَ آباءٍ مشَوْا بالمَناصِلِ
فذَادُوا عدوّ السلْمِ عنْ عُقْرِ دارهم وأرْسَوْا عمودَ الدينِ بعدَ التَّمايُلِ
وقبلَكَ ما أعطَى الهنيدة جلَّةً على الشعرِ كَعْباً مِن سَديس وبازلِ (٣)
رسولُ الإلهِ المُسْتضاءُ بنورِهِ عليه سَلامٌ بالضُّحَى والأصائلِ

فقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد؛ فلم يأذن له، وأمره بالغزو إلى دابق. فخرج إليها وهو محموم. وأمر لي بثلثمائة، وللأحوص بمثلها، ولنُصيب بمائة وخمسين.

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه

ابن الكَلْبي: لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله؛ فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها، وكانت له منه مكانة، فقال جرير:

(١) عار السهم: لم يعرف راميه ومن أين أتى.
(٢) وخدت: أسرعت، وشمّلة: الناقة السريعة.
(٣) السديس: ما دخل في السنّة الثامنة والبازل: الذي فطر نابه وانشق وذلك في السنّة التاسعة.

يـأيها الرَّجُـلُ المُرْخـي عمامتـه ... هذا زمـانُـكَ إنيّ قـد مَضى زَمَني
أَبْلِـغ خَلِيفتَنـا إن كنـتَ لاقِيَـهُ ... أني لَدي الباب كالمصفودِ في قَـرَن [1]
وحْش المَكانةِ من أهلي ومن ولَـدي ... نائي المحَلَّةِ عن داري وعـن وطني

قال: نعم أبا حَزْرة ونُعْمَى عين. فلما دخل على عمر قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك؛ وأقوالهم باقية؛ وسنانهم مسنونة. قال: يا عون، مالي وللشعراء؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن النبي ﷺ قد مُدح وأعطى، وفيه أُسوة لكل مُسلم. قال: ومن مدَحه؟ قال: عباس بن مرداس؛ فكساه حُلَّة قَطَع بها لسانه. قال: وتَرْوِي قوله؟ قلتُ: نعم:

رأيتُـك يـا خَيْـرَ البَـرِيَّـة كلِّهـا ... نَشَرْتَ كتـابـاً جـاءَ بـالحقِّ مُعْلما
ونَوَّرْت بالبرهانِ أمـراً مُـدَمَّسـاً ... وأطفأتَ بالبرهانِ ناراً مُضرَّمـا [2]
فَمَـنْ مُبلـغٌ عنيّ النبيَّ مُحمـداً ... كلُّ امـريءٍ يُجـزي بما قـد تَكلما
تعالىَ عُلـواً فـوْقَ عَـرشٍ إلهُنـا ... وكـان مكـانُ اللهِ أعْلى وأعْظَما

قال: صدقت؛ فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة. قال: لا قرَّب الله قرابته، ولا حيّا وجهه! أليس هو القائل؟

ألا ليت أنِّي يـومَ حـانـتْ منِيَّتي ... شَمِمْتُ الذي ما بين عينيكِ والفَـم
وليت طَهوري كـان رِيقَـكِ كلْـه ... وليت حَنوطي من مُشَاشِكِ والدم [3]
ويا ليت سَلْمى في القبـورِ ضَجيعتي ... هنـالِـكَ أو في جنـةٍ أو جهنّـم

فليته والله تمنى لقاءها في الدنيا، ويعمل عملا صالحا. والله لا دخل عليّ أبداً فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جميل بن معمر العذري. قال: هو الذي يقول:

ألا لَيْتنـا نَحْيـا جميعـاً وإنْ نَمُـتْ ... يُوافي لدَى المَوْتَى ضريحي ضريحُهـا

(١) المصفود في قرن: المقيّد بالقيود.
(٢) مدمّساً: مظلماً ومضرّماً: موقداً.
(٣) الحنوط: ما يحنّط به الميت والمشاشة: رأس العظم اللين الذي يمكن مضغُه.

فما أنا في طـول الحيـاةِ بـراغِـبٍ إذا قيل قد سُوِّى عليها صفيحُهـا
أظَـلُّ نَهـارِي لا أراهـا ويَلْتَقــي مع الليلِ رَوحي في المنامِ ورَوحَها

آعزُب به، فوالله لا دَخَل عليّ أبدا . فَمَنْ غير مَنْ ذكرْت؟ قلت: كُثير عزة . قال: هو الذي يقول:

رُهبان مَـدْيَـن والذيـن عَهـدْتُهُـمْ يبكون من حـذَرِ العـذابِ قُعـودَا
لو يسمعون كما سمعـتُ حـديثهـا خَـرُّوا لِعَــزَّةَ .راكعين سُجُــودَا

آعزُبْ به . فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأحوص الأنصاري . قال: أبْعَده الله ومحقَه، أليس هو القائل وقد أفسد على رجلٍ من أهل المدينة جاريةً هرب بها منه:

اللهُ بيني وبين سيـــدِهـــا يَفـــرُّ عني بها وأتَّبِـــعُ

آعزب به . فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: همام بن غالب الفرزدق . قال: أليس هو القائل يفخر بالزنا:

هُما دَلّتـاني مـن ثمانينْ قـامـةً كما انْقَضّ بازٍ أقْتمُ الرِّيشِ كاسِرُهْ
فلما استوتْ رِجلايَ في الارضِ قالّتا أحَـيٌّ يُـرجَّـى أم قتيـلٌ نُحَـاذِرُهْ
وأصبحْتُ في القوم الجلوسِ وأصبحت مُغْلَّقـةً دوني عليهـا دَسـاكـرُهْ(١)
فقلتُ ارْفعوا الأسبابَ لا يشعُروا بِنـا ووَلّيْتُ في أعقـابِ ليـلٍ أُبـادِرُهْ

اعزب به . فوالله لا دَخَلَ عليّ أبدا ، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأخطل التغلبي . قال: أليس هو القائل:

فلســتُ بصـــائمٍ عُمـــري ولسـتُ بـآكـلٍ لحمَ الأضاحـي
ولسـت بـزاجـر عَنْسـاً بُكـوراً إلى بَطْحـاءِ مكّــة للنَّجـاحِ
ولسـتُ بقـائمٍ كـالعَيْـرِ يـدعـو قُبَيْلَ الصبـحِ جـيّ على الفلاحِ
ولكني ســأشربُهــا شَمــولاً وأسجـدُ عنـد مُنبلَـجِ الصبـاحِ

---

(١) الدّساكر: القرى، أو أبنية يتخذها الملوك يكون فيها الشراب واللهو.

أعزب به. فوالله لا وَطِيء لي بِساطاً أبداً وهو كافر؛ فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جرير بن الخَطفي. قال: أليس هو القائل:

لـولا مُـراقبةُ اليعـون أَرَيْنَنـا ... مُقَـلَ المَهَـا وسَــوالفَ الآرام[1]

هـل يَنهَيَنـكَ أَنْ قَتَلـنَ مُـرقَّشـاً ... أوْ مـا فَعَلـنَ بعُـرْوَةَ بن حــزام

ذُمَّ المَنـازلَ بَعْـدَ منزلـةِ اللّـوَى ... والعيشَ بعْـدَ أُولئِــكَ الأقــوام

طرَقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حينَ الزِّيـارةِ فـارجعِـي بسَلام

فإن كان ولا بد فهذا. فأذِن له؛ فخرجتُ إليه فقلت: ادخل أبا حزرة. فدخل وهو يقول:

إنّ الذي بعـــــث النبيّ محمداً ... جعـل الخِلافـة في إمـامٍ عـادِل

وَسِع الخلائـقَ عَـدْلُـهُ ووفـاؤهُ ... حتى ٱرْعَوى وأقـام ميـلَ المائـلِ

واللهُ أنـزل في القـران فـريضـةً ... لٱبن السبيـلِ وللفقير العـائـل

إني لأرجـو منـكَ خيراً عـاجلاً ... والنَّفْسُ مـولعَـةٌ بحبِّ العـاجـلِ

فلما مثل بين يديه قال: ٱتق الله يا جرير ولا تقُل إلا حقا. فأنشأ يقول:

كم بـاليمامـةِ مـن شعثـاءَ أرمَلَـةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ

ممن يَعُـدُّكَ تكفـي فَقْـدَ والِدِه ... كالفَرخِ في العشِّ لم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ

يدعوك دعـوةَ ملهـوفٍ كـأنّ بـه ... خَبْلاً من الجنِّ أو مَسّاً من النَّشَـرِ[2]

خليفَـةَ اللهِ مـاذا تـأمُـرَنّ بنَـا ... لسْنـا إليكـمُ ولا في دارِ مُنْتظـرِ

ما زِلْتُ بعْـدَكَ في هَـمٍ يُـؤرِّقُني ... قد طالَ في الحيِّ إصْعادِي ومُنْحَدري

لا يَنْفَعُ الحاضِرُ المجهُـودُ بـادِينَـا ... ولا يعُـودُ لنـا بـادٍ على حضَـرِ

إنّا لنَرْجُو إذا مـا الغيـثُ أخْلَفنـا ... مِنَ الخليفةِ ما نَـرجُـو مِـنَ المطَـر

نال الخِلافةَ إذ كـانـتْ لـه قَـدَراً ... كما أتـى ربَّـهُ مـوسى على قَـدَرِ

هٰذِي الأراملُ قد قضَّيْتَ حاجَتَهـا ... فمن لِحاجَةِ هذا الأرمَـلِ الذَّكَـرِ

(١) الآرام: الغزلان.

(٢) الخبل: الفساد والجنون، والمسّ: الجنون.

فقال: يا جرير، والله لقد ولَيت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أُم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنها لأحبّ مال إليّ كسبته. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما يسوءُكم! خرجتُ من عند أمير يعطِي الفقراء ويَمْنَعُ الشعراء، وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَـى الشيطـان لا تْستَفِـزُّهُ   وقد كان شيْطانِي من الجنّ راقيـا[1]

وفود نابغة بني جعدة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

الزبير بن بكار قاضي الحرمين، قال: أقحمت السَّنةُ نابغة بني جعدة، فوفد إلى ابن الزّبير، فدخل عليه في المسجد الحرام، ثم أنشده:

حكيْـتَ لنـا الصِّـدِّيـقَ لمّا وليتَنـا   وعُثمان والفاروقَ فـارْتـاحَ مُعْـدِمُ
وسوّيْت بين الناس في الحقّ فاسْتَـوَوْا   فعاد صباحاً حالِكُ الّلـوْن مُظْلِـمُ
أتاكَ أبو ليْلَى يَجُوبُ بـه الدُّجَـى   دُجَى الليلِ جوّابُ الفلاةِ عَثَمْثَـم[2]
لتَجْبُر منْهُ جـانِبـاً زعْـزَعَـتْ بـه   صُرُوفُ الليـالي والزّمـانُ المُصَمِّـمُ

فقال له ابن الزبير: هوِّن عليك أبا ليلى، فالشعر أدنى وسائلك عندنا؛ أما صفوة أموالنا فلآل الزبير، وأما عفْوتُه[3] فإن بني أسد وتيماً تشغلها عنك، ولكنْ لك في مال الله سهمان: سهم برُؤيتك رسولَ الله ﷺ، وسهم بشركتك المسلمين في فيئهم. ثم أخذ بيده ودخل به دار النَّعم، فأعطاه قلائص سبعاً، وجملاً رحيلاً، وأوقر[4] له

---

(١) الرُّقي: كناية عن الشعر، أي كا ينظمه الشعراء من أجل حث الممدوح على العطاء، والرقي: جمع رقية.

(٢) العثمثم: الجمل الشديد.

(٣) عفوة المال: خياره وما صفا منه وكثر.

(٤) أوقر: حمّل وملأ.

الركاب بُرّاً وتمراً وثياباً. فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحَبّ صِرْفاً. فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى! لقد بلغ به الجَهد. قال النابغة: أشهدُ لسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: ما وُلِّيتْ قريش فعدلتْ، واستُرحمت فرحمت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيراً فأنجزت، فأنا والنبيون فُرّاطُ القاصفين.

قال الزبير بن بكار: الفارط: الذي يتقدم إلى الماء يصلح الرِّشاء والدِّلاء والقاصف: الذي يتقدم لشراء الطعام.

وفود أهل الكوفة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

قال: لما قتَل مصعبُ بن الزبير المختارَ بن أبي عُبيد، خرج حاجّاً فقدم على أخيه عبد الله بن الزُّبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق، فقال له: يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق، لم أدع لهم بها نظيراً، لتُعطيهم من هذا المال. قال: جئتَني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله. والله لا فعلت. فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم، قال لهم: يا أهل الكوفة، ودِدْت والله أن لي بكم من أهل الشام صرْفَ الدينار والدرهم، بل لكل عشرة رجلاً. قال عُبيد الله بن ظبيان: أتدري يا أمير المؤمنين ما مَثلنا ومثلك فيما ذكرت؟ قال: وما ذلك؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر من وائل:

عُلّقْتُها عرَضاً وعُلّقتْ رجُلاً ... غيري وعُلّقَ أُخرى غيرَها الرَّجُلُ[1]

أحببناك نحن، وأحببتَ أنت أهلَ الشام، وأحبَّ أهلُ الشام عبدَ الملك.

ثم انصرف القومُ من عنده خائبين. فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب بن الزبير.

---

(١) علّق: أحب، والعرض: الزائل الذي لا يدوم وغير الثابت.

وفود رؤبة على أبي مسلم

الأصمعي قال: حدّثنا رؤبة قال: قدمت على أبي مسلم صاحب الدعوة، فأنشدته، فناداني: يا رؤبة، فنوديتُ له من كل مكان: يا رؤبة! فأجبْتُ:

لبَّيْـــكَ إذ دعـــوْتني لبَّيْكـــا ... أَحْمَـدُ ربّـاً ســاقَني إليْكـــا

الحمْدُ والنِّعْمَةُ في يدَيْكا

قال: بل في يَدَي اللهِ عز وجل. قلت: وأنت لما أنعمتَ حُمِدت. ثم استأذنت في الإنشاد فأذن لي، فأنشدته:

ما زال يأتِـي المُلْـكَ مـن أقطـارِه ... وعـــنْ يمينـــهِ وعـــنْ يســـاره

مُشَمِّـــراً لا يصْطلي بنـــارِهِ ... حتى أقـــرَّ المُلْـــكَ في قـــرارِهِ

فقال: إنك أتيتنا وقد شفّ[1] المال وآستنفضه الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة وهي تافهة يسيرة، ومنك العَوْد وعلينا المعوّل، والدهر أطرقُ مُستتبّ[2]، فلا تُلق بجنبيك الأسدّة[3].

قال: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أحبُّ إليّ من الذي أفادني من ماله.

وفود العتابي على المأمون

الشَّيباني قال: كان كُلثوم العتابي أيام هارون الرشيد في ناحية المأمون، فلما خرج إلى خراسان شيّعه إلى قُومِس حتى وقف على سِنداد كسرى، فلما حاول وداعه قال له المأمون: لا تَدَع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شيء. فلما أفضتْ الخلافة إلى المأمون وفد إليه العتابي زائراً، فحُجِب عنه، فتعرَّض ليحي بن أكثم فقال: أيها القاضي، إن رأيت أن تذكّر بي أمير المؤمنين. فقال له يحي: ما أنا بالحاجب. قال

(١) شفّ المال: قلّ ونزر.

(٢) الأطرق: الضعيف، والمستتب: الذليل.

(٣) أي لا يضيقن صدرك فتسكت كمت به صمم وبكم.

له: قد علمتُ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان. فدخل على المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، أجِرْني من العتابي ولسانه فلم يأذن له وشُغِل عنه، فلما رأى العتابي جفاءه قد تمادى. كتب إليه:

ما علَى ذا كُنا افتَرقنا بسنْدا   دَ ولا هكـذا رأينـا الإخـاءَ
لم أكـن أحْسـبُ الخِلافـةَ يَـزْدا   دُ بها ذو الصفـاءِ إلا صَفـاءَ
تَضـرِبُ النـاسَ بـالمُثقَّفَـةِ السُّمْـ   ـرِ على غَـدْرِهِـمْ وتَنْسى الوفـاءَ

فلما قرأ أبياته دعا به، فلما دنا منه سلَّم بالخلافة ووقف بين يديه، فقال: يا عتابي، بلغتْنا وفاتُك فغمّتْنا، ثم انتهت إلينا وفادتُك فسرَّتنا. فقال: يا أمير المؤمنين، لو قُسم هذا البرُّ على أهل منى وعرفات لوسِعَهم؛ فإنه لا دين إلا بك، ولا دُنيا إلا معك! قال: سل حاجتك. قال: يدُك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة فأحسن جائزته. وانصرف.

وفود أبي عثمان المازني على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال: وفدت على الواثق، فلما دخلت وسلمت قال:

هل خلّيتَ وراءك أحداً يُهمك أمرُه؟ قلت أُخَيّة لي ربّيتُها فكأنها بنتي. قال: ليت شعري. ما قالت حين فارقتَها؟ قال: أنشدتْني قول الأعشى:

تقـول ابنتي يـوْمَ جَـدّ الرحيـلُ   أرانـا سَـواءً ومَـن قـد يَتِـمْ
أبـانـا، فلا رمْـتَ مـن عنـدِنـا   فـإنـا نخافُ بـأن تُختَـرَمْ[1]
أرانـا إذا أَضْمَـرَتْـك البِلا   دُ نُجفَـى وتُقْطَعُ مِنّا الرَّحِـمْ[2]

قال: ليت شعري، ما قلتَ لها؟ قال: أنشدتها يا أمير المؤمنين قولَ جرير:

ثِقـي بـاللهِ ليس لـه شريـكٌ   ومـن عنـدِ الخليفـةِ بـالنَّجـاحِ

---

(١) تخترم: تموت.   (٢) أضمرتك: غيّبتك.

قال: أتاك النجاح. وأمر له بعشرة آلاف درهم. ثم قال: حدِّثني حديثاً تَرويه عن أبي مهديّة مُستطرَفاً. قلت: يا أمير المؤمنين، حدّثني الأصمعي قال: قال لي أبو مهدية: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواءٌ في الهجاء. قلت: نعم. قال: فاقرأ: ﴿الأعرابُ أَشَدُ كُفْراً ونِفاقاً﴾ ولا تقرأ: الأعراب، ولا يغرَّنْكَ العَزَب وإن صام وصلى! فضحك الواثق حتى شغر برجله[1]، وقال: لقد لقي أبو مهدية من العزْبَة شراً. وأمر لي بخمسمائة دينار.

الوافدات على معاوية

وفود سودة ابنة عمارة على معاوية

عامر الشعبي قال: وفدت سودةُ بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه فأذِن لها، فلما دخلت عليه سلّمت عليه، فقال لها: كيف أنتِ يا بنةَ الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شَمِّرْ كفعْلِ أبيك يا بن عِمارةٍ ... يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقرانِ
وانصُر علياً والحسيْن ورَهطَه ... واقصِدْ لهِندٍ وابنِها بهَوانِ
إنّ الإمامَ أخا النبيِّ محمدٍ ... عَلَمُ الهدَى ومنارة الإيمانِ
فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائه ... قدُماً بأبيَض صارم وسِنانِ

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِر الذنب؛ فدَعْ عنك تَذْكارَ ما قد نُسِي. قال: هيهات، ليس مثلُ مقامِ أخيكِ يُنْسى. قالت: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفيَّ المَقام، ذليلَ المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإنّ صخراً لَتأْتَمُّ الْهُداةُ بِهِ ... كأنّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ

وبالله أسألُ يا أميرَ المؤمنين إعفائي مما استعفيتُه. قال: قد فعلتُ، فقولي حاجتَك. قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورِهم مقلَّد، والله سائلُك

---

(١) شغر برجله: رفعها وحرّكها.

عما افترض عليك من حقّنا ، ولا تـزال تُقْـدِم علينـا مَـن ينهـض بعـزّك ، ويَبسـط سلطانَك ، فيحصدنا حِصادَ السُّنْبل ، ويدوسنا دِياس البقر ، ويسومنا الخَسيسة ، ويسألنا الجليلة ؛ هذا ابنُ أرطاةَ قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعةُ لكان فينا عِزٌّ ومَنَعة ، فإما عزلتَه فشكرناك ، وإما لا فعَرَفناك !

فقال معاوية : إياي تُهَدِّدين بقومك ؟ والله لقد هممتُ أن أردَّك إليه على قَتَب[1] أشرسَ فينفِّذَ حُكمَه فيك . فسكتت ، ثم قالت :

صلّـى الإلـهُ على رُوحٍ تَضمَّنَـهُ ... قبرٌ فأصبحَ فيه العَـدْلُ مـدْفـونـا
قد حالَفَ الحقّ لا يَبغِـي بـه ثمنـاً ... فصـار بـالحقِّ والإيمانِ مقْـرُونـا

قال : ومَن ذلك ؟ قالت : علّي بن أبي طالب رحمه الله تعالى . قال : ما أرى عليك منه أثراً ! قالت : بلى ، أتيتُه يوماً في رجُل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغثّ[2] والسمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف : ألِك حاجة ؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل . فبكى ، ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني لم آمرهم بظُلم خلْقك ، ولا تَرْك حقّك . ثم أخرج من جيبه قطعةً من جراب فكتب فيه :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين ، بقِيةُ اللهِ خَيْرٌ لكُمْ إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾[3] . إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك . والسلام .

فعزله يا أمير المؤمنين . ما خَزَمَه بِخزام[4] ، ولا خَتَمه بِختام .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها . فقالت : أَلِي خاصَّةً أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيرك ؟ قالت : هي والله إذاً الفحشاءُ واللؤم ، إن لم

---

(١) القتب : الرحل الصغير على قدر سنام البعير .
(٢) الغثّ : الرديء الفاسد . (٣) سورة هود الآية ٨٥ .
(٤) خزمه : شكّه وثقبه ، أي أقفله .

يكن عدلاً شاملاً، وإلا يَسَعني ما يَسعُ قومي. قال: هيهات! لَمَّظَكُم[1] ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تُفْطمون، وغركم قوله:

فلو كنت بـوَّابـاً على بـابِ جَنَّـةٍ لقُلْـت لَهَمْـدانَ ادخُلـوا بسَلامِ

وقوله:

ناديْت هَمْـدانَ والأبـواب مُغْلَقـةٌ ومثْلُ هَمْدانَ سَنَّى فتحةَ البـاب[2]
كـالْهنْـدُوانيّ لم تُفلـلْ مضـارِبُـه وجهٌ جميلٌ وقلْبٌ غيْـرُ وجَّـابِ[3]

اكتبوا لها بحاجتها.

وفود بكارة الهلالية على معاوية

محمد بن عبد الله الخُزاعي عن الشَّعبي قال: استأذنت بكارةُ الهِلاليةُ على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، وهو يومئذ بالمدينة، فدخلت عليه، وكانت آمرأة قد أسَنَّتْ وعَشي[4] بصَرُها وضعُفت قُوتها، تَرْعَش بين خادمين لها؛ فسلّمت وجلست. فردّ عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال: غيّرك الدهر! قالت. كذلك هو ذو غِيَر، من عاش كبِر ومن مات قُبِر. قال عمرو ابن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيدُ دونكَ فاستشر[5] مِنْ دارنـا سيفـاً حُسـامـاً في التُّـرابِ دفينـا
قد كنـتُ أَدْخَـرُهُ لِيَـوْمِ كَـريهةٍ فـاليـومَ أبـرَزَهُ الزمـان مَصـونـا

قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أتُرى ابن هنْـدٍ للخلافـةِ مـالِكـاً هيهـــات ذاكَ وإنْ أرادَ بَعيـــدُ

---

(١) لمظكم: ذوّقكم، وعوّدكم وعلّمكم.
(٢) سنّى: سهّل.
(٣) الهندواني: السيف، ووجّاب: خائفٍ متهيّب.
(٤) عشي بصرها: ضعف.
(٥) في بعض الأصول: «فاحتفر».

مَنَّتْـكَ نفسُـكَ في الخلاءِ ضلالـةً   أغْـراك عمـرو للشّقـا وسعيـدٌ

قال سعيد بن العاصي: هي والله القائلة:

قد كنتُ أَطْمَعُ أنْ أموتَ ولا أرَى   فوقَ المنـابـرِ مِـنْ أُمَيَّـة خـاطِبـا
فـالله أخّـرَ مُـدّتي فتطـاولـتْ   حتى رأيتُ مِـنَ الزمـانِ عجـائبـا
في كلِّ يـومٍ للـزمـانِ خَطِيبُهُـمْ   بينَ الجميعِ لآلِ أحمدَ عـائبـا

ثم سكتوا. فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري وقصَّر حُجَّتي، أنا والله قائلة ما قالوا، وما خَفِي عليك مني أكثر. فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من بِرِّك. اذكري حاجتك قالت: أمَّا الآن فلا.

وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغسّاني عن الشَّعبي قال: حدّثني جماعة من بني أُمية ممن كان يسْمُر مع معاوية قالوا: بينما معاوية ذات ليلة مع عمرٍو وسَعيد وعُتبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء ابنة عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شَهِدت مع قومها صِفِّين، فقال: أيُّكم يحفظ كلامَها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين. قال: فأشيروا عليّ في أمرها. فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها. قال: بئس الرأي أشرْتُم به عَلَيّ؛ أيَحسُنُ بمثلي أن يُتحدَّثَ عنه أنه قَتل امرأةً بعد ما ظَفِر بها.

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوي محارمِها وعِدّةٍ من فُرسان قومِها، وأن يُمهّد لها وطاءً لينا، ويسترَها بستر خَصِيف[1]، ويُوسِّع لها في النفقة؛ فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب، فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيارَ إليّ فإني لا آتيه، وإن كان حَتَم فالطاعة أوْلى. فحمَلها وأحسنَ جهازَها على ما أُمر به.

(١) الخصيف: الغليظ.

فلما دخلت على معاوية قال: مرحباً وأهلاً، قدمتِ خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَه وافد! كيف حالك؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة.

قال: كيف كنتِ في مَسيرِك؟ قالت: ربيبةَ بيت أو طفلاً مُمهداً.

قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيم بعثتُ إليك؟ قالت: أنى لي بعلم ما لم أعلم. قال: ألستِ الراكبةَ الجملَ الأحمر، والواقفة بين الصفَّين يوم صفين تَحُضِّين على القتال وتوقدين الحرب؟ فما حَمَلَك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِر الذنب، ولم يَعُدْ ما ذَهَب، والدهر ذو غِيَر، ومن تَفكر أبصر، والأمر يَحْدُث بعده الأمر.

قال لها معاوية: صدقت، أتحفظين كلامك يومئذ؟

قالت: لا والله لا أحفظه، ولقد أُنْسِيتُه.

قال: لكني أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارْعَوُوا وارجعوا، إنكم قد أصبحتم في فتنة غَشَّتْكم[1] جلابيبَ الظُّلَم، وجارتْ بكم عن قصد المَحَجَّة، فيالها فتنةً عمياءَ، صمّاء بكماء، لا تَسمع لناعقِها، ولا تنساق لقائِدها، إن المصباح لا يُضيء في الشمس، ولا تُنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد، ألا مَن استرشدَنا أرشدناه، ومن سألَنا أخبرْناه. أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص، فكأنْ قد اندملَ شَعْبُ الشّتات[2]، والتأمت كلمةُ العدل، ودمَغَ الحقُّ باطله؛ فلا يجهلنَّ أحدٌ فيقول: كيف العدل وأنّى؟ ليَقْضِ الله أمراً كان مفعولاً. ألاَ وإنّ خضابَ النساءِ الحِنّاء، وخضابَ الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده:

والصبرُ خيرٌ في الأمورِ عواقباً

---

(١) غشّتكم: ألبستكم. (٢) الشتات: الفرقة.

إيهاً في الحرب قُدُماً غير ناكصين[1] ولا متشاكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شَركت عليا في كل دمٍ سَفكَهُ.

قالت: أَحسنَ اللهُ بشارتَك، وأدام سلامتَك؛ فمثلُك بَشَّر بخيرٍ وسَرَّ جليسَه.

قال أو يَسُرُّك ذلك؟ قالت: نعم والله، لقد سُررت بالخبر فأنّي لي بتصديق الفعل.

فضحك معاوية وقال: والله لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ من حُبكم له في حياته. اذكري حاجتك.

قالت يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألاّ أسألَ أميراً أعَنتُ عليه أبداً، ومثلُكَ أَعطى عن غير مسألة، وجاد عن غير طِلْبة.

قال: صدقت! وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسا.

وفود أم سنان بنت خيثمة

على معاوية رحمه الله

سعيد بن حُذافة قال: حبَس مروانُ بن الحكم هو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها، فأتته جدةُ الغلام أمُّ أبيه، وهي أم سنان بنت خَيثمة بن خرشة المذحِجية، فكلّمته في الغلام فأغلظ لها مروان. فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها، فقال لها: مَرْحبا يا بنة خيثمة، ما أقْدَمك أرضنا وقد عهدتُك تشتميننا وتَحُضّين علينا عدوَّنا؟ قالت: إن لبنى عبد مناف أخلاقاً طاهرة وأعلاماً ظاهرة وأحلاماً وافرة، لا يجْهلون بعد علم، ولا يسْفَهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سنَّ آباؤه لأنت. قال: صدقت! نحن كذلك، فكيف قولك:

عـزبَ الرُّقـادُ فُمقْلتي لا تَـرْقُـدُ ... والليْلُ يصْـدِرُ بـالهُمـومِ ويُـورِدُ
يا آلَ مَـذْحِـجَ لا مُقَـامَ فشَمِّـرُوا ... إنّ العـدُوَّ لآلِ أحْمـدَ يقْصِـد

(١) ناكصين: فارِّين هاربين.

هــذا عَلِيٌّ كـــالهِلال تَحُفُّـــهُ   وسطَ السَّماءِ مِنَ الكواكِـبِ أسْعُـدُ
خيْـرُ الخَلائـقِ وابنُ عـمِّ مُحَمَّـدٍ   إنْ يَهـدِكمْ بـالنُّـورِ منـه تهتَـدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِـدَ الحُرُوبَ مُظَفَّـراً   والنَّصْـرُ فـوْق لِـوَائِـه مـا يفْقَـدُ

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلَفا بعده فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين وهي القائلة:

إمّا هَلكْت أبَـا الحُسَيْـن فلم تَـزلْ   بـالحقِّ تُعْـرَفُ هـادِيـاً مهـدِيَّـاً
فاذْهبْ عليْك صلاةُ ربِّك ما دعـتْ   فـوقَ الغُصُـونِ حمامـةٌ قُمـرِيَّـا
قد كُنْتَ بعْدَ مُحَمّدٍ خلفـاً كمَـا   أوْصَـى إليـكَ بنَـا فكنْـتَ وفيَّـا
فـاليـوْمَ لا خَلَـفٌ يُـؤَمَّـلُ بعْـدَهُ   هيْهـات نـأْمُـلُ بعـدَهُ إنْسِيَّـا

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطَق، وقول صَدَق؛ ولئن تحقق فيك ما ظننَّا فحظك الأوفر. والله ورَّثك الشَّنَآن[1] في قلوب المسلمين إلاّ هؤلاء. فأدْحِضْ[2] مقالتَهُم، وأبعِد منزلتهم، فإنك إن فعلتَ ذلك تزددْ من الله قُرباً، ومن المؤمنين حُباً. قال: وإنك لتقولين ذلك؟ قالت سبحان الله! والله ما مِثلُك مُدح بباطل. ولا اعتُذِر إليه بكذب؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضميرِ قلوبنا. كان والله عليٌّ أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم وسعيد ابن العاص. قال: وبِمَ استحققْتُ ذلك عندك؟ قالت: بسعَةِ حلمك وكريم عفوك. قال: فإنهما يطمعان في ذلك. قالت: هما والله من الرأي على ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله. قال: والله لقد قاربْتِ، فما حاجتك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إن مروان تبَنَّكَ[3] بالمدينة تبنُّكَ مَن لا يريد منها البَراح، لا يحكم بعدل، ولا يقضي بسُنّة، يتتبع عثراتِ المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين، حبس ابنَ ابني، فأتيته، فقال كيت وكيت فألقَمْتُهُ أخْشَنَ من الحجر،

---

(١) الشنآن: البغض.   (٢) أو حض: إدفع وأبعد وسفّه
(٣) تبنّك: أقام.

وألعقته أمرَّ من الصَّاب ثم رجعتُ إلى نفسي باللائمة، وقلت: لِمَ لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه؟ فأتيتُك يا أميرَ المؤمنين، لتكون في أمري ناظراً، وعليه مُعْدِياً.

قال: صدقت! لا أسألِك عن ذنبه والقيام بحجته. اكتبوا لها باطلاقه.

قالت: يا أمير المؤمنين؛ وأنَّى لي بالرجعة وقد نفِد زادي، وكلَّت راحلتي؟ فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم.

وفود عكرشة بنت الأطرش

على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكرُ الهذلي عن عِكرمة قال: دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكِّئة على عُكاز لها، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشةُ صرتُ عندك أميرَ المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا عليٌّ حيٌّ قال: ألست المقلّدة حمائل السيوف بصِفِّين، وأنت واقفة بين الصّفين تقولين: أيها الناس، عليْكُمْ أنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلّ إذا اهْتَدَيْتمْ إن الجنةَ لا يرحل عنها من أُوطنَها، ولا يَهرم من سَكنها، ولا يموت من دخلها؛ فابتاعوها بدارٍ لا يدوم نعيمُها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلفَ[1] إليكم بعُجم العرب غُلفِ[2] القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يَدْرُون ما الحِكمة؛ دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه، فاللهَ اللهَ عبادَ اللهِ في دين الله؛ إياكم والتواكلَ، فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام، ويطفيءُ نور الحق هذه بَدْرٌ الصغرى، والعقبةُ الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة تصْقَع[3] صَقَع البقر، وتَرُوث رَوْثَ العتاق.

(١) دلف إليكم: مشى.

(٢) غلف القلوب: أي على قلوبهم أكفّة لا يفقهون ولا يسمعون.

(٣) تصقع: تخلّف الرائحة الكريهة.

فكأني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة. فإن كدتِ لتقتلين أهل الشام لولا قدَر الله، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً، فما حَمَلك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ [1] وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته، قال: صدقت، فاذكري حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تُؤْخذ من أغنيائنا فتردُّ على فقرائنا؛ وإنّا قد فقدنا ذلك، فما يُجْبر لنا كسير؛ ولا يُنْعَش لنا فقير؛ فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبَّه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك استعان بالخونة ولا استعمل الظّلمة.

قال معاوية: يا هذه، إنه ينُوبُنا من أمور رعيّتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهق [2]. قالت: يا سبحان الله. واللهِ ما فرض اللهُ لنا حقاً فجعلَ فيه ضرراً على غيرنا، وهو علام الغيوب.

قال معاوية: يا أهل العراق، نبَّهكم عليٌّ بن أبي طالب فلم تُطاقوا! ثم أمر بردِّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

قصة دارمية الحَجونية
مع معاوية رحمه الله تعالى

سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال: حج معاوية، فسأله عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحَجُون، يقال له دارِمية الحجونية؛ وكانت سوداءَ كثيرة اللحم، فأُخبر بسلامتها؛ فبعث إليها فجيء بها؛ فقال: ما حالكِ يا بنةَ حام؟ فقالت: لست لِحَامٍ إن عِبتْني؛ أنا امرأة من بني كِنانة. قال: صدقت. أتدرين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيبَ إلا الله. قال: بعثت إليك لأسألك: علامَ أحببت عَلِياً وأبغضتنِي؛ وواليتهِ وعاديتني؟ قالت: أو تُعفني. قال: لا أعفيك. قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببتُ عليّا على عدله في الرعية، وقَسْمه بالسويّة؛ وأبغضتُك على قتال

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠١.
(٢) تنفهق: تتدفّق وتتفجرّ.

مَن هو أولى منك بالأمر، وطِلْبَتَك ما ليس لك بحق. وواليت عليّا على ما عَقَد له رسولُ الله ﷺ من الولاء، وحبِّه المساكين. وإعظامِه لأهل الدين. وعاديتك على سفكك الدماء، وجوْرِك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بَطْنُك، وعظُم ثَدْياك، ورَبتْ عجيزتُك[1]، قالت: يا هذا، بهند واللهِ كان يُضرب المثلُ في ذلك لا بي. قال معاوية: يا هذه ارْبَعي[2]، فإنا لم نقل إلا خيرا؛ إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدِها، وإذا عظم ثدياها تَرَوَّى رَضيعُها. وإذا عظمت عجيزتها رَزُن مجلسها. فرجعتْ وسكنتْ. قال لها: ويا هذه، هل رأيتِ عليا؟ قالت: إي والله. قال: فيكيف رأيتهِ؟ قال: رأيته والله لم يفتنه الملكُ الذي فتنك، ولم تشغله النعمةُ التي شغلتك. قال: فهل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيتُ صدأ الطَّسْت. قال: صدقتِ! فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعلُ إذا سألتُك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذو بألبانها الصِّغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأُصلح بها بين العشائر.

قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحُلُّ عندك محل علي بن أبي طالب؟

قالت: ماءٌ ولا كصَدّاء[3]، ومرْعَى ولا كالسّعْدان[4]، وفتًى ولا كمالِك، يا سبحان الله، أوَ دُونَه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعُدْ بـالحِلْـمِ منِّـي عليكـمُ فَمنْ ذا الذي بَعدي يُؤمَّلُ للحِلْـمِ
خُذيها هنيئاً واذكري فِعل ماجـدٍ جَزاكِ على حَرْبِ العداوةِ بالسلْمِ

ثم قال: أما والله لو كان عليٌّ حيا ما أعطاك منها شيئا.

قالت: لا والله، ولا وَبَرَةً واحدةً من مال المسلمين.

---

(١) ربت عجيزتك: عظمت وكبرت.
(٢) اربعي: تمهّلي وانتظري.
(٣) صدّاء: عينٌ لم يكن عندهم أعذب من مائها.
(٤) السّعدان: نبتٌ ذو شوك، وهو أفضل مراعي الإبل.

وفود أم الخير بنت حريش على معاوية

عُبيد الله بن عمر الغَساني عن الشعبي، قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحُريش بن سُراقة البارقي برحْلها، وأعلمه أنه مُجازيه بالخير خيرا وبالشر شراً بقولها فيه، فلما ورد عليه كتابهُ ركب إليها فأقرأها كتابَه؛ فقالت: أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعة، ولا معتّلة بكذب، ولقد كنت أُحبّ لقاءَ أمير المؤمنين لأمور تَختلج في صدري.

فلما شيّعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أُم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه مُجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً؛ فمالي عندك؟ قالت: يا هذا لا يُطْمِعنْك بِرُّك بي أن أسُرك بباطل. ولا تُؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق.

فسارت خيرَ مَسير حتى قدمت على معاوية. فأنزلها مع الحرَم؛ ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه؛ فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير، بحقّ ما دعوتِني بهذا الاسم. قالت: يا أمير المؤمنين، مَهْ، فإن بديهة السلطان مَدْحَضَةٌ لما يُحب عِلمه، ولكلٍّ أجل كتاب. قال: صدقتِ! فكيف حالُكِ يا خالة؟ وكيف كنتِ في مَسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خيرٍ وعافيةٍ حتى صرتُ إليك؛ فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق. قال معاوية: بحُسْن نيتي ظفِرتُ بكم. قالت: يا أمير المؤمنين، يُعيذك الله من دَحْض المقال وما تُرْدِي عاقبتهُ. قال: ليس هذا أردنا. أخبرينا كيف كان كلامُك إذ قُتل عمارُ بن ياسر؟ قالت: لم أكن زَوّرْتُهُ[1] قبل، ولا روّيتهُ بعد؛ وإنما كانت كلمات نَفَثها لساني عند الصدمة؛ فإن أحببتَ أن أُحدث لك مقالا غير ذلك فَعَلْت. فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال: أيكم يحفظ كلامَها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعضَ كلامها يا أمير المؤمنين. قال: هات. قال: كأني بها وعليها بُرد زَبيديّ كثيف بين النسيج، وهي على جَمل أرمَك[2] وقد أُحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالفحل يهدِر في شِقْشِقته[3]، تقول:

---

(١) زوّرته: حسّنته

(٢) الأرمك: رماديّ اللون.

(٣) الشقشقة: صوت الجمل.

يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم، إنَّ زَلْزلَةَ السَّاعةِ شَيءٌ عَظِيمٌ! إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبانَ الدليل، وبين السبيل، ورفع العَلَمَ، ولم يَدَعْكم في عماء مُدْلَهِمة: فأين تريدون رحِمكم الله؟ أفِراراً عن أمير المؤمنين، أو فِراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: ﴿ولنَبْلُونَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أَخْبارَكُمْ﴾[1].

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيلَ الصبر، وضَعفَ اليقين، وانتشرت الرعبة، وبيدك يا ربّ أزمّة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوبَ على الهدى، واردد الحق إلى أهله. هَلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضيّ التقيّ، والصديق الأكبر؛ إنها إحَنٌ بَدْرية، وأحقادٌ جاهلية، وضغائن أُحُدية وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثاراتِ بني عبد شمس.

ثم قالت: ﴿فقاتِلوا أئِمَةَ الكُفْرِ إنَّهُمْ لا أيْمَانَ لَهُمْ لعَلهُمْ يَنْتَهون﴾[2]. صبراً يا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم؛ فكأني بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كحُمُر مستنفِرة، فرَّتْ من قَسْوَرة[3]، لا تَدري أين يُسْلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتَروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرةَ بالعَمَى وعما قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادمين، حتى تَحُلَّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص. إنه من ضلّ والله عن الحق وَقَع في الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمرَ الدنيا فرفَضُوها، واستطابوا الآخرة فسَعوا لها فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطلَ الحقوق، وتعطَّلَ الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمةُ الشيطان؛ فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأبي سِبْطيه، خُلِق من طينته، وتفرّع من نبعته[4]، وخَصَّه بسرِّه، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين؛ ها هو ذا مُفَلِق الهام، ومكسِّر الأصنام؛ صلى

---

(١) سورة محمد الآية ٣١.
(٢) سورة التوبة الآية ١٢.
(٣) القسورة: الأسود.
(٤) النبعة: الأصل والشجرة.

والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قَتل مُبارِزي بدر، وأفنى أهلَ أُحد، وهَزم الأحزاب، وقَتل الله به أهلَ خيبر، وفرّق به جمع هوازن؛ فيالها من وقائع زرعت في قلوبِ نفاقا، وردّة وشقاقا، وزادت المؤمنين إيمانا، وقد اجتهدتُ في القول؛ وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردتِ بهذا الكلام الا قتلي، ولو قتلتُكِ ما حَرِجْتُ في ذلك.

قالت: والله ما يسوءُني أن يَجْرِيَ قتلي علي يدَيْ من يُسْعِدُني الله بشقائه.

قال: : هيهات يا كثيرةَ الفُضول. ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟

قالت: وما عسيتُ أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون.

قال معاوية: يا أم الخير؛ هذا أصلك الذي تَبنين[1].

قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا؛ ما أردتُ بعثمان نقصا، ولكن كان سابقاً إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غدا.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ آغتيلَ من مأمنِه، وأُتي من حيث لم يحْذَر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة.

قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريّه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وقد كان سبَّاقا إلى كلْ مكرمة في الإسلام، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية، فإنّ قريشاً تحدّثت أنك أحلمُها: أن تسعني بفضل حلمك، وأن تُعفيني من هذه المسائل، وتسألني عما شئت من غيرها.

قال نعَم ونِعمَة عَيْن، قد أعفيتُك منها. ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردّها مكرمة.

(١) في بعض الأصول: هذا ثناؤك الذي تثنين، يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الأصل الذي بنت عليه.

وفود أروى بنت عبد المطلب

علي معاوية رحمه الله

العباس بن بكار قال: حدّثني عبدالله بن سليمان المَدني وأبو بكر الهُذلي، أن أَرْوَى بنتَ الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة؛ فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلا يا عمة، فكيف كنتِ بعدنا؟

فقالت: يا بن أخي، لقد كفرتَ يدَ النعمة، وأسأتَ لابن عمك الصحبة، وتسمَّيت بغير آسمك، وأخذتَ غيرَ حقك، مِن غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقةٍ في الإسلام، بعد أن كفرتُم برسول الله ﷺ، فأتعسَ اللهُ منكم الجدود[1]، وأضرَعَ[2] منكم الخدود، وردَّ الحقَّ إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا ﷺ هو المنصور، فوُلِّيتمُ علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ ونحن أقربُ إليه منكم وأولى بهذا الأمر؛ فكُنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتُنا الجنة وغايتكم النار.

فقال لها عمرو بن العاص: كفَى أيتُها العجوز الضالة، وأقصري عن قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك.

فقالت له وأنت يا بن النباغة[3] تتكلم! وأمك كانت أشهر آمرأة تُغَنى بمكة، وآخَذَهن لأجرة! اربَعْ على ظَلْعِك، واعْنَ بشأن نفسك؛ فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم مَنْصِبها؛ ولقد ادعاك خمسةُ نفر من قريش، [كلهم يزعم أنه أبوك] فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبهَهُم به فألحِقوه به، فغلب عليك شَبَهُ العاص بن وائل فلحِقْتَ به.

---

(١) الجدود: الخطوط. (٢) وأضرع: أذلّ.

(٣) النباغة: الزانية.

فقال مروان: كفَى أيتها العجوز، وأقصدي لما جئتِ له. فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم!

ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرّأ عليّ هؤلاء غيرُك، وإن أمك القائلةُ في قتل حمزة:

نحن جَـزيْنـاكم بيـوم بـدرِ والحرب بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْـرِ

ما كان لي عن عُتْبةٍ مِن صَبْـرِ فشُكـرُ وحْشِـيٍّ على دَهـرِي

حتى تَرِمّ أعظُمْي في قبري[1]

فأجابتها بنتُ عمي وهي تقول:

خَزيـتِ في بـدرِ وبعـدَ بـدرِ يـا بنـةَ جبّـارٍ عظيم الكفـر

فقال: معاوية عفا الله عما سلف يا عمة! هاتِ حاجتَك.

قالت: مالي إليك حاجة، وخرجت عنه.

تم الجزء الأوّل بعون الله وتوفيقه

ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثاني

وأوّله: «كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك»

---

(١) ترم: تبلى.

فهـــرس

الصفحة الموضوع الصفحة الموضوع

الصفحة　الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع